مجموع كتب ورسائل وفتاوى

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقاً

الطبعة الشرعية الوحيدة

بإذن المؤلف

المجلد الرابع

دار الإمام أحمد

ع

٤

دار الإمام أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الإحسان[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

يستهدف الإسلام أن يطبع حياة المسلمين بالطابع الجميل أن يسود الحياة الإسلامية، وأن يجللها جوٌّ من الإحسان الشامل بكل أبعاده وآفاقه.

أن يعم الإحسان كل عمل وكل تصرف وكل قول على كل المستويات الفردية والجماعية، وعلى مستوى الدولة والأمة في علاقة الفرد بخالقه وأسرته والمجتمع الذي يعيش فيه، وعلاقة الأمة بالفرد، وعلاقة الدولة بالأفراد والجماعات في العلاقة بالله.

فالمسلم حينما يؤدي حقًّا من حقوق الله في أي مجال من المجالات لاسيما مجالات العبادة فليؤدها وهو يتمثل فيها رؤية الله كأنما يرى الله ويشاهده، وإذا لم يصل إلى هذا المستوى فليستشعر أن الله يراه.

وهذا الشعور أو ذاك سيدفعانه إلى إجادة العمل الذي يؤديه وإحسانه وإتقانه.

والأمة الإسلامية بكاملها عليها أن تستشعر هذا الشعور: «اعبد الله كأنك

---

(١) مقال نشر في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد (١٥)، في محرم ١٣٩٢هـ، في (ص١١٦)

تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وفي علاقة المرء بأسرته ومجتمعه عليه أن تقوم معاملته إياهم وترتكز على أساس الإحسان.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

فلو أن الأمة الإسلامية طبقت هذه التعاليم في حياتها، وكل فرد في الأمة الإسلامية عمل على تنفيذ هذا المبدأ: مبدأ الإحسان، وجعل أسرته نقطة انطلاق لهذا الإحسان -بعد إحسانه في عبادة الله- الإحسان بمعناه الشامل في القول والعمل وبالمال والجهد لكانت مضرب الأمثال في السعادة والرقي والسيادة.

وفي علاقة الأفراد والمجتمعات بعضهم ببعض وعلاقة الحاكمين بالمحكومين يأمر الله بالعدل والإحسان بكل أبعادهما: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

إن الإحسان في نظر الإسلام بالمكانة العالية التي يأخذ الله على الأمة الإسلامية المواثيق الأكيدة في القيام به في جملة التكاليف التي يقوم عليها الإسلام وسعادة الأمة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

إلزام بالإحسان في إطار الأسرة ومحيط المجتمع؛ إحسان في الفعال والمقال.

والإسلام يريد أن يجعل من أخلاق الأمة الإسلامية صورة من أخلاق أهل الجنة:

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣].

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

ورُبَّ فعلة قبيحة أدت إلى عواقب وخيمة مُرَّةَ النتائج .

والخروج بالأقوال والأفعال عن مجال الإحسان إلى مجال الفحش والتفحش يوقع المرء تحت طائلة سخط الله وغضبه الذي لا يطاق : «**إن الله يبغض الفاحش المتفحش**» [أخرجه أحمد] .

فالفاحش كما يقول القرطبي : الذي يتكلم بما يكره سماعه مما يتعلق بالدين ، أو الذي يرسل لسانه بما لا ينبغي، وهو الجفاء في الأقوال والأفعال، والمتفحش : المتعاطي لذلك المستعمل له .

ليست الأماني الكاذبة والمزاعم الباطلة والانتساب إلى دين أو نحلة سبيلًا إلى الجنة ، إنما السبيل الأوحد إلى الجنة : هو الإخلاص في الإسلام والإحسان بمتابعة رسول الله وشريعته الغراء .

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢] .

وإن أردت أن يحبك الله؛ فاتخذ من الإحسان وسيلة تنل تلك الغاية : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] .

وإن كنت متطلعًا إلى الخلود في جنات النعيم والنظر إلى الرب العظيم ؛ فعليك بالإحسان: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: ٢٦] فالحسنى: هي الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الرب الكريم .

ثم الإسلام يريد أن يشمل الإحسان كل ذي كبد رطبة ؛ قال رسول الله ﷺ : «**بينما رجل بطريق فاشتد به العطش ، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفه فسقى الكلب فشكر الله فغفر له . قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجرًا؟! فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر**» .

ترى كيف يعلم الإسلام المؤمنين وكيف يربيهم ويدفع نوازع الخير وعواطف الرحمة إلى الإحسان والبر فتشمل كل ذي كبد رطبة ولو كان خسيسًا في أحط وأدنى

مراتب الحيوانات؟!

بينما نرى في الجانب الآخر يحرم الظلم: **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي؛ فلا تظالموا»**.

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله».

حتى ولو كان كافرًا في ذمة المسلمين فيحرم الإسلام دمه وماله: **«من قتل معاهدًا؛ لم يرح رائحته الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»** [أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم].

وعن ابن عمر: **«من قتل عصفورًا بغير حق سأله الله عنه يوم القيامة»** [صحيح الترغيب والترهيب، للألباني (١٠٩٢)].

«عذبت امرأة هرة حبستها حتى ماتت جوعًا فدخلت فيها النار؛ فلا هي أطعمتها ولا سقتها حين حبستها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض» [أخرجه البخاري ومسلم].

فلا يجيز الإسلام الظلم بداية من الإنسان ونهاية بالطيور والحيوانات التي لا يؤبه لها، فهذه هي الحضارة الراقية التي يحتمى في ظلها آمنًا في كنفها حتى من يعاديها.

والعصفور يُقتل بغير حق يعتبر صاحبه مسئولًا عنه يوم القيامة، وسجن هرة حتى تموت يعذب من سجنها بالنار!! والإحسان يمتد من الإنسان إلى كل ذي كبد رطبة وكل ذي عرق ينبض بالحياة.

فأين الحضارة المادية التي قامت على أساس الكفر والإلحاد وعلى الجشع والطمع فتسحق شعوبًا وأممًا لتستأثر بثرواتها وتبتز خيراتها بعد أن تسلخها من مقومات حياتها الدينية والخلقية والاجتماعية ثم تتجاهل كل ما ترتكبه من جرائم فظيعة ووحشية شنيعة وترمي الإسلام بالتأخر والرجعية وبالظلم والوحشية: «رمتني بدائها وانسلت»!!

* * *

أهمية الصدق

وضرورته لقيام الدنيا والدين

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فإن خُلق الصدق من أعظم مقومات الدين والدنيا، فلا تصلح دنيا ولا يقوم دين على الكذب والخيانة والغش، والصدق والتصديق هو الرباط الوثيق بين الرسل ومن آمن بهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٤].

وقال في الكذب والتكذيب: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

ولمكانة الصدق والتصديق بالحق عند الله وفي الإسلام ولدى العقلاء وذوي الفطر السليمة وآثارهما الطيبة، ولخطورة الكذب والتكذيب بالحق؛ أحببت أن أزجي هذا المقال المستمد من كتاب الله ومن سنَّة رسول الله ﷺ ومن سيرة وواقع بعض الصادقين المصدقين من أصحاب رسول الله ﷺ، والله أسأل أن يُعينني ويوفقني للنهوض بكل ما أستطيع من إسداء للنصح والبيان لإخواني المسلمين، وأسأله أن يجعلنا جميعًا من الصادقين الحريصين على التمسك به والثبات عليه، وأن يجعلنا جميعًا من المحبين للحق والمتحرين لاتباعه والمصدقين به.

ولعظمة الصدق ومكانته عند الله وعند المسلمين وعقلاء البشر، وصف الله نفسه بالصدق فقال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

فهذا ثناء من الله على نفسه بهذا الوصف العظيم، فهو صادق في أخباره كلها، وفي كلامه كله، وفي تشريعاته، وفيما قصَّه عن الأنبياء وأممهم، وفيما قصَّه عن بني إسرائيل أنبيائهم ومؤمنيهم وفاسقيهم ومن كفر منهم، وعن تحريفهم لكتاب

الله: التوراة والإنجيل، واتخاذهم الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٧-٩].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

هكذا وصف الله نفسه بهذا الوصف العظيم: الصدق في الأقوال، والصدق في الأفعال، والصدق في الوعد، والصدق في الوعيد، والصدق في الأخبار عن أنبيائه وأوليائه المؤمنين، والصدق في الأخبار عن أعدائه الكافرين.

ولقد وصف الله أنبياءه بالصدق، وأيَّدهم بالمعجزات والآيات العظيمة؛ برهنة على كمال صدقهم ودحضًا لافتراءات وتكذيب أعدائهم.

ومن أعظم ما أيدهم به إهلاك أعدائهم بالطوفان، وبعضهم بالريح الصرصر، وبعضهم بالصيحة والرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالغرق مع إنجاء الأنبياء وأتباعهم، فكل هذا من رب العالمين شهادة بصدق أنبيائه وأنهم رسله حقًّا، وإهانة لأعدائه وأعدائهم.

ومن وصفهم في القرآن بهذا الوصف: إبراهيم، وإسماعيل، وإدريس -عليهم الصلاة والسلام-.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

فالوصف بالصديقيَّة بيان لتمكنهم من هذا الوصف وهو الصدق، وأن أقوالهم وأفعالهم ووعودهم وعهودهم قائمة على الصدق.

وكل آية في القرآن الكريم المعجز الذي تحدى به الجنَّ والإنس على أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عن ذلك أعظم برهان على صدق محمد رسول اللَّه ﷺ، وأنه رسول اللَّه حقًّا وخاتم النبيين، وشهادة اللَّه له بأنه خاتم النبيين معجزة عظمى ودلالة كبرى على صدقه -صلوات اللَّه وسلامه عليه-؛ إذ ما ادَّعى النبوة أحد بعده إلا وفضحه اللَّه وأخزاه، وكشف عواره وكذبه، بل ما كَذَبَ عليه أحد في قول نسبه إلى رسالته إلا وفضحه اللَّه وأخزاه ببيان أتباع رسالته الصادقين من محدثين وغيرهم.

قال تعالى -في الثناء عليه وعلى ما جاء به من الحق والصدق-: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]، فهذه أعظم منزلة أوتيها عبد اللَّه ورسوله محمد ﷺ.

وقد وصف اللَّه عباده المؤمنين الذين صدقوا في إيمانهم وأعمالهم وجهادهم وعهودهم: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال تعالى في مدح فقراء المهاجرين وكل أصحاب محمد صادقون لا فرق بين مهاجر وأنصاري: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

لقد زكَّى اللَّه أصحاب محمد ﷺ وأثنى عليهم كثيرًا في محكم كتابه وأثنى عليهم رسوله ﷺ عاطر الثناء في أحاديث كثيرة، ومن أبرز وأجلى صفاتهم التي وصفوا بها: **الصدق؛ الذي لا يقوم دين، ولا تستقيم دنيا إلا به**، فنقل إلينا هؤلاء الصادقون ووراثهم بكل صدق وأمانة كتاب اللَّه المتواتر وسنة رسوله متواترها

وآحادها الصحيحة الثابتة بما في ذلك سيرة رسول اللَّه ﷺ وجهاده وغزواته.

والكتب الصحاح والمصنفات والجوامع والمعاجم وكتب العقائد وغيرها تزخر بهذه النقول، قد ميَّز فيها أئمة الجرح والتعديل الصحيحَ منها من السقيم، حتى تكون الأمة على صراط مستقيم ومنهج قويم وحياة واعية راشدة.

ونقلوا لنا سير الصحابة الكرام ومناقبهم ومحاسنهم التي برزوا فيها على سائر أمم الأنبياء، فكانوا بها خير أمة أخرجت للناس، وكتب فضائل الصحابة ومناقبهم وسائر دواوين السنَّة تزخر بذلك.

وقد مرَّ بنا في هذا المقال ثناء اللَّه العام عليهم بصفات جليلة ومنها الصدق، ومقالي هذا لا يتسع لذكر الأخبار الصحيحة بوقائع صدقهم، غير أني سأضرب مثلًا بثلاثة منهم تجمعهم حادثة واحدة.

وأبرز هؤلاء الثلاثة ذلكم الصحابي الجليل كعب بن مالك، ذلكم الرجل الذي نجاه اللَّه من النار والنفاق ومن سخط اللَّه وسخط رسوله بالصدق، وقصته شهيرة، وحديثه مشهور وطويل لا يتسع المقام لسرده هنا، لكني سأختار منه مقاطع تدل على منزلة هذا الصحابي وإخوانه في هذه الواقعة، ويأخذ المسلم منها العبرة والأسوة بهؤلاء الصادقين.

١) «عن عبد اللَّه بن كعب قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك، قال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدًا تخلف عنه، إنما خرج رسول اللَّه ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع اللَّه بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول اللَّه ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، واللَّه ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة فغزاها رسول اللَّه ﷺ في حر شديد

(١) لقد صرَّح بأنه لم يكن تخلفه ناشئًا عن فقر وعسر ولا عن عجز وضعف، فقد كان يشارك فيما سبق غزوة تبوك من غزوات وهو في حال دون حاله في هذه الغزوة قال: «وكان من خبري حين تخلفت عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، واللَّه ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتها في تلك الغزوة».

(٢) صرح بالأسباب التي نالت من عزيمته في الجهاد وهي الحر الشديد والسفر البعيد والمفاوز العريضة المهلكة بين المدينة وتبوك، والعدد الكثير من روم وعرب يشايعون الروم، وذكر أن رسول اللَّه جلَّى للناس أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم.

(٣) وصرح بما لعله أهم أسباب تخلفه وهو طيب الثمار والظلال، ثم قال مصرحًا بما قد يسعه إخفاؤه ولكن نفسه الصادقة أبت إلا أن يصدع به: «فأنا إليه أصعر» أي: أن نفسه مالت إليه، وهذه منزلة عظيمة في الصدق قل جدًّا من يرقى إليها.

(٤) وذكر منازعة نفسه وتردده بين اللحاق بركب رسول اللَّه ﷺ وإخوانه المجاهدين، وبين قعوده تحت الظلال الوارفة والثمار الطيبة.

(٥) وذكر ما كان يصيبه في هذا التخلف من آلام الحسرة والحزن بسبب أنه لا يرى له أسوة في التخلف إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلًا ممن عذر اللَّه من الضعفاء، وهذا من أدلة حياة قلبه وصدق إيمانه.

٢) «فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول اللَّه ﷺ قد توجه قافلًا من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بِمَ أخرج من سخطه غدًا، وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول اللَّه ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدًا، فأجمعت صدقه وصبح رسول اللَّه ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول اللَّه ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر

لهم، ووكل سرائرهم إلى اللَّه حتى جئت، فلما سلمت تَبَسَّم تَبَسُّم المغضب، ثم قال: **تعالَ**، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: **ما خَلَّفَك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟** قال: قلت: يا رسول اللَّه، إني واللَّه لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلًا ولكني واللَّه لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن اللَّه أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عَلَيَّ فيه إني لأرجو فيه عقبى اللَّه، واللَّه ما كان لي عذر، واللَّه ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال رسول اللَّه ﷺ: **أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي اللَّه فيك؛ فقمت**».

وفي هذا المقطع يذكر لنا وضعه الجديد حيث قفل رسول اللَّه ﷺ وقد ظفروا بالعزَّة والنصر والأجر، فماذا استفاد من هذا التخلف ولو كان من أسبابه طيب الظلال والثمار ومن هم أسوته سوى المغموص عليهم في النفاق والضعفاء والمعذورون.

فيعتصر قلبه الحي من قسوة الألم والأسى، وفي الوقت نفسه يذكره الشيطان ويملي عليه أنواعًا من الكذب، لكن ظلمات الكذب والباطل قد انزاحت عنه بفضل اللَّه عليه وحسن رعايته له، بسبب صدق إيمانه وإخلاصه لله رب العالمين، فوفقه لأعظم أسباب النجاة بعد الإيمان وهو الصدق ولاسيما عند الأخطار والأحداث المدلهمة.

قال: «فلما قيل لي: إن رسول اللَّه ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدًا، فأجمعت صدقه وصبح رسول اللَّه ﷺ قادمًا».

وذكر تلك السُّنَّة العظيمة التي تكاد تنسى أو نسيت عند كثير من المسلمين، ألا وهي صلاة ركعتين في المسجد عند قدوم المسلم من سفر، وذكر موقف المعذرين -أي: المنافقين- أنه الكذب والتمويه الباطل مؤكدين كذبهم بالحلف، فما يسع رسول اللَّه إلا أن يقبل علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى اللَّه علام الغيوب الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لكنَّ كعبًا رضي الله عنه بفقهه وعقله أدرك أن الكذب على رسول اللَّه ولو أكد بالأيمان المغلظة لن ينجيه من سخط اللَّه، ثم من سخط رسوله،

أدرك ذلك ببصيرته النيِّرة وعقله الثاقب بعد توفيق اللَّه له، فأبى إلا أن يجهر بالحقيقة الناصعة.

٣) قال: «فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر اللَّه ﷻ منا قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج قال: فآذن رسول اللَّه ﷺ الناس بتوبة اللَّه علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قِبَلَ صاحبي مبشرون، وركض رجل إلي فرسًا، وسعى ساعٍ من أسلم قِبَلي وأوفى الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني فنزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته، واللَّه ما أملك غيرهما يومئذٍ، واستعرت ثوبين، فلبستهما، فانطلقت أتأمم رسول اللَّه ﷺ يتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بالتوبة ويقولون: لِتَهنِئكَ توبةُ اللَّه عليك، حتى دخلت المسجد فإذا رسول اللَّه ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس، فقام طلحة بن عبيد اللَّه يهرول حتى صافحني وهنأني، واللَّه ما قام رجل من المهاجرين غيره قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول اللَّه ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور ويقول: **أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**. قال: فقلت: أمن عندك يا رسول اللَّه أم من عند الله؟ فقال: **لا، بل من عند اللَّه**. وكان رسول اللَّه ﷺ إذا سر استنار وجهه كأن وجهه قطعة قمر، قال: وكنا نعرف ذلك. قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول اللَّه إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى اللَّه وإلى رسوله ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: **أمسك بعض مالك فهو خير لك**. قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر».

لقد جاء إلى رسول اللَّه ﷺ لا ليكذبه في العذر، ولكن ليقول الحقيقة بملء فِيهِ؛ لأنه قد زاح عنه الباطل واستقر الحق في أعماق نفسه.

فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك**» أي: قد اشتريت راحلة الجهاد وأعددت العدة لذلك؟!

فقال كعب: يا رسول اللَّه، إني واللَّه لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلًا، ولكني واللَّه لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن اللَّه أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى اللَّه، واللَّه ما كان لي عذر، واللَّه ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

قال رسول اللَّه ﷺ: **أمَّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي اللَّه فيك.**

واعتذر إخوانه مرارة بن الربيع، وهلال بن أميَّة بمثل عذره الصادق، وقال لهم رسول اللَّه ﷺ مثلما قال لكعب.

وأمر رسول اللَّه ﷺ المجتمع المسلم بمقاطعتهم وهجرانهم، فنفَّذُوا أمر رسول اللَّه ﷺ بدقة بما فيهم أقرب الأقربين إليهم طاعة لله ولرسوله، ويستلبث الوحي وتستمر المقاطعة ويتمادى الابتلاء والاختبار الصعب لمدة خمسين يومًا.

وتترامى الأنباء إلى ملك غسان النصراني فيجد في ظنّه فرصة إلى استمالة كعب ودعوته إلى اللحاق به ليكرمه -في زعمه- ويواسيه، فيأبى إيمان كعب باللَّه ورسوله وتأبى نفسه الأبية من الاستجابة لهذه المحاولة الشيطانية، ويدرك بأن هذا أيضًا من الابتلاء، فيسجر برسالة هذا الكافر التنور كما قال رضي الله عنه وجاءهم الفرج صباح خمسين ليلة بتوبة اللَّه عليهم، وهم كما قال كعب رضي الله عنه على الحال التي ذكر اللَّه تعالى قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت وامتلأ أصحاب محمد بشرى وسرورًا بما أفاض اللَّه على إخوانهم من توبة اللَّه عليهم ورضا اللَّه ورسوله عنهم، وتسابق المبشرون، منهم من يمشي على رجليه فيستبطئ فيعلو جبل سلع ويرفع صوته مدوي فيسبق صوته راكب الفرس المنافس له الحريص على سبقه فيذهب كعب إلى رسول اللَّه وفي طريقه يستقبله أصحاب رسول اللَّه فوجًا فوجًا يهنئونه بتوبة اللَّه عليه، ويجد رسول اللَّه ﷺ ووجهه كالقمر تبرق أساريره من السرور، فيقول له: **«أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك»**.

وكيف لا يكون ذلك وقد أنقذه اللَّه بالصدق من هلاك ماحق وقع في أتونه من لاذوا بالكذب والأيمان الفاجرة وقلب الحقائق.

اللَّه أكبر إن هذا اليوم خير له من بيعته على الإسلام والنصرة في بيعة العقبة تلك البيعة التي يراها أحب إليه من المشاركة في وقعة بدر، لشدة فرحه بهذه التوبة وشعوره بهذه التوبة وشعوره العميق بهذه النعمة أكَّد ذلك بموقف الشاكر لنعمة اللَّه عليه فقال: «يا رسول اللَّه إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى اللَّه وإلى رسوله»، ذلك المال المغري الذي كان من أسباب تخلفه عن الجهاد، هذا دليل آخر منه على صدق توبته وجدِّه في ذلك.

فيقول له رسول اللَّه -الرءوف الرحيم-: «**أمسك عليك بعض مالك**». فماذا صنع؟ لقد انخلع من ماله بالمدينة الذي حبسه عن الغزو في سبيل اللَّه وأبقى سهمه بخيبر، ذلك المال البعيد الذي لعله لا دخل له في حبسه.

ويدلي بالسبب القوي في نجاته، بل هو في نظره السبب الوحيد في إنقاذه من الهلاك الماحق فقال: «يا رسول اللَّه إن اللَّه إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت».

ويوفقه اللَّه للوفاء بما وعد به رسول اللَّه ﷺ وبما يراه هو من أركان توبته، قال: «فواللَّه ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه اللَّه -أي: أنعم عليه- في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللَّه ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني اللَّه به، واللَّه ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول اللَّه ﷺ إلى يومي هذا».

ما أروع الصدق، وما أنبل الصادقين، وبُعدًا وسُحقًا للكاذبين في أي زمان ومكان، كيف لا وهو من أعظم دعائم الكفر والنفاق، وأضعف أحواله أن يكون من ركائز النفاق -عياذًا باللَّه منه ومن كل ما يسخط اللَّه -تبارك وتعالى-، ثم يقول متحدثًا عن هذه النعمة التي مَنَّ اللَّه بها عليه.

٤) «قال: وقلت: يا رسول اللَّه، إن اللَّه إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألَّا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، قال: فواللَّه ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه اللَّه في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللَّه ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني اللَّه به، واللَّه ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول اللَّه ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني اللَّه فيما بقي قال: فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ

خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ حتى بلغ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٨-١١٩].

قال كعب: «والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد وقال الله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦]».

فهذه عاقبة الأفاكين ولو كان إفكهم تملقًا واعتذارًا ولم يغنِ عنهم استغفار رسول الله ﷺ شيئًا في حياتهم ولا بعد مماتهم قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وفي هذا عبرة عظيمة للذين لا يزكون أنفسهم بالتوحيد والإيمان والصدق والأعمال الصالحة، وقد يكون في هؤلاء الكذابين المخادعين من يعتقد أن توصله بالكذب والخداع إلى تسامح الرسول عنه والاستغفار له ينجي من بطش الله وإهانة الله له في الدنيا والآخرة، فخيب الله آمالهم وأخزاهم في الدنيا والآخرة، ولم يغنِ عنهم استغفار رسول الله ﷺ شيئًا.

هذه حقيقة وضحها القرآن في سورة التوبة وغيرها، وأكدها رسول الله بقوله لقريش بطنًا بطنًا ولأفراد أسرته: «اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئًا»؛ فليحذر الكذابون في أي زمان ومكان في إيمانهم وعقائدهم وأقوالهم وشهاداتهم أن يفضي بهم هذا الكذب إلى هوة الهلاك التي تردى فيها هؤلاء الكذابون.

وفيه عبرة وبشرى للصادقين في إيمانهم وإسلامهم وأعمالهم الصالحة وأقوالهم وشهاداتهم بالنجاة من الهلاك، كما نجى كعب وأصحابه رضي الله عنهم بالصدق

في ظرف يدعو فيه الحال ضعاف الإيمان وضعفاء النفوس إلى الكذب قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

ومن ثمار الصدق: في الصحيحين عن طلحة بن عبيد الله قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرأس، نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول، حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **خمس صلوات في اليوم والليلة**، فقال: هل علي غيرهن؟ قال: **لا، إلا أن تطوع، وصيام شهر رمضان**. فقال: هل علي غيره؟ فقال: **لا، إلا أن تطوع**، وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، فقال: هل علي غيرها؟ قال: **لا، إلا أن تطوع**. قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، فقال رسول الله ﷺ: **أفلح إن صدق**».

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: «نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك. قال: **صدق**. قال: فمن خلق السماء؟ قال: **الله**. قال: فمن خلق الأرض؟ قال: **الله**. قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال: **الله**. قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال؛ آلله أرسلك؟ قال: **نعم**. قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا. قال: **صدق**. قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: **نعم**. قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا. قال: **صدق**. قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: **نعم**. قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سَنَتِنَا. قال: **صدق**. قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: **نعم**. قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلًا. قال: **صدق**. قال: ثم ولَّى. قال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن. فقال النبي ﷺ: **لئن صدق ليدخلن الجنة**».

هذان سائلان عاقلان أنعم الله عليهما بنعمة العقل والفطنة وحسن السؤال ولاسيما الآخر منهما، وقد قيل: إنه ضمام بن ثعلبة الهذلي، فالأول منهما سأل

رسول اللَّه عن شرائع الإسلام فأجابه الرسول بما فرضه اللَّه على العباد من أركان هذا الدين بعد الشهادتين؛ لأن السائل فيما يبدو كان مسلمًا، فأجابه بأن الإسلام هذه المكتوبات، والسائل يقر بذلك ويلتزمه لأنه يريد أن يعلم هل هناك شيء يجب عليه زائد عما ذكره من هذه الأركان، والرسول ﷺ يقول له: «لا، إلا أن تطوع»، فلما فرّق له رسول اللَّه بين الواجبات والتطوعات أقسم باللَّه أنه لا يزيد على تلك الواجبات ولا ينقص منهن، فأجابه رسول اللَّه ﷺ مبشرًا له وللأمة بالجزاء العظيم لمن يقوم بهذه الواجبات حق القيام: «أفلح إن صدق»، أي: طابق فعله قوله، وذلك هو الصدق، ففلاحه مترتب على صدقه في المقال والفعال وأنعم بذلك.

وأما السائل الثاني، فكان سؤاله أعمق وأبعد مدى من الأول، قال صاحب التحرير وهو محمد بن إسماعيل الأصفهاني السلفي: «هذا من حسن سؤال هذا الرجل وملاحة سياقته وترتيبه، فإنه سأله أولًا متأكدًا من صدق الرسول الذي أرسله رسول اللَّه ﷺ لدعوتهم إلى الإسلام، هل هو صادق أنك مرسل من اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «صدق»، ثم سأله عن خالق السماء والأرض ومن نصب هذه الجبال؛ لأنه كسائر العرب كانوا يؤمنون بتوحيد الربوبية، فأجابه رسول اللَّه ﷺ بقوله: «اللَّه، اللَّه، الله»، في كل ذلك.

ثم استثبت من كل ما بلغه رسولُ رسولِ اللَّه إليهم من شرائع الإسلام: الصلاة، والزكاة، والصيام، والرسول يقول: «صدق، صدق. . .» إلخ.

فلما انتهى رسول اللَّه ﷺ من الإجابة عن أسئلته قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن شيئًا، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لئن صدق ليدخلن الجنَّة**».

فيا لها من ثمرة عظيمة للصدق، الصدق في الاعتقاد، والصدق في القول، والصدق في التطبيق بالعمل المشروع المتلقى عن اللَّه ورسوله.

فهذه بعض ثمار الصدق، يهدون في الحياة الدنيا إلى البر، وهو الجامع لكل خصال الخير، ويفوزون بالمنازل العالية عند اللَّه -تبارك وتعالى-، خالدين في جنات تجري من تحتها الأنهار، قد نالوا أعظم مطلوب، وهو فوق هذه المنازل ألا

وهو رضا الله تعالى عنهم.

ومن ثماره: الهداية إلى البر ثم إلى الجنة، قال رسول الله ﷺ: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر ليهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**».

ومن ثماره: الفوز برضا الله، ثم الفوز بجنات تجري من تحتها الأنهار ويظهر ويتجلى فيه نفعه، قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وفي الصحيحين، عَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللَّه يَقُولُ لِأَهلِ الجَنَّةِ: يَا أَهلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيكَ رَبَّنَا وَسَعدَيكَ وَالخَيرُ فِي يَدَيكَ، فَيَقُولُ: هَل رَضِيتُم؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرضَى يَا رَبِّ، وَقَد أَعطَيتَنَا مَا لَم تُعطِ أَحَدًا مِن خَلقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعطِيكُم أَفضَلَ مِن ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيءٍ أَفضَلُ مِن ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيكُم رِضوَانِي فَلَا أَسخَطُ عَلَيكُم بَعدَهُ أَبَدًا**».

فهنيئًا للصادقين هذا الفوز العظيم والنعيم المقيم والرضا الأبدي والخلود السرمدي.

جعلنا الله منهم بمنه وفضله ورحمته، إنه رءوف رحيم، جواد كريم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الفقير إلى عفو الله ومغفرته

ربيع بن هادي عمير المدخلي

* * *

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله إمام الموحدين وقائد الغر الميامين، محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وبعد:

فإن الله العليم الحكيم في خلقه وشرعه وقدره وفي أقواله وأفعاله قد خلق هذا الكون الكبير: السموات والأرض وما فيها من آيات عظيمة مما يشاهد وما لا يشاهد، وما يعلمه الإنسان وما لا يعلمه، لحكمة عظيمة وغاية جليلة: هي ابتلاء البشر في هذه الحياة الدنيا واختبارهم أيهم أحسن عملًا، كما ذكر ذلك في محكم ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وهذا الابتلاء هو المذكور في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن هنا يعلم الإنسان مكانته في هذا الوجود ويعرف قيمته، وأن هذا الامتحان والابتلاء الذي أعده الله له أمر له خطره بحيث سخر من أجله هذا الكون العلوي والسفلي؛ فالسموات بأفلاكها وكواكبها وشمسها وقمرها قد سخرت لك أيها الإنسان لتقوم بأداء هذا الامتحان على أكمل الوجوه.

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ

---

(١) مقال نشر في مجلة الجامعة الإسلامية في العدد (٢٤) في شهر ربيع الثاني لعام (١٣٩٤هـ) في الصفحة (١٠١-١١٠).

إمكانية الإنسان

وإن الله سبحانه قد زود الإنسان بطاقات ومواهب ترفعه إلى مستوى المسئولية التي ألقيت على كاهله وتؤهله للخلافة في الأرض فزوده بما يلي :

١- بالعقل الذي يميز به بين الحق والباطل والضار والنافع، وأناط التكاليف وربطها بوجوده ورفع التكاليف عند فقدانه .

٢- وهيأ تكوينه وتركيبه الجسمي أحسن تهيئة وأعده أحسن إعداد وخلقه في أحسن تقويم يتلاءم تمام التلاؤم والموافقة مع ما كلفه الله به من أعمال وواجبات؛ فيزاولها ويقوم بها بسهولة ويُسر؛ فهو يختلف عن سائر الحيوانات بهذا التركيب الجميل الممتاز والتقويم الأحسن، كلفه بالطهارة على اختلاف أنواعها وتكوينه الجسمي يساعده على القيام بها، وكلفه بالصلاة، وهيئته قد أعدها الله أحسن إعداد للقيام بهذا الواجب فهو يستطيع كل أفعال الصلاة من قيام وركوع وسجود، كما يستطيع أن يؤدي كل الأقوال من قراءة وتسبيح وسائر الأذكار .

٣- وزوده إلى جانب ما ركزت فيه من فطرة الاعتراف بالله بإرسال الرسل وإنزال الكتب التي فيها يترتب تفاصيل وبيان كل الواجبات والتكاليف التي يجب أن ينهض بها، وما يترتب عليها من سعادة ونعيم وجزاء حسن إن هو قام بها وأداها على الوجه المطلوب .

وقبل هذا زوده إلى جانب ما فُطر عليه من فطرة الله وما يؤيد هذه المعرفة من آيات كونية باهرة يشاهدها بعينه ويسمعها بأذنه، فتوحي إلى قلبه بما فيها من روعة وجمال وعظمة وإبداع بقدرة خالقها الهائلة وعلمه المحيط الشامل وحكمته العليا التي تضع كل شيء في موضعه زوده بما يعرف به من صفات خالقه ونعوت جلاله مما يزيده علمًا وبصيرة ومحبة وتعلقًا بهذا الرب العظيم .

وعلى ضوء ما سبق من ذكر الخالق العظيم الموصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال ومن ذكر العبد الذي زوده الله بوسائل عظيمة تؤهله لمعرفة الله وعبادته والقيام بالخلافة في أرضه نستطيع أن نقول: إن توحيد الله الذي جاءت به الرسل ودعت إليه ونزلت لبيانه الكتب السماوية نوعان :

١- توحيد المعرفة والإثبات.

٢- توحيد الطلب والقصد.

فتوحيد المعرفة والإثبات: وهو يشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله على أساس تنزيهه عن مشابهة المخلوقين، وهذا المبدأ -وهو مبدأ التنزيه- يرتكز على أدلة وبراهين من القرآن العظيم مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

وبتعبير آخر نقول: إنه يجب الإيمان بما ورد في القرآن والسنة من صفات اللَّه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهذا المنهج هو منهج السلف الصالح وهو الصراط المستقيم الذي يضمن للمؤمن السلامة من التخبط في ظلمات التشبيه والتعطيل؛ إذ المشبه كما يُقال: يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا.

وأدلة هذا النوع من التوحيد كثيرة جدًّا نذكر ما يتيسر:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

جمعت هذه الآية بين توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ١-٤].

وقال تعالى: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ١-٨].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤-٥].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١- ٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

دلت هذه الآيات على صفات كمال تليق بجلاله وعظمته، وهي الإلهية، وعلم الغيب والشهادة، والرحمة، والملك، والقدوسية، والهيمنة، والعزة، والجبروت، والكبرياء، وكونه السلام المؤمن الخالق البارئ المصور والمختص بالأسماء الحسنى، وخضوع أهل السموات والأرض له، والعزة، والحكمة، والأولية، والتفرد بالإحياء والإماتة، والقدرة الشاملة، والأولية المطلقة التي لم يسبقها شيء، والآخرية التي ليس بعدها شيء، والاستواء على العرش، وكونه في السماء على الوجه اللائق به.

وله صفات أخرى مثل: السمع، والبصر، والإرادة دلت عليها أدلة أخرى من الكتاب والسنة لا يتسع المقام لذكرها، كلها يجب أن يكون موقف المؤمن إزاءها موقف الإيمان الكامل والتسليم المطلق وأن يتلقاها بصدر رحب ونفس مطمئنة لا يتسرب إليها حرج أو شك.

إلا أنه مع الأسف قد لعب الشيطان برءوس أناس اختلفت نظراتهم ومواقفهم من هذه الصفات ما بين غال في الإثبات إلى أن انحدر إلى مستوى لا يليق به؛ فشبه

الله بخلقه ولم يقرأ مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] مما يفيد التنزيه.

وما بين معطل جريء جحد صفات الكمال ونعوت الجلال، وهم ما بين شجاع أعلى هذا الجحد وأبدى صفحته غير هيَّاب ولا متلعثم، وما بين مختفٍ وراء ستار من التحريفات سميت تأويلات.

وبين ذلك الإفراط وهذا التفريط منهج السلف الصالح وعلى رأسهم: رسول الله وصحابته الكرام والتابعون لهم بإحسان وأئمة الهدى، هذا المنهج هو -كما قدمنا- الإيمان بما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

ولنذكر هنا ثلاث صفات يتجلى لنا من خلال الكلام عليها أن الحق كان فيها حليف أهل السنة والجماعة، وأن طريقهم هو الطريق المستقيم الذي لا يجوز العدول والانحراف عنه:

١- صفتا العلو والاستواء على العرش:

أما صفة الاستواء؛ فقد وردت في القرآن الكريم في سبعة مواضع:

١- في سورة الأعراف.

٢- وفي سورة يونس.

٣- وفي سورة هود.

٤- وفي سورة طه.

٥- وفي سورة السجدة.

٦- وفي سورة الرعد.

٧- وفي سورة الحديد.

وأما صفة العلو؛ فقد دلت عليها نصوص كثيرة من الكتاب والسنة مثل:

قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وقول الرسول ﷺ للجارية: «أين الله؟ قالت: في السماء. قال: اعتقها فإنها مؤمنة».

وقصة معراج الرسول ﷺ إلى الله في السماء.

وقد ألفت كتب في موضوع العلو والاستواء؛ مثل: «اجتماع الجيوش الإسلامية» للإمام ابن القيم، و«العلو للعلي الغفار» للذهبي بلغت الأدلة فيها ما يقارب ألف دليل، والواقع أن القليل منها يكفي المؤمن الصادق ويقنعه ويفرض عليه الإيمان بهاتين الصفتين العلو والاستواء.

ثانيًا: صفة الرحمة:

قال بعض العلماء وهو ابن الوزير وقد أخذته الدهشة من موقف الأشاعرة كيف تجرءوا على تأويل صفة الرحمة وقد وردت في القرآن أكثر من خمسمائة مرة بأسلوبَي التأكيد التكرار، والتأكيد والتكرار عند علماء البلاغة يرفعان احتمال المجاز لو قل هذا التكرار والتأكيد، فكيف لا يرتفع المجاز عن كلام الله وإن أكد وكرر بالمئين؟!

فمن ذينك الأسلوبين- التكرار والتأكيد-: قوله تعالى في صدر كل سورة ما عدا سورة التوبة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مائة وثلاث عشرة مرة وفي أثناء سورة النمل بعض آية ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] ثم اختتام كثير من الآيات القرآنية باسمه تعالى: «الرحيم».

وإنه لموقف مدهش غريب ولون من التناقض غريب من قوم يدعون أنهم هم أهل السنة والجماعة.

وقد أُلفت كتب كثيرة جدًّا في بيان الطريق الصحيح في الإيمان بصفات الله والرد على المعطلة والمشبهة؛ منها: «كتاب التوحيد» لإمام الأئمة ابن خزيمة، و«السنة» للإمام أحمد بن حنبل، و«الرد على بشر المريسي» لعثمان بن سعيد الدارمي، و«السنة» للالكائي وغيرها من المؤلفات.

وفي تراجم أمهات السنة منها ما هو صريح في الرد على الجهمية وهم المعطلة؛ فتجد مثل الإمام أبي داود يقول عقب حديث أورده فيه ذكر صفة الاستواء والنزول: وفي هذا رد على الجهمية.

وابن ماجه يقول في ترجمة في كتابه أورد تحت هذه الترجمة أحاديث في الصفات قال في الترجمة: باب الرد على الجهمية، ويورد تحتها كثيرًا من الأحاديث في الصفات مما يشجع طالب الحق على التمسك بكل ما ورد في الكتاب والسنة من الصفات والعض عليها بالنواجذ.

وأما توحيد الربوبية؛ وهو الإيمان بأن الله وحده هو الخالق الرازق المحيي المميت والمدبر لشئون الكون فأدلته كثيرة جدًّا منها ما تقدم ذكره في الآيات السابقة.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [إبراهيم: ١٠].

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ [الملك: ٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

والآيات الكونية: السموات وما فيها من كواكب وأفلاك، وإبداع صنعها، وروعة جمالها، ونظم سير السيارات منها في دقة مدهشة، والأرض وما فيها من جبال راسية وبحار زاخرة، وما فيها من حيوان وأشجار ونبات وأزهار من أعظم

الأدلة على خالقها العليم القدير الحكيم، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

وقال أعرابي حينما سئل عن الله: إن البعرة تدل على البعير، والسير يدل على المسير؛ فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على اللطيف الخبير؟!

فهذا النوع من التوحيد من الأمور البديهية المسلَّمة عند جميع الأمم وفي جميع النِّحل إلا من كابر عقله وفطرته.

وقد قصَّ اللَّه علينا في القرآن موضوع رسالات جميع الرسل إنه توحيد العبادة وإن الرسل إنما كانوا يدعون أممهم إلى عبادة اللَّه وحده، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وحكى عن المشركين أنهم كانوا معترفين بوجود اللَّه وأنه خالق السموات والأرض: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

ومن الأدلة على هذا النوع وأن لهذا الكون خالقًا أنشأه وأوجده: قانون السببية، وهو أنه لابد لكل حادث من محدث، وإليه يرمز قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] أي: أوجدوا من غير موجد أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل اللَّه أوجدهم.

وظاهرة العناية والحكمة في هذا الكون تدل على الخالق الحكيم وأنه لا مجال للمصادفة العمياء التي يزعمها عُمْيُ القلوب والأبصار الصمُّ والبكمُ الذين لا يعقلون.

أما توحيد العبادة؛ فهو محور جميع الرسالات السماوية، ومعناه: إفراد اللَّه تعالى بجميع أنواع العبادة والعبادة: هي الخضوع المطلق لله وتوجيه العبادات والمطالب والرغبات كلها إليه أو بتعبير آخر: هي أمر جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية.

وتوجيه أي عبادة لغير اللَّه المعبود الحق يعتبر شركًا به، ومخالفة دنيئة لما فرضه اللَّه على عباده، وانحرافًا شنيعًا عن الغاية الرئيسية التي خلق اللَّه الإنسان من أجلها وسخر له ما في السموات والأرض كي يتسنى له القيام بها على الوجه المطلوب.

وإذا استعرضنا القرآن نجد أن مدار جميع الرسالات وهدفها الأصيل هو إرجاع الناس إلى هذه الغاية الخطيرة كلما انحرفوا عنها؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وهذا النوع من التوحيد هو معنى لا إله إلا الله؛ فإن قولهم جميعًا: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ هو نفس معنى «لا إله إلا الله» والمعنى الحقيقي لهذه الكلمة: لا معبود بحق إلا اللَّه وليس معناها: لا خالق ولا رازق إلا اللَّه كما يتوهم بعض الناس ممن لا يفهم معناها بل معناها ما ذكرنا: لا معبود بحق إلا اللَّه كما نُقل ذلك عن ابن عباس وجماعة من أهل التفسير واللغة.

ونرى لزامًا علينا أن نكشف عن معنى العبادة وأنواعها التي هي مدلول لا إله إلا اللَّه وأن صرفها لغير اللَّه يُعد شركًا به وإبطالًا لمضمون هذه الكلمة.

فمنها: الدعاء؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال تعالى- زاجرًا عن دعاء غيره من ميت وغائب-: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا

يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وقول الرسول ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار».

ومنها: الاستعانة؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقول الرسول ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

ومنها: الاستغاثة، وهي دعاء في حال الشدة ومن الأدلة عليها ما تقدم في الدعاء، ومنها قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

ومنها: الذبح؛ قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وقال رسول الله ﷺ: «لعن الله من ذبح لغير الله».

ومنها: الرجاء؛ قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومنها: الإنابة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤].

ومنها: التوكل؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

ومنها: المحبة؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومنها: الخشية والخوف؛ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى في مدح الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا

رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومنها: الركوع والسجود؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

ومنها: الخشوع؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٩٩].

ونستخلص من الأدلة السابقة: أن الدعاء عبادة كما قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة».

والاستعانة بالمخلوق في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله عبادة.

والاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله عبادة.

والصلاة، والذبح، والنحر، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والمحبة، والخشية، والرغبة، والرهبة، والركوع، والسجود، والخشوع، هذه الأمور كلها عبادات لا يجوز أن يتوجه بها العبد إلا لله ولا يصرفها إلا لجلاله، وإن صرفها لغير الله يعد شركًا به في خالص حقه.

وإن منهاج جميع الرسل وهدف كل الرسالات هو: إفراده سبحانه بالعبادة التي لم يخلقوا إلا لكي يقوموا بها لله وحده مخلصين له الدين.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

سماحة الشريعة الإسلامية

وحب الله تعالى أن تؤتى رخصه

وحث رسول الله ﷺ على ذلك

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فيجب أن نعلم أنَّ هناك رخصًا في شريعة الإسلام؛ تَدُلُّ على سعة رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين، وتدل على سماحة هذه الشريعة، وعلى المسلمين أن يتقبَّلوها، ويأخذوا بها؛ لأن الله يحِبُّ أن يتقبَّلَها المسلمون.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ الآية [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ الآية [المائدة: ٦].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الآية [الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

وقيَّد الله الأمور بالقدرة والاستطاعة، والوسع والطاقة، فقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ الآية [التغابن: ١٦].

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال شيخ الإسلام رحمه الله[١] بعد أن ذكر هذه الآيات وغيرها:

«وقد ذكر في الصيام، والإحرام، والطهارة، والصلاة، والجهاد، من هذا أنواعًا -يعني: من الرخص عند وجود الأعذار والمشقات-.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٨-٥٠).

ثمَّ قال-: «وقال في المنهيات: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]». اهـ.

يعني: أنَّ اللَّه تعالى حرَّم الميتة والدَّم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ به لغير اللَّه، فإذا اشتدَّ الجوع بالمسلم، فلم يجد ما يأكل ويسدُّ به رمقه؛ فقد رخَّص اللَّه له أن يأكل ما وجد منها، ولا إثم عليه ولا حرج، وإذا وقع المسلم في معصية خطأ منه، أو مخالفة لنصٍّ في حال الاجتهاد؛ فلا يُؤاخذ بذلك، ويسعُه عفو اللَّه ورحمته.

وذكر شيخ الإسلام أنَّ الإسلام جاء بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأنه يُرجِّحُ خير الخيرين، ويُدفع شرُّ الشرَّين، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتُدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما.

* أقول:

ورسول اللَّه ﷺ يُحبُّ أن يتقبَّل المسلمون رُخَصَ اللَّه تعالى، ويأخذوا بها، فقد بوَّب الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ باب: الدِّين يُسْرٌ، وقول النبي ﷺ: «أَحَبُّ الدِّينِ إلى اللَّه الحنيفية السمحة»، صحيح البخاري (١/ ٢٣).

أخرجه الإمام أحمد، عن ابن عباس قال: «قيل لرسول اللَّه ﷺ: أيُّ الدِّين أحبُّ إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة». من طريق يزيد قال: أنا محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما... وذكره في المسند (١/ ٢٣٦).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ قال: «إنِّي لم أبعث باليهودية، ولا بالنصرانية؛ ولكني بُعثتُ بالحنيفية السمحة». في حديث طويل أخرجه الإمام

أحمد في المسند (٥/ ٢٦٦).

وفي المسند أيضًا (٦/ ١١٦): عن عائشة رضي الله عنها قالت: «وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبيه؛ لأنظر إلى زفن الحبشة حتى كنت التي مللت، فانصرفت عنهم».

ثم ساق بسنده إلى عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال لي عروة: أنَّ عائشة قالت: «قال رسول الله ﷺ يومئذ: لتعلم يهود أنَّ في ديننا فسحة؛ إنِّي أُرسلتُ بحنيفية سمحة».

وهذه الأحاديث تتعاضد؛ فتصل إلى درجة الحسن إن لم ترقَ إلى درجة الصِّحة.

وعن ابن عمر رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللَّه يُحبُّ أن تُؤتى رُخَصُهُ، كما يَكْرَه أن تُؤتَى معصيته». رواه الإمام أحمد (٢/ ١٠)، وابن حبان.. وغيرهما، انظر: إرواء الغليل (٣/ ٩-١٣).

ومن حديث ابن عباس رضي الله عنه: «إنَّ اللَّه يحب أن تُؤتَى رُخَصُهُ، كما يحب أن تُؤتى عزائمه».

ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ اللَّه يُحبُّ أن تُقبَلَ رُخَصُه، كما يُحبُّ أن تُؤتَى عزائمه». انظر: الإرواء أيضًا للألباني، وقد صححه بمجموع طرقه.

وعن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه: «أنَّ رسول اللَّه ﷺ مرَّ برجل في ظل شجرة يُرَشُّ عليه الماء قال: ما بالُ صاحبكم هذا؟ قالوا: يا رسول اللَّه صائم. قال: إنَّه ليس من البر أن تصوموا في السَّفر؛ وعليكم برخصة اللَّه التي رخصت لكم؛ فاقبلوها».
رواه النسائي في الصيام (٤/ ١٧٦)، والطحاوي (٢/ ٦٢)، وانظر: إرواء الغليل للعلامة الألباني (٤/ ٥٤-٥٥)، وقد صحَّح الحديث.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «رخَّصَ رسول اللَّه في أمر؛ فتنزَّه عنه ناسٌ من الناس، فبلغ ذلك النبي ﷺ؛ فغضب حتى بَانَ الغضبُ في وجهه، ثم قال: ما بَالُ أقوام يَرغَبُون عمَّا رُخِّصَ لي فيه، فواللَّه لأنا أعلمهم باللَّه، وأشدُّهم له خشية». رواه مسلم في الفضائل (١٢٨).

وفي رواية له: «فقام خطيبًا فقال: ما بَالُ أقوام...» الحديث.

والرُّخصةُ -في اللُّغة هي-: السهولة واليسر. وقيل: النعومة واللِّين.

وفي الاصطلاح لها تعاريف، ومن أجودها: «هي الحكم الشرعي الذي غُيِّر من صعوبة إلى سهولة لعذر اقتضى ذلك، مع قيام سبب الحكم الأصلي»[1].

ومُثِّل لها بالتلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه عليها، كما فعل عمار رضي الله عنه، وأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

ومثل للفطر في شهر رمضان بعذرٍ شرعيٍّ، وتيمم المريض الذي لا يُطيق استعمال الماء أو لا يجد الماء، أو الذي لا يملك ثمن الماء، فكل من: الفطر والتيمم رخصة تزول بزوال سببها في هذه الأمور[2] وأمثالها.

والذي يتنزَّهُ من الأخذ بالرخصة ويرغب عنها يأثم..

والذي يتتبع رخص العلماء والمذاهب يأثم..

والمنهج الحق: أن يؤخذ برخص الله على الوجه الذي رُخِّصَ فيه.

١- ولقد رخص الله للمؤمن أن يقول كلمة الكفر في حال الإكراه، قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3] [النحل: ١٠٦].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: «وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾. فهو استثناء ممَّن كفر بلسانه، ووافق المشركين بلفظه -مُكرَهًا لما ناله من ضرب وأذى- وقلبه يَأبى ما يقول، وهو مُطمئنٌّ بالإيمان بالله ورسوله» اهـ.

ثم ذكر قصة عمار رضي الله عنه المشهورة، وذكر أن الآية نزلت بسببها. تفسير القرآن العظيم (٢/ ٦٠٥).

وقال العلامة ابن الوزير رحمه الله: «وقد أجمعت الأمة على العمل بمقتضى

---

(١) انظر: «مذكرة أصول الفقه» (ص٩٣)، تحقيق العربي، للشيخ العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله.

(٢) انظر «الجهد المبذول» للشيخ زيد بن هادي المدخلي -حفظه الله- (ص٩٣).

(٣) يجوز للمسلم في هذه الصورة أن يأخذ بالعزيمة، كما فعل سلمان رضي الله عنه؛ بل الأخذ بالعزيمة فيها أفضل.

النصوص في الإكراه، والنسيان، فكذلك أخوهما وثالثهما وهو الخطأ -إن شاء الله تعالى-؛ بل هو أكثر منهما ذكرًا وشواهد في الكتاب والسنة، والبلوى به أشد، والرخصة إنما تكون على قدر شدة البلوى». إيثار الحق على الخلق (٤٣٩).

والحاصل: أن في الآية الكريمة رخصة لمن أكره على الكفر أن يقول بلسانه كلمة الكفر؛ لكن لابد أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان، ولابد أن يُبغضَ الكفر وأهله، ولو قالها بلسانه مختارًا لكان كافرًا بالله؛ لأنه لا يفعل ذلك إلا وقد شرح صدره بالكفر.

والشاهد: أن المؤمن المستضعف المكرَه، يسقط عنه أصلٌ عظيمٌ، ألا وهو: إظهار التوحيد، وإظهار العداوة والبغض للكفر والكافرين، ويكفيه أن يكون قلبُه مطمئنًا بالإيمان، وأن يكون مبغضًا للكفر، كل ذلك رحمة من ربِّ العالمين، الذي علمنا أن ندعوه فنقول: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٢- الأصل في باب الولاء والبراء: إظهار العداوة للكافرين، والبراءة منهم ومن معبوداتهم، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نهى الله -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة، ثم توعد على ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾. أي: ومن يرتكب نهي الله في هذا؛ فقد بَرِئَ من الله».

ثم ساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ آيات ينهى الله فيها عن موالاة الكافرين، والوعيد والذم لمن

يفعل ذلك.

ثم قال: «وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾. أي: من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرِّهم؛ فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما قال البخاري، عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم.

وقال الثوري: قال ابن عباس: ليس التقية بالعمل، وإنما التقية باللسان». تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٦٥).

وفي هذه الآية تحريم موالاة الكفار، وتكفير من يُواليهم باطنًا وظاهرًا؛ إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته..

ومعنى ذلك: أنه يحل له إذا خافهم أن يظهر لهم ما يعصم به دمه من التقية باللسان، وما تحصل به التقية.

وقال العلامة السعدي في كتابه «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (ص١٢٨) عند تفسير هذه الآية: «أي: تخافوهم على أنفسكم، فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون دماءكم من التقية باللِّسان، وإظهار ما به تحصل التقية».

ومثل هذا لا يمكنه أن يُظهر كثيرًا من أعمال الإسلام، ومن إظهار عداوة الكفر والكافرين، ومثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والله لا يؤاخذه بترك هذه الواجبات والأصول.

٣- هناك أعذار تسقط بها واجبات، مثل حضور الجمعة والجماعات:

قال الموفق ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ في المقنع (١/ ٢١٩-٢٢٠): «ويعذر في الجمعة والجماعة: المريض، ومن يدافع الأخبثين، والخائف ضياع ماله، أو فواته، أو ضرر فيه، أو موت قريبه، أو على نفسه من ضرر سلطان، أو ملازمة غريم ولا شيء معه، أو فوات رفقته، أو غلبة النعاس، أو الأذى بـ: المطر، والوحل، والريح الشديد في الليلة المظلمة الباردة».

قال المحَشِّي -وهو العلامة سليمان بن عبد الله ابن الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمهم الله-:

«قوله: (والخائف من ضياع ماله . . .) إلخ. **الخوف يتنوع ثلاثة أنواع:**

أحدها: الخوف على نفسه: بأن يخاف سلطانًا يأخذه، أو لصًا أو سبعًا أو سيلًا . . . أو نحو ذلك مما يؤذيه في نفسه، أو يخاف غريمًا يحبسه ولا شيء معه يعطيه، فإن حبس المعسر ظلم، واستثنى القادر على الأداء، ومن عليه حد قذف أو حد لله.

ثم قال: الثاني: أن يخاف على ماله: من لص، أو سلطان أو نحوه، أو يخاف على بهيمته من سبع، أو شرود إن ذهب وتركها، أو على منزله أو متاعه أو زرعه . . .

وسرد عددًا من نحو هذه الأعذار، ثم قال: فهذا وأشباهه عذر في التخلف عن الجمعة والجماعة، لعموم قوله ﷺ: «**أو خوف**». ولأن في أمره ﷺ بالتخلف بالصلاة في الرحال لأجل الطين والمطر مع أن عذرهما أيسر من ذلك تنبيهًا على جوازه.

وقال: الثالث: الخوف على أهله وولده: أن يضيعوا، أو يخاف موت قريبه ولا يشهده، فهذا عذر في ترك الجمعة والجماعة، وبه قال عطاء، والحسن، والشافعي، ولا نعلم فيه خلافًا.

وقد استصرخ ابن عمر رضي الله عنهما على سعيد بن زيد وهو يتجهز للجمعة، فأتاه في العقيق وترك الجمعة».

وساق الأدلة على هذه الأنواع وغيرها من الأعذار التي تحصل بها الرخصة.

وقد وُجِّه سؤالٌ فقهيٌ إلى أحد العلماء الأفاضل مضمونه: «أنَّ بعض الناس يقول: يجوز التنازل عن الاتجاه إلى القبلة في الصلاة على الدابَّة . . .

ما صحة هذا الكلام؟

فأجاب هذا الفاضل بقوله: «وأما صلاة النافلة على الراحلة إلى حيث توجهت به، فهذا ليس بتنازل عن القبلة؛ لكن قبلة الراكب في النافلة هي حيث ما توجَّهت به راحلته، وأما قبلة غير الراكب وفي الفريضة، فلابد أن تكون إلى الكعبة؛ لأنَّ استقبال القبلة شرطٌ من شروط صحة الصلاة في الفريضة.

وأمَّا النافلة فأمرها أوسع؛ لأنَّ الله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١١٥].

قال بعض المفسِّرين: هذه الآية نزلت في التنفُّل في السَّفر»[١]. اهـ.

أقول: في هذه الإجابة تضييق لما وسَّع الله، ورفع فيه الحرج عن أمَّة محمد ﷺ، فهناك حالات تجوز فيها صلاة الفريضة إلى غير القبلة نصَّ عليها القرآن والسنَّة، وصرَّح بها المفسِّرون والفقهاء وأئمة الحديث.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

١- قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية[٢]: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، لصلاة الخوف أنواع كثيرة[٣]، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها، والصلاة تارة تكون رباعية، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة، بل يصلون فرادى، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ورجالًا وركبانًا، ولهم أن يمشوا والحالة هذه،

---

(١) قُلتُ: ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية عددًا من الأقوال:

منها: عن ابن عباس: «أنها أول ما نسخ». ونقل نحوه عن أبي العالية، والحسن، وعطاء الخراساني، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وزيد بن أسلم.

وقال ابن كثير: وقال مجاهد: «﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلوا بها الكعبة».

تفسير القرآن العظيم (١/ ١٦٢-١٦٣).

وعلى القول بنسخ هذه الآية: تكون الصلاة إلى غير القبلة في الأحوال التي جوزها الله ثابتة بنصوص أخرى، وسأذكر بعضها في هذا البحث.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٤٧-٥٥٩) دار المعرفة.

(٣) أوصلها بعضهم إلى عشر صفات، وبعضهم إلى خمس عشرة، وذكر ابن القيم رحمه الله أنها ترجع إلى ستٍّ أو سبع. انظر: «زاد المعاد» (١/ ٥٣١-٥٣٢).

ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة.

ومن العلماء من قال: يصلون -والحالة هذه- ركعة واحدة؛ لحديث ابن عبَّاس المتقدِّم، وبه قال أحمد بن حنبل، قال المنذري في الحواشي: وبه قال عطاء، وجابر، والحسن، ومجاهد، والحكم، وقتادة، وحماد، وإليه ذهب طاوس، والضحاك، وقد حكى أبو عاصم العبادي عن محمد بن نصر المروزي أنه يرى رد الصبح إلى ركعة في الخوف، وإليه ذهب ابن حزم أيضًا.

وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسايفة، فيجزيك ركعة واحدة تومئ بها إيماء، فإن لم تقدر؛ فسجدة واحدة؛ لأنها ذكر لله.

وقال آخرون: يكفي تكبيرة واحدة؛ فلعله أراد ركعة واحدة، كما قاله الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه، وبه قال جابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمر، وكعب، وغير واحد من الصحابة، والسدي، ورواه ابن جرير؛ ولكن الذين حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة، كما هو مذهب إسحاق بن راهويه.

وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بخت المكي حتى قال: فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه -يعني: بالنية-. رواه سعيد بن منصور في سننه، عن إسماعيل بن عياش، عن شعيب بن دينار.. عنه، فالله أعلم.

ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة، كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر، فصلاهما بعد الغروب، ثم صلى بعدهما المغرب، ثم العشاء...»اهـ.

*** أقول: في هذا الكلام مسائل:**

١- جواز صلاة الخوف في بعض الحالات إلى غير القبلة.

٢- جواز الاقتصار على ركعة عند الإمام أحمد وغيره في حال المسايفة، وعند إسحاق ركعة يومئ فيها إيماء.

٣- جواز الصلاة في حال الخوف على ظهر الدابَّة.

٤- جواز المشي وضرب العدوّ أثناء الصلاة. وفي هذه الصور تنازل عن واجبات وشروط وأركان في الصلاة، التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام،

وردٌ لقول بعض الناس: لا يجوز الصلاة إلى غير القبلة إلَّا في صلاة المتنفِّل على الراحلة.

٢- وقال العلّامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (ص١٠٦) مؤسسة الرسالة، في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢٣٨-٢٣٩]:

«يأمر بالمحافظة على الصلوات عمومًا، وعلى الصلاة الوسطى -وهي العصر- خصوصًا، والمحافظة عليها: أداؤها بوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع ما لها من واجب ومستحب، وبالمحافظة على الصلوات تحصل المحافظة على سائر العبادات.

وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر؛ خصوصًا إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾. أي: ذليلين خاشعين، ففيه الأمر بالقيام والقنوت، والنهي عن الكلام، والأمر بالخشوع، هذا مع الأمن والطمأنينة.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا﴾: لم يذكر ما يخاف منه؛ ليشمل الخوف من: كافر، وظالم، وسبع.. وغير ذلك من أنواع المخاوف، أي: إن خفتم بصلاتكم على تلك الصفة؛ فصلوها ﴿فَرِجَالًا﴾ أي: ماشين على أقدامكم، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل والإبل وغيرها، ويلزم على ذلك أن يكونوا مستقبلي القبلة، وغير مستقبليها.

وفي هذا زيادة التأكيد على المحافظة على وقتها: حيث أمر بذلك ولو مع الإخلال بكثير من الأركان والشروط، وأنه لا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو في هذه الحالة الشديدة، فصلاتها على تلك الصورة أحسن وأفضل؛ بل أوجب من صلاتها مطمئنًّا خارج الوقت.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي: زال الخوف عنكم ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾. وهذا يشمل جميع أنواع الذكر، ومنه الصلاة على كمالها وتمامها، ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ فإنها نعمة عظيمة ومنة جسيمة، تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر؛ ليُبْقِي

نعمته عليكم، ويزيدكم عليها» اهـ.

* **أقول: في هذا الكلام مسائل:**

١- أمر الله بالمحافظة على الصلاة في حالة الأمن بشروطها وأركانها وخشوعها.

٢- والرخصة في حال الخوف عند قتال العدو في الصلاة على حسب ما يستطيعه المؤمن ويتيسر له، راجلًا وراكبًا إلى القبلة وإلى غيرها.

٣- في حال الخوف:

أ- من ظالم.

ب- من كافر.

ج- من سبع.

د - من غير ذلك من أنواع المخاوف.

أقول: وفي هذا الكلام دليل على سماحة الإسلام وتيسيره، ودليل على سعة رحمة الله لهذه الأمة؛ ولاسيما عند الشدائد؛ فيعفيها من القيام ببعض الواجبات.

وفيه: إبطال لقول بعض الناس الذين لا يجيزون التنازل إلا عن السنن فقط، ولا يجوز عندهم التنازل عن الواجبات، وأنه لا يجوز الصلاة لغير القبلة إلا للراكب المتنفل فقط.

٣-وقال الإمام أبو داود السجستاني في سننه[1] ضمن أبواب صلاة الخوف:

«باب: من قال يكبرون جميعًا، وإن كانوا مستدبري القبلة، ثم يصلي بمن معه ركعة، ثم يأتون مصافَّ أصحابهم، ويجيء الآخرون فيركعون لأنفسهم ركعة، ثم يصلي بهم ركعة، ثم تُقبل الطائفة التي كانت مقابل العدوّ فيصلون لأنفسهم ركعة، والإمام قاعد ثم يسلم بهم كلهم جميعًا».

١٢٤٠- حدثنا الحسن بن علي: ثنا أبو عبد الرحمن المقرئ: ثنا حيوة وابن

---

(١) (٢/ ٣٢-٣٤) الدعاس.

لهيعة قالا: أخبرنا أبو الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يحدث، عن مروان بن الحكم أنه سأل أبا هريرة: «هل صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ قال أبو هريرة: نعم. قال مروان: متى؟ فقال أبو هريرة: عام غزوة نجد قام رسول الله ﷺ إلى صلاة العصر، فقامت معه طائفة، وطائفة أخرى مقابل العدو، ظهورهم إلى القبلة، فكبر رسول الله ﷺ، فكبروا جميعًا الذين معه والذين مقابلي العدو، ثم ركع رسول الله ﷺ ركعة واحدة، وركعت الطائفة التي معه، ثم سجد فسجدت الطائفة التي تليه، والآخرون قيام مقابلي العدو.

ثم قام رسول الله ﷺ، وقامت الطائفة التي معه، فذهبوا إلى العدو فقابلوهم، وأقبلت الطائفة التي كانت مقابلي العدو فركعوا وسجدوا، ورسول الله ﷺ قائم كما هو، ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أخرى وركعوا معه، وسجد وسجدوا معه، ثم أقبلت الطائفة التي كانت مقابلي العدو فركعوا وسجدوا، ورسول الله ﷺ قاعد ومن معه، ثم كان السلام، فسلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعًا، فكان لرسول الله ﷺ ركعتان، ولكل رجل من الطائفتين ركعة ركعة».

*** أقول: في هذا الكلام من الفقه:**

١- جواز الصلاة في حال الخوف إلى غير القبلة.

٢- الذهاب مشيًا في أثناء الصلاة لمواجهة العدو، وكل ذلك من مبطلات الصلاة في حال الأمن؛ لأنَّها شروط وواجبات وأركان للصلاة؛ لكن الله -تبارك وتعالى- يُوسِّع على عباده المؤمنين في حال الشدائد والمعوقات عن استكمال القيام بالفرائض والواجبات.

وفي هذا إبطال لقول من يقول: إنه لا يجوز التنازل عن الواجبات؛ بل فقط عن السنن المستحبات ذلكم القول الذي يخالف نصوص الكتاب والسنَّة وإجماع الأمَّة في التسامح في الأخذ بالرخص في الأصول والواجبات، كما بيَّنا ذلك مرارًا وتكرارًا.

ونقلتُ فيه أقوال أئمة الإسلام مثل: ابن تيمية، وابن القيم، وابن عبد الوهَّاب -رحمهم الله تعالى-.

٤- وقال الإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي في «المقنع» -مع حاشية الشيخ سليمان ابن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب-رحمهم الله- (ص٢٤٠-٢٤١): «فصل: وإذا اشتدَّ الخوف صلوا رجالًا وركبانًا إلى القبلة وغيرها، يُومِئُون إيماءً على قدر الطاقة...».

قال المُحَشِّي -العلامة سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: وإذا اشتد الخوف... إلى قوله: قدر الطاقة.

وجملة ذلك: أنه متى اشتدَّ الخوف، والتحم القتال، فلهم الصلاة كيفما أمكنهم رجالًا وركبانًا إلى القبلة إن أمكنهم، وإلى غيرها إن لم يمكنهم، يومئون بالركوع والسجود، ويجعلون سجودهم أخفض من ركوعهم على قدر الطاقة، ولهم التقدم والتأخر، والطعن والضرب، والكر والفرُّ، ولا يؤخرون الصلاة عن وقتها في قول أكثر أهل العلم.

وحكى ابن أبي موسى: أنه يجوز تأخير الصلاة في رواية حال التحام القتال، والأول أصح؛ لقوله ﷻ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: (فإن كان خوف أشدَّ من ذلك صلوا رجالًا قيامًا على أقدامهم وركبانًا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها). متفق عليه[1].

ولأنَّ النبيَّ ﷺ صلى بأصحابه في غير شدَّة الخوف، فأمرهم بالمشي إلى العدو وهم في الصلاة، ثمَّ يعودون لقضاء ما بقي من صلاتهم، وهذا عمل طويل، ومشي كثير واستدبار القبلة، فإذا جاز ذلك مع أنَّ الخوف ليس بشديد، فمع شدَّته أولى» اهـ.

وقال ابن قدامة: «... فإن أمكنهم افتتاح الصلاة إلى القبلة فهل يلزمهم ذلك؟ على روايتين...».

---

(١) قلتُ: انظر صحيح البخاري باب: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾. حديث (٤٥٣٥)، ورواه كذلك في باب: صلاة الخوف، حديث (٩٤٣) مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وهذا تفسير للآية الكريمة.
وعند مسلم، باب: صلاة الخوف (٨٣٩): وقال ابن عمر: «فإذا كان خوف أكثر من ذلك؛ فصَلِّ راكبًا، أو قائمًا تُومئ إيماءً».

قال المحشِّي: «قوله: فإن أمكنهم افتتاح الصلاة... إلخ.

إحداهما: لا يجب. اختارها أبو بكر؛ لأنها جزء من الصلاة فلم يجب كبقية أجزائها.

والثانية: يجب؛ لأنه أمكنه ابتداء الصلاة مستقبلًا، فلم يجز بدونه كما لو أمكنه ذلك في ركعة كاملة» اهـ.

وقال ابن قدامة: «... ومن هرب من عدو هربًا مباحًا، أو من سيل، أو من سبع ونحوه؛ فله أن يصلي كذلك.

وهل لطالب العدو الخائف فواته الصلاة، كذلك على روايتين.

ومن أمن في الصلاة أتم صلاة آمن، ومن ابتدأها آمنًا فخاف؛ أتمَّ صلاة خائف، ومن صلى صلاة الخوف لسواد ظنه عدوًّا، فبان له أنه ليس بعدو، أو بينه وبينه ما يمنعه؛ فعليه الإعادة» اهـ.

قال المحشِّي: «وهل لطالب العدو...» إلخ.

إحداهما واختاره الأكثر: أنه له ذلك، روي عن شرحبيل بن حسنة، وقاله الأوزاعي لقول عبد الله بن أنيس: (بعثني النبيُّ ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلي قال: اذهب فاقتله. ورأيته وقد حضرت صلاة العصر. فقلتُ: إنِّي أخاف أن يكون بيني وبينه ما يُؤخِّر الصَّلاة، فانطلقت وأنا أصلي أُومئُ إيماء نحوه). رواه أبو داود.

وظاهر حاله أنه أخبر بذلك النبيَّ ﷺ، أو كان قد علم جوازه، فإنَّه لا يُظَنُّ به أنه فعل ذلك مخطئًا؛ ولأنَّ فوات الكفار ضرر عظيم.

والثانية: لا يصلي إلا صلاة آمن. صحَّحَهَا ابن عقيل، وقاله أكثر العلماء؛ لأنها مشروطة بالخوف وهو معدوم هنا، وكذا التيمم له، وقاله ابن أبي موسى إن خاف الطالب رجوع العدو؛ صلى صلاة خائف. وهو الذي في الشرح.

على قوله: «فعليه الإعادة». كذا ذكره الأكثر؛ لأنه لم يوجد المبيح، أشبه من ظنَّ الطهارة ثمَّ علم بحدثه، وسواء استند ظنُّه إلى خبر ثقة أو غيره». اهـ كلام المحَشِّي.

* قلتُ: في هذا الكلام ما يأتي:

١- في الصلاة حال الخوف من العدو تجوز الصلاة للمؤمنين رجالًا وركبانًا إلى القبلة وغيرها يُومئون إيماءً.

٢- وفي هذا تظهر سماحة الإسلام؛ فاستقبال القبلة أصلٌ من أصول الإسلام، من استجاز الصلاة إلى غير القبلة في حال الأمن وبغير عذر؛ فقد كفر، والقيام في الصلاة والركوع والسجود كلها أركان من أركان الصلاة، من أخلَّ بواحد منها بغير عذرٍ؛ فصلاته باطلة، وفي هذا الظرف -الخوف من العدوّ- تسقط عنه هذه الأركان وما يتبعها من الواجبات.

٣- «وللمصلّين في حال التحام القتال: الكرُّ والفرُّ، والطعن والضرب، والتقدُّم والتأخر»: وهذه الأعمال تُنافي الصلاة وتُبطلها، لولا العذر، أليس هذا التنازل عن هذه الواجبات من أدلِّ الأدلَّة على رحمة الإسلام وسماحته؟!

٤- وللهارب من عدوٍّ هربًا مباحًا، أو من سيل، أو سبع.. أو نحو ذلك؛ فله أن يصلي صلاة الخوف، يسقط عنه استقبال القبلة، ويجتزئ بالإيماء عن الركوع والسجود، ويُصلي إيماءً وهو على الدابَّة التي يهرب عليها إن كان هاربًا على دابَّة أو غيرها.

٥- أليس في القول بأنه لا يجوز التنازل عن الواجبات، ولا يجوز التنازل إلَّا عن السنن فقط حرجٌ وتضييق على المسلمين يُنافي ما تميَّزت به رسالة محمد ﷺ من السماحة؟!!

هذه السماحة التي تضافرت عليها نصوص الكتاب، وتطبيق الرسول ﷺ وأصحابه الكرام، وبيَّنها وقرَّرها علماء الإسلام، فكيف يُضلَّل من يُقرِّرُها؛ إنَّ ذا لمن العَجَب العُجَاب!!

كتبها

ربيع بن هادي عمير المدخلي

٢٠/ ربيع الأول/ ١٤٢٦ هـ

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تكملة لبحث سماحة الإسلام

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه..

أما بعد:

فكلمة سماحة ومشتقاتها كلها تدور على المدح.

قال ابن منظور في لسان العرب: «سمح: السماح والسماحة: الجود، سمح سماحة وسموحة وسماحًا: جاد.

ورجل سمح، وامرأة سمحة من: رجال ونساء سماح وسمحاء فيهما، حكى الأخيرة الفارسي عن أحمد بن يحيى.

ورجل سميح ومسمح ومسماح: سمح، ورجال مساميح، ونساء مساميح..

قال جرير:

غلب المساميح الوليد سماحة

وكفى قريش المعضلات وسادها

وقال آخر:

في فتية بسط الأكف مسامح

عند الفضال نديمهم لَم يد

وفي الحديث: يقول الله ﷻ: (أسمحوا لعبدي كإسماحه إلى عبادي)[1].

الإسماح لغة في السماح، يقال: سمح وأسمح إذا جاد وأعطى عن كرم

---

(١) هذا الحديث إسناده ضعيف، فيه «والان» وهو لا يُعرف.

وسخاء، وقيل: إنما يقال في السخاء: سمح، وأما أسمح؛ فإنما يقال في المتابعة والانقياد، ويقال: أسمحت نفسه إذا انقادت، والصحيح الأول، وسمح لي فلان، أي: أعطاني، وسمح لي بذلك يسمح سماحة، وأسمح وسامح، وافقني على المطلوب..

أنشد ثعلب:

لو كنت تعطي حين تسأل سامحت

لك النفس واحلولاك كل خليل

والمسامحة: المساهلة، وتسامحوا: تساهلوا.

وفي الحديث المشهور: (السماح رباح). أي: المساهلة في الأشياء تربح صاحبها. وسمح وتسمَّح: فعل شيئًا فسهَّل فيه..

أنشد ثعلب:

ولكن إذا ما جل خطب فسامحت

به النفس يومًا كان للكره أذهبا

ابن الأعرابي: سمح له بحاجته وأسمح، أي: سهَّل له.

وفي الحديث: أن ابن عباس سئل عن: «رجل شرب لبنًا محضًا أيتوضأ؟ قال: اسمح يُسمح لك».

قال شمر: قال الأصمعي: معناه: سهِّل يُسهَّل لك وعليك». لسان العرب (٢/ ٤٨٩) مادة (سمح).

وإذن فمعاني السَّمَاحَة والسماح تدور كلها حول هذه المعاني الجميلة: الجود، والكرم، والسخاء، والمسامحة، والمساهلة.

ومن هنا وصف رسول الله ﷺ شريعته بأنها سمحة، ومن هنا نفى الله عنها الآصار والأغلال والحرج.

فنقول للحدادية: هل تعترفون أنَّ في الإسلام سماحة؟!

إن قلتم: لا سماحة فيه! كذبتم وشوهتم الإسلام.

وإن قلتم: نعم. فبينوا ما هو مجال هذه السماحة؟

أهو الأصول أم الفروع؟ ثم في السنن فقط كما حصرتم المصالح والمفاسد في السنن؟! فهات الأدلة الواضحة من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ على هذا التفريق والحصر في السنن.

أمَّا أنا فقد بينتُ ذلك فيما سلف بالأدلة والبراهين، وأنَّ هذه السَّمَاحة شاملة للأصول والفروع، ويؤيدني في ذلك العلماء الربانيون السَّابقون واللاحقون.

والقضايا الشرعية لا يناقش فيها بالأكاذيب والافتراءات والتهويشات إلَّا أهل الضلال، لا تحاربوا شريعة الإسلام وما فيه من سماحة تميز بها على سائر الشرائع وأجمع عليها علماء الإسلام، لا تحاربوا هذه السماحة بالأكاذيب والافتراءات التي لم تسبقوا إليها، وكونوا صرحاء في رفض نصوص الكتاب والسنَّة وإجماع علماء الأمة، أو بيِّنوا خطأ العلماء في فهم النصوص التي استدلوا بِها على سماحة الإسلام؛ ودون ذلك خرط القتاد (!).

ونضيف اليوم أدلة أخرى في سماحة الإسلام مع كلام العلماء عليها وتطبيقهم لها:

قال الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٧٣-١٧٤): ثنا سريج بن النعمان: ثنا عمر ابن ميمون بن الرماح، عن أبي سهل كثير بن زياد البصري، عن عمرو بن عثمان بن يعلى ابن مرة، عن أبيه، عن جده: «أنَّ رسول اللَّه ﷺ انتهى إلى مضيق هو وأصحابه وهو على راحلته، والسَّمَاء من فوقهم، والبِلَّة من أسفل منهم، فحضرت الصَّلاة، فأمر المؤذن فأذَّن وأقام، ثم تقَدَّم رسول اللَّه ﷺ على راحلته، فصلى بهم يومئ إيماءً؛ يجعل السجود أخفض من الركوع، أو يجعل سجوده أخفض من ركوعه».

وقال الإمام الترمذي في سننه (٤١١) (تح. بشَّار عواد): حدثنا يحيى بن موسى: حدثنا شبابة بن سوار: حدثنا عمر بن الرماح، عن كثير بن زياد، عن عمرو بن عثمان بن يعلى بن مرة، عن أبيه، عن جدِّه: «أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سَفَر، فانتهوا إلى مضيق، فحضرت الصلاة فمُطِرُوا، السماء من فوقهم، والبِلَّة من أسفل

منهم، فأذَّن رسول الله ﷺ وهو على راحلته وأقام، فتقدَّم على راحلته، فصلَّى بهم يُومئُ إيماءً؛ يجعلُ السجودَ أخفضَ من الركوع».

قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، تفرد به عمر بن الرماح البلخي، لا يُعرَفُ إلَّا من حديثه، وقد روى عنه غيرُ واحد من أهل العلم.

وكذلك رُوي عن أنس بن مالك: أنه صلى في ماء وطين على دابته.

والعمل على هذا عند أهل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق.

* أقول:

فهذا الحديث وإن كان ضعيف الإسناد؛ فالعمل عليه عند أهل العلم، وهذا مما يُقوِّي الحديث، وله نظائر مثل حديث: «الماء طهور لا ينجسه شيء؛ إلا ما غير طعمه، أو لونه، أو ريحه».

وقال سعيد بن منصور في سننه: (٣/ ٩٢٦)، ط. دار الصميعي: حدثنا هشيم قال: أخبرنا مغيرة قال: سألت إبراهيم عن قوله: ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ قال: «عند المطاردة يُصَلي حيث ما كان وجهه؛ راكبًا أو راجلًا ركعتين، يُومئ إيماءً؛ يجعل السجود أخفض من الركوع».

وقال عبد الرزاق في مصنفه (ج٢/ ص٥٧٣-٥٧٤): عن هشام بن حسان، عن أنس بن سيرين قال: «كنت مع أنس بن مالك في يوم مطير حتى إذا كنَّا بأطيط، والأرض فضفاض؛ صلى بنا على حماره صلاة العصر يومئ برأسه إيماء، وجعل السجود أخفض من الركوع».

وقال ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٥١٦-أثر٤٩٩٨): حدثنا عبدة، عن سعيد، عن قتادة، عن جابر بن زيد في الرجل تدركه الصَّلاة في الماء والطين قال: «يُومِئُ إيماءً، ويجعل السجود أخفض من الركوع».

وقال: حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أنس بن سيرين قال: «أقبلت مع أنس ابن مالك من الكوفة حتى إذا كنَّا باطط، وقد أخذتنا السَّماء قبل ذلك والأرض ضحضاح، فصلى أنس وهو على حمار مُستقبل القبلة، وأومأ إيماءً، وجعل السجود أخفض من الركوع».

* أقول:

فهذه الآثار عن أئمَّة السَّلف في تطبيق سماحة الإسلام في أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين؛ ألا وهو الصَّلاة، فما هو رأي المخالفين الذين يحصرون سماحة الإسلام في السنن فقط؟!!

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١٠/ ٩٩-١٠٠) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾:

«أي: ما كلَّفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء فشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجًا ومخرجًا؛ فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعًا، وفي السَّفر تقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يُصَليها بعض الأئمَّة ركعة كما ورد به الحديث، وتُصَلى رجالًا وركبانًا؛ مستقبلي القبلة وغير مستقبليها.

وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالسًا، فإن لم يستطع فعلى جنبه... إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال ﷺ: (بعثت بالحنيفية السمحة). وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن: (بشِّرا ولا تنفِّرا، ويسِّرا ولا تعسِّرا)... والأحاديث في هذا كثيرة.

ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. يعني: من ضيق» اهـ.

* أقول:

انظر إلى قول ابن كثير رحمه الله:

١- «وما ألزمكم بشيء يشقُّ عليكم؛ إلا جعل الله لكم فرجًا ومخرجًا».

٢- وإلى قوله: «فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعًا، وفي السَّفر تقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يُصَليها بعض الأئمَّة ركعة».

٣- وإلى قوله: «وتصلى -أي: في الخوف- رجالًا وركبانًا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وكذا في النافلة في السَّفر إلى القبلة وغيرها».

٤- وإلى قوله: «والقيام فيها -أي: الصلاة- يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالسًا، فإن لم يستطع؛ فعلى جنبه».

٥- وانظر إلى قوله: «إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال ﷺ: (بعثت بالحنيفية السمحة). وقال لمعاذ وأبي موسى: «.. يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا»).

أقول: وفي هذا كله مُرَاعَاة لمصالح عباده، ولدفع المضار والمفاسد عنهم، وعلى هذا المنهج علماء الإسلام وأئمته.

وقارن هذا بمنهج الحداديَّة القائم على الجهل والهوى والعناد، فكلمة «يسقط» التي قالها ابن كثير لعلها أعظم وأشد من كلمة «تسامح» أو «تنازل».

وقوله: «إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في الفرائض والواجبات». أشد عليهم من الصواعق!!

كيف يقول ابن كثير هذا الكلام الذي يخالف منهجهم الذي يريد للناس التعسير والتضييق والآصار والأغلال والهلاك؟!

وقال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في فتح القدير (٣/ ٥٧٥-٥٧٦) في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾: «ثم لما كان في التكليف مَشقَّة على النفس في بعض الحالات قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ أي: من ضيق وشدَّة.

وقد اختلف العلماء في هذا الحرج الذي رفعه الله:

فقيل: هو ما أحَلَّه اللَّه من النِّسَاء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين.

وقيل: المراد قصر الصَّلاة، والإفطار للمُسَافر، والصَّلاة بالإيماء على مَن لا يقدر على غيره، وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض، واغتفار الخطأ في تقديم الصِّيام وتأخيره؛ لاختلاف الأهلة، وكذا في الفطر والأضحى.

وقيل: المعنى أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجًا بتكليف ما يَشقُّ عليهم، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه، ورفع عنهم التكاليف التي فيها حرج، فلم يتعبدهم بها كما تَعبَّدَ بها بني إسرائيل.

وقيل: المراد بذلك أنه جعل لهم من الذنب مخرجًا بفتح باب التوبة والاستغفار، والتكفير فيما شرع فيه الكفَّارة، والأرش أو القصاص في الجنايات، ورد المال أو مثله أو قيمته في الغصب ونحوه..

والظاهر: أن الآية أعم من هذا كله، فقد حطَّ سبحانه ما فيه مَشقَّة من التكاليف على عباده: إمَّا بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلى بدل لا مَشقَّة فيه، أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذي شرعه الله.

وما أنفع هذه الآية وأجل موقعها وأعظم فائدتها..

ومثلها قوله سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾. وفي الحديث الصحيح أنه سبحانه قال: «قد فعلت». كما سبق بيانه في تفسير هذه الآية، والأحاديث في هذا كثيرة». اهـ.

* أقول: انظر إلى قول الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

١- ثمَّ لما كان في التكليف مَشقَّة في بعض الحالات قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ﴾. أي: من ضيق وشدَّة.

٢- وانظر إلى حكايته الأقوال في الحرج الذي رفعه الله عن الأمَّة، واختياره عموم رفع الحرج.

٣- وانظر إلى قوله: «وقيل: المراد قصر الصَّلاة، والإفطار للمُسَافر، والصَّلاة بالإيماء على مَن لا يقدر على غيره».

٤- وانظر قوله: «وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض». وكلمة إسقاط عظيمة جدًّا عند الحداديَّة، كيف يجرؤ عليها هذا الشوكاني!! ولكننا نريد أن يُعلمُونا الألفاظ التي يُعبَّر بها عن هذه المعاني، ونخاف ألَّا يجدوا؛ لأنهم لا يسلمون بهذه المعاني التي تخالف منهجهم المضاد لسماحة الإسلام!!

٥- وانظر إلى الأقوال التي نقلها في معنى رفع الحرج، وليس بينها شيء يشبه

منهج الحداديَّة.

٦- وانظر قوله: «والظاهر أن الآية أعم من هذا كله؛ فقد حَطَّ سبحانه ما فيه مَشقَّة من التكاليف على عباده: إمَّا بإسقاطها من الأصل، وعدم التكليف بِها كما كلف بِها غيرهم، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلى بدل لا مَشقَّة فيه...».

٧- وانظر إلى قوله: «وما أنفع هذه الآية وأجل موقعها وأعظم فائدتها». ثمَّ ساق الآيات التي تماثلها في رفع الحرج عن هذه الأمَّة وفي الرأفة بِها، وأن الله لا يُكلفها ما لا طاقة لها به..

وكل علماء الإسلام النبلاء الذين فقهوا هذا الدِّين السَّمح وميزاته العظيمة يؤمنون بهذا؛ فلا آصار ولا أغلال في هذا الدِّين، يؤمنون بذلك من أعماق قلوبهم، وما أشد هذه السماحة والرحمة في الإسلام على الحداديَّة، وإنها لتضيق ذرعًا بذكرها، وتمتلئ همًّا وغمًّا وغيظًا بِها، ونقول لهم: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

هذا حسب ما عرفناه عنهم، فإن تابوا ورجعوا؛ فليعلنوا ذلك، وإلَّا فإن حالهم كما ذكرنا.

وقال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (ص٨٦-٨٧)، ط. الرسالة، في تفسيره لسورة البقرة آية الصيام، ومنها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾:

«أي: يريد الله تعالى أن يُيسِّرَ عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويُسَهِّلهَا أشد تسهيل؛ ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله، وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله؛ سَهَّلَه تسهيلًا آخر: إمَّا بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات.

وهذه جملة لا يُمكن تفصيلها؛ لأنَّ تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات». اهـ.

* أقول: انظر إلى قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١- «ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله». وهذا ما

لم يخطر ببال مَن يريد أن يجعل الشريعة آصارًا وأغلالًا .

٢- وإلى قوله : «وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله ؛ سَهَّلَه تسهيلًا آخر : إمَّا بإسقاطه ، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات» . أي : مثل الجهاد عند عجز الأمَّة إلى حين توفر القدرة عليه واستكمال الشروط ، أو عن المريض والأعمى والأعرج .

والتخفيف : كالمريض إذا عجز عن القيام في الصَّلاة يُصَلِّي جالسًا ، ويسقط عنه وجوب القيام وهو ركن في الصَّلاة ، وإذا عجز عن القعود ؛ صلَّى على جنب ، والمسافر تسقط عنه ركعتان من الرباعية ، وإذا كان الناس بأرض وحلة ؛ صَلوا على دوابِّهم في هذه الحال ، ويُومئون بركوعهم وسجودهم إيماءً إلى كثير من التخفيفات . . . وهذا ما لا يجيزه الحداديون ؛ لأنَّ السهولة عندهم لا تحصل إلَّا في السنن ! !

٣- انظر إلى قوله : «وهذه جملة لا يُمكن تفصيلها ؛ لأنَّ تفاصيلها جميع الشرعيَّات ، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات» .

وهذا ما يزعج دُعَاة الفتن والشغب الذين لا يَرَون التسامح ومُرَاعَاة مصالح العباد وظروفهم ودفع المضار عنهم إلَّا في السنن التي يُثاب فاعلها ، ولا يعاقب تاركها ! !

و«الصائم المتطوع أمير نفسه ؛ إن شاء صام ، وإن شاء أفطر» .

والذين لا يطيقون كلمة «تسامح» أو «تنازل» كيف يتحملون كلمة «إسقاط»؟ ! ! وهي لا شك أشد من كلمة «تسامح» أو «تنازل» ، والله أعلم

وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم

وكتبه

ربيع بن هادي بن عمير المدخلي

١٦/١٠/١٤٢٧هـ

* * *

هل يجوز التنازل عن الواجبات

مراعاة للمصالح والمفاسد وعند الحاجات والضرورات؟

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله.. وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فقد كان فالح عبئًا ثقيلًا على الدعوة السَّلفية وأهلها منذ سلك نفسه في الدعاة إلى المنهج السلفي، لا يُراعي في تصرفاته ومواقفه وأحكامه مصالح ولا مفاسد ولا يأبه لها، بل كان زرَّاعًا للمشاكل في أوساط الشباب السَّلفي متعالمًا؛ واضعًا نفسه فوق منزلته، يطعن في العلماء من مثل العلامة الألباني، والشيخ مقبل الوادعي.. وغيرهما، ويهضم حقوقهم.

فيغرس شرًّا وخلافًا بين طلاب العلم الجزائريين والليبيين واليمنيين والسعوديين ممن يعرف لهم قدرهم وجهادهم، ويعرف فشل فالح، وأنه لا يقدم للسَّلفية إلَّا زرع هذه الفتن.

وكنا نحلم عليه كما نحلم على غيره ممن يشكل عبئًا ثقيلًا على الدعوة السَّلفية؛ ولاسيما هذا البلاء فالح، وكنا نُصبِّر طلاب العلم عليه، ونتلمَّس له التأويلات، ثم على مر الأيام زاد تعالمًا وتعاظمًا؛ فصار يجازف في أحكامه على السلفيين وغيرهم بالتبديع والتكفير!! فيُطَالَب بالأدلة على هذه الأحكام المجحفة؛ فلا يجد دليلًا، فيكون جوابه لمن طالبه بالأدلة: ما عليك إلَّا التقليد، وليس لك أن تسأل عن الأسباب..

وساقه هواه إلى التلاعب بأصول أهل السنَّة والحديث من مثل قوله: «الكلام على أهل البدع لا يدخل في باب الجرح والتعديل، فلا يسأل المبدع عن أسباب الجرح»!!

ويحكم على بعض الأصول بأنها مبتدعة، وقد أضلت الأمة، ويحكم على بعض الأبرياء إذا لم ينقادوا لأحكامه بـ: أنهم قد نسفوا رسالات الرسل جميعًا، وعلى بعض من بدَّعَهُم بعدم تقليدهم العلماء إذا خالفوا حكمه هو بـ: أنهم قد كذبوا

القرآن، والسنَّة وكذبوا الإسلام!! وهذا من أشد أنواع التكفير بالباطل. .

ويتظاهر بأنه ما حكم عليهم بتلك الأحكام إلَّا لأنهم خالفوا علماء معينين كالنَّجمي، وهم ممن أمر اللَّه بالرجوع إليهم بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. ثم لما أدانه هؤلاء العلماء في أصوله الفاسدة وأحكامه الباطلة؛ طعن فيهم، وأسقطهم، وأسقط أقوالهم التي كان يُضلل بها أو يكفر من خالفهم!!

وقد كان من ورائه عصابة تتظاهر بتعظيمه وتقديسه وتقديس أصوله وأحكامه الباطلة؛ فتطعن أشد الطعن فيمن طعن فيهم فالح وحكم عليهم بأحكامه البهلوانية، فلما أدار ظهره لأولئك العلماء المنوَّه عنهم أسقطهم وأسقط أحكامهم تابعوه، ونسوا التضليل والتكفير بمخالفتهم، فأصبحوا يحاربونهم بعد أن كانوا يتظاهرون بتعظيمهم، ويطعنون فيهم أشد ما يطعن صاحب هوى في أهل السنَّة؛ لأنَّ هذا من أهدافهم التي جندوا لها، وحتى هذا المتعالم الذي يتظاهرون بتقديسه لو خالفهم وخالف أهدافهم لأسقطوه.

ولما استفحل شره، وبلغ السيل الزبى؛ نصحته بنصيحتين بينت فيهما فساد أصوله وأحكامه، وأيد ما تضمنتهما العلماء الذين كان يوجب تقليدهم، ويرى أن مَن لا يُقلدهم قد كذَّب الإسلام، وكذَّب القرآن والسنَّة إلخ.

فنسي هو وعصابته تلك المنزلة لهؤلاء العلماء، ونسوا الحماس للتضليل من أجلهم، فأصبحوا حربًا عليهم؛ مما يدل دلالة واضحة أن هذه العصابة ليست من أهل السنَّة، وإنما هم من أعدائها، جندوا لبث الفتن والصراعات بين السلفيين، وواقعهم الذي يسيرون عليه من حرب السلفيين المستعرة أكبر شاهد عليهم؛ فهنيئًا لفالح بالتفاف هذه العصابة حوله ومحاربتها لأهل السنَّة السلفيين حقًّا، فلقد تبوأ هو وعصابته عند أعداء السنَّة منزلة عظيمة؛ حيث فاقوا في حربهم لأهل السنَّة، والكذب عليهم، وتأليب الأعداء عليهم؛ فاقوا كل أهل الباطل والأهواء.

ولما أصيب فالح في مقاتله، وفضح بفساد تأصيله وأحكامه، وظهر جهله؛ ذهب يتعلق بأشياء ليست أساسية في النزاع؛ ليلهي الناس عن جهالاته الأساسية

وتأصيلاته الفاسدة، وخيل له الشيطان أنه إمام معصوم لا يمكن أن يخطئ، وأن مخالفه جاهل ضال مرجئ، هو وكل من يؤيده، بل غلاة في الإرجاء، بل هم خرافيون!!

كل ذلك بأمور يفتعلها ويفتريها عليهم، وأصبح هو وعصابته الجاهلة المدسوسة هم الأثريون، وهم السلفيون حقًّا، وهم الذابُّون عن منهج أهل السنَّة والجماعة -أي: منهج فالح-، ولم يفتر هو ولا عصابته من الهذيان والإرجاف بهذه المسائل التي افتعلها فالح؛ لنصرة مناهج الحزبيين؛ ولحرب أهل السنَّة، ومنها:

١- جنس العمل.

٢- التقليد الباطل لأمثاله أو لشخصه.

٣- هل العمل شرط في صحة الإيمان أو في كماله.

وكلها مما بيَّن فيها «ربيع» الحقَّ ومنهج أهل السنَّة والجماعة فيها، ولكنه يفتري هو وعصابته من الرويبضات، ويُقوِّلونه -ومَن أيده على الحقِّ- ما لم يقولوا؛ فأصبحوا من أسوأ الفرق كذبًا وبهتًا وحربًا على السَّلفيَّة وأهلها.

ومن ألاعيبهم التي يُلهون بها الناس، ويشغلونهم عن ضلالاتهم الأساسيَّة والحقيقية هذا الأمر الذي سأناقشهم فيه اليوم؛ ألا وهو قولهم: «لا يجوز التنازل عن الأصول»!!

وقد كتب أحدهم مقالًا متسترًا باسم مجهول، ألا وهو: «أسامة سالم»، وقد يكون هو فالح بعنوان: «جمع أقوال السَّلف في مسألة: عدم التنازل عن الأصول وتخطئة الشيخ ربيع».

وإنَّ لجوءَهم إلى هذا الأسلوب -وهو التستر تحت أسماء مجهولة- لدليل على جُبنهم وخورهم، وإحساسهم بأنهم على باطل.

ومن أباطيلهم: أنهم يتلاعبون باسم السَّلف الذي إذا أطلق فلا ينصرف بداهة إلَّا إلى الصَّحَابة والقرون المفضلة من التابعين للصَّحَابة بإحسان.

فيبدءون من القرن الرابع عشر أو الخامس عشر بذكر أناس سلفيين، لهم

اجتهادات قد يُصيبون فيها وقد يخطئون، ويقعون في مخالفة السَّلف، وقد يبدءون من أهل القرن الخامس كما في هذا المقال، ثم يقفزون إلى أهل القرن الخامس عشر.

ومن ألاعيب شيخهم فالح: أنه كان لا يعترف بالمصالح والمفاسد، ويتنكَّر لها إذا ذكِّر بها ويرفضها، والآن يدَّعي أنه يُراعي المصالح والمفاسد، وينتصر بمن يُراعيها (!).

ومن ألاعيبه: أنه كان يدعو إلى التقليد المذموم بطريقة فاق فيها غلاة الصوفيَّة ودُعَاة التقليد، ثم أصبح يَدَّعي أنه من الدعاة إلى الكتاب والسنَّة، والحداديون وراءَه أينما سار واتَّجه على طريقة صاحب غُزيَّة:

وما أنا إلَّا من غزيَّة إن غوت　　　غويتُ وإن ترشد غزيَّة أرشد (!)

الشاهد: أنَّ عند القوم من التلبيس والتلاعب بالأصول والمصطلحات ما فاقوا فيه أهل الأهواء، فلما لم يجدوا في كلام السَّلف في القرون المفضلة ما يسعفهم لنصر باطلهم؛ لجئوا إلى كلام المتأخرين ولو كان في غير صالحهم، لماذا؟ لقصد التستر بهم!!

وإذا كانوا يحتجون بمن يسمونهم السَّلف، وهم في الحقيقة خصومهم؛ فلماذا يُسقطون علماء يعدون من أتباع السلف قد أيدوا ربيعًا، وكانوا يُضللون من خالفهم كما أسلفنا، ألا يُؤكد هذا أن القوم أهل شغب وفتن وتلاعب.

قال كاتب المقال المتستر تحت (أسامة سالم): «قال ابن عبد البر في (الاستذكار) (٦/ ٦٥): الذي ذهب إليه أكثر العلماء...».

ثم ساق كلامًا كثيرًا عن اللجنة الدائمة، وعن الشيخ ابن باز، وعن الشيخ صالح آل الشيخ، وعن الشيخ عبيد...

مُؤدَّى كلامهم: أنَّ قصر الصَّلاة إنما هو سنَّة، وأنَّ صلاة ابن مسعود وراء عثمان بمنًى أربعًا بعد أن أنكر الإتمام على عثمان؛ إنما كانت لأن ابن مسعود يرى أنَّ القصر سنَّة، وكذلك إنما صلى الصَّحابة وراء عثمان أربعًا إلا لأنهم يرون أنه سنَّة.

وأنَّ رسول الله ﷺ إنما تنازل عن هدم الكعبة، ثم عن بنائها على قواعد إبراهيم؛ إنما كان من أجل أن ذلك سنَّة.

والقصد من النقل عن هؤلاء العلماء: إنما هو لإثبات أن فالحًا إمام لا يخطئ أبدًا، وأنَّ الحق حليفه، والصواب دائمًا أليفه، وأنَّ كل من يخالف فالحًا فإنما حليفه الخطأ، بل والضلال والجهل!!

ونسي القوم أنَّ فالحًا كان يستخف بالعلماء، ويتهمهم بالكتمان والخيانة؛ لأنهم يُرَاعون المصالح والفاسد في مواقفهم وتصرفاتهم، وأنَّ فالحًا كان قد اندفع في تبديع جماعات في شتى البلدان تنتمي إلى السَّلفيَّة بدون أدلة، وبدون مُرَاعَاة المصالح والمفاسد التي يراعيها العلماء.

أ- قال أحد السائلين لفالح: «لكن يا شيخنا، لو تلاحظون أنكم تنفردون بكثير من...». وحذف مُفرِّغ الشريط كلامًا صعب عليه إظهاره، لعله من فتاوى التبديع أو الطعن في العلماء..

فأجاب فالح: «نحن لا يهمنا، نحن ندين الله، ونطبق أصول أهل السنَّة والجماعة، فما ندين الله نقول به؛ نصحًا للأمَّة؛ وحماية لهذا الدين: (الدين النصيحة، الدين النصيحة)، (من رأى منكم منكرًا..) الحديث. نحن نستطيع باللسان، وإخوتنا يريدون منا... -وحذف المفرغ هنا كلامًا لعله في غاية السوء- يسألوننا فلا نغشهم ونضللهم، فيه أمور مختلفة، فيه أمور في المنهج، فيه أمور في السنن، والأشياء التي لا يمكننا السكوت يمكن التأخير، أمَّا قضية العقائد والمناهج فيخدعكم من يقول: نسكت في هذا الوقت».

فانظر كيف ينبهه السائل إلى تهوره وتفرده بالمجازفات في الطعن والتبديع لأناس ينتمون إلى السلفية..

فيجيبه: نحن لا يهمنا!! يعني: أنه لا يبالي بشذوذه عن العلماء، وكثرة تهوره ومجازفاته، ويقول: «نحن ندين الله، ونطبق أصول أهل السنَّة والجماعة». يعني: وغيره من العلماء لا يدينون الله، ولا يطبقون أصول أهل السنَّة والجماعة، وهذه فيها إهانة للعلماء واتهام لهم، ثمَّ هو لا يطبق أصول أهل السنَّة والجماعة،

وإنما يطبق أصوله الفاسدة التي اخترعها، وطعن بها في أئمة الحديث والجرح والتعديل.

ومن أصول أهل السنَّة: احترام العلماء، ومراعاة المصالح والمفاسد، وهو لا يقوم بذلك، ثمَّ ما هي القواعد والمناهج التي بينها للناس، وخدع العلماء الناس فيها.

إنَّ علماء السنَّة الذين يطعن فيهم هذا المتعالم المتهور هم الذين بيَّنوا القواعد والمناهج، وواجهوا أعتى طوائف البدع، وبينوا فساد أصولهم ومناهجهم وعقائدهم.

إنَّ فالحًا لا يجيد إلَّا السَّب والشتائم، والتبديع الظالم بدون حُجج ولا براهين.

ب- قال فالح للسائل: «لا تزنوا بموازين أهل الأهواء.

قال السائل: هي حقيقة، نحن نزن -إن شاء الله- بموازين أهل السنَّة المحضة -إن شاء الله-، إلا أنَّ هنا بعض الأمور نطرحها عليكم حتى نجد تفسيرًا؛ مثل كثير منَّا يقول: لماذا مثلًا كبار المشايخ لا يتكلمون؟!

فقال فالح: لا يهمني، لا تسأل هذا!!

قال السائل: صح.

قال فالح: اسألني أنا، ما دام عندي واحد ساكت ما تكلم أنا لا أتكلم، هذا ما هو منهج، هنا من نشر مثل هذه الأشياء، ومن يحفظها يظن أنها هي منهج أهل السنَّة والجماعة، وهذه مشكلة».

والواقف على هذه الأسئلة والأجوبة لا يرى علمًا، ولا قواعد، ولا بيان مناهج، وإنما ظلمات بعضها فوق بعض، وغموض قاتل، وحرب على مُرَاعَاة المصالح والمفاسد، وإخراج لها عن منهج السَّلف، وتجهيل لمن يُنبهه عليها.

١- يقول فالح للسائل: «لا تزنوا بموازين أهل الأهواء». والسائل جاهل، ونفسه تتوق إلى سماع كلام العلماء، ومع ذلك يدَّعي أنه يزن بموازين أهل السنَّة، وهو لا يعرف هذه الموازين، وإنما يسمع موازين فالح الجائرة المنطلقة من الجهل

والظلم، والظاهر أنه يقصد بموازين أهل الأهواء: مُرَاعَاة أهل العلم للمَصَالح والمفاسد.

٢- **يقول السائل**: «مثل كثير منّا يقول: لماذا مثلًا كبار المشايخ لا يتكلمون. فيقول فالح: لا يهمني، لا تسأل».

ويؤخذ من هذا الكلام: أنَّ هناك كثير من السَّلفيين استنكروا فتاوى فالح، وتهوره في الطعن والتشويه والتبديع لأهل السنَّة، وتفرده من بين العلماء بهذه الأمور الخطيرة، فيتطلعون إلى كلام أهل العلم في هذه القضايا، لكن فالحًا لا يهمه هذا التهور، ولا هذا التفرد الخطير، ثم يغرس في نفوس مَن يتعلق به عدم المبالاة بالعلماء والاستهانة بهم، ولو كان يحترم العلماء لأحال طلاب العلم إليهم؛ ليتأكدوا من صحة فتاواه أو عدمها، ولكنه يضرب السُّدود والحجب بينهم وبين العلماء بهذه الأساليب التي يُشعرهم بها بأنه الإمام الوحيد الناصح.

فأين دعاواه الكاذبة؟!! إنه يدعو إلى تقليد العلماء، وأن من لا يقلدهم قد كذب القرآن والسنَّة، وكذب الإسلام، أو نسف رسالات الرسل جميعًا والكتب التي نزلت عليهم؟!!

ألا يدل هذا أنَّ هذا الرجل المتعالم إنما يدعو إلى تقليد نفسه، أو إلى اتباع أصوله الفاسدة، والأخذ بأحكامه الجائرة، وأنه لا يدعو مَن يجب عليهم التقليد في أمور الدين إلى تقليد العلماء، لا السَّابقين ولا اللاحقين؟!!

ماذا يؤخذ من هذا الكلام؟

إنَّ الناس في حالة استنكار لأحكام فالح ومنهجه وأساليبه، فيتساءلون: لماذا لا يقتدي فالح بغيره من العلماء، ويُراعي مصلحة الدعوة؟ لأنهم أدركوا أنَّ هذا الرَّجُل قد أنهك الدَّعوَة السَّلفية وأهلها، ولا يرحم هذه الدعوة، ولا يُراعي مصلحتها، ولا يرحم أهلها.

فيجيب متعاليًا مستخفًّا بأعماله المهلكة، وبمصلحة الدعوة السَّلفيَّة، ومستخفًّا بالعلماء، راكبًا رأسه شأن المستكبرين المتجبرين قائلًا بدون مبالاة: «يا أخي، كل شاة معلقة بكراعها...» (!) إلى آخر كلامه الذي يُمَجِّد فيه نفسه،

وأنه يعرف الحق، ويعرف منهج أهل السنَّة والجماعة، وأنه.. وأنه لا يسعه ما وسع غيره، وأنه يفرق بين الأصول والعقائد والمناهج.

وهو لم يُبين شيئًا لا في فتنة أبي الحسن، ولا من قبله، ولا من بعده، وسحق أناسًا ظلمًا وبغيًا لم يخالفوا الأصول ولا العقائد ولا المناهج، وإنما خالفوا أصوله الفاسدة، فرأى أنه لابد من سحقهم وإسقاطهم بتبديعه الظالم، ويدَّعي لنفسه حماية أصول أهل السنَّة والجماعة، ولو كان صادقًا فيما يدعيه؛ ليبين للناس كيف يُرَاعي المصالح والمفاسد، وأنَّ فلانًا خالف العقيدة أو العقائد الفلانية، وكيف خالف الأصل أو الأصول الفلانية، وفاقد الشيء لا يعطيه!!

ولعجزه وكسله اخترع قاعدة: «لا يُسأل عن أسباب جرح أهل البدع». وأكثر الذين يصفهم بأنهم أهل بدع أفضل وأرسخ في السَّلفيَّة منه، وإنما اصطنع هذه العكازة ليحمي بها نفسه من السقوط، وذهب الجهول يحط من شأن أئمة الجرح والتعديل وأصولهم، ويحكم على بعض قواعدهم بـ: أنها قاعدة ظالمة.. قاعدة ضللت الأمة[1]؛ «رمتني بدائها وانسلت»!!

فأي احترام وتقدير عند هذا الأهوج المتهور للعلماء السَّابقين وقواعدهم؛ فضلًا عن العلماء المعاصرين الذين ما أبقى أحدًا منهم.

ثمَّ مع ذلك لما بينتُ له فساد ما يدعو إليه من التقليد، وأنه لا يدعو إلَّا إلى تقليد نفسه، وفصلت فيه على طريقة أهل العلم، وبينت أن أصل دعوة الأنبياء والمصلحين وأئمة السنَّة والجماعة: إنما هو الدعوة إلى الكتاب والسنَّة، ثمَّ مع ذلك يستثنون العاجزين عن فهم نصوص الكتاب والسنَّة، ذهب يفتري عليَّ، ويُقوِّلني ما لم أقل، ويدَّعي أني خالفت الإمام أحمد والمسلمين وأئمة الدعوة!! كبرت كلمة تخرج من فيه، والله ما يقول إلا الكذب.

ج- وقال له سائل: «لو سمحتم، تكلم الذي معه علم -يعني: هو غير ملزم بالسكوت-.

---

(١) وإذا أخذ أستاذ بنهي أئمة السنة عن التقليد، يقول: إن هذه قاعدة قعَّدها إبليس.

فأجاب فالح: كيف له أن يسكت: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا». وساق آية: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [النساء: ١١٥] الآية. و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩]. . .

ثم قال: فكيف لهذا الإنسان يحاكم إلى الآخرين، ويتبع الآخرين، ويكون ذيلًا لهم؟! ما يصلح هذا الكلام؛ خصوصًا إذا كان الآخرين[1] لم يُبينوا أو لم يعلموا».

والظاهر أنه يتكلم عن أناس لم يقلدوه، ولم يقبلوا أصوله وأحكامه الباطلة، فاعتبرهم ممن شاق الرَّسُول من بعد ما تبين له الهدى، وفي الوقت نفسه يرمي العلماء بالكتمان أو الجهل؛ لأنهم لم يُبينوا، أو لم يعلموا، أي: لم يتهوروا مثله، ويُبَدِّعُوا الناس ظلمًا وعدوانًا.

فيا له من إمام علم ما لم يعلم العلماء، ويُبين ما لم يبينوا، وهكذا ينفخ في نفسه أمام الجهال؛ ولاسيما بعيدي الديار الذين لا يعرفون حقيقته، ثم يهين أمامهم العلماء، فيصفهم بالكتمان أو الجهل، فأين بيانك للناس؟! وأين علمك الذي نشرته في الدنيا أيها العاجز الفقير من العلم والبيان؟؟!!

فهذه بعض جذور الخلاف التي وقعت بيني وبين هذا الأهوج المتعالم، الذي يقلب الأمور، ويتعلق بمسائل يفتعلها يُلهي بها الناس عن جهالاته وظلماته وأصوله الفاسدة وأحكامه الجائرة.

ولم يأت بشيء صريح عن السَّلف، وإنما أورد أقوال علماء من أتباع السَّلف المتأخرين، وهذا من إفساد هؤلاء القوم للمصطلحات السَّلفيَّة، فإن المشهور عند الناس إذا قيل: أقوال السلف في كذا. أنَّ المراد بـ: «السَّلف»: الصَّحَابة، ثم التابعون، ثم أئمَّة الهدى في القرون الأولى.

المهم نقل عن ابن عبد البر، وهيئة كبار العلماء برئاسة الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، والشيخ عبيد الجابري، والشيخ فالح مع الأسف!! ثم بعد فالح شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم، وأظنه استحى

---

(١) كذا.

من العلماء المعاصرين أن يقدم عليهم فالحًا، ولم يستح من تقديمه على الإمامين: ابن تيمية، وابن القيم.

والحاصل: أنه طوَّل في النقل عن هؤلاء العلماء؛ لإثبات حكم قضيتين:

الأولى: صلاة الصَّحابة وهم مسافرون خلف عثمان ﷺ بمنى أربع ركعات، وذلك يدل أنَّ قصر الصَّلاة في السَّفر سنَّة، وليس بواجب، ولو كان القصر واجبًا لما صلوا وراء عثمان، ولو ترتب على ذلك من المفاسد والهلاك ما ترتب.

والقضية الثانية: أنَّ هدم الكعبة وبناءها على قواعد إبراهيم سنَّة، والدليل: حديث عائشة ﷺ: «**لولا أنَّ قومك حديثو عهد بكفر لهدمت الكعبة، ولبنيتها على قواعد إبراهيم**». ولو كان هدمها وبناؤها من الواجبات؛ لما تركه رسول الله ﷺ، ولو ارتدت قريش والعرب من ورائها.

والحق: أنه ليس قصد أمثال هذا الرجل نصر دين الله ونصر السنَّة، وإنما القصد: نصر هذا الرجل العجيب فالح، وما أدراك ما فالح؟!!

أما القضية الأولى: فقد نقل من كلام ابن عبد البر ما يفيد أن القصر سنَّة، وعزا ذلك إلى أكثر أهل العلم، وأنَّ ابن مسعود لو كان يرى أنَّ القصر واجب لما صلى أربعًا خلف عثمان.

والجواب ما يأتي: قال أبو سليمان الخطابي المتوفى سنة (٣٨٨هـ) وهو من المعاصرين للدارقطني، ومن شيوخ الحاكم أبي عبد الله..

قال في مسألة القصر في السفر: «واختلف أهل العلم في هذه المسألة، فكان أكثر مذاهب علماء السَّلف وفقهاء الأمصار على أنَّ القصر هو الواجب في السَّفر، وهو قول عمر، وعلي، وابن عمر، وجابر، وابن عباس.. وروي ذلك عن عمر بن عبد العزيز، والحسن، وقتادة.. وقال حماد بن أبي سليمان: يُعيد من صلى في السَّفر أربعًا. وقال مالك بن أنس: يُعيد ما دام في الوقت. وقال أحمد بن حنبل: السنَّة ركعتان. وقال مرة: أنا أحب العافية من هذه المسألة. ثم ذكر أن الشافعي قال بالخيار». معالم السنن مع مختصر المنذري لأبي داود (٢/ ٤٧).

فهل هؤلاء العلماء -وهم أكثر علماء السَّلف وفقهاء الأمصار ومنهم عمر،

وعلي، وابن عباس. . وغيرهم من الصَّحَابة من القائلين بوجوب القصر على المسافر- يُعدُّون من السَّلف، أو لا يعدون منهم؟!! لأنهم خالفوا مذهب فالح وعصابته.

فهؤلاء -علي، وابن عمر، وجابر- كانوا ممن يرى وجوب القصر، ومع ذلك يُصلون وراء عثمان درءًا للفتن، وسدًّا لأبوابها التي تؤدي إلى سفك الدماء، وفشل الأمة، وتسليط الأعداء عليها.

ألا يكون هذا من التنازل عن الأصول والواجبات من أجل هذه الغايات الكبرى عند مَن يرى أن الأصل هو القصر.

ويقول رسول الله ﷺ: «**صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**». فالقيام في الصلاة والقعود فيها ركنان من أركان الصلاة -أي: من الأصول والواجبات-، تسامح ربُّ السَّمَوات والأرض عنها؛ لرفع الحرج عن الأمَّة، فهو تسامح في أصول وواجبات، لا في سنن ومستحبات، ألا يكفي هذا وحده زاجرًا لهذه العصابة عن الدعاوى الباطلة، وزاجرًا عن الكلام المتواصل بالجهل في المسائل العلمية، ألا ترون أن قاعدتكم قد انهارت، وخر عليكم السَّقف من حيث لا تشعرون.

وهذا شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى غير هذا الرأي الذي يزعم هؤلاء أنه يرى أن التنازل لأجل المصالح والمفاسد لا يكون إلَّا في الأمور المستحبَّة.

فقد سُئل عن أشياء اختلف العلماء في أيها الأفضل؛ مثل الاستفتاحات والتشهدات؟ فأجاب شيخ الإسلام بمشروعية العمل بالأمرين المختلف فيهما إذا كان النبي ﷺ قد بيَّن الأمرين.

ثم انتقل إلى نوع آخر من الأمور المتفق عليها بين العلماء، والاختلاف إنما هو في الأفضل منهما.

ثم انتقل إلى نوع آخر فقال: «وقد تنازعوا -يعني: العلماء- فيما إذا ترك الإمام ما يعتقد المأموم وجوبه؛ مثل: أن يترك قراءة البسملة، والمأموم يعتقد وجوبها، أو يمس ذكره ولا يتوضأ، والمأموم يرى وجوب الوضوء من ذلك، أو

يصلي في جلود الميتة المدبوغة، والمأموم يرى أن الدباغ لا يطهر، أو يحتجم ولا يتوضأ، والمأموم يرى الوضوء من الحجامة.

والصحيح المقطوع به: أن صلاة المأموم صحيحة خلف إمامه، وإن كان إمامه مخطئًا في نفس الأمر؛ لما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطئوا فلكم وعليهم**». مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٦٧).

فهذه عدد من الأمور يعتقد المأمومون وجوبها، وهي تتعلق بالركن الثاني من الإسلام ألا وهو الصلاة.

يرى شيخ الإسلام أن على المأمومين أن يتنازلوا عما يرونه من أوجب الواجبات، والتنازل عما يرونه من تحريم الصَّلاة وراء إمام فعل ناقضًا من نواقض الصَّلاة، أو أخل بواجب من واجباتها، أو أخل بشرط من شروطها.

ولا يقول بهذا شيخ الإسلام وحده، بل هناك أئمَّة يقولون بمثل قوله في هذه القضايا.

فما رأي مَن يرى أنه لا يُتَنَازَل إلَّا عن الأمور المستحبة؟!

وقال ابن قدامة في المقنع (١/ ٤٧٣): «ومن أحرم فحصره عدوٌّ، ولم يكن له طريق إلى الحج؛ ذبح هديًا في موضعه وحلَّ».

قال المحشِّي تعليقًا على هذا الكلام: «ويباح أيضًا تحلل من إحرام لحاجة إلى قتال، أو بذل مال كثير مُطلقًا أو يسير لكافر، لا لحاجة بذل يسير لمسلم».

فهذا فيه تنازل عن واجب إلى واجب؛ تلافيًا لدفع مال يسير إلى كافر أو مال كثير ولو لمسلم.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فصل جامع في: تعارض الحسنات، أو السيئات، أو هما جميعًا إذا اجتمعا، ولم يمكن التفريق بينهما، بل الممكن إمَّا فعلهما جميعًا، وإما تركهما جميعًا».

وقال: «قد أمر اللَّه ورسوله بأفعال واجبة ومستحبة...».

ثم قال: «وقيَّد الأمور بـ: القدرة، والاستطاعة، والوسع، والطاقة...». وساق آيات في هذا المعنى، منها قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]...

ثم قال: «قد ذكر في الصِّيام والإحرام والطهارة والصلاة والجهاد من هذا أنواعًا».

وقال في المنهيات: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]... وساق آيات فيها التخفيف والرخصة.

ثم قال: «وقال في المتعارض: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]... وساق آيات في هذا المعنى.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «التعارض إمَّا بين حسنتين لا يمكن الجمع بينهما، فتقدم أحسنهما بتفويت المرجوح، وإمَّا بين سيئتين لا يمكن الخلو منهما، فيدفع أسوأهما باحتمال أدناهما، وإمَّا بين حسنة وسيئة لا يمكن التفريق بينهما، بل فعل الحسنة مُستلزم لوقوع السيئة، وترك السيئة مستلزم لترك الحسنة؛ فيرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومَضرَّة السيئة».

ثم ذكر تعارض الواجب والمستحب، وفرض العين وفرض الكفاية، وتعارض قضاء الدَّين وصدقة التطوع...

إلى أن قال: «وتقديم الجهاد على الحج كما في الكتاب والسنَّة متعين على متعين، ومستحب على مستحب».

أي: لو تعارض الحج الواجب والجهاد العيني؛ قدِّم الجهاد على الحج، ولو تعارض الحج المستحب والجهاد المستحب؛ قدِّم الجهاد المستحب على الحجِّ المستحب.

ثم بعد مناقشات لأمور في هذا الباب قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وأمَّا سقوط الواجب لمضرَّة في الدنيا، وإباحة المحرم لحاجة في الدنيا، كسقوط الصيام لأجل السفر،

وسقوط محظورات الإحرام وأركان الصَّلاة لأجل المرض؛ فهذا باب آخر يدخل في سعة الدِّين، ورفع الحرج الذي تختلف فيه الشرائع؛ بخلاف الباب الأول، فإن جنسه مما لا يمكن اختلاف الشرائع فيه، وإن اختلفت في أعيانه».

في هذا الكلام كما ترى تسقط واجبات عظيمة تظهر فيها سعة الدين، ويظهر فيها رفع الحرج.

ثم قال: «إذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما؛ فقدم أوكدهما؛ لم يكن الآخر في هذه الحال واجبًا، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة».

* **أقول:**

ومثال تعارض الواجبين: الحج والجهاد، وبر الوالدين والجهاد؛ فيقدم الجهاد العيني على الحج العيني، وعلى بر الوالدين.

والشاهد منه: مشروعية ترك واجب لما هو أوجب منه، وفيه إبطال دعاوى فالح وحزبه بـ: أنه لا يتنازل عن الواجبات والأصول.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك إذا اجتمع محرَّمان لا يمكن ترك أعظمهما إلَّا بفعل أدناهما؛ لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرمًا في الحقيقة، وإن سمي ذلك: ترك واجب، وسمي هذا: فعل محرم؛ باعتبار الإطلاق لم يضر.

ويقال في مثل هذا: ترك الواجب لعذر، وفعل المحرم للمصلحة الراجحة، أو للضرورة، أو لدفع ما هو أحرم». مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٨-٥٧).

قال الكاتب «أسامة سالم» ناقلًا عن فالح:

«فالشيخ ربيع له فهم في المصالح والمفاسد، ولا أحد يُنازعه في فهمه، ولكن الذي نفهمه نحن: أن المصالح والمفاسد تتماشى مع الشريعة، وأنها لابد أن ينظر فيها على وفق منهج أهل السنَّة والجماعة، وألَّا تخضع للاجتهاد الشخصي إذا خالف ما كانوا عليه، وقد كنت مثلت بصلاة الصحابة خلف عثمان، وأنهم صلوا أربعًا خلفه لما صلى أربعًا، وقال ابن مسعود: «**الخلاف شر**»[1]. وأيضًا كانوا قد

---

(١) ابن مسعود رضي الله عنه الظاهر من حاله: أنه يرى أنَّ قصر الصلاة واجب، ولكن لدفع هذا الشرِّ صلَّى هو وغيره من الصَّحابة وراء إمام المسلمين، الذي يرى الإتمام في السَّفر.

صلوا خلف رسول الله ركعتين، هذا في منى.

فالشيخ ربيع رأى ذلك من الأصول، وأنَّ الرسول ﷺ لم يهدم الكعبة مُراعَاة للمصالح والمفاسد.

ولكن قلت أيضًا: هذا ليس في الأصول، وإنما هو في ما لم يكن فيه ترك واجب، أو ترك أصل من أصول الدِّين، وهذا ما صرح به أهل العلم، هذا ما رآه البخاري، وما رآه ابن حجر، وما رآه الشيخ عبد العزيز بن باز، وما رآه الشيخ حماد ابن محمد الأنصاري[1]، وغير هؤلاء من أهل العلم، ولا أعلم أحدًا من أهل العلم يخالف في أنَّ الشيخ ربيعًا في هذه المسألة وقع في قضية فيها في الحقيقة ما فيها من نظر، وكان المفروض أنه ما يقع فيما وقع فيه». الجواب المنيع (١٤/ ١٥).

* أقول:

من المؤسف أن يُعد هذا الرَّجُل في كبار علماء السنَّة بعد أن تبيَّن للعقلاء جهله وأكاذيبه، ويُقدم على شيخَيْ الإسلام: ابن تيمية، وابن القيم (!) وهذا من عجائب هذه الطائفة ومن علامات الساعة.

والجواب على هذا الكلام من وجوه:

١- من قال: إنَّ المصالح والمفاسد لا تتماشى مع الشريعة، وألَّا يُنظر فيها لتوافق منهج أهل السنَّة، وهل فالح يعمل وفق هذه المصالح التي تتماشى مع الشريعة؟! كلا!!

فما أعرف أحدًا ينتمي إلى أهل السنَّة يضرب بمُرَاعَاة المصالح والمفاسد عرض الحائط مثل فالح، ولا يراعيها ولا يسمع لنصح من يلزمه بمراعاتها، وكم قد غامر بالسَّلفيَّة؛ اتباعًا لهواه، وعدم الالتفات إلى ما يجب عليه من مراعاة المصالح والمفاسد، وكم أثقل كاهل السَّلفية وكواهل أهلها بتصرفاته الفوضويَّة التي لا تتقيد بأصول أهل السنَّة والجماعة، ولا بالمصالح والمفاسد..

---

(١) رأوا هذا في قضية معيَّنة، ولم يضعوا قاعدة عامَّة، ثمَّ هذه القضية لو علموا أنَّ مثلك يتعلق بكلامهم فيها؛ لأحاطوا بها من كل جوانبها، ألا ترى هذه التأصيلات الشاملة والسنن والواجبات.

وكم أحدث من الفتن بين السلفيين في مشارق الأرض ومغاربها، وكم بدَّع من السَّلفيين الأبرياء بظلمه وفوضويته، ولو كان يحترم السَّلف ومنهجهم، ويحترم ما قرره السلف من وجوب مُراعَاة المصالح والمفاسد؛ لما فعل واحدًا في المائة مما ارتكبه في حق السَّلفيَّة والسلفيين.

٢- قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**الخلاف شر**». فهل استفاد فالح من فقه ابن مسعود، فابتعد عن الخلاف لأنه شر، أو أنه من أشد المسرفين في إثارة الخلافات والفتن؟!

٣- قال: «فالشيخ ربيع رأى ذلك من الأصول، وأن الرسول ﷺ لم يهدم الكعبة مُرَاعَاة للمصالح والمفاسد».

أقول: لقد سلك فالح في التهويش عليَّ مسالك أهل الأهواء والظلم، فتجد أحدهم يقول: قال فلان كذا.. وقال فلان كذا، ولا ينقل كلام خصمه بعينه، ولا بمعناه الصَّحيح، ولا يُلخِّص الكلام تلخيصًا أمينًا، وهكذا سلك فالح في كل ما ينسبه إليَّ، ويكون كاذبًا ظالمًا فيما ينسبه إليَّ، مثل: «قضية التقليد» لا ينقل كلامي فيه بنصِّه أو بمعناه، وإنما يقول: قال ربيع كذا، وخالف أحمد، وخالف أئمَّة الدَّعوة، وخالف المسلمين!!

وإذا رجع القارئ إلى كلامي يجده موافقًا لمنهج السَّلف ولمنهج أحمد وأئمَّة الدَّعوَة وعلماء الإسلام، ويدرك بطلان دعوى هذا الرجل.

ويقول عني: إنِّي خالفت السَّلف في جنس العمل، وفي قضايا الإيمان، وهو الكذوب، وإذا رجع المسلم المنصف إلى كلامي يجده مطابقًا لمنهج السَّلف ولما قرَّرُوه، ويجد في كلامي التصريح بـ: أنَّ تارك العمل بالكلية كافر زنديق.

وإنما حذرت من لفظ: «**جنس العمل**»؛ لأنه سلاح خبيث من أسلحة التكفيريين؛ ليدعموا به منهجهم التكفيري، وحذرت منه لما ينطوي عليه من الفتن، فأنا أسلك فيه مسلك السَّلف في سَدِّ الذرائع، وإغلاق أبواب الفتن، وأسوق الحجج والقواعد التي تُبيِّن الحق المبين في التحذير من هذا اللَّفظ، وأحضُّ مع ذلك على التمسك بتعريف السَّلف للإيمان بأنه: «**قول وعمل واعتقاد**،

يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية»، فلا يرفع فالح بذلك رأسًا، ولا يقبل تلك الحجج التي أوردها . .

ومن حُجَجي مواقف من رسول اللّه وأصحابه في سَدِّ أبواب الفتن، واجتناب الألفاظ أو الكلام الذي يؤدِّي إلى إثارة الفتن والشبهات.

ومن افتراءاته عليَّ أنني قلَّدت فلانًا في القول بـ: «أن العمل شرط كمال في الإيمان».

ويعلم اللّه أنني أول مَن حَذَّر من هذا القول من قبل صدور كتاب «خالد العنبري» ونشره، وأنني حذَّرت العنبري، وطلبت منه حذفه من كتابه، ولما جرى فيه الأخذ والرَّد كنت ممن يحذر من استخدامه، أو الخوض فيه، وأحضُّ مَن يجادل فيه على التمسك بتعريف السَّلف للإيمان.

وما كان لفالح في هذه الأمور -فيما أعلم- ناقة ولا جمل، وإنما أثارها هذه الأيام على الوجه الذي حكيته عنه للشغب والفتن والتبديع بالأكاذيب والأراجيف!!

ومن أخف ظلمه وأراجيفه ما قاله عنِّي هنا: «فالشيخ ربيع رأى ذلك من الأصول، وأن الرسول ﷺ لم يهدم الكعبة؛ مُراعَاة للمصالح والمفاسد».

وهو كلام غامض، فهل يريد أنَّ رسول اللّه ﷺ ترك هدم الكعبة لأمر آخر غير مُراعَاة المصالح والمفاسد، أو يريد معنى آخر؟!

ولكني أسوق كلامه في قضية عدم هدم الكعبة، وقضية صلاة الصَّحَابة وراء عثمان أربعًا وهم في منى.

وأسوق مناقشتي له في هاتين القضيتين؛ ليقف القارئ على الحقائق بنفسه، ويصل إلى النتائج من كلامي نفسه، كما وصل إليها العلماء الأجلاء . .

وهاكم نص كلامه، ثم نص مناقشتي له:

قلتم -أي: فالح-: «وهناك أمورٌ الرسول ﷺ صرَّح على أنه تركها، مثل: (لولا أن قومك . .) حديث عائشة، وكذلك لما الصحابة رضي الله عنهم صلَّوْا وراء عثمان رضي الله عنه وقد صلى خلف الرسول ﷺ ركعتين وهو متم، وهكذا هذه الأمور ليست في

الأصول، وفي الأمور الحتمية والقطعية والعقائد؛ فانتبهوا إلى هذا -بارك الله فيكم-».

فقلت أنا -مناقشًا له-: «**أقول:** إن ترك النبي ﷺ بناء الكعبة من ترك مصلحة مَرجُوحَة لدرء مفسدة كبيرة، درؤها هو الراجح والمقدَّم.

هذه المفسدة هي: خشية أن ترتد قريش وغيرهم من العرب لمكانة الكعبة في نفوسهم، ونفوس آبائهم وأجدادهم؛ إذ هي مصدر فخرهم واعتزازهم.

فترك رسول الله ﷺ هدم الكعبة وبناءها على قواعد إبراهيم؛ لدرء هذه المفسدة.

فعمل الرسول هذا تقعيد لقاعدة عظيمة، وتأصيل متين لأمته؛ ليواجهوا به الأحداث والمشاكل الدينية، والسياسية، والاجتماعية.. وغيرها.

وإذن فترك الرسول ﷺ لهذا العمل ليس من باب ترك عمل فرعي، وإنما هو دفع لفتنة وتأصيل للأمَّة لتواجه به الأخطار والمشاكل والفتن.

ودرء المفاسد مُقدَّم على جلب المصالح، وسد الذرائع المفضية إلى الأضرار والمفاسد من الأصول العظيمة التي لا يقوم الإسلام وحياة المسلمين إلَّا عليها.

خذ مثلًا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فإنَّ سَبَّ أوثان المشركين حَقٌّ وقُربةٌ إلى الله وإهانة للأنداد، لكن لما كان يُؤدِّي إلى مَفسَدَة كبرى هي سب الله؛ وجب تركه، فليس هذا العمل من باب الفروع، وإنما هو من باب الأصول والعقائد.

وصلاة الصَّحَابة وراء عثمان رضي الله عنه وهو يُتم في صلاة كان يقصرها رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمر؛ ليس من التنازل عن سنَّة، أو عمل فرعي، وإنما هو من باب درء المفاسد الكبرى، فلو تركوا الصَّلاة خلف إمام المسلمين؛ لأدَّى ذلك إلى الخلاف والتنازع، وافتراق الأمة، وسفك الدماء». انتهى.

فهل يوجد أحد عنده شيء من الفقه لدين الله يقول: إنَّ كلام ربيع هذا باطل؟!

ولو وقف العلماء الذين استشهد بهم الكاتب على كلامي لأقرُّوه، وقد أقرَّه فعلًا

عَددٌ غيرهم ممن اطَّلع على كلامي هذا في مناقشاتي لفالح.

وأقول: «لقد اندفع فالح في الفتن وفي التبديع بالباطل والظلم، فسَحَقَ كثيرًا من السَّلفيين الأبرياء، وكان بعض مَن يسأله يقول له: ألا ترى أنك متفرد عن المشايخ، وهم قد يُراعون المصالح والمفاسد، فلا يتكلمون فيما تتكلم فيه؟

فيجيب: كل شاة بكراعها معلقة.. وأنا.. وأنا. ويُعرِّض بالعلماء الذين لا يُجارونه في تهوره، ويُعرِّض بكتمانهم للعلم.. إلى أمور تشيب لها النواصي، غير مُلتفت للمَصَالح والمفاسد التي يُرَاعيهَا العلماء؛ ولا سيما علماء المنهج السلفي.

فنصحته وتوسعت في بيان المصالح والمفاسد، وضربت له بعض الأمثلة فيها مُرَاعَاة رسول الله ﷺ وأصحابه للمصالح والمفاسد، وحكمته فيها، ومنها صلح الحديبية، وكيف تمَّ هذا الصلح، وكيف راعى فيه رسول الله ﷺ المصالح والمفاسد، وكيف تسامح في أمور مُهمَّة، وماذا حَقَّقَ الله بهذا الصلح من المصالح العظيمة، ونقلت فيه كلامًا مهمًّا لابن القيم، ولابن حجر -رحمهم الله-!!

ومن ضمن كلامي في هذا الصلح ما يأتي ضمن كلام طويل:

أقول: لقد تسامح رسول الله ﷺ في هذا الصلح في أمور عظيمة من أصول وفروع:

فمن الأصول التي تسامح فيها: عدم كتابة «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، والأخذ بما اقترحه سهيل بن عمرو: «**باسمك اللهم**» مع غضب الصَّحَابة، وحلفهم بالله أنه لا يكتب إلَّا: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، وتسامح في عدم كتابة: «**محمد رسول الله**»، وهي الركن الثاني من أركان الشهادتين أصل الإسلام، وكتابة ما أصر عليه سهيل بن عمرو مندوب قريش: «**محمد بن عبد الله**» إلى شروط مجحفة... إلخ.

كتبت هذا وغيره نصيحة لفالح لعله يستفيد من هذه النصيحة، فيرجع عن تماديه في الفتن؛ فأبى إلَّا التمادي والشَّغب.

وقرأ عددٌ من العلماء هذا الكلام واستجادوه، ونصروه، وأيَّدُوه، وحثَّه أقربهم إليه على الرجوع إلى الحقِّ، ولكنه أبى وعاند، وأبى إلَّا التمادي في الفتنة بالكذب الصِّرف، وبإلقاء الشبه والتشويش على كلامي هذا وغيره مما تضمنته

كتاباتي!!

ومن الشبه التي ألقاها على بعض الإخوة وفي روعهم: أنَّ كلامي يدلُّ على أن رسول الله ﷺ تنازل عن الإيمان بأنَّ «الرَّحمن الرَّحيم» اسمان لله -تبارك وتعالى- ، دالان على صفة عظيمة له وهي الرحمة، ويدل على أنه تنازل عن الرسالة.

وقال هذا البعض المشار إليه: ومعلوم الفرق بين التنازل عن الكتابة والتنازل عن الرسالة، والإيمان بأسماء الله وصفاته. فدهشت لهذا الظلم، واقشعر جلدي، ولا تزال الدهشة والقشعريرة تلاحقني بسبب هذا البهت الذي فعله فالح وشوَّش به، والذي لا يخطر ببال مسلم؛ فضلًا عن إنسان يُعظِّمُ اللهَ ويُجلُّه، ويُعنىَ بقضايا التوحيد، ويُدَرِّسُه من أزيد من أربعين عامًا.

لقد عتبتُ على هذا البعض في كلام طويل، ومن ضمنه قولي: أما يكفيكم تصريحي بقولي: تسامح في عدم كتابة: بسم الله الرحمن الرحيم. وعدم كتابة: محمد رسول الله. تفريقًا -والله قصدته- بين التسامح بترك كتابة لفظ هذين الأصلين، وبين ترك الأصلين نفسيهما، والتنازل عنهما، وذلك لا يخفى على مسلم ولو كان من أجهل الناس.

ثمَّ أما يكفيكم ما نقلته عن صحيح البخاري من جواب رسول الله ﷺ على المشركين: «**والله إنِّي لرسول الله وإن كذبتموني**».

إنَّ ما قاله النووي[1] جيد في الجملة.

وقلت أنا: «ونقلت عن ابن القيم وابن حجر مثله في المصالح العظيمة التي ترتبت على هذا الصلح أو أقوى».

وهو يقول: «وافقهم رسول الله ﷺ في: **محمد بن عبد الله، وترك كتابة: رسول الله**».

وأنا قلت: «تسامح بعدم كتابة: **محمد رسول الله**».

وهو قال: «وافقهم في ترك كتابة: **بسم الله الرحمن الرحيم**».

---

(١) أشير إلى كلام نقله عن النووي.

وأنا قلت: «تسامح بعدم كتابة: بسم الله الرحمن الرحيم».

ولي وجهة نظر في قوله: أمَّا البسملة و (باسمك اللهم) فمعناهما واحد.

فأقول: لو كان معناهما واحدًا، فلماذا رفض سهيل بن عمرو كتابة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ورضي بكتابة: «باسمك اللهم»؟! ولماذا غضب الصَّحابة من كتابة: «باسمك اللهم»، وحلفوا ألَّا يكتب إلَّا: «بسم الله الرحمن الرحيم».

وهل يجزئ كتابة: «باسمك اللهم» في صدور سور القرآن بدل: «بسم الله الرحمن الرحيم»؟! وهل يجوز أن نقول حينما نقرأ سورة الفاتحة في صلاتنا أو في غيرها أن نقول: «باسمك اللهم».. وهل.. وهل..؟!!

وكذا قوله: «محمد بن عبد الله هو أيضًا رسول الله ﷺ». أي: أن معناهما واحد!!

فأقول: لو قال كافر يريد الدخول في الإسلام: أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمد بن عبد الله. أيدخل بهذا في الإسلام؟! وإذا قال المؤذنون في أذانهم: أشهد أنَّ محمد ابن عبد الله. أيصحُّ هذا منهم؟! وهل يجزئ المصلي في تشهده أن يقول: أشهد أن محمد ابن عبد الله.

إن قلت: لا يصح شيء من هذا كله.

قلنا: إذن؛ بطل القول بأن المعنى فيهما واحد.

ومما يؤكد أنَّ رسول الله ﷺ وأصحابه قد تنازلوا عن واجبات عظيمة مراعاة لمصالح كبرى: أنَّ رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا قد أهَلُّوا بالعمرة في غزوة الحديبية، وساقوا هديهم من الإبل وغيرها، ومن الواجب عليهم: أن يتموا هذه العمرة، ومن الواجب عليهم: ألا ينحروا هديهم ويحلقوا رءوسهم إلَّا بعد الطواف بالبيت، وبعد السعي بين الصفا والمروة، والطواف والسعي ركنان في العمرة، فمراعاة منهم للمصالح والمفاسد تنازلوا عن القيام بهذه الواجبات والأركان التي أوجبها الله بقوله: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦].

فمن يقول: إنه لا يجوز التنازل عن الواجبات؛ فقد أبعد النجعة عن فقه كتاب

الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ، وفقه سيرته، وفقه علماء الشريعة، وقد تقدمت أمثلة في هذا الباب من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

وأضيف: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أنَّ المحرمات قسمان:

أحدهما: ما يقطع بأن الشرع لم يبح منه شيئًا؛ لا لضرورة ولا لغير ضرورة كالشرك والفواحش، والقول على الله بغير علم والظلم المحض، واستشهد بقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] الآية.

ثمَّ قال: «فهذه الأشياء محرمة في جميع الشرائع، وبتحريمها بعث الله جميع الرسل، ولم يبح منها شيئًا قط، ولا في حال من الأحوال».

ثم ذكر المحرمات الأخرى كالميتة والدم ولحم الخنزير، وذكر أنها تباح عند الضرورة، وذكر محرمات أخرى كالميسر والربا، وأنَّ بعض أنواعها يُبَاح عند الحاجة.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: **«والمقام الثاني**: أن يفرق بين ما يفعل الإنسان ويأمر به ويبيحه، وبين ما يسكت عن نهي غيره عنه وتحريمه عليه، فإذا كان من المحرمات ما لو نهى عنه حصل ما هو أشد تحريمًا منه؛ لم ينه عنه، ولم يبحه أيضًا.

ولهذا لا يجوز إنكار المنكر بما هو أنكر منه، ولهذا حرم الخروج على ولاة الأمر بالسيف؛ لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن ما يحصل بذلك من فعل المحرمات وترك واجب أعظم مما يحصل بفعلهم المنكر والذنوب.

وإذا كان قوم على بدعة أو فجور، ولو نهوا عن ذلك؛ وقع بسبب ذلك شر أعظم مما هم عليه من ذلك، ولم يمكن منعهم منه، ولم يحصل بالنهي مصلحة راجحة؛ لم ينهوا عنه». اهـ من مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٧٠-٤٧٢).

*** أقول:**

إنَّ إنكار المنكر من أعظم الواجبات، ومن أصول الدِّين، لكنَّه قد يجب التنازل عنه مُراعَاة للمصالح والمفاسد، وهذا ما يَرَاه علماء الإسلام، ودلَّت عليه الشريعة، وهذا ما يقرِّره شيخ الإسلام.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «فينبغي للعالم أن يتدبر أنواع هذه المسائل، وقد يكون الواجب

في بعضها -كما بينته فيما تقدم-: العفو عند الأمر والنهي في بعض الأشياء، لا التحليل والإسقاط، مثل أن يكون في أمره بطاعة فعلًا لمعصية أكبر منها؛ فيترك الأمر بها دفعًا لوقوع تلك المعصية، مثل أن ترفع مُذنبًا إلى ذي سلطان ظالم، فيعتدي عليه في العقوبة ما يكون أعظم ضررًا من ذنبه. .

ومثل أن يكون في نهيه عن بعض المنكرات تركًا لمعروف هو أعظم منفعة من ترك المنكرات، فيسكت عن النهي؛ خوفًا أن يستلزم ترك ما أمر اللَّه به ورسوله مما هو عنده أعظم من مجرد ترك ذلك المنكر.

فالعالم تارة يأمر وتارة ينهى، وتارة يبيح وتارة يسكت عن الأمر، أو النهي، أو الإباحة، ك: الأمر بالصلاح الخالص أو الراجح، أو النهي عن الفساد الخالص أو الراجح، وعند التعارض يرجح الراجح -كما تقدم- بحسب الإمكان.

فأمَّا إذا كان المأمور والمنهي لا يتقيد بالممكن: إما لجهله وإما لظلمه، ولا يمكن إزالة جهله وظلمه؛ فربما كان الأصلح الكف والإمساك عن أمره ونهيه، كما قيل: إنَّ من المسائل مسائل جوابها السكوت، كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء والنهي عن أشياء حتى علا الإسلام وظهر.

فالعالم في البيان والبلاغ كذلك، قد يُؤخِّرُ البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكن، كما أخَّرَ اللَّه سبحانه إنزال آيات وبيان أحكام إلى وقت تمكن رسول اللَّه ﷺ تسليمًا إلى بيانها». اهـ المجموع (٢٠/ ٥٨-٥٩).

* **قلت:**

وهذا هو الفقه لدين اللَّه، فالعالم بدين اللَّه -تبارك وتعالى- تارة يأمر بالمعروف، إذا كانت مصلحة الكلام والأمر راجحة، وتارة يسكت ويتنازل عن واجب الأمر بالمعروف، إذا كان الكلام يُؤدي إلى مفسدة راجحة، وهذه الأمور لا يُدركها فالح، ولا يعمل بها، ويُنبَّه إلى متابعة العلماء في هذا الفقه؛ فيرفض ويستهين بالعلماء، ويتَّهمهم بالجهل والكتمان.

وقال الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ الشريعة مَبنَاهَا وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها،

ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة[1] خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل» اهـ.

ثم قال: «المثال الأول: أن النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر؛ ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه، وأبغض إلى الله ورسوله؛ فإنه لا يسوغ إنكاره[2] وإن كان الله يبغضه، ويمقت أهله..

وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم، فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصَّحَابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يُؤَخِّرُونَ الصَّلاة عن وقتها، وقالوا: «أفلا نقاتلهم؟ فقال: لا، ما أقاموا الصلاة». وقال: «مَن رأى من أميره ما يكرهه فليصبر، ولا ينزعن يدًا من طاعته».

ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار؛ رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته، فتولد ما هو أكبر منه، فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات، ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكة، وصارت دار إسلام؛ عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم، ومنعه ذلك -مع قدرته عليه- خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك؛ لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهد بكفر؛ ولهذا لم يأذن في إنكار على الأمراء باليد؛ لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه». إعلام الموقعين (٣/ ١٤-١٦).

* **قلت:**

فهل كلامي الذي أقام عليه فالح الدنيا ولم يُقعدها يختلف في شيء عن كلام الإمام ابن القيِّم هذا؟!!

---

(١) أي: كمسائل فالح.

(٢) أي: أنه يحرم إنكار المنكر إذا كان يُؤدِّي إلى مفسدة أعظم من المصلحة التي يُحققها، وهذا أشدُّ من قولي: «يجوز التنازل عن الواجبات أحيانًا». وهل فالح وحزبه يرون الآن أنه لا يجوز التنازل عن الخروج على الحكّام؛ لأنَّ الأمر بالمعروف من الواجبات التي لا يجوز التنازل عنها؟!!

ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

«فإنكار المنكر أربع درجات :

الأولى : أن يزول ، ويخلفه ضده .

الثانية : أن يقل ، وإن لم يزل بجملته .

الثالثة : أن يخلفه ما هو مثله .

الرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه .

فالدرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة ، فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج ؛ كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة ، إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى اللَّه ورسوله كرمي النشاب وسباق الخيل . . ونحو ذلك .

وإذا رأيت الفسَّاق قد اجتمعوا على لهو ولعب ، أو سماع مكاء وتصدية ، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله ؛ فهو المراد ، وإلا كان تركهم على ذلك خيرًا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك ، فكان ما هم فيه شاغلًا لهم عن ذلك .

وكما إذا كان الرجل مشتغلًا بكتب المجون ونحوها ، وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضَّلال والسحر ؛ فدعه وكتبه الأولى ، وهذا باب واسع ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدَّس اللَّه روحه ونور ضريحه- يقول : مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر ، فأنكر عليهم مَن كان معي ، فأنكرت عليه ، وقلت له : إنما حرم اللَّه الخمر ؛ لأنها تصد عن ذكر اللَّه وعن الصَّلاة ، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس ، وسبي الذرية ، وأخذ الأموال فدعهم» . انظر : «إعلام الموقعين» (٣/ ١٦) .

*** أقول :**

وَاأسفا أن يتصدَّر فالح ورويبضاته[١] للجرح والتعديل ، والتقعيد والتأصيل ،

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «إنها ستأتي على الناس سنون خداعة ، يُصدَّق فيها الكاذب ، ويُكذب فيها الصَّادق ، ويُؤتمن فيها الخائن ، ويخون فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة! قيل : وما الرويبضة؟ قال : السفيه يتكلم في أمر العامة» . أخرجه أحمد (٢/ ٢٩١) ، (٢/ ٣٣٨) . وابن=

والتبديع والتضليل، وللأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والدعوة إلى اللَّه، وهم من أبعد النَّاس عن العلم والبصيرة، ومن أجهل النَّاس بدرجات الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، فلا يُفرِّقون بين المشروع منها والمحرَّم[1]، فيتكلَّم أحدهم باسم الإسلام بغير علم ولا بصيرة؛ فيكون ضرره عظيمًا، وشرُّه خطيرًا.

وإنَّني لآمل في الدعاة إلى المنهج السَّلفي بعلم وبصيرة وحكمة: أن يهتمُّوا بهذه الأصول التي قرَّرها الإسلام، وقرَّرها علماء الإسلام، ومنهم شيخا الإسلام: ابن تيمية، وابن القيِّم؛ سكوتًا حينما يلزم السكوت، وكلامًا حينما يلزم الكلام؛ مراعاةً منهم للمصالح والمفاسد على منهج العلماء الراسخين والأئمَّة المهديين.

وفَّق اللَّه المسلمين -وخاصَّة السلفيين- للنهوض بهذه الأصول العظيمة، ووفقهم لمعرفة دينهم، وثبَّتهم عليه؛ إنَّ ربنا لسميع الدعاء..

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى اللَّه وبارك على رسوله الكريم ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

ربيع بن هادي بن عمير المدخلي

٢/ المحرم/ ١٤٢٦هـ

* * *

= ماجه من حديث أبي هريرة أيضًا في الفتن حديث (٤٠٣٦)، وفيه: «وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه في أمر العامة». وأخرجه أحمد (٣/ ٢٢٠) من حديث أنس.

والحديث حسن عن أبي هريرة، ويزداد قوة بحديث أنس، راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم (١٨٨٧)، فهذه الصفات في هذا الحديث تصدق على الفئة الحداديَّة، فهم يصدقون الكاذبين، ويكذبون الصادقين، ويأتمنون الخائنين، ويخونون المؤتمنين، وهم رويبضات فعلًا، فيهم السفه.. إلخ.

(١) انظر درجات الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر في كلام ابن القيِّم رحمه الله الذي سبق.

واقع المسلمين

وسبيل النهوض

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد:

فإن أحوال المسلمين تقلق النفس وتقطع النفوس حسرات؛ ذلك أن الأمراض قد فتكت بهم: العقدية، والمنهجية، والسياسية، وقل ما شئت من الأمراض، والعلاج بين أيديهم، لكنهم لا يريدون هذا العلاج إلا من شاء الله، ويذهبون يبحثون عن العلاجات من هنا وهناك.

والعلاج الصحيح الذي قدمه لهم رب العالمين قلَّ من يلتفت إليه مع الأسف الشديد، فالله وصف هذا القرآن بأن فيه شفاءً: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

هو شفاء لهذه الأمراض، إي والله.

والله لا علاج لهم ولا مخرج لهم مما هم فيه من ذلٍّ وهوان وغثائية إلا أن يرجعوا إلى هذا الكتاب؛ فيحكِّموه في عقائدهم، وفي عباداتهم، وفي مناهجهم، وفي سياساتهم، وفي كل شأن من شئونهم.

لا علاج لهم إلا هذا، ومع الأسف الأطباء الذين يقدمون العلاج مساكين يحيدون عن هذا العلاج ويذهبون إلى العلاجات المسمومة الفتّاكة التي لا تزيدهم إلا بلاءً وذلًّا وهوانًا.

الرسول -عليه الصلاة والسلام- تحدث عن هذه الأوضاع المتردية المنحطة التي ستنزل بالأمة، وفي نفس الوقت قدم لهم العلاج -عليه الصلاة والسلام-، وقعوا في الأمراض والأدواء والغثائية - وقلَّ من يريد العلاج-.

وإذا صاح بهم من يريد لهم الخروج مما هم فيه من ذلٍّ وهوانٍ وأمراض لا يسمعون له ولا يلتفتون إليه، بل يحاربونه مع الأسف الشديد.

الذي يقول كلمة الحق ويدعو إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله وإلى تخليص الناس من هذه المشاكل والضلالات والبدع التي أوقعتهم في الذل والهوان والغثائية يُحَارب أشد الحرب، يحارب ممن يلبسون لباس الإصلاح وهم يقودون الأمة إلى الهلاك والدمار، وما نسمع استجابة لهذه الأصناف.

يا أمة الإسلام أين التوحيد الصحيح؟

أين العقائد الصحيحة؟

أين المنهج الصحيح؟

الأمور التي تجمع المسلمين، المسلمون جميعًا يجب أن يكونوا على عقيدة واحدة وعلى منهج واحد، ولا يتوفر ذلك إلا في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ وفيما كان عليه سلفنا الصالح الذين آمنوا بالله ﷻ وبكتابه ورسله وبكل قضايا الإيمان والإسلام وطبقوها في حياتهم؛ عقائد وعبادات وأعمال وسلوك وجهاد وإلى آخر شئون الحياة؛ «**لا يَصلُح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها**».

مهما نشدت الإصلاح من هنا وهناك؛ الإصلاح الآن ديمقراطية، الآن العلاج عندهم الديمقراطية؛ الإصلاح والإصلاحيون، والإصلاح والإصلاحيون

ويجتمع الروافض والباطنية والعلمانيون والكتابيون وإلى آخره على هذا الإصلاح، يجتمعون على هذا!

ومتفقون عليه وما يريدون غيره أبدًا، لا يريدون غير هذا الذي يدعون إليه، هذا هو الإصلاح الذي يأتي من أوربا، ومن أمريكا يأتي من بوش ومن شارون، هذا هو الإصلاح وهذا هو العلاج!!

والصحف والمجلات والمواقع وإلى آخره لا تجد إلا النزر القليل الذي يصدع بكلمة الحق ويدعو إلى العلاج الشافي.

«يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: **بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل:** يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: **حب الدنيا وكراهية الموت».**

نُزِعت المهابة من صدور الأعداء وقُذِف الوهن في قلوب المسلمين إلى أن وصلوا إلى حضيض الغثائية وما يريدون أن يخرجوا من هذا، ومع الأسف كثيرٌ من علمائهم وأطبائهم يريدون الإصلاح، الإصلاح: حوار الأديان، أخوة الأديان، تقديس الأديان، قداسة الأديان... وإلى آخره.

يُهان الرسول ﷺ ونحن نقول: هاتوا لنا العلاج، هاتوا لنا الحماية، يا هيئة الأمم احمينا، جعلوا ديننا ورسولنا مع الأديان الفاسدة، جعلوه في ذيل هذه الأديان!!

مع الأسف الشديد! المسلمون الآن يُذبحون في العراق ولا صوت يرتفع، أهل السنة يُذبَّحون في العراق وما تسمع كلامًا أبدًا -بارك الله فيكم-، وحُرِّقت المساجد وهُدِّمت على أيدي الباطنية والروافض -بارك الله فيكم- وديست المصاحف -بارك الله فيكم-، ولا كلام، كيف؟ لأنه غثاء، غثاء والله.

لابد أن نعتصم بحبل الله، لابد أن نتبع كتاب الله، لابد أن نطيع أوامر الله، ولابد أن نستجيب لدعوة الله، لابد أن نكون مسلمين ظاهرًا وباطنًا، نطبِّق هذا الدين الحق من ألفه إلى يائه.

أصحاب الرسول كانوا في ذلةٍ وقلة، لكن بإخلاصهم وصدقهم وتمسكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم، نصرهم الله ﷻ على أقوى الدول وأعتاها، في ذلك الوقت كانوا أقل الناس عددًا وأقلهم عدة وإلى آخره. . . . . . جمعهم الله -تبارك وتعالى- على كتاب الله وعلى سنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-.

أنا كنت في المدينة في المسجد النبوي وأذكر قول النبي ﷺ: «**إن المدينة قرية تأكل القرى**».

تأكل القرى، كيف؟ المدينة قرية فتحت الدنيا كلها وكان أهلها في مسجد لا يساوي جزءًا من خمسين جزءًا من هذا المسجد الموجود الآن، انظر المسجد النبوي الآن مليء من الساحات، ومليان من الأمم وهم غثاء.

وفي ذلك الوقت مسجد الرسول وقرية الرسول -عليه الصلاة والسلام-، مسجد الرسول صغير لا يأتي ولا جزء من خمسين جزءًا من مسجد اليوم، فتح الله بهم الدنيا بصدق الإيمان والإخلاص والتوكل على الله ﷻ؛ ما فتحوا الدنيا بقوتهم وإنما بنصر من الله وتأييد منه، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

يا أمة الإسلام؛ عليكم بالتوحيد الذي حواه القرآن والذي جاء به جميع الأنبياء، بلدان المسلمين تنتشر فيها القبور والخرافات والضلالات والبدع وإلى آخره؛ كيف يأتيهم النصر، وكيف تأتيهم العزة وهم ما تركوا بابًا من أبواب الذل إلا وطرقوه -والعياذ بالله- ولا بابًا من أبواب العزة والسعادة والسيادة والكرامة إلا وتحايده الكثير؟!

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

كلكم اعتصموا بحبل الله، ما هو حبل الله؟ كتاب الله وسنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، هذا أمر لجميع الأمة، هل الأمة استجابت الآن لهذا الأمر؟

هل الأمة الآن معتصمة بحبل الله في عقائدها وعباداتها ومناهجها ونشاطاتها؟

كلا والله، قليل؛ قليل جدًا الذين يدعون إلى هذا المنهج وإلى الاعتصام

بحبل الله ﷻ مع الأسف، والباقون والله يحاربون هذا المنهج وهذه الدعوة.

أنا أعرف يا أولادي؛ وأنتم ما تعرفون؛ نحن كنا في هذا البلد طلاب علم يرحل طالب العلم من جنوب المملكة إلى شمالها ومن شرقها إلى غربها ما نجد طلاب العلم والعلماء إلا إخوة على منهج واحدٍ، وكنت طالب علم في الجامعة الإسلامية ومدرِّسًا وإلى آخره ونزلت مكة لأكمِّل دراستي، يلتقي السلفيون أهل الحديث والسلفيون من هنا كلهم على قلب رجلٍ واحدٍ لا خلاف بينهم في المناهج ولا في أي شيء من الأشياء، طبعًا قد تكون أشياء جزئية خفيفة هذا ما يخلو حتى زمن الصحابة، لكن المنهج والعقيدة وأمور الحياة كلها حتى السياسة تجدهم على منهج واحد لا خلاف بينهم.

ثم جاء الشيطان ينزغ بينهم وجاء أهل الفتن ونفثوا السموم والفرقة والتمزيق، فمزقوهم شر ممزق في مشارق الأرض ومغاربها، كانوا جماعة واحدة على كتاب الله وعلى سنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، تجدهم الآن متفرقين تجد الشباب في هذه البلاد متفرقين متنا كرين مع الأسف الشديد، ما فيه محبة، ما فيه مودة، ما فيه تآلف ما فيه تآخ ما فيه تحكيم لله، كل واحد يحكِّم عاطفته ويشحنونه بأفكار ما يريد أن يغيرها ولا يعرف أنه على خطأ أو على حق، لا يا أخي.

أنا أقرأ في البخاري كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا. فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هيه يا بن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله».

هدأ غضبه، ذهبت عنه سورة الغضب وعفا عن هذا الإنسان كما أمره الله

-تبارك وتعالى-.

الشاهد من هذا: أن ابن عباس يشهد لعمر أنه كان وقافًا عند كتاب الله ﷻ.

عمر كان محدثًا، كان فقيهًا إمامًا، لكن قد يجتهد فيخطئ، وإذا نبهه أحد رجع، وقّاف عند كتاب الله.

وله قصة أخرى ﷺ، قال أبو وائل: «جلست إلى شيبة -يعني: الحجبي- كانت مفاتيح الكعبة عنده ولا تزال عند بني شيبة في الجاهلية والإسلام، الرسول أعطاهم مفاتيح الكعبة. قال أبو وائل: جلست إلى شيبة في هذا المسجد، قال: جلس إلي عمر في مجلسك هذا. فقال: هممت ألا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين، قلت: ما أنت بفاعل. قال: لم؟ قلت: لم يفعله صاحباك. قال: هما المرآن يُقتدى بهما»، وقف.

الأمثلة كثيرة في حياة عمر في وقوفه عند كتاب الله وعند سنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-.

لكن الآن، هل نحن وقافون عند كتاب الله؟!

يا أخي، لابد الواحد يحاسب نفسه ويقول: هل أنا على حق أو على خطأ في القضية الفلانية والقضية الفلانية؟ هل أنا على حق أو على خطأ؟

لا يصل إلى الحق إلا إذا استسلم لله وانقاد لله ﷻ وحكّم كتاب الله في نفسه وحكّم سنة رسول الله في نفسه؛ فحينئذ يمكن أن يكون وقافًا، يمكن أن يكون رجاعًا للحق، لكن إذا أرسل لنفسه العنان فلا يقف في وجهه شيء لا كتاب ولا سنة رسول الله ﷺ؛ فإن الباطل سيستولي عليه.

فأنا أنصح نفسي وأنصح أبنائي وأنصح إخواني وأنصح زملائي وأنصح من يخالفني: أن نتقي الله في أنفسنا وفي هذه الأمة وفي هذا الشباب، فنحكّم كتاب الله ونجمعهم على كتاب الله وعلى سنة رسول الله، ونربي أبناءنا في مساجدنا ومدارسنا وبيوتنا على هذه الأمور وعلى هذا المنهج، وأن نتقي الله في الأهواء والأغراض؛ فإنها -والله- شتتت الأمة وشتتت الشباب.

كان الصحابة كلهم وقافون عند كتاب الله، وكان السلف الصالح كلهم

وقافون عند كتاب الله، والذي يخطئ يرجع، والذي يذنب يتوب.

كان الرجل يزني في عهد الرسول والمرأة تزني فلا يقر له قرار ولا يستريح أبدًا إلا أن يذهب إلى رسول الله ويعترف ويقول: أقم علي الحد، ويقول رسول الله: لعلك كذا لعلك كذا، أبدًا، يعترف؛ لأنه لا يرتاح أبدًا ويكره الحياة، لماذا؟

لأنهم أناس استسلموا لله، وليسوا بمعصومين، نحن لسنا بمعصومين، كلنا نقع في الأخطاء لكن يجب على الإنسان أن يتوب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

وقعتَ في الخطأ، في العقيدة، في المنهج، في السلوك، في العبادة، في شيء.

ارتكبتَ خطأً؛ فباب التوبة مفتوح وليس من العار، بل الأنبياء يخطئون ويرجعون، الأنبياء يخطئون ويرجعون؛ حكى الله عن آدم أنه تاب من خطيئته، وحكى الله عن داود، وحكى الله عن موسى... يتوب ويتوب ويتوب ويستحي من هذا الذنب.

وحتى يأتي يوم القيامة هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وتُطلب منهم الشفاعة، وهو لا يزال ضميره يؤنبه حتى آخر لحظة، تاب، تاب، تاب لكن هذا الإحساس لا يُمحى من ضميره.

يطلبون من آدم الشفاعة فيقول: أنا أذنبت وأخطأت، نفسي نفسي، يستحي من ربه، يقول: إني أستحي من ربي.

ثم يأتون إلى نوح فيقول: أنا أذنبت وأخطأت، نوح ماذا أخطأ؟ دعا على قومه، اعتبرها خطيئة وهي حق، فيستحي أن يشفع.

إبراهيم أخطأ في ذات الله ﷻ ويقول: أذنبت، وموسى كذلك يقول: أذنبت - بارك الله فيكم - أين نحن من هذا الحياء من الله ﷻ؟

يا أخي، تعيش عمرك على باطل، حياتك كلها ولا تعالج نفسك، ولا ترجع إلى الله -تبارك وتعالى-، ويمكن وراءك ألوف بل ملايين يتبعونك على هذا الخطأ، فتحمل وزر نفسك وأوزار الآخرين «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر

من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة».

يا أخي؛ ارحم نفسك، سُنَّ للناس سنَّة حسنة، أنت لست تشرِّع الآن، لكن أحي سنة الرسول -عليه الصلاة والسلام-، تكون كأنك سننت للناس سنة حسنة بارك الله فيكم؛ أشياء قصر فيها الناس أو ماتت هذه السنة فأحييتها، الناس إذا أقبلوا عليها وعملوا بها، فأنت تكسب أجرها؛ أجرك وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وكذا إذا تعلقت ببدعة وتبعك الناس عليها، فتحمل وزرك ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

الشاهد؛ أننا يجب أن نرجع جميعًا إلى الله، وأن نعتصم بكتاب الله، وأن نتبع كتاب الله آيات كثيرة يأمر الله فيها بالاستقامة، آيات كثيرة يأمر فيها الله بالاتباع، آيات كثيرة يأمر فيها الله رسوله بالاتباع: «اتّبع ما أنزل إليك».

﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٣].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

أوامر كثيرة ونواهٍ كثيرة عن المعصية وعن المخالفات وعن وعن... لماذا؟

كتاب الله بين أيدينا وندرسه ونحفظه أولادنا، وتحفيظ القرآن، لكن أين الآداب؟

نحفظ الألوف والألوف -والحفظ مطلوب-، لكن أين العمل أين العمل؟

القرآن ألا يدعونا إلى الاجتماع؟!

ألا يدعونا إلى الاعتصام بالكتاب والسنة؟!

ألا يدعونا إلى ترك الباطل؟!

ألا يدعونا إلى ترك البدع؟

ألا يدعونا إلى محاربة الشرك والضلال؟!

نتفقه في دين الله ويحاول كل واحد يعمل في نفسه ويحاول أن يعلم أسرته، ويحاول أن يربي الناس في مدرسته على هذا المنهج وعلى هذه العقيدة التي جاء بها جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ويحذرهم من الشرك دعاء غير له، والذبح لغير الله، والاستغاثة بغير الله إلى آخره، تجد دعاة يملئون الدنيا، لكن هذه ليست من المنكرات عندهم، ماذا استفاد الناس منك وأنت تقرهم على الباطل؟!

ما تزيدهم إلا ضلالًا ولا تزيدهم إلا غثائية، ولهذا كثرت الدعوات في العالم الإسلامي من هنا وهناك وكَثُرَت الأحزاب، والله لا يزداد الناس إلا بلاءً، لماذا؟ لأنهم ما سلكوا طريق الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في الإصلاح.

إصلاح الأنبياء يبدأ بماذا؟ بالإصلاح العقائدي؛ يأتي النبي قومه وعندهم شرك، عندهم ضلالات، فساد طويل عريض في الحياة كلها يبدءون بماذا؟ يبدءون بإصلاح العقيدة؛ يأتي إلى قوم يدعون غير الله، يذبحون لغير الله، يتعلقون بالأصنام، يعبدون الملائكة، يعبدون لأشجار، يعبدون الأنبياء إلى آخره، فيبدأ بتصحيح العقيدة، يصحح العقيدة.

انظر إلى العالم الإسلامي الآن، اذهب إلى مصر، اذهب إلى السودان، اذهب إلى باكستان ترى العجائب، في هذه البلاد مُجِيت القبور -ولله الحمد-، ولكن دعوات الآن هيأت الناس لهذه الأوضاع المردية، وربما يستنكرون التركيز على الدعوة إلى التوحيد.

يا أخي؛ الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان بين الفينة والفينة يبايع أصحابه على ألا يشركوا بالله شيئًا، يبايع أبا بكر وعمر وابن مسعود وعبادة بن الصامت وغيرهم، يبايعهم على ألا يشركوا بالله شيئًا وأن يقيموا الصلاة وإلى آخره، كيف يبايع أبا بكر وعمر؟! لأن العقيدة دائمًا تحتاج إلى إذكاء، إلى تجديد، إلى تنبيه.

العقيدة هذه لابد أن نغرسها في أنفسنا وفي أوساطنا ونذكِّر بها.

كيف يبايع الرسول ﷺ أصحابه على ألا يشركوا بالله شيئًا؟

الآن لو قلت لواحد: تعالى أبايعك على ألا تشرك بالله شيئًا كيف يفعلون؟!!

لو وجد الآن داعية يحذرهم من الشرك، يقولون: وهل نحن مشركون؟

كيف أبو بكر وعمر يبايعون على ألا يشركوا بالله شيئًا وأنتم لا تُحَذِّرون من الشرك؟!

إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

إبراهيم أبو الأنبياء وخليل الرحمن يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦] -عليه الصلاة والسلام-.

وهو يعلم أن أبناءه سيأتي فيهم الأنبياء الكثير ومع هذا يخاف، كيف نأمن على أنفسنا؟!

«**يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك**». رسول الله -عليه الصلاة والسلام- يقول هذا ويعلم أصحابه أن يقولوا هذا، نحن الآن كأن عندنا ضمانًا أننا لا نقع في الشرك ولا في النفاق.

كان الصحابة يخافون على أنفسهم النِّفاق؛ يقول ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف على نفسه النفاق».

الإنسان لابد أن يخاف من النفاق، يخاف من الوقوع في الشرك، يخاف أن يزيغ قلبه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

ندعو الله ﷻ أن يحفظ قلوبنا، ونبذل الأسباب التي ترسخ الإيمان في نفوسنا، نبذل الأسباب؛ من طاعة الله، من الاستسلام لله ﷻ، من الاستغفار لله ﷻ في الليل والنهار وبالأسحار، ونضرع إليه دائمًا أن يثبتنا على الإسلام وأن يهدي الله على أيدينا من يريد هدايته ﷻ.

ولابد يا إخوة من إحياء المحبة والمودة والأخوة في أوساط المسلمين على أساس الكتاب والسنة وليس على أساس النفاق والمجاملات، على أساس الحق، أحي الحق في نفسك وآخِ عليه الناس وادع إليه.

ولابد من هذا التلاحم وهذا التآخي بين المسلمين: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وما الذي يفرقنا؟! الأهواء؛ الذي يفرق: الأهواء، أنت لك رأي وأنا لي رأي، وأنت تتبع فلانًا وأنا أتبع فلانًا، ثم لا نحكم كتاب الله، جاءت حينئذٍ الفرقة وجاءت العداوة وجاءت البغضاء، وجاء سفك الدماء، وجاء التفرق والضياع إلى الحالة التي وصل إليها المسلمون.

فأسأل الله -تبارك وتعالى- أن يجمع المسلمين على الحق، على كتاب الله وعلى سنة رسول الله، وأن يجمع شباب هذا البلد خاصة على كتاب الله وعلى سنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-.

وعليهم أن يتذكروا حال الجزيرة قبل أن تأتي الدعوة السلفية على يد الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، أن يتذكروا التفرق والتمزق والضياع -بارك الله فيكم- حتى إن بعضهم وصل به الجهل أنه ينكر البعث، دعْ عنك ترك الصلاة وترك الزكاة واللعب إلى آخره، فجمعهم الله على كتاب الله وعلى سنة رسول الله وعلى هذه العقيدة الصحيحة.

فيجب يا إخوة أن نتذكر هذا الواقع المظلم الأول والواقع المضيء الثاني، ونرجع إليه إذا حصل منا مجافاة أو نفرة عن هذا أو تنفير عنه، أن نرجع إليه وأن نتآخى.

وأن ندرك أن أعداء الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها من الكفار واليهود والعلمانيون كلهم ما يتكالبون إلا على هذه الدعوة، الدعوة السلفية التي جددها الإمام محمد ابن عبد الوهاب؛ لأنهم يعرفون أنها هي الإسلام الحق، لا تصدقوا أن بين الروافض وبين اليهود والنصارى عداوة أبدًا، كل هذا كذب وضحك على الناس، لا تصدقوا هذا التهريج الكاذب، كل هذا من ذرّ الرماد في العيون.

لا يُعادي اليهودُ والنصارى إلا هذا المنهج، لأن فيهم فلاسفة ومفكرين ومستشرقين يدرسون الإسلام ويعرفون من هي الفرقة التي يمكن أن تكون ذنبًا لنا وعونًا لنا على الإسلام والمسلمين جميعًا، ويعرفون من هي الجماعة التي على

الحق ولا يمكن أن تنقاد لهم ولا يجدون هذا إلا عند أتباع المنهج السلفي.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٢].

نسأل الله أن يجمع قلوبنا جميعًا على كتابه وعلى سنة نبيه، وأن يرينا عيانًا ما نتمناه من عزة الإسلام وعزة المسلمين واجتماعهم في صعيد واحد على كتاب الله وعلى سنة رسول الله، أسأل الله أن يحقق ذلك، وادعوا الله جميعًا في خلواتكم وفي مساجدكم أن يحقق ذلك.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قام بتفريغ هذه الكلمة
وعرضها على الشيخ -حفظه الله-
أخوكم فواز الجزائري
ليلة السبت ١٤٢٧/٣/٢هـ

* * *

الكتاب والسنة وأثرهما

ومكانتهما في إقامة التعليم في مدارسنا

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله وأصحابه.

وبعد: فإن الإسلام العظيم يحث على العلم ويشيد به ويمجد أهله ويرفع من شأنهم؛ قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وبين الرسول الكريم سيد العلماء وخاتم الأنبياء -عليه الصلاة والسلام- أن طلب العلم نوع من أنواع الجهاد فقال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

وأن البحث عنه وتطلبه يفضي بصاحبه إلى الجنة: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة»(١).

وللعلماء عند ربهم درجات رفيعة عالية قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وبين تعالى الفرق الكبير بين العالم والجاهل فقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وحكومتنا الرشيدة -وفقها الله وثبت أركانها وسدد خطاها- إدراكًا منها لمكانة العلم ومخاطر الجهل جندت إمكانيات هائلة ورصدت الميزانيات الضخمة

---

(١) أخرجه البخاري ٣ / كتاب العلم بدون إسناد، وأخرجه مسلم / ٤٨ من كتاب الذكر والدعاء باب (١١)، حديث (٢٧٠١) ضمن حديث طويل، وأبو داود ١٩/ العلم باب (١) حديث (٣٦٤١) ضمن حديث طويل، والترمذي ١٩ / كتاب العلم حديث (٢٦٨٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٥٢).

ليشمل العلم والتعليم كل أفراد شعبها الكريم ذكورًا وإناثًا وصغارًا وكبارًا، تتدرج بهم في سلم العلم من المراحل الابتدائية إلى أعلى مراحل التعليم الجامعية وما بعد الجامعية -الدراسات العليا- في مختلف العلوم والفنون.

وهذه نعمة كبرى على هذا البلد العظيم مهبط الوحي ومنبع النور الذي أضاء العالم فبدد ظلمات الجهل والشرك والكفر، فيجب على هذا البلد العظيم حكومة وشعبًا أن يدرك قيمة هذه النعمة الكبرى ليبذل أقصى جهده في إرضاء ربه والقيام بواجب شكره حتى تدوم هذه النعمة الكبرى وتستمر.

قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ويجب أن يدرك أنه لم يحتل هذه المكانة الرفيعة إلا بالعلم الذي أنزله على أفضل خلقه وأكرم رسله ألا وهو: علم الكتاب والسنة، والذي يحاول أعداء الإسلام بطرق خطيرة غاية الخطورة أن يحولوا بيننا وبينه فيضعون بيننا وبينه الحواجز والسدود الظاهرة والخفية حتى نعيش في ظلمات كثيفة من الجهل ونحيا حياة البهائم لا هم لنا إلا الأكل والشرب والمتاع الدنيوي.

إننا جميعًا -حكومة وشعبًا- نعتز بالإسلام ونحبه ونجله ونفتديه بأموالنا وأرواحنا وكل غال ونفيس، ومع كل هذا ونحن في غمرة السباق مع أعدائنا في ميادين العلوم الدنيوية السباق الذي لا يمكن أن ندرك شأوهم فيه؛ لأنهم قوم لا هم لهم إلا الارتواء من متع الدنيا وشهواتها وملذاتها ولا يبالون بما وراء ذلك من جنة أو نار أو حساب أو عذاب بل هم بذلك كافرون: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

إن أكثرنا اليوم: يقفون على حافة هوة خطيرة من الجهل بالقرآن والسنة، ويوشك أن يصدق فينا قول الرسول الكريم: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جهالًا فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»[1] متفق عليه.

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ العلم، باب كيف يقبض العلم حديث (١٠٠)، ومسلم ٤٧/ كتاب العلم ١٤ حديث (٢٦٧٣).

إن ما جاء به محمد ﷺ غيث مغدق لابد أن ينهل منه أبناؤنا حتى التضلع كأسلافهم وأتباعهم بإحسان إلى يومنا هذا .

قال رسول اللّٰه ﷺ : «**مثل ما بعثني اللّٰه به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا ؛ فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير .**

وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع اللّٰه بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا .

وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً .

فذلك مثل من فقه في دين اللّٰه ونفعه ما بعثني اللّٰه به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى اللّٰه الذي أرسلت به»[(١)] .

إننا نريد أن يكون أبناؤنا من الطائفتين الأوليين ونعيذهم باللّٰه أن يكونوا من الطائفة الثالثة ، ولا يتم ما نطمح إليه إلا بالتركيز على دراسة الكتاب والسنة لأننا - والحمد لله - قد رضينا باللّٰه ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا .

فمن البدهي أن يكون أسمى أهداف حياتنا : أن نعرف مصدر عزنا وسعادتنا في الدنيا والآخرة ألا وهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبيانه وشرحه وتفصيله سنة رسول اللّٰه ﷺ اللذين غيرا مجرى تاريخ البشرية على وجه الأرض بعد أن أحيا من رفاة الأمة العربية ولَمَّ من شتاتهم وأخرج منهم خير أمة أخرجت للناس ، وما كانت الأمة الإسلامية والعربية إلا بهذا القرآن ولا كان لها دولة ولا صولة إلا به .

ولننظر إلى تأثير هذا القرآن :

١- تأثير القرآن الكريم في أنفس العرب:

لقد أحدث هذا القرآن المعجز أكبر تحول في حياة البشر فقلب عقائد الكهول والشباب وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم وحولها إلى ضدها علمًا وعملًا بما لم يعهد له نظير في تأريخ الإنسانية .

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ العلم . الحديث (٧٩) .

فكان القرآن آية خارقة للمعهود من سنن الاجتماع البشري بتأثيره بالتبع لكونه آية معجزة للبشر في لغته وأسلوبه.

وبعد أن قلب حياة العرب في الجزيرة العربية من جهل إلى علم ومن شرك إلى توحيد ومن فرقة وفوضى إلى اجتماع وتنظيم اندفعوا كالسيل العاتي على الأقطار من نواحي الجزيرة كلها فأطاحوا بعروش الأكاسرة والقياصرة أعظم ملوك الأرض واقتلعوا جذور الشرك والظلم ونشروا التوحيد والحق والعدل ودخل الناس في دين الله أفواجًا مختارين الاهتداء بهذا القرآن.

لا جرم أن سبب هذا كله هو تأثير القرآن العظيم بهذا الأسلوب الذي نراه في المصحف؛ فقد كان النبي ﷺ يجاهد به الكافرين كما أمره: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

ثم كان يربي المؤمنين ويزكيهم وبهدايته والتأسي بمبلِّغِه ربوا الأمم وهذبوها، وقلما يقرؤه أحد كما كانوا يقرءون إلا ويهتدي به كما كانوا يهتدون.

ثم حكموا الدنيا وساسوها بهذا القرآن إذ لم يكن عندهم شيء من العلم بسياسة الأمم وإدارتها إلا هذا القرآن والأسوة الحسنة بمبلغه ومنفذه الأول وبسنته المطهرة أقواله وأفعاله وتقريراته ﷺ.

ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزهم إلا إذا عادوا إلى هدايته؛ لقد كان لهذا القرآن العظيم في حياة الناس مسلمهم وكافرهم تأثير بعيد الغور.

أما تأثيره في الكافرين: فبنفوذ بلاغته، وعظمة نظمه وأسلوبه الجاذب لفهم دعوته والإيمان به؛ إذ لا يخفى حسنها على أحد فهمها وكانوا يتفاوتون في الفهم تفاوتًا عظيمًا لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة وفهم المعاني العالية.

فهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي بكلمته العالية فيه لأبي جهل التي اعترف فيها بأنه الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه والذي يحطم ما تحته.

وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رءوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلًا لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته على ما كان من نهيهم عنه ونأيهم عنه وتواصيهم وتقاسمهم بألا يسمعنّ له، ثم كانوا يتسللون فرادى مستخفين ويتلاقون

في الطريق متلاومين.

وهذا التأثير هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق ﷺ من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام ليلاً لما كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب إلى الإسلام وعللوا ذلك بأنه يفتن نساءهم وأولادهم.

بل هذا التأثير هو الذي حملهم على صد النبي ﷺ بالقوة عن تلاوة القرآن في البيت الحرام وفي أسواق الموسم ومجامعه وعلى نواصيهم بما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

٢- تأثير القرآن في أنفس المؤمنين:

أما تأثيره في المؤمنين: فكان كل من يدخل في الإسلام قبل الهجرة يلقن ما نزل من القرآن ليعبد الله بتلاوته ويُعلم الصلاة ولم يفرض في مكة من أركان الإسلام بعد التوحيد غيرها، فيرتل ما يحفظه في صلاته اقتداء بالنبي ﷺ إذ فرض الله عليه التهجد بالليل من أول الإسلام.

قال تعالى في أول سورة المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤].

ثم قال في آخرها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]. أي: في صلاة الليل وغيرها.

وقد قال تعالى في وصفهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٥-١٦].

ومما ورد في وصفهم ﷺ: أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلاً يسمع منها مثل دوي النحل من تلاوة القرآن.

وقد شدد بعضهم على أنفسهم؛ فكان يقوم الليل كله حتى شكا منهم نساؤهم فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك.

فتزكية الصحابة وتربيتهم بهذا القرآن هي التي غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية وزكتها تزكية عالية، وهي التي أحدثت أعظم تحول روحي واجتماعي في التاريخ، هذا كله إنما كان بكثرة تلاوة القرآن في الصلاة وغير الصلاة وتدبره وربما كان أحدهم يقوم الليل بآية واحدة يكررها متدبرًا لها، وكانوا يقرءونه مستلقين ومضطجعين كما وصفهم الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأعظم ذكر الله: تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه وصفاته المقدسة وأحكامه وحكمه وسننه في خلقه وأفعاله في تدبير ملكه[١].

منزلة السنة من القرآن ومكانتها في نفوس المسلمين:

السنة المطهرة هي ما صدر من النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وهي وحي إلهي قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

وهي بيان القرآن وتفسيره؛ فهي تبين مجمله وتقيد مطلقه وتخصص عامه، وهي واجبة الاتباع بنص القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وأمر الله في كثير من آيات القرآن بطاعة هذا الرسول الكريم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

---

(١) راجع تفسير المنار (١١/ ٢٠١-٢٠٥).

وأخبر تعالى أن طاعة الرسول إنما هي طاعة الله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقرر الله أنه ليس للمؤمنين أي خيار أمام قضاء رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والحياة الحقيقية والصحيحة إنما هي في الاستجابة لهذا الرسول.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

من هذه التوجيهات القرآنية أدرك المؤمنون عظمة السنة ومكانتها، وأدركوا أنه يجب عليهم التزامها في كل شأن من الشئون الإسلامية العقائدية والعبادية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، لا فرق بينها وبين القرآن من حيث وجوب الالتزام والطاعة والانقياد والتصديق.

إن توجيهات وتعاليم القرآن والسنة المطهرة متمازجة متساندة في كل المجالات التي خاضها القرآن لا يعد مؤمنًا من يفرق بينها في النواحي العقائدية أو العملية، ذلك لأنه يستحيل تطبيق القرآن بفهم بدون هذه السنة المطهرة.

وكيف يفرق بينهما من يؤمن بقول الله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وما جرى مجراها في بيان منزلة الرسول ﷺ وسنته؟!

من أين نعرف أعداد ركعات الصلوات الخمس وأوقاتها وهيئاتها وأذكارها إذا كنا لا نعرف السنة؟!

وكيف نعرف شروط الزكاة ومقادير أنصبتها إذا لم تكن لدينا سنة محمد ﷺ وبيانه؟!

ومن أين نعرف حد شارب الخمر ورجم الزاني وقطع يد السارق إذا لم نرجع إلى السنة المطهرة هذه وغيرها من الأمور الكثيرة التي يتوقف الإيمان بالقرآن وتطبيقه على الإيمان بالسنة، ومعرفتها، وتطبيقها، والتزامها واتباعها؟!

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

مكانة السنة في نفوس الأمة:

من هنا أدركت الأمة الإسلامية عظمة السنة ومكانتها؛ فحفظوها كما حفظوا القرآن وصانوها كما صانوا القرآن ودونوا فيها الدواوين من الجوامع والمسانيد والمعاجم والأجزاء والمصنفات، وألفوا في رجالها وأسانيدها الكتب التي لا تحصى، وألّفوا الصحاح والسنن وفي الموضوعات والعلل بعد أن ميزوا الصحيح من الضعيف من الموضوع وألوف المحدثين جندوا أنفسهم لخدمتها وكابدوا في سبيلها المشاق والسهر والرحلات الطويلة إلى مختلف بلدان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه.

أما المؤلفات: فهذه مكتبات الدنيا تزخر بها حتى مكتبات أوربا وأمريكا والهند حيث استحوذت على إعجابهم وأدركوا أنه أعظم كنز يتباهون به في مكتباتهم.

وأما الرحلات في سبيلها التي بذلها المسلمون في فجر تاريخهم: فلا يحصيها إلا الله وكتب التاريخ والرجال حافلة بذلك.

إلا أننا نختار هنا أربعة نماذج للتدليل على تقدير الأمة الإسلامية لسنة نبيهم واهتمامهم بها ومكانتها في أنفسهم:

١- خرج أبو أيوب الأنصاري ﷺ من المدينة النبوية إلى عقبة بن عامر بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، فلما أتى منزل مسلمة بن مخلد الأنصاري وهو أمير مصر فأخبر به فعجل فخرج إليه فعانقه وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغير عقبة بن عامر فابعث من يدلني على منزله.

قال: فبعث معه من يدله على منزل عقبة فأخبر عقبة به فعجل إليه فعانقه وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن. قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر مؤمنًا في الدنيا على خزية ستره الله يوم القيامة».

فقال له أبو أيوب: صدقت. ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعًا إلى المدينة فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر[١].

٢- قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: بلغني عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ لم أسمعه منه، قال: فابتعت بعيرًا فشددت عليه رحلي فسرت إليه شهرًا حتى أتيت الشام فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصاري قال: فأرسلت إليه أن جابرًا على الباب. قال: فرجع إلي الرسول. فقال: جابر بن عبد الله؟ فقلت: نعم.

قال: فرجع الرسول إليه فخرج فاعتنقني واعتنقته قال: قلت: حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الله العباد -أو قال: يحشر الله الناس** - قال: وأومأ بيده إلى الشام **عراة غرلًا بُهْمًا**، قلت: وما بُهمًا؟ قال: ليس معهم شيء. . . » الحديث[٢].

٣- جاء رجل إلى الشعبي فقال: يا أبا عمرو إن أناسًا عندنا يقولون: إذا أعتق الرجل أمته ثم تزوجها فهو كالراكب بدنته.

قال الشعبي: حدثني أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران**» خذها بغير شيء، فلقد كان الرجل يرحل في أدنى منها إلى المدينة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند مختصرًا (٤/ ١٥٣)، والحميدي في المسند (رقم٣٨٤)، والرحلة للخطيب (ص١٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٢/ ٤٣٣)، وأخرجه في صحيحه تعليقًا بصيغة الجزم (١/ ٢٢)، والحاكم في المستدرك وصححه (٢/ ٤٢٧-٤٢٨)، ووافقه الذهبي، والرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص١١١).

٤- قال شعبة: إن أبا إسحاق حدثني عن عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر قال: فقلت لأبي إسحاق: من عبد الله بن عطاء؟

قال: فغضب ومسعر بن كدام حاضر.

قال: فقلت له: لتصححن لي هذا الحديث أو لأحرقن ما كتبت عنك.

فقال لي مسعر: عبد الله بن عطاء بمكة.

قال شعبة: فرحلت إلى مكة لم أرد الحج أردت الحديث، فلقيت عبد الله بن عطاء فسألته.

فقال: سعد بن إبراهيم حدثني.

فقال لي مالك بن أنس: سعد بن إبراهيم بالمدينة لم يحج العام.

قال شعبة: فرحلت إلى المدينة فلقيت سعد بن إبراهيم، فسألته.

فقال: الحديث من عندكم زياد بن مخراق حدثني.

قال شعبة: فلما ذكر زيادًا. قلت: أي هذا الحديث؟! بينما هو كوفي إذ صار مدنيًا إذ صار بصريًا.

قال: فرحلت إلى البصرة فلقيت زياد بن مخراق فسألته.

فقال: ليس هو من يأتيك.

قلت: حدثني به.

قال: لا ترده.

قلت: حدثني به.

قال: حدثني شهر بن حوشب عن أبي ريحانة عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ.

قال شعبة: فلما ذكر شهر بن حوشب قلت: دمر علي هذا الحديث لو صح لي مثل هذا عن رسول الله ﷺ كان أحب إلي من أهلي ومالي والناس أجمعين»[1].

على أي شيء تدل هذه الرحلات الطويلة الشاقة من أجل حديث واحد؟!

---

(١) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص١٥١)، وأصل الحديث في صحيح مسلم (١/ ١٤٤).

ألا تدل على إيمان صادق وحب صادق لرسول الله ﷺ وسنته وهديه ومعرفة بمكانتها وأنهم قوم يعرفون القيم الحقيقية للأشياء وأن حديثًا واحدًا عندهم خير من الدنيا وما عليها لهذا استحقوا أن يعزهم الله وأن يبوئهم سنام المجد والعز والتمكين؟

سمعوا قول الله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وسمعوا قول رسول الله: **«لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى منها كافرًا شربة ماء»**.

وسمعوا قوله: **«لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما عليها»**.

وسمعوا قوله: «لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها».

فهانت الدنيا وصغرت في أعينهم وعظم أمر الإسلام والقرآن والرسول وسنته في أعينهم.

ونحن قد كبرت وعظمت الدنيا وشهواتها وملاذها في أعيننا وصرنا نركض ونلهث لتحقيق أكبر متاع منها.

فهُنَّا على الله وسلط علينا الأعداء وحاق بنا في الذل والهوان ما لا ينزعه عنا إلا العودة الجادة إلى الله والاعتزاز بهذا القرآن وهذه السنة.

كما أخبرنا بهذا المصير رسول الله ﷺ: **«إذا تبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع واتبعتم أذناب البقر؛ سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»**.

وديننا هو القرآن والسنة.

وأول خطوة في طريق العودة إلى الله يتمثل في أمور:

١- إصلاح المناهج.

٢- اختيار المدرس.

٣- اختيار الطلاب الأذكياء.

٤- تهيئة الجو لتربية الطلاب تربية إسلامية صالحة.

أولًا : إصلاح المناهج :

لست بسبيل وضع خطة شاملة أو وضع مناهج تفصيلية لكل المراحل العلمية فهذه لها من يقوم بها وهم المسئولون عن هذه المناهج .

ولا شك أنهم حريصون على ما يسعد أمتهم ويرفع من شأنهم في الدنيا والآخرة، ولا شك أيضًا أنهم على استعداد لتقبل ما يقدم لهم من الاقتراحات النافعة .

وهم -والحمد لله- قد وضعوا مادة القرآن مادة أساسية ضمن المناهج المقررة في المدارس في مختلف المراحل ظنًّا منهم أن هذا الأمر كان لتربية أبنائهم تربية إسلامية .

غير أن الأيام أثبتت والتجارب برهنت أن نصيب القرآن في هذه المناهج غير كاف ولا مؤثر في أبنائنا التأثير المطلوب ؛ إذن لا بد من إعادة النظر ولا بد من العمل الجاد في وضع منهج يخرج شبابًا محمديًّا يفهم الإسلام ويحفظ القرآن ويعتز بمبادئه ومُثُله ويطبق شعائره ويجاهد من أجلها حتى آخر رمق من حياته .

إن واقع المناهج الحالية يعجز أن ينجب هذا النوع الذي نتطلع إليه، وهذا شيء لا نريده جميعًا ولا نرضاه، ولكنه وقع من حيث لا نشعر .

فمثلًا ؛ لو استعرضنا منهج المرحلة الابتدائية لوجدنا أننا كلفنا أبناءنا وبناتنا فوق طاقاتهم وهي مرحلة أساسية في بنائهم؛ فلابد أن نراعي مداركهم واستعدادهم وأن يقدم إليهم ما يرغبهم ويشجعهم إلى المضي قدمًا في طريق الإسلام عن فهم وحب ورغبة في العلم .

وليكون الأمر واضحًا أضع أمامكم منهج سنتين من سنوات المرحلة الابتدائية :

أولًا: مقرر السنة الثالثة ابتدائي:

١- مادة الرياضيات كتاب يقع في (١٨١ صحيفة) .

٢- مادة العلوم كتاب يقع في (١٠٤ صحيفة) .

٣- أناشيد كتاب يقع في (٨٤ صحيفة).

٤- مادة المطالعة كتاب يقع في (١٤٠ صحيفة).

٥- مادة القرآن يضاف إليها المجموع (٥٠٩ صحيفة).

ثانيًا: مقرر السنة الخامسة ابتدائي للبنات:

١- الرياضيات في (٢١١ صحيفة).

٢- المطالعة في (١٦٧ صحيفة).

٣- التربية النسوية في (١٦٥ صحيفة).

٤- الجغرافيا في (٦٧ صحيفة).

٥- العلوم في (١٤٥ صحيفة).

٦- الحديث والتوحيد والفقه والتجويد في (١٨٦ صحيفة).

٧- القواعد اللغوية في (١٥٨صحيفة).

٨- التاريخ في (٨٠ صحيفة).

المجموع: (١١٧٩ صحيفة).

إلى جانب مادة القرآن والخط.

كيف يستطيع هؤلاء البراعم أن يهضموا أو يفهموا هذه المواد التي قد يعجز كثير من أساتذتهم أن يفهموهم إياها؟!

وإذا واجه أحد الطلاب مشاكل لا يستطيع أهله ولا جيرانه أن يحلوها وربما الأمر أدهى فيما بعد المرحلة الابتدائية.

أما القرآن: فحدث عنهم ولا حرج؛ فإن الكثير أو الأكثر يتجاوزون المراحل كلها بما فيها الجامعية وهم لا يحسنون تلاوته من المصحف فضلًا عن حفظه وفهمه، هذا حقيقة والواقع أكبر شاهد وهذه خسارة فادحة، وإذن فما الحل وما هو الطريق الذي يجب أن نرسمه ونقيم حياتها عليه؟

الحل الصحيح في نظري يتمثل فيما يأتي:

أولًا: تكثيف مدارس تحفيظ القرآن، تنصبُّ العناية فيها على تحفيظ القرآن، ثم يضاف إليه ما يساعدهم على إجادة قراءته كالخط والإملاء إلى السنة الرابعة، ثم تضاف مادة الحساب الجمع الطرح الضرب، الجمع في السنة الرابعة، الطرح في الخامسة، الضرب في السادسة مع كتاب لطيف يشرح لهم العقيدة والصلاة.

وليكن التركيز في هذه المرحلة على حفظ نصف القرآن على الأقل.

ويشرف على اختبار الطلاب في نهاية كل سنة لجان من حفاظ القرآن الثقات بحيث لا ينتقل الطالب من صف إلى آخر إلا بعد التأكد من حفظ مقرر القرآن في الصف الذي ينتقل منه.

والطالب الذي يعجز عن حفظ المقرر يبقى في سنته تلك للقيام بواجب حفظه القرآن في سنته التي يبقى فيها ولا يجتاز هذه السنة إلا بعد التأكد من حفظه لمقررها.

ثم تستمر هذه المدارس في تحفيظ القرآن ودراسة علومه في المرحلة المتوسطة ولتكن هذه المرحلة خمس أو ست سنين.

ويكون التركيز في هذه المرحلة على حفظ النصف الباقي من القرآن مع مراجعة النصف الأول مراجعة جادة حتى لا ينساه الطلاب.

ثم يضاف إلى حفظ القرآن مادة التجويد ومادة التوحيد والفقه والحديث يختار لهم الأمور المهمة في العقيدة والفقه ويكلفون بحفظ أربعين حديثًا على الأقل في كل سنة.

ثم الجغرافيا في السنة الأولى، والتاريخ في باقي السنوات.

ثم تستمر هذه المدارس في العناية الجادة بحفظ القرآن في المرحلة الثانوية ولتكن هذه المرحلة أربع سنوات أيضًا.

يعنى فيها بمراجعة حفظ القرآن عناية جادة مع دراسة علوم القرآن وعلوم الحديث والحديث والفقه والفرائض ويستمر اختبارهم في حفظ القرآن عن طريق

اللجان المذكورة في كل سنة من السنوات على الوجه السابق.

ثم بعد اجتيازهم المرحلة الثانوية يوزعون على كليات الشريعة والحديث والقرآن الآتي ذكرها.

ثانيًا: المدارس القائمة حاليًا تكون المرحلة الابتدائية على غرار ما ذكرته في الابتدائية من مدارس تحفيظ القرآن في كل شيء.

ب- المرحلة الموسطة:

لتكن ست سنوات، ويعنى فيها بحفظ النصف الباقي من القرآن ويجري الامتحان في حفظ القرآن على غرار ما ذكرناه في مدارس تحفيظ القرآن والذي لا ينجح في مقرر السنة التي هو فيها يبقى فيها إلى أن يجتازها بنجاح ويقرر في هذه المرحلة مواد المرحلة الابتدائية الحالي مع استحسان تخفيفها باختصار بعض المواد الصعبة وتوضيحها وإبعادها عن الرموز والتعقيد وتصفيتها من الشوائب مع ربطها بالعقيدة الإسلامية الحقة.

ج- المرحلة الثانوية:

لتكن أربع سنوات وفي هذه المرحلة يحسن تقسيمهم على حسب ميولهم واستعدادهم للتخصصات المستقبلة فقسم للطب وقسم للهندسة وقسم للقرآن وعلومه وقسم للحديث وعلومه وقسم للشريعة وقسم للاقتصاد الإسلامي وهكذا، مع العناية بمراجعة حفظ القرآن والاختبار فيه في نهاية كل سنة يتقدم الناجح ويبقى الراسب إلى أن يجتاز سنته بنجاح.

ومع دراسة قضايا مهمة في العقيدة والفقه وشيء من حفظ الحديث في كل سنة من سنوات قسم الطب والهندسة والاقتصاد.

ثم يتخرج طلاب كل قسم إلى الكلية التي فيها اختصاصه.

د- المرحلة الجامعية:

ينبغي أن تقوم في كل جامعة من جامعات المملكة كليات:

١- للقرآن.

٢- للحديث.

٣- للشريعة.

ثم يستمر في المرحلة الجامعية في كل الكليات كلية الطب، كلية الهندسة... إلخ في مراجعة حفظ القرآن وحفظ مقدار مناسب من الحديث في كل سنة من السنوات ويختبرون في الحفظ.

ولا يجتاز الطالب سنة إلى أخرى إلا بعد النجاح فيما يقرر مراجعة حفظه في القرآن ومقرر الحفظ من الحديث، مع إضافة شيء من علوم القرآن والحديث إلى المواد المقررة في كل كلية من الكليات.

وإضافة مادة للرد على شبهات المستشرقين وغيرهم من أعداء الإسلام، الشبهات التي يوجهونها ضد الإسلام في كل سنة من سنوات جميع الكليات.

هذا مع إشعار الطلاب جميعًا وفي كل المراحل أنهم إخوة في الله وأن غايتهم جميعًا وفي كل المراحل أنهم إخوة في الله وأن غايتهم جميعًا واحدة، وأنهم جميعًا جند في سبيل الله، وأنهم لبنات في صرح مجتمع إسلامي واحد يشد بعضهم بعضًا.

وأن تُزال كل أسباب التنافر الموجودة بينهم وأن يُساوَى بين خريجي مختلف الكليات في الرواتب والمراتب.

وأن توجه كل طاقاتهم ضد أعداء الإسلام الذين تكالبوا على الإسلام والمسلمين والذين تداعوا على المسلمين كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

أعداء الإسلام على اختلاف أديانهم وعقائدهم من استعماريين وشيوعيين وصهيونيين ومبشرين الذين يجمعهم التعصب الأعمى والحقد المميت ضد الإسلام والمسلمين.

إن أعداء الإسلام الذين يدركون تمام الإدراك تأثير القرآن والسنة في حياة المسلمين فيحاولون بدهاء وخبث أن يفصلوا بين المسلمين وبين كتابهم الخالد وسنة نبيهم المطهرة اللذين يبعثان في المسلمين بين الفينة والأخرى الحياة

الصحيحة حياة الإيمان الصادق ويبعثان فيهم روح الجهاد ويكسبانهم النصر على أعدائهم لأنهم حينما يعتصمون بكتاب ربهم وسنة نبيهم يكون الله معهم فيؤيدهم وينصرهم على أعدائهم .

فتحت شعار البحث العلمي وحرية الفكر تناول المبشرون والمستعمرون والصليبيون والصهيونيون والشيوعيون القرآن شر تناول .

وباسم الحضارة والمدنية قضوا على ما فيه من تشريع وعبادة .

وباسم حرية الفكر وإطلاقه من أغلال العقيدة زعزعوا قواعد دين الإسلام في نفوس المهزوزين .

وباسم البحث العلمي نزعوا عن القرآن قداسته من نفوس الضعفاء ، وهذا أشد وأنكى على الإسلام والمسلمين من الحروب العسكرية .

و لا يرد على هذا الكيد الخبيث والعمل الرهيب إلا أن تحصن أبناءنا بتعاليم الكتاب والسنة وأن نسلحهم بالحجج الدامغة المزهقة لباطل ومفتريات أعداء الإسلام وإلا أن نخرج الجندي المسلم والطبيب المسلم والمهندس المسلم والمحدث الواعي والفقيه المتبصر .

وكل ذلك سيحققه -إن شاء الله- المنهج الذي رسمناه وتحدثنا عنه .

ثانيًا: اختيار المدرس:

المدرس له أثره البالغ على التلميذ ؛ فهو أسوته ومثله فيجب اختيار المدرس الرباني التقي .

قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] .

والعلماء هم ورثة الأنبياء في علمهم وأخلاقهم ودعوتهم إلى الله ، ولا بد للمدرس أن يتمتع بحظ وافر من هذه الوراثة .

في علمه أن يكون عالمًا بدينه ، وفي أخلاقه من الإخلاص والصبر والحلم

وصدق الحديث والفعل، إلى جانب الذكاء والحرص على تنشئة تلاميذه على الإسلام الحق وأخلاقه وآدابه ومثله.

ولا ينبغي بحال من الأحوال أن يكون الاعتماد في اختيار المدرس على الشهادات، بل يجب أن يراعي في الدرجة الأولى عقيدته وأخلاقه الإسلامية وتمسكه بدينه؛ وهذا أمر مهم جدًّا ولا مناص من اعتباره.

فالمدرس الذي انجرف في عقيدته وفكره أو الضعيف الأخلاق والسلوك أو المتهاون في العبادة والصلاة أخطر على أبنائنا من الأمراض الفتاكة.

وما نشاهده من انحراف في سلوك كثير من الطلاب أو تهاونهم في أداء الصلوات بل استثقالها وما نراه من زهدهم في القرآن وتلاوته وحفظه وفهمه يعود معظم وزره على كثير من المدرسين الذين أثروا بسلوكهم في أبنائنا وفلذات أكبادنا.

فعلينا أن نشمر عن ساعد الجد لعلاج المصابين منهم في أخلاقهم وسلوكهم، وعلينا أن نبذل كل ما نستطيع من طاقات لحمايتهم ووقايتهم من الأمراض الفكرية والخلقية أشد مما نبذله لعلاج أجسادهم وحمايتها.

فكما لا نثق بالطبيب الذي يقدم الإبر المسمومة والدواء الفاسد الذي قد يودي بحياتهم كذلك يجب أن نحميهم ممن يفتك بأخلاقهم وسلوكهم من المدرسين، وكما يجب أن نختار الطبيب الأمين المخلص كذلك يجب أن نختار المدرس الأمين المخلص أكثر وأكثر وأهم وأهم.

ثالثًا: اختيار الطلاب الأذكياء:

الطلاب هم أبناء اليوم ورجال الغد وهم رجال المستقبل الذين سيكون منهم الأستاذ المسلم، والقاضي المسلم، والجندي المسلم، والطبيب المسلم، والمهندس المسلم.

وهذه أمور مهمة وعظيمة جدًّا؛ فلا بد من دراسة مواهبهم واستعداداتهم ولا بد لكل ثغر من ثغور الإسلام أن يملأ برجال وأهل الكفاءات فيه.

فمن المراحل الثانوية يبدأ التقسيم، تقسيم الطلاب إلى الاختصاصات التي ذكرتها سابقًا لا بمجرد أن يختار كل طالب ما يريد.

بل لابد من الاستعانة برأي الأساتذة الأذكياء المخلصين الذين يعرفون المواهب والاستعدادات بفراستهم وتوسمهم وخبرتهم وتجاربهم.

إن الأذكياء من أبنائنا اليوم ينصرفون عن العلوم الإسلامية من قرآن وحديث وتفسير وفقه لأسباب يعلمها الله.

والمعاهد العلمية والكليات الشرعية لا يوجد فيها إلا النادر من الأذكياء.

لقد كان الأذكياء والعباقرة في عهود الإسلام الزاهية يتجهون إلى دراسة العلوم الإسلامية وتدريسها والتأليف فيها خصوصًا علوم الحديث؛ فوصلوا بالعلوم الإسلامية وبالأمة الإسلامية إلى مستوى لا يوجد له نظير في تاريخ الإنسانية كله.

ونحن اليوم بأشد الحاجة والضرورة إلى هذا النوع من عباقرة الرجال ليعيدوا لنا مجد الإسلام.

وليسددوا الضربات القاتلة بفكرهم وأخلاقهم إلى أعداء الإسلام من مبشرين وغيرهم من منطلق الهجوم إلى ثغرات الأعداء التي لا تحصى في عقائدهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم.

إننا اليوم بخلو الميادين من أمثال هؤلاء في مركز دفاع هزيل عن الإسلام وأهله لا يحمي الأبناء ولا يصد هجوم الأعداء.

فلابد إذن من ملء هذا المجال بالعباقرة والأذكياء بدل أن تضيع كثير من طاقاتنا أو تذهب إلى مجالات أخرى لا تفيد منها بل قد تضر بأمتها ودينها، كما تحول كثير من أبناء الأمة الإسلامية إلى معاول بأيدي خصومنا وتوجههم لهدم كياننا وديننا.

رابعًا: تهيئة الجو لتربية الطلاب تربية إسلامية صالحة:

يجب أن يفهم الطلاب أن المدرسة معقل من معاقل الإسلام ومحضن يتربى فيه أبناء المسلمين ليؤدي كل واحد دوره في خدمة دينه وعقيدته.

وعلينا أن نفهمهم أن دينهم دين أخلاق عالية ومثل رفيعة، وأن رسولهم خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

وقد قال الله في حقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ويجب أن يكون مديرو المدارس والأساتذة على مستوى عال من الدين والخلق الرفيع.

كما يجب أن يحببوا الصلاة إلى نفوس الطلاب وأن يشعروهم أنها عماد الإسلام لن يقوم الدين إلا بها، وأنها أهم شيء في حياتهم بعد الشهادتين فليقيموها جماعة في المسجد إن كان بجوار المدرسة مسجد وإلا ففي المدرسة حتى يتم بناء مسجد يجاورها.

ومما يؤسف له مرَّ الأسى: أن بعض المدارس لا تقام فيها الصلاة وذلك يرجع في الأغلب إلى سوء الإدارة وتهاون بعض المديرين في أمر الصلاة، كما يساهم إلى حد بعيد بعض المدرسين الذين لا يخافون الله في أنفسهم ولا في أمتهم ولا يدركون فداحة الجناية التي يرتكبونها في حق الأمة ودينها.

هذه الصلاة تركها كفر، قال رسول الله ﷺ: «**إن العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة؛ من تركها فقد كفر**»[1].

وكان الصحابة لا يرون شيئًا من العمل كفرًا سوى ترك الصلاة، وقد اتفق العلماء أن من تركها جحدًا فهو كافر ويقتل على هذا الكفر، وإن تركها تكاسلًا وتهاونًا فبعضهم يرى أنه كافر وهو مذهب قوي وله أدلته، والآخرون يرون أنه يقتل حدًا، ومن يرى السجن دون القتل مذهبه ضعيف.

ومن المحتم علينا أن نشعر الطلاب باحترامها وأهميتها والذي تحدثه نفسه بالتهاون بها فعلى المسئولين أن يرغموه عليها إرغامًا كما قال رسول الله ﷺ: «**علموهم الصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع**».

والذي لا تنجح فيه وسائل الترغيب والترهيب والعقوبة فالواجب إبعاده عن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٤٦)، والنسائي باب: الحكم في تارك الصلاة (١/ ١١٧).

المدرسة لأنه جرثومة فاسدة قد يسري بلاؤه فيمن حوله .

كما أن هذه الجدية والصرامة يجب أن تلاحقهم حتى في خارج الدوام كالأندية الرياضية .

ومما يؤسف له أشد الأسف: أن كثيرًا من الأندية تمر بهم الصلاة وهم في غمرة اللهو واللعب، فلا يستحون من الله ولا يخجلون من الأمة، وقد يكون فيهم بعض الأساتذة وقد يكون معهم بعض الشخصيات .

إن هؤلاء يجب أن تنالهم يد العدالة وأن تنكل بهم تنكيلًا شديدًا يكون رادعًا لأمثالهم ممن تسول له نفسه الاستخفاف بشيء من تعاليم الإسلام كالصلاة .

إن التهرب من الصلاة واستثقالها من سمات المنافقين الذين همَّ رسول الله بإحراقهم والذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] .

ما يجري في الأندية الرياضية في العالم الإسلامي يجب على المسلمين أن يتخلصوا أو يخلصوا أبناءهم منه؛ فإن له دورًا كبيرًا في قتل الوقت وقتل الدين والخلق، وينبغي أن يكون فقط في حدود الإطار الذي أباحه الإسلام دون أن يصطدم بشيء من مبادئ الإسلام وأخلاقه ومثله .

كذلك وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة من واجبها أن تقدم النافع من البرامج للأمة وأن تبتعد عما لا يتفق مع تعاليم الإسلام، وعلى الآباء أن يراقبوا أبناءهم في متابعة البرامج حتى لا تضيع أوقاتهم في ملاحقتها، فتصرفهم عن الدراسة الجادة وحفظ القرآن، وينبغي أن يكون هناك توعية وتنبيه الآباء والأمهات في متابعة أولادهم والمحافظة على وقتهم فلا يسمحون لأبنائهم في متابعة البرامج إلا بوقت محدود وبالنافع منها فقط وإبعادهم عن الضار إن كان هناك ما يضر بدينهم أو خلقهم .

هذا ما بدا لي حول ربط أجيالنا بالقرآن والسنة كما كان أسلافهم في أزهى عصور الإسلام .

وأرجو أن أكون قد وفقت، كما أرجو أن يجد آذانًا صاغية وأمة واعية مستعدة للعودة إلى ربها والتمسك بكتاب ربها وسنة نبيها .

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

* * *

التمسك بالكتاب والسنة

على فهم السلف الصالح

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة القائمين على الملتقى

بسم اللَّه، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول اللَّه ﷺ.

أما بعد:

ففي إطار الملتقى الثاني لعلوم الشريعة الإسلامية بجامعة سطيف يتقدَّم بعض الإخوة القائمين بهذا الملتقى إلى فضيلة الشيخ: ربيع بن هادي المدخلي -حفظه الله- رئيس قسم السنَّة بجامعة المدينة المنورة -سابقًا- بأن يُشاركنا في إحياء هذه العلوم الدينية بكلمات يختارها فهم أعلم منَّا بما نحن له محتاجون، وألَّا يبخل علينا وعلى إدارة الجامعة التي قدَّمت يد المساعدة لإقامة مثل هذه الملتقيات.

والرجاء من شيخنا ذكر اسم الملتقى: وهو الملتقى الثاني لعلوم الشريعة، مع ذكر التاريخ؛ وليتفضَّل الشيخ مشكورًا.

فقال الشيخ -حفظه الله-:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإنَّ أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة ثمَّ أما بعد:

فإنَّه ليسرُّني أن يتم هذا اللِّقاء الطيِّب والمبارك -إن شاء الله- بإخوتنا وأحبتنا من أهل السنة السلفيين في الجزائر وفي منطقة «سطيف» الذين يبلغنا عنهم كل خير -إن شاء الله- نرجو أن يكونوا على طريقة سديدة ومنهج صحيح ألَا وهو التمسك بالكتاب والسنة والسير على منهج السلف الصالح.

وخير ما أرى أن أُقدِّمه لهم في هذا اللقاء: أن أحثهم على التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، والأسلاف الصالحين من الصَّحابة والتابعين لهم بإحسان، ومن سار على نهجهم من أئمة الهدى من محدثين وفقهاء ومفسرين الذين ساروا على طريقة الصَّحابة الكرام متمسكين بكتاب ربِّهم وبسنَّة نبيهم ﷺ يؤَلِّفُون في ذلك المؤلفات نصرة لدين الله، وتبليغًا له ودعوة إليه كما أمرهم ربُّهم بذلك.

وأحثُّ إخواني: أن يستعينوا على فهم منهج السلف الصالح على فهم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بما دونَّه الأئمة الهداة الأمناء على دين الله تعالى من مثل

«صحيح البخاري»، و**«صحيح مسلم»**، و**«سنن النسائي»**، و**«جامع الترمذي»**، و**«صحيح ابن حبان»**، و**«مسند الإمام أحمد»**، و**«مصنف عبد الرزاق»**، و**«مصنف ابن أبي شيبة»**، والمعاجم التي كُتِبَت في خدمة السنة و**«سنن البيهقي»** -الكبرى والصغرى-.

هذه مراجع لسنن رسول اللَّه ﷺ ولفقه السلف الصالح في أبواب الدِّين: من عقيدة وسلوك ومنهج.

منها نستمد عقيدتنا وأخلاقنا ومنهجنا ونُقِيم عليها سائر شئون حياتنا.

ومثل: كتاب: **«التفسير لإمام المفسرين محمد بن جرير الطبري»**، و**«تفسير الإمام البغوي»**، و**«تفسير الإمام ابن كثير»**، وما بقي من تفاسير السَّلف كـ: **«تفسير عبد الرزَّاق»**، و**«تفسير ابن أبي حاتم»**، و**«تفسير العلامة السعدي»** وما جرى مجراها واستمد منها هذه الكتب التي حوت العلوم.

ومن كتب العقائد: مثل كتاب: **«السُّنَّة»** لعبد اللَّه ابن الإمام أحمد، وكتاب: **«السنة»** للخلَّال، و**«الشريعة»** للآجرِّي، و**«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»** للَّالكائي، و**«الحجة»** لأبي القاسم الأصبهاني، وغيرها ممَّا دُوِّن في العقيدة السلفية وبيانها بأدلَّتها وحججها ودحض أباطيل أهل البدع والفرق الضَّالة التي واجهتها هذه الكتب.

فإنَّك من خلال دراسة هذه الكتب تعرف حقيقة عقيدة السَّلف ومنهجهم، وتعرف ما عند الآخرين من انحرافات وضلالات على طريقة الصَّحابي الجليل حذيفة رضي الله عنه قال: **«كان الناس يسألون رسول اللَّه ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن يدركني»**.

فمعرفة الباطل ليتجنبه المسلم أمر بيَّنه القرآن وبيَّنته السُّنَّة وسار عليه السَّلف الصالح، تعرف الحقَّ وتتمسك به وتدعو إليه، وتعرف الباطل فتحذره وتتجنبه وتُحذِّر النَّاسَ من الوقوع فيه.

ولا تتكامل الدَّعوة إلَّا بهذا: «معرفة الحقِّ من مصادره الأصيلة ومعرفة الباطل». معرفة الحق لتتمسك به وتدعو إليه، ومعرفة الباطل لتَحْذَرَهُ وتُحَذِّر الناس

منه، فإنَّ هذا يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدخل في باب الجهاد العلمي الذي هو أفضل من الجهاد بالسَّيف كما قرَّر ذلك العلماء، ويدخل ذلك في باب النَّصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامَّتهم، مع التمسك بالأخلاق العالية فيما ندعو إليه وفيما نُحذِّر منه.

ولعلَّنا أدركنا نتائج ضيق العطن والشدة المهلكة وما شاكلها، وأدركنا نتائج ما يُسمَّى بالتمييع والمداهنات، فلا هذا ولا ذاك، وإنَّما منهج وسط رَضِيَه اللَّه لهذه الأمَّة ومدحها عليه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وسط عدول، وفي نفس الوقت متوسطون ومعتدلون بين الإفراط والتفريط، فالحقُّ بين هذين، الحقُّ وسط، صراط اللَّه وسط بين الجفاء والغلوِّ؛ فلا جفاء في هذا الدين ولا غلوَّ فيه، كلُّ ذلك محذور ومنهي عنه وله عواقب وخيمة شوَّهت الإسلام سابقًا ولاحقًا، وشوَّهت المنهج السلفي.

في هذا العصر أناس ينتهجون المنهج السلفي؛ فيذهبون يسلكون مسالك السياسيين في التهويل والتمييع والمداهنات ويسمون هذا حكمة، أو شدة تهلك المنهج السلفي وتأخذ بخناقه وتشوهه وتنفِّر الناس منه فلا هذا ولا ذاك.

وإنَّما الاعتدال هو الذي يؤتي ويعطي الدعوة السلفية الصورة اللائقة بها من جمالها وحسنها ويسرها وبعدها عن المنفرات.

وكان الرسول الكريم ﷺ يعلم أمته ورسله ومبعوثيه إلى الدعوة إلى اللَّه تعالى فقال ﷺ: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا».

وقال ﷺ: «يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا، وبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا».

ويفهم بعض الناس من التيسير أنَّه المداهنة فيسلكون طرق المداهنة، ويفهم من الحكمة التي أمر اللَّه بها يفهم منها أنَّها هي المداهنة والطرق السياسية التي تقتل

الإسلام، فلا هذا ولا ذاك.

ويفهم بعض الناس من حثّ الرسول ﷺ والسلف الصالح على التمسك بالكتاب والسنة والتحذير من البدع وأهلها أنّها الشدة والغلظة المطلقة والجفاء وسلوك كل طرق التنفير والتشويه للدعوة السلفية، وهذا أظنُّ أنّه جرى منه شيء كثير في كلِّ بلاد الإسلام وفي الجزائر نفسها.

وقد جربتم نتائج هذين المنهجين:

* **«منهج التمييع والمداهنات والدفاع عن الباطل بطرق شيطانية».**

* **و«منهج التشدُّد الذي أوّل ما يفتك بالسّلفية وأهلها».**

فقد تظاهر أُناس بالغيرة فكان عملهم سلاحًا يفتك بالدَّعوة السّلفية وبأهلها ويغرس بينهم العداوة والبغضاء، وهذه الأعمال ونتائجها يجب الحذر منها والتّحذير منها، والدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

فمن تعلَّم منّا وعرف منهج السّلف فعليه أن يسلك طريق القرآن والسنة وطريق السلف الصالح في الرفق واللِّين والتيسير المشروع الذي طبقه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام وسلفنا الصالح.

وفي نفس الوقت يُحاذِر أن يَدْخُل في المجاملات والمداهنات أو يُدْخِلْ النَّاس أو يَزُجّ بالدعوة السلفية في -مثل ما يقال- أنفاق مسدودة، ويغلق أبواب الدَّعوة السلفية في وجوه الناس بتنفيره وتشويهه لهذه الدَّعوة، فلا هذا ولا ذاك: لا غلو ولا شدة، ولا تميُّع ولا تفريط ولا مداهنات.

ومن لم يتعلم من الآن فعليه أن يتعلَّم ويَفْهَم كتاب الله تعالى وسنَّة رسول الله ﷺ، ويحفظ ما يستطيع من نصوص الكتاب والسنة؛ لأنَّها هي رصيده في الدَّعوة إلى الله ويفهمها ويُبلِّغها على وجوهها الصَّحيحة؛ فإنَّك بالجهل تُحرِّف النُّصوص

من حيث لا تدري وتُنْزِلها في غير منازلها .

فلهذا حذَّر العلماء من تعاطي الجُهَّال للدَّعوة إلى اللَّه تعالى والمناظرات من الجهلاء فإنَّ هذه آثارها سيئة وتضرُّ بالدعوة السلفية وأهلها .

ولهذا قال اللَّه -تبارك وتعالى- : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

أي : أنا وأتباعي ندعو إلى اللَّه على بصيرة على علم وعلى حكمة .

فإذا كان الدَّاعي جاهلًا بأصول الإسلام وبفهم النصوص من الكتاب و السنة ومنهج السَّلف وشرف الدَّعوة إلى الله ؛ فهذا يضرُّ بالدعوة أكثر ممَّا ينفعها ، اللَّهم إلَّا جزئيات يعرفها ويستيقن معرفتها ويتأكَّد من صِحَّة فهمه من العلماء عند ذلك يدعو من هو دونه ومن يحتاج إلى هذه الدَّعوة في حدود علمه وليحذر القول على اللَّه بغير علم .

قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فالقول على اللَّه بدون علم من أعظم الذنوب ، بل جعله بعض العلماء كابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه أشدُّ من الكفر ؛ لأنَّ القول على اللَّه بلا علم يدخل فيه الكفر والشرك والبدع والضلالات والإفساد في الأرض .

فلا يجوز لمسلم أن يقول في دعوة أو فتوى أو تدريس أو غيره أن يقول على اللَّه ما لا يعلم ، حتى لو كان عالمًا لا يجوز أن يقول في شيء بغير علم ، ولهذا كان السَّلف العلماء العظماء من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى إذا سُئِل عن شيء لا يعلمه يقول : «لا أدري» ، «لا أعلم» وكانوا يتواصون فيما بينهم أن يعلموا تلاميذهم : «لا أدري» .

وقال أحدهم : «لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك : لا أدري ، لفعلت» (!) .

فينبغي على العالم وعلى طالب العلم المتمكن إذا كان يُدَرِّسُ : أن يتورع في دينه في سلوكه ، وفي مسائل العلم ، في العقيدة أو المنهج أو العمليات عليه أن يتورع ويُعلِّم و يُرَبِّي مَنْ تحتَ يده على هذا الورع وهذا الخوف من اللَّه -تبارك

وتعالى- لاسيما في أبواب الدِّين؛ فإنَّها -إذا قال بغير علم- من القول على الله بغير علم.

وفيه من الذمِّ والوعيد الشديد ما نصَّ عليه الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

ونصوص الوعيد كقوله ﷺ: «**من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**».

فإيَّانا والكذب في كلِّ أمر من الأمور، علينا بالصدق، علينا بالإخلاص علينا بمراقبة الله -تبارك وتعالى- في كلِّ شئوننا.

وفي هذا العصر ساد الكذب وسادت الإشاعات الكاذبة، فعلينا ونحن أهل السنَّة أن نتمسك بالحقِّ وأن نتمسك بالصِّدق وأن نَعَضَّ على ذلك بالنواجذ؛ فإنَّ الصِّدق كما قال ﷺ: «**يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة، ولا يزال الرجل يَصْدُقُ ويتحرَّى الصِّدْقَ حتى يُكتَبَ عند الله صدِّيقًا، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب و يتحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذَّابًا**».

فتلك المنزلة الرفيعة -المنزلة الصديقية- ينالها العبد المؤمن المخْلِص بصدقه وتحرِّيهِ للصِّدق، وتلك المرتبة والدَّرَكة الرديئة وهي أن يكتب عند الله كذَّابًا ويقاد إلى النار -والعياذ بالله- هذه من عواقب الكذب الوخيمة.

فعلى المسلم السلفي الصادق أن يتحرَّى الصدق وأن يتجنب الكذب ويحذره ويحذر منه ويُربِّي على الصِّدق، يُربِّي نفسه وأسرته وتلاميذَه ومن تحت يده يربِّيهم على هذه الأخلاق العالية: الصدق، الصبر، الحلم، والأخلاق التي أحبَّها الله تعالى والتي قال فيها رسول الله ﷺ: «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

وكان رسول الله ﷺ ينهى عن سفساف الأخلاق ورديء الأخلاق ومن شرِّها هذا الكذب.

فتعلموا -أيها الإخوة- العلوم الشرعية، ومنها أنواع الكتب وأصنافها التي أشرت إليها؛ فإنَّها تساعدكم على فهم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

أسأل اللَّه -تبارك وتعالى- أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يوفقنا إلى الدعوة إلى اللَّه -تبارك وتعالى- بالحجة والبرهان والبصيرة الحكمة والعلم والصبر؛ إنَّ ربَّنا لسميع الدعاء.

وأوجه شكري لهذه الجماعة التي قامت بتنظيم هذا الملتقى المبارك ونسَّقت له ودعت إليه العلماء من هنا وهناك، وهذا عمل جليل -إن شاء الله- فيه خير كثير وقد يدخل إن شاء اللَّه في باب: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه إلى يوم القيامة»**.

وهذا الملتقى -إن شاء الله- فيه دعوة العلماء لِيُوَجِّهُوا الناسَ ويدعوهم إلى الخير وهم السبب في ذلك والدَّال على الخير كفاعله.

أسأل اللَّه تعالى أن يزيدهم من العلم والهدى والتُّقى ما يرفعهم عند اللَّه درجات؛ إنَّ ربَّنا لسميع الدعاء.

كان هذا اللقاء مع الإخوة السلفيين من جامعة سطيف بالجزائر القائمين على ملتقى علوم الشريعة الثاني وذلك ظهر يوم الخميس الموافق لـ: ٢٦/ ٣/ ١٤٢٦هـ.

وصلى اللَّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

حكم الإسلام في شد الرحال

إلى قبور الأنبياء والصالحين

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فإني قد اطلعت على ما دار بين معالي **الشيخ العلامة صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان عضو هيئة كبار العلماء**، وبين أناس خالفوه في موضوع شد الرحال إلى قبر النبي ﷺ، ورأيت ما في كلامهم من المخالفة للحق؛ ولما قرره السلف الصالح، ورأيت أنهم ليس لهم مستند صحيح من الكتاب والسنة ولا من أقوال أئمة الإسلام السابقين أهل القرون المفضلة، وإنما يتعلقون بهفوات المتأخرين التي لا سند لها من نصوص القرآن والسنة الصحيحة ولا أقوال ولا أعمال السلف الصالح، وعلى رأسهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ولا أقوال أئمة العلم والهدى ومنهم الأئمة الأربعة.

وقبل الخوض في هذه المسألة أقول: إن محبة الرسول الكريم وخاتم النبيين وإجلاله وتوقيره وطاعته واتباعه والإشادة بمنزلته العظيمة عند الله لمن أوجب ما افترضه الله على الناس عمومًا؛ لأنه رسول رب العالمين إلى الناس والجن أجمعين، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. فعلامة محبة الله الصادقة: اتباع رسول الله ﷺ.

وقال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

فجعل طاعته طاعة له، وقرن طاعته بطاعته، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

ومن أعظم طاعته: التمسك بما جاء به، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]. ومن أعظم التجاوز لِحدود الله: الابتداع فِي دين اللَّه.

ومن صحيح سنته ﷺ قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتَّى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجْمَعين».

فلا يُكتَفَى فِي حقه بِمجرد الحب، بل لابد من حب يفوق حب الأبناء والآباء والأقربين والناس أجمعين.

وبرهان ذلك: الحرص على اتباع كل ما جاء به وتصديقه وعدم تَحريفه أو معارضته بقول أحد كائنًا من كان، فلا يُعَارَض قولُه بقول أحد، ولا يُقَدَّم على هديه هدي أحد ﷺ، وهذا مطلوب من كل مسلم، فما ثبت من قوله أو فعله أو تقريره؛ أخذناه وتقربنا به إلى اللَّه، وما لَمْ يثبت من قوله وتقريره فِي أبواب القرب؛ فلا يَجوز لِمسلم أن يتقرب به إلى الله؛ لأنه من الدين الذي لَمْ يأذن به اللَّه.

فزيارة القبور مشروعة، وشد الرحال إليها غير مشروع لا بقول النَّبِي ﷺ ولا بفعله ولا بتقريره، بل الصواب أنه منهي عنه، ونَهى عنه أصحابه بناء على نَهيه وتوجيهه، فلا يكون مشروعًا بِحال من الأحوال؛ فقد روى كلٌّ من: أبي هريرة وأبي سعيد وأبي بصرة الغفاري وابن عمر حديث:

«لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى».

أما حديث أبِي هريرة: فأخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

وأما حديث أبِي سعيد: فأخرجه الشيخان وغيرهما بلفظ: «لا تشدوا الرحال...» إلخ.

وأما حديث أبِي بصرة: فأخرجه مالك وأحمد وأبو داود الطيالسي والنسائي والترمذي بأسانيد بعضها صحيح وبعضها حسن.

وأما حديث ابن عمر: فأخرجه الأزرقي فِي أخبار مكة بإسناد رجاله رجال الصحيح، والطبراني فِي الكبير وفِي الأوسط من طريق أخرى. قال الْهَيثمي: رجاله ثقات.

ولَمَّا ذهب أبو هريرة إلى الطور قال له أبو بصرة: من أين جئت؟ قال: جئت من الطور صليت فيه. قال: أما إنِّي لو أدركتك لَمْ تذهب، إني سَمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تشد الرحال إلا إلَى ثلاثة مساجد..**» الحديث.

ونَهى ابن عمر قزعة عن الذهاب إلى الطور مُحتجًا بنهي النَّبِي ﷺ عن شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة.

فاتفق فَهْم هؤلاء الثلاثة من أصحاب النَّبِي ﷺ على النهي عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة لأجل التقرب إلى الله، ولا نعرف لَهم مُخالفًا من الصحابة، وفقه الصحابة مقدَّم على فقه من خالفهم مهما بلغوا من العلم ومن الكثرة، هذا مسلَّم لدى كل من يَحترم سنة رسول الله ﷺ وفقه أصحابه وعلمهم، أما من اتبع هواه فله شأن آخر.

ولقد بذل أئمة السنة جهودًا عظيمة فِي بيان الحق فِي هذه المسألة ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية فِي عدد من الكتب، منها: الجواب الباهر، وجولات فِي كتابه: قاعدة جليلة فِي التوسل والوسيلة، وسوف أختار من الأخير فقرات كنت علقت عليها أيام تَحقيقي ودراستي له فِي حدود عام ١٤١٢هـ.

أسأل الله أن ينفع المسلمين بِهذه الفقرات القيمة وما يتبعها من تعليقات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

٤٠٦- فإن أحاديث زيارة قبره كلها ضعيفة، لا يعتمد على شيء منها فِي الدين؛ لِهذا لَمْ يرو أهل الصحاح والسنن شيئًا منها، وإنَّما يرويها من يروي الضعاف كالدارقطني والبزار وغيرهما.

وأجود حديث فيها: ما رواه عبد الله بن عمر العمري، وهو ضعيف، والكذب ظاهر عليه.

مثل قوله: «**من زارني بعد مَمَاتِي فكأنَّما زارني فِي حياتِي**». فإن هذا كذبه ظاهر مُخالف لدين المسلمين، فإن من زاره فِي حياته وكان مؤمنًا به كان من أصحابه، لاسيما إن كان من المهاجرين إليه، الْمُجاهدين معه.

أقول: عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، أبو عبد

الرحمن العمري المدني: ضعيف عابد من السابعة/ م. ٤ تقريب (١/ ٤٣٥).
وضعَّف عبدَ اللَّه عددٌ من أئمة الحديث مثل: يَحيَى القطان، وعلي بن المديني، وابن حبان.

لكن هذا الحديث الذي نسبه إليه شيخ الإسلام بِهذا اللفظ ليس هو حديث عبد اللَّه العمري، وإنَّما هو حديث حفص بن سليمان عن ليث بن أبِي سليم عن مُجاهد عن ابن عمر، ولفظ حديث عبد اللَّه بن عمر العمري الضعيف هكذا: «**من زار قبري وجبت له شفاعتِي**».

وقد أورد الشيخ نفسه الْحَديثين فِي الرد على الأخنائي (ص٤٢-٤٣) بِحاشية الرد على البكري ناسبًا كل حديث إلى راويه على الصواب، وكذلك ذكر ابن عبد الْهَادي الحديثين فِي كتابه الصارم المنكي، أورد حديث عبد اللَّه العمري فِي (ص١١)، وناقشه مناقشة علمية إلى (ص ٢٧). وأورد حديث حفص بن سليمان فِي (ص ٤٨) وناقشه إلى (ص ٦٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٠٧- **وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «لا تسبُّوا أصحابِي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدُكم مثل أُحدٍ ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»**. أخرجاه فِي الصحيحين.

٤٠٨- والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بِهَا واجبة؛ كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين، بل ولا شرع السفر إليه، بل هو منهي عنه.

٤٠٩- وأما السفر إلى مسجده للصلاة فيه، والسفر إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه فهو مستحب، والسفر إلى الكعبة للحج فواجب، فلو سافر أحد السفر الواجب والمستحب لَمْ يكن مثل واحد من الصحابة الذين سافروا إليه فِي حياته، فكيف بالسفر المنهي عنه؟!

٤١٠- وقد اتفق الأئمة على أنه لو نذر أن يسافر إلى قبره -صلوات اللَّه وسلامه عليه- أو قبر غيره من الأنبياء والصالِحين؛ لَمْ يكن عليه أن يوفي بنذره بل يُنهَى عن ذلك.

أقول:

في مَجمع الأنهر للشيخ عبد الله بن مُحمد بن سليمان المعروف بداماد آفندي الحنفي (١/ ٥٤٧): «ومن نذر بِما هو واجب قصدًا من جنسه، وهو عبادة مقصودة -نذرًا مطلقًا- غير معلق بشرط بقرينة التقابل، مثل أن يقول: لله عليَّ حج أو عمرة، أو اعتكاف، أو لله علي نذر، وأراد شيئًا بعينه كالصدقة؛ فإن هذه عبادات مقصودة، ومن جنسها واجب، وإنَّما قيد النذر به؛ لأنه لَمْ يلزم الناذر ما ليس من جنسه فرض؛ كقراءة القرآن، وصلاة الجنازة، ودخول المسجد، وبناء المساجد والسقاية وعمارتِها، وإكرام الأيتام، وعيادة المريض، وزيارة القبور، وزيارة قبر النَّبِي ﷺ وإكفان الموتى، وتطليق امرأته، وتزويج فلانة، لَمْ يلزمه شيء من هذه الوجوه؛ لأنَّها ليس لَهَا أصل فِي الفروض المقصودة، كما فِي كثير من الكتب».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

٤١١- ولو نذر السفر إلى مسجده والمسجد الأقصى للصلاة؛ ففيه قولان للشافعي.

أظهرهما عنه: يَجب ذلك، وهو مذهب مالك وأحمد.

والثانِي: لا يَجب، وهو مذهب أبي حنيفة؛ لأن من أصله أنه لا يَجب النذر إلا ما كان واجبًا بالشرع، وإتيان هذين المسجدين ليس واجبًا بالشرع، فلا يَجب بالنذر عنده.

وأما الأكثرون فيقولون: هو طاعة لله.

أقول: ويَحسن أن نورد أقوال الأئمة الأربعة حول هذه المسألة:

*** مذهب الشافعية:**

قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ فِي الأم (٢/ ٢٥٦):

«ولو نذر فقال: عليّ المشي إلى إفريقية أو العراق أو غيرهما من البلدان؛ لَمْ يكن عليه شيء؛ لأنه ليس لله طاعة فِي المشي إلى شيء من البلدان، وإنَّما يكون المشي إلى المواضع الَّتِي يرتَجى فيها البر وذلك المسجد الحرام، وأحبّ إليّ لو نذر أن يَمشي إلى مسجد المدينة أن يَمشي، وإلى مسجد بيت المقدس أن يَمشي؛

لأن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلَّا إلَى ثلاثة مساجد: الْمَسجد الْحَرام، ومسجدي هذا، ومسجد بيت المقدس». ولا يبين لي أن أوجب المشي إلى مسجد النَّبِي ﷺ ومسجد بيت المقدس، كما يبين لي أن أوجب المشي إلى بيت اللَّه الحرام؛ وذلك أن البر بإتيان بيت اللَّه فرض، والبر بإتيان هذين نافلة». وانظر: حلية العلماء للقفال الشاشي (٣/ ٣٤٢).

وقال أبو إسحاق الشيرازي فِي المهذب: «وإن نذر المشي إلى المسجد الأقصى ومسجد المدينة ففيه قولان؛ قال فِي البويطي: يلزمه؛ لأنه مسجد ورد الشرع بشد الرحال إليه، فلزمه المشي إليه بالنذر، كالمسجد الحرام. وقال فِي الأم: لا يلزمه؛ لأنه مسجد لا يَجب قصده بالنسك، فلم يَجب المشي إليه بالنذر كسائر المساجد». وانظر: حلية العلماء (٣/ ٣٤٢).

وذكر النووي هذين القولين فِي الإيضاح (ص ٥١٨-٥١٩) مع شرح ابن حجر الْهَيتمي، وقال ابن حجر الْهَيتمي هنا (ص ٥١٩): «ولو نذر زيارة قبره ﷺ لزم الوفاء به؛ لِما علمت أنَّها فِي القرب المؤكدة، وكذا زيارة قبر غيره ﷺ مِمَّا تسن زيارته؛ لأنَّها قربة مقصودة».

وهذا من العجائب والغرائب، لقد علم ابن حجر أن مذهب الشافعي استحباب الوفاء بالنذر بالذهاب إلى مسجد رسول اللَّه ﷺ وبيت المقدس وتَهيبه من القول بالوجوب خوفًا من اللَّه وورعًا، وأكد ذلك النووي فِي الإيضاح بأن أصح القولين الاستحباب، وأقرهما ابن حجر على ذلك، ثُمَّ بعد كل هذا يرى وجوب الوفاء بالنذر بزيارة القبور؛ لأنَّها فِي نظره من القرب المؤكدة، فهل لا يلزم الوفاء بنذر شد الرحال إلى مسجد رسول اللَّه وإلى بيت المقدس؛ لأنه لا يرقى إلى درجة القرب المؤكدة، وقد حضنا رسول الهدى ﷺ إلى شد الرحال إليهما مع أعظم بيوت الله: المسجد الحرام.

وإنِّي لأخشى أن يكون هذا الكلام مدسوسًا عليه، فإن كان منه فأرجو أن يكون قد رجع عنه.

وله كلام جيد فِي هذا الباب من الإنصاف أن نذكره:

قال في كتابه «الزواجر»: «الْكَبِيرَةُ الثَّالِثَةُ وَالرَّابِعَةُ وَالْخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ وَالسَّابِعَةُ وَالثَّامِنَةُ وَالتِّسْعُونَ: اتِّخَاذُ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ، وَإِيقَادُ السُّرُجِ عَلَيْهَا، وَاتِّخَاذُهَا أَوْثَانًا، وَالطَّوَافُ بِهَا، وَاسْتِلامُهَا، وَالصَّلَاةُ إِلَيْهَا».

أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «عَهْدِي بِنَبِيِّكُمْ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِخَمْسِ لَيَالٍ فَسَمِعْته يَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ إِلَّا وَلَهُ خَلِيلٌ مِنْ أُمَّتِهِ، وَإِنَّ خَلِيلِي أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ الأُمَمَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ وَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي بَلَّغْتُ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ». الْحَدِيثَ.

وَالطَّبَرَانِيُّ: «لا تُصَلُّوا إِلَى قَبْرٍ، وَلَا تُصَلُّوا عَلَى قَبْرٍ».

وَأَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَابْنُ حِبَّانَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ».

وَمُسْلِمٌ: «أَلا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

وَأَحْمَدُ: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُم السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاء، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ».

وَأَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ: «الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَّامَ».

وَالشَّيْخَانِ وَأَبُو دَاوُد: «قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِم مَسَاجِدَ».

وَأَحْمَدُ عَنْ أُسَامَةَ، وَأَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ، وَالنَّسَائِيُّ عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

وَأَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ وَالنَّسَائِيُّ: «أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ؛ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَابْنُ حِبَّانَ عَنْ أَنَسٍ: «نَهَى ﷺ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَى الْقُبُورِ».

وَأَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُم السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاء، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ».

وَابْنُ سَعْدٍ: «أَلا إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِم وَصَالِحِيهِم مَسَاجِدَ فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ». وَأَيْضًا: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ فَلَعَنَهُم اللَّهُ تَعَالَى».

* تَنْبِيهٌ: عَدُّ هَذِهِ السِّتَّةِ مِنَ الْكَبَائِرِ وَقَعَ فِي كَلَامِ بَعْضِ الشَّافِعِيَّةِ، وَكَأَنَّهُ أَخَذَ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرْته مِنْ هَذِهِ الأَحَادِيثِ، وَوَجْهُ أَخْذِ اتِّخَاذِ الْقَبْرِ مَسْجِدًا مِنْهَا وَاضِحٌ؛ لأَنَّهُ لُعِنَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِقُبُورِ أَنْبِيَائِهِ وَجُعِلَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِقُبُورِ صُلَحَائِهِ شَرَّ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَفِيهِ تَحْذِيرٌ لَنَا كَمَا فِي رِوَايَةٍ: «يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا». أَيْ: يُحَذِّرُ أُمَّتَهُ بِقَوْلِهِ لَهم ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَصْنَعُوا كَصُنْعِ أُولَئِكَ فَيُلْعَنُوا كَمَا لُعِنُوا؛ وَاتِّخَاذُ الْقَبْرِ مَسْجِدًا مَعْنَاهُ: الصَّلَاةُ عَلَيْهِ أَوْ إِلَيْهِ، وَحِينَئِذٍ فَقَوْلُهُ: «وَالصَّلاةُ إِلَيْهَا» مُكَرَّرٌ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِاتِّخَاذِهَا مَسَاجِدَ: الصَّلَاةُ عَلَيْهَا فَقَطْ، نَعَمْ إِنَّمَا يُتَّجَهُ هَذَا الأَخْذُ إِنْ كَانَ الْقَبْرُ قَبْرَ مُعَظَّمٍ مِنْ نَبِيٍّ أَوْ وَلِيٍّ كَمَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ رِوَايَةُ: «إِذَا كَانَ فِيهِم الرَّجُلُ الصَّالِحُ».

وَمِنْ ثَمَّ قَالَ أَصْحَابُنَا: «تَحْرُمُ الصَّلَاةُ إِلَى قُبُورِ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ تَبَرُّكًا وَإِعْظَامًا». فَاشْتَرَطُوا شَيْئَيْنِ: أَنْ يَكُونَ قَبْرَ مُعَظَّمٍ، وَأَنْ يَقْصِدَ بِالصَّلاةِ إِلَيْهِ، - وَمِثْلُهَا الصَّلَاةُ عَلَيْهِ- التَّبَرُّكَ وَالإِعْظَامَ.

وَكَوْنُ هَذَا الْفِعْلِ كَبِيرَةً ظَاهِرٌ مِن الأَحَادِيثِ الْمَذْكُورَةِ لِمَا عَلِمْت، وَكَأَنَّهُ قَاسَ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ تَعْظِيمٍ لِلْقَبْرِ كَإِيقَادِ السُّرُجِ عَلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ وَتَبَرُّكًا بِهِ، وَالطَّوَافُ بِهِ كَذَلِكَ وَهُوَ أَخْذٌ غَيْرُ بَعِيدٍ، سِيَّمَا وَقَدْ صَرَّحَ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ آنِفًا بِلَعْنِ مَن اتَّخَذَ عَلَى الْقَبْرِ سُرُجًا، فَيُحْمَلُ قَوْلُ أَصْحَابِنَا بِكَرَاهَةِ ذَلِكَ عَلَى مَا إِذَا لَمْ يَقْصِدْ بِهِ تَعْظِيمًا وَتَبَرُّكًا بِذِي الْقَبْرِ.

وَأَمَّا اتِّخَاذُهَا أَوْثَانًا فَجَاءَ النَّهْيُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ بَعْدِي». أَيْ: لَا تُعَظِّمُوهُ تَعْظِيمَ غَيْرِكُمْ لأَوْثَانِهِمْ بِالسُّجُودِ لَهُ أَوْ نَحْوِهِ، فَإِنْ أَرَادَ ذَلِكَ الإِمَامُ بِقَوْلِهِ: «وَاتِّخَاذُهَا أَوْثَانًا» هَذَا الْمَعْنَى اتَّجه مَا قَالَهُ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ كَبِيرَةٌ بَلْ

كُفْرٌ بِشَرْطِهِ.

وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ مُطْلَقَ التَّعْظِيمِ الَّذِي لَمْ يُؤْذَنْ فِيهِ كَبِيرَةٌ فَفِيهِ بُعْدٌ[١]، نَعَمْ قَالَ بَعْضُ الْحَنَابِلَةِ: قَصْدُ الرَّجُلِ الصَّلَاةَ عِنْدَ الْقَبْرِ مُتَبَرِّكًا بِهَا عَيْنُ الْمُحَادَّةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِبْدَاعُ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ لِلنَّهْيِ عَنْهَا ثُمَّ إِجْمَاعًا، فَإِنَّ أَعْظَمَ الْمُحَرَّمَاتِ وَأَسْبَابِ الشِّرْكِ الصَّلَاةُ عِنْدَهَا وَاتِّخَاذُهَا مَسَاجِدَ أَوْ بِنَاؤُهَا عَلَيْهَا، وَالْقَوْلُ بِالْكَرَاهَةِ مَحْمُولٌ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ؛ إِذْ لَا يُظَنُّ بِالْعُلَمَاءِ تَجْوِيزُ فِعْلٍ تَوَاتَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَعْنُ فَاعِلِهِ، وَتَجِبُ الْمُبَادَرَةُ لِهَدْمِهَا وَهَدْمِ الْقِبَابِ الَّتِي عَلَى الْقُبُورِ؛ إِذْ هِيَ أَضَرُّ مِنْ مَسْجِدِ الضِّرَارِ؛ لأَنَّهَا أُسِّسَتْ عَلَى مَعْصِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لأَنَّهُ نَهَى عَنْ ذَلِكَ وَأَمَرَ ﷺ بِهَدْمِ الْقُبُورِ الْمُشْرِفَةِ، وَتَجِبُ إِزَالَةُ كُلِّ قِنْدِيلٍ أَوْ سِرَاجٍ عَلَى قَبْرٍ، وَلَا يَصِحُّ وَقْفُهُ وَنَذْرُهُ. انْتَهَى.

* مذهب الْمَالكية:

فِي المدونة (٢/ ٨٧): «وقال مالك: ومن قال: لله عليَّ أن آتي المدينة أو بيت المقدس أو المشي إلى المدينة أو المشي إلى بيت المقدس؛ فلا شيء عليه، إلا أن يكون نوى بقوله ذلك أن يصلي فِي مسجد المدينة أو فِي مسجد بيت المقدس، فإن كان تلك نيته؛ وجب عليه الذهاب إلى المدينة أو إلى بيت المقدس راكبًا». وانظر: الكافي لابن عبد البر (١/ ٤٥٨).

ويفهم من استثناء مالك الصلاة فقط من صور الأعمال الَّتِي يشملها نذر المشي إلى المدينة وإلى بيت المقدس، ومنها مثلًا: زيارة قبر النَّبِي ﷺ وقبور الشهداء فِي المدينة وقبر الخليل وسائر قبور الأنبياء فِي بيت المقدس، أنه لا يَجب ولا يشرع شد الرحال إلى قبر نبينا مُحمد ﷺ ولا إلى قبر غيره من الأنبياء والصالِحين، ولا يجب ولا يستحب الوفاء بالنذر بالمشي إليها، ولو كان يرى شيئًا من هذا لاستثناه كما استثنَى الصلاة، وهذا يدل على قوة اتباعه للكتاب والسنة وتَمسكه بهما، وبُعده عن الغلو والبدع الَّتِي قال اللَّه فِي شأنِها: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ

---

(١) أقول: لا بُعد فيه إلا أن التعظيم الذي لَمْ يأذن به اللَّه قد يكون شركًا وقد يكون غلوًّا: «وإياكم والغلو فِي الدين، فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلو فِي الدين».

ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقول رسول اللَّه ﷺ: «كل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

وقوله: «من أحدث فِي أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». فليت أتباعه يقفون حيث وقف؛ لأن الدين توقيفي.

* مذهب الْحَنابلة:

قال ابن قدامة فِي الْمُغني (١٠/ ١٦): «وإن نذر المشي إلى مسجد النَّبِي ﷺ، أو المسجد الأقصى؛ لزمه ذلك، وبِهذا قال مالك والأوزاعي، وأبو عبيد، وابن المنذر، وهو أحد قولَي الشافعي، وقال فِي الآخر: «ولا يبين لِي وجوب المشي إليهما؛ لأن البر بإتيان بيت اللَّه فرض، والبر بإتيان هذين نفل».

* مذهب الأحناف:

فِي البحر الرائق (٣/ ٨١): «ولو قال: عليَّ المشي إلى بيت اللَّه الحرام، ولَمْ يذكر حجًّا ولا عمرة، لزمه أحد النسكين استحسانًا، فإن جعله عمرة مشي حَتَّى يَحلق، إلا إذا نوى به المشي إلى مسجد المدينة أو مسجد بيت المقدس أو مسجد من المساجد؛ فإنه لا يلزمه شيء». ويفهم من موقفهم هذا ما يفهم من موقف مالك، رحم اللَّه الجميع ووفق الأمة لسلوك منهجهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

٤١٢- وقد ثبت فِي صحيح البخاري عن النَّبِي ﷺ أنه قال: «من نذر أن يطيع اللَّه فليطعه، ومن نذر أن يعصي اللَّه فلا يعصه».

٤١٣- وأما السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين؛ فلا يَجب بالنذر عند أحد منهم؛ لأنه ليس بطاعة.

فكيف يكون من فعل هذا كواحد من أصحابه؟ وهذا مالك كره أن يقول الرجل: زرت قبر رسول اللَّه ﷺ واستعظمه.

وقد قيل: إن ذلك لكراهية زيارة القبور.

وقيل: لأن الزائر أفضل من المزور.

وكلاهُما ضعيف عند أصحاب مالك.

أقول:

زيارة القبور مشروعة، وكان رسول اللَّه قد نَهى عنها من باب سد الذرائع؛ لأن الأمم السابقة فُتنت بقبور أنبيائها وصالِحيها حَتَّى أوقعهم الشيطان كرات ومرات فِي هوة الشرك بِهم واتِّخاذهم أندادًا مع اللَّه، وأول فتنة من فتن الشرك وقعت لقوم نوح؛ إذ تعلقت قلوبُهم بـ: «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق ونسر»، وهم رجال صالِحون، فجعلوهم أندادًا مع اللَّه.

من أجل ذلك وأمثاله نَهى رسول اللَّه أولًا عن زيارة القبور، ولَما رسخت عقيدة التوحيد فِي قلوب أصحابه الكرام وأمن عليهم الفتنة؛ رخَّص لَهم فِي زيارتِها، وبيَّن لَهم الغاية من زيارتِها وهي أنَّها تُذَكِّرهم الآخرة، هذه واحدة، والأخرى... ليستفيد الأموات من دعاء إخوتِهم الأحياء.

وإذا كان الأمر كذلك، والْهَدف الأول وهو تذكرة الآخرة، أمر يتحقق بزيارة القبور القريبة والْمُجاورة، حَتَّى ولو كانت قبور قوم مشركين اكتفى الشارع الحكيم بالحد الأدنى الذي يُحقق الغرض الشرعي مع تَحفظات كثيرة تسد ذرائع الفتنة والشرك:

منها: ألَّا يقولوا هجرًا.

ومنها: ألَّا تتخذ مساجد.

ومنها: ألَّا يبنَى عليها، ولا تُجصص، ولا يصلى عليها ولا إليها.

اكتفى بالحد الأدنى مع هذه الاحتياطات والتحفظات، ولَمْ يشرع أبدًا السفر إليها وشد الرحال إليها، لا بقوله ولا بفعله.

وآية ذلك: أن هذا الأمر لَمْ ينْزل فيه قرآن، ولَمْ يثبت فيه حديث من قول رسول اللَّه أو فعله، فلو كان مشروعًا لتحقق فيه كل ذلك، ولَسَنَّ لنا رسول اللَّه ذلك برحلات ورحلات إلى قبور الأنبياء والصالحين، ولَمُلِئت الدواوين برحلات الصحابة الكرام والتابعين لَهم بإحسان.

ونَحن نَجد دواوين الإسلام من صحاح وسنن ومسانيد وكتب فقه السلف

الصالح قد سجلت كل حقوق الأموات من: عيادتِهم وهم مرضى إلى غسلهم، وتَحنيطهم، وتشييعهم، ودفنهم، وزيارتِهم، والاستغفار لَهم، والدعاء لَهم، والنهي عن الجلوس على قبورهم، ومن جهة أخرى لِحماية عقيدة الأحياء من المسلمين نُهي عن البناء على قبور الأموات بأي شكل وبأي صورة، لا مساجد ولا مطلق بناء ولا بتجصيص.

كل هذا قد طفحت به دواوين الإسلام الَّتِي نوهنا عنها، خالية خلوًّا كاملًا من حديث نبوي صحيح أو حسن، ومن أقوال الصحابة والقرون المفضلة، ومن أقوال أئمة الهدى من شيء له تعلق بقضية السفر إلى القبور.

فهذا الإمام مالك لا تَجد له كلمة فِي موطئه تشير إلى السفر وشد الرحال إلى قبر رسول اللَّه ﷺ ولا إلى قبر غيره، وهذه كتب تلاميذه الَّتِي دونوا فيها فقه هذا الإمام لا نَجد فيها بابًا ولا فصلًا ولا حديثًا يَحث المسلمين على شد الرحال والسفر إلى قبر النَّبِي ﷺ أو غيره من الأنبياء والصالِحين.

وهذا الإمام الشافعي يدون فقهه العظيم فِي الأم وغيرها، فلم يعقد بابًا ولا فصلًا، ولَمْ يذكر حديثًا واحدًا بشأن السفر إلى قبور الأنبياء.

وهذا الإمام أحمد بن حنبل، وهذا مسنده العظيم ومسائله الَّتِي دونت فِي كتب لا تَجد لِهذه المسألة فيها أثرًا ولا خبرًا.

وهذان الصحيحان، وبقية الأمهات الست وأخواتِها من دواوين الإسلام المعتبرة، خلت خلوًّا كاملًا عن قضية شد الرحال والسفر إلى قبر النَّبِي ﷺ أو إلى قبور غيره من الأنبياء.

وهذه كتب أبي حنيفة وأصحابه أبي يوسف ومُحمد نبحث فيها فلا نَجد فيها ذكرًا لِهذه المسألة.

فما هو السر إذن فِي عمل هؤلاء الصحابة والتابعين والأئمة من الفقهاء والْمُحدثين؟

ويَجب أن يقف جميع العقلاء متسائلين: هل ينقصهم حب رسول اللَّه ﷺ؟ هل كان هناك مادة خصبة وأحاديث وآثار ثرة أهْملوها، بل كتموها ودفنوها كما

فعلوا بوصية علي في نظر الباطنية وغلاة الرفض؟

إن المنتسبين إلى السنة -على اختلاف اتِّجاهاتِهم- بِحمد اللَّه لا يظنون بسلفهم هذا الظن السيئ، ولكنها الغفلة ودغدغة شياطين الإنس والجن لعواطف الحب العمياء الَّتِي لا تُميز بين حق وباطل، وبين جفاء وإفراط وإطراء، إنه ليس بأيدي المتحمسين لِهذه المسألة -مسألة شد الرحال إلى القبور الَّتِي يبالغون فيها، وقد يُكَفِّرون من يُخالفهم- إلا غثاء وسرابٌ من الأحاديث الباطلة لا يدعمها كتاب ولا سنة، ولا قول صحابي ولا إمام من أئمة الإسلام.

إنا نقول لِهؤلاء ما نقتبسه من قول الله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. نقول لكم: قوموا مثنى وفرادى وجماعات، وشكِّلوا لِجانًا واعقدوا مؤتَمرات، وفكروا فِي كل ذلك، وقلبوه بطنًا لظهر، لِماذا أهمل سلفكم الصالح -وأقصد بِهم: القرون المفضلة- هذه القضية المهمة؟ ولِماذا لَمْ يَحتفوا بِهَا ويسجلوها فِي دواوينهم الفقهية والحديثية والعقائدية؟

هل أصابتهم جنة أو جفاء، أو أن القضية لا أساس لَها؟ لعل احترامكم لسادة هذه الأمة وسلفها الصالح وحسن ظنكم بِهم يدفعانكم إلى الاعتراف بالحقيقة.

والواقع: أن رسول اللَّه ﷺ لَمْ يفعل ولَمْ يأمر بشيء من هذا، بل عمل عكس هذا تَمامًا من الاحتياطات والتحفظات الَّتِي ذكرناها، وما أروعها وأنصفها وأوضحها وأكثرها وأبركها على الأمة! ونؤكد هذا بقوله ﷺ: «**لا تَجعلوا قبري عيدًا**». وفعل أصحابه تنفيذًا لِهذا التوجيه السديد وأمثاله؛ حيث دفنوه فِي حجرته خشية أن يتخذ قبره مسجدًا، كما قالته عائشة ورواه الشيخان وغيرهما.

وما كانوا يأتون قبره، كما روى ذلك عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن نافع قال: «كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النَّبِي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول اللَّه السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه، وأخبرناه عبد اللَّه بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال معمر: فذكرت ذلك لعبيد اللَّه ابن عمر، فقال: ما نعلم أحدًا من أصحاب النَّبِي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر».

فهذا الإمام عبيد الله بن عمر من كبار البيت العمري وكبراء علماء المدينة لا يعلم أن أحدًا من أصحاب النَّبِي ﷺ كان يفعل مثل فعل ابن عمر من إتيانه قبره ﷺ للسلام عليه؛ وذلك لأنَّهُم كانوا يكتفون بالسلام عليه عند دخول مسجده وعند خروجهم منه وفِي أثناء الصلوات المكتوبة والمسنونة فِي المساجد والبيوت وغيرها، ويكتفون بالصلاة عليه فِي كل مكان، ويعلمون أن من صلى على النَّبِي ﷺ صلاة واحدة فِي أي مكان أو زمان؛ صلى الله عليه بِهَا عشرًا.

هذا بالإضافة إلى ما سَمعوه من قول النَّبِي ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا تَجعلوا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني».

وسَمعوه يقول: «لعن الله اليهود والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت عائشة: يُحذر ما صنعوا».

وقال مالك إمام دار الهجرة لَما سَمع أن أناسًا يترددون على قبر النَّبِي ﷺ: «ما علمت أحدًا فعل ذلك مِمَّن مضى، ولا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولَها».

ولا يَجوز للمسلمين أن يغلوا فِي قبر النَّبِي ﷺ ولا فِي قبر غيره فيتشبهوا باليهود والنصارى؛ فيستحقون ما استحقوه من اللعن، نعوذ بالله من ذلك.

وفق الله الأمة الإسلامية للاحتكام إلى كتاب ربِّها وسنة نبيها واتباع سلفها الصالح.

وصلى الله على نبينا مُحمَّد، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتبه

ربيع بن هادي المدخلي

٢٨/ذي القعدة/١٤٢٥هـ

ردُّ كل المنكرات والأهواء والأخطاء

منهج شرعي في كل الرسالات

وسار عليه السلف الصالح الأجلاء

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

درتان مضيئتان

قال الإمام ابن القيم في «الصواعق المرسلة» (ص٥٢): «ومعلوم أنه إذا ازدوج التكلم بالباطل والسكوت عن بيان الحق تولد بينهما جهل الحق وإضلال الخلق».

وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير» (١٤/ ١٦٦) معلقًا على من يشوشون على المُصلين بالقراءة قال: «ففي ذلك تشويش بَيِّن على المصلين، هذا إذا قرءوا قراءة جائزة مرتلة، فإن كانت قراءتُهم دَمْجًا وهذرمة وبلعًا للكلمات فهذا حرام مكرَّر، فقد والله عَمَّ الفساد، وظهرت البدع، وخفيت السنن، وقَلَّ القول بالْحَقِّ، ولو نطق العالِم بصدق وإخلاص لعارضه عدة من علماء الوقت ولَمَقتوه وجَهَّلوه، فلا حول ولا قوة إلا بالله».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فإن الصراع بين الحق والباطل، والْهُدى والضلال قديْم وموغل في القدم ومستمر لا ينقطع إلى يومنا هذا وإلى قيام الساعة، ولقد اشتد الصراع بين أول الرسل نوح -عليه الصلاة والسلام- وبين قومه الكافرين على امتداد ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم -عليه الصلاة والسلام- ليلًا ونَهارًا، وسرًّا وجهارًا دون كلل ولا ملل، ويقيم عليهم الحجج والبراهين الدامغة الَّتِي تُبيِّن الحق وتدحض الباطل والضلال، حتَّى قال الكافرون بعد أن بلغوا نِهاية الاستكبار والعناد والإصرار على الكفر والشرك: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٣٢].

وهكذا يستمر هذا الصراع بين أهل الحق والباطل، وأهل الإِيْمَان والكفر.

فهذا إبراهيم يُجادل قومه ويقيم عليهم الحجج الدامغة والبراهين القاطعة، يُحاجُّ أباه، ويُحاجُّ قومه، ويُحاجُّ رأس الكفر والباطل ملك الكفر المتأله.

وهكذا موسى مع فرعون وقومه، يدعو فرعون وقومه إِلَى الْحَقِّ، ويقيم عليهم الحجج والبراهين العقلية والشرعية ويدعمها بالآيات الكونية.

ويأتِي خاتَم الرسل محمد ﷺ يدعو قومه العرب إلى الحق، ويقيم عليهم الحجج الناصعة، والبراهين القاطعة، ويدمغ أباطيلهم، ويرد شبههم.

وهكذا واجه أهل الكتاب من يهود ونصارى، مدعمًا حججه وبراهينه العقلية والشرعية بالآيات الكونية الكبيرة الكثيرة.

والقرآن والسنة مليئان بِهذه الحجج.

فمن تلك الحجج الَّتي تُبيِّن الحق وتدحض الباطل:

١- قول اللَّه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٣٢-٣٣].

أ- قال الْحَافظ ابن كثير: «يقول تعالى مُخبرًا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: هلَّا أُنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه: ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾. كما نزلت الكتب قبله كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلَهية؟ فأجابَهم اللَّه عن ذلك بأنه إنَّما أُنزل منجمًا فِي ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت قلوب المؤمنين به كما قال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٦]. ولِهَذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٣٢].

قال قتادة: وبيناه تبيينًا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وفسرناه تفسيرًا.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾. أي: بِحجة وشبهة. ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. أي: ولا يقولون قولًا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بِمَا هو الحق فِي نفس الأمر وأبيَن وأوضح وأفصح من مقالتهم.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾. أي: بِمَا يتلمسون به عيب القرآن والرسول. ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾: إلا نزل جبريل من اللَّه بِجَوابِهم(١).

ثُمَّ فِي هذا اعتناء كبير لشرف الرسول -صلوات اللَّه وسلامه عليه- حيث كان يأتيه الوحي من اللَّه بالقرآن صباحًا ومساءً، ليلًا ونَهارًا، سفرًا وحضرًا»(٢).

---

(١) أي: أنه لا يترك لَهُم شبهة إلا دمغها بالحق حتَّى يكون المؤمنون على بصيرة من أمرهم ودينهم.

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ١١٧-١١٨)

ب- وقال الإمام السعدي: «﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾: يعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك: ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: أنزلنا عليك قرآنًا جامعًا للحق في معانيه والوضوح والبيان التام في ألفاظه، فمعانيه كلها حق وصدق لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظًا وأحسن تفسيرًا مبين للمعاني بيانًا تامًا»(١).

٢- وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٥].

أ- قال الإمام ابن جرير: «﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾. يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: وكما فصلنا لك في هذه السورة من ابتدائها وفاتحتها يا محمد إلى هذا الموضع، حجتنا على المشركين من عبدة الأوثان وأدلتنا وميزناها لك وبيناها، كذلك نفصل لك أعلامنا وأدلتنا في كل حق ينكره أهل الباطل(٢) من سائر أهل الملل غيرهم فنبينها لك حتى يبين حقه من باطله وصحيحه من سقيمه»(٣).

وقال أيضًا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾: «وكأن معنى الكلام عندهم: وكذلك نفصل الآيات ولتتضح لك وللمؤمنين طريق المجرمين».

وقال أيضًا: «لأن الله -تعالى ذكره- فصل آياته في كتابه وتنزيله ليتبين الحق بها من الباطل جميع من خوطب بها لا بعض دون بعض».

ب- وقال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى: وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل، وقرئ: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ

---

(١) تفسير السعدي (ص٥٧٢).

(٢) انظر إلى قوله: «كل حق ينكره أهل الباطل». يعني: أن القرآن يدحضه بحججه وبراهينه، وهذا ما يفهمه علماء الإسلام ويسيرون عليه في مواجهة الضلالات والانحرافات، فلا يَدَعون باطلًا ولا خطأً يُنسب للإسلام إلا تصدوا له وفندوه بالحجج والبراهين حتى يبقى الإسلام خالصًا نقيًا من كل شائبة.

(٣) تفسير ابن جرير (١١/ ٣٩٤-٣٩٥).

سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولتستبين يا محمد أو يا مخاطب سبيل الْمُجرمين»[١].

وفِي الآية أنَّ تبيُّن سبيل الْمُجرمين غاية كبيرة من غايات القرآن؛ لأن فِي خفائها ضررًا على الناس فِي دينهم وعقولهم.

ج- قال ابن القيم فِي كتابه «الفوائد»[٢]: «قال اللَّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء: الآية ١١٥]. واللَّه تعالى قد بَيَّن فِي كتابه سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل الْمُجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء، وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وخذلانه لِهَؤلاء، وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب الَّتِي وفق بِها هؤلاء، والأسباب الَّتِي خذل بِها هؤلاء، وجَلَّى سبحانه الأمرين فِي كتابه، وكشفهما وأوضحهما وبيَّنهما غاية البيان حتَّى شاهدتْهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالِمُون باللَّه وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل الْمُجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لَهُم السبيلان، كما يستبين للسالك الطريق الموصل إِلَى مقصوده، والطريق الموصل إِلَى الْهَلكة، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لَهم، وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برَّز الصحابة على جميع من أتَى بعدهم إِلَى يوم القيامة.

فإنَّهم نشئوا فِي سبيل الضلال والكفر والشرك، والسبل الموصلة إِلَى الْهَلاك وعرفوها مفصلة، ثُمَّ جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الْهُدى وصراط اللَّه المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الْهُدى والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنَّما تتبين الأشياء

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٨)

(٢) (ص ١٠٧-١١٠).

بأضدادها، فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضًا لِمَا انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس فِي التوحيد والإيْمَان والإسلام، وأبغض الناس فِي ضده، عالِمين بالسبيل على التفصيل.

وأما من جاء بعد الصحابة فمنهم من نشأ فِي الإسلام غير عالِم تفصيل ضده فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل الْمُجرمين.

فإن اللبس إنَّمَا يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما، كما قال عمر بن الخطاب: «إنَّمَا تنقض عرى الإسلام عروة عروة؛ إذا نشأ فِي الإسلام من لَم يعرف الجاهلية».

وهذا من كمال علم عمر ﷺ، فإنه إذا لَم يعرف الجاهلية وحكمها **وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من الجاهلية** فإنَّها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل، فمن لَم يعرف سبيل الْمُجرمين، ولَم تستبن له أوشك أن يظن فِي بعض سبيلهم أنَّها من سبيل المؤمنين، كما وقع فِي هذه الأمة من أمور كثيرة فِي باب الاعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل الْمُجرمين والكفار وأعداء الرسل، أدخلها من لَم يعرف أنَّها من سبيلهم فِي سبيل المؤمنين ودعا إليها وكَفَّر من خالفها واستحل منه ما حرمه الله ورسوله، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم[1] مِمَّن ابتدع بدعة ودعا إليها وكَفَّر من خالفها.

والناس فِي هذا الْمَوضع أربع فرق:

الفرقة الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل الْمُجرمين على التفصيل علمًا وعملًا، وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل الْمُجرمين أحضر ولَهَا أسلك.

---

(١) من صوفية وأحزاب سياسية تخالف منهج الرسل فِي عقائدها ومناهجها ومواقفها مِمَّن يخالف الإسلام من أهل الضلال فتواليهم، ومن أتباع الرسل فتناهضهم، وقد يُكَفِّرهم غلاتُهم.

الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها، فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل، وإن لَم يتصوره على التفصيل، بل إذا سمع شيئًا مِمَّا خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه، ولَم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه وهو بِمنْزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولَم تدعه إليها نفسه، بِخلاف الفرقة الأولى فإنَّهم يعرفونَها وتَميل إليها نفوسهم ويُجاهدونَها على تركها لله . . . . . وقد كتبوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسالة أيُّما أفضل: رجل لَم تخطر له الشهوات ولَم تَمر بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟

فكتب عمر: «إن الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله ﷻ من الذين امتحن اللَّه قلوبَهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم».

وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه فأبغضها لله وحذرها، وحذر منها، ودفعها عن نفسه، ولَم يدعها تخدش وجه إيْمَانه، ولا تورثه شبهة، ولا شكًّا، بل يزداد بِمعرفتها بصيرة فِي الحق، ومَحبة له، وكراهة لَهَا، ونفرة عنها، أفضل مِمَّن لا تخطر بباله ولا تَمر بقلبه. . . .

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة، وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير مِمَّن اعتنَى بِمقالات الأمم ومقالات أهل البدع فعرفها على التفصيل ولَم يعرف ما جاء به الرسول كذلك، بل عرفه معرفة مجملة وإن تفصلت له فِي بعض الأشياء، ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عيانًا.

وكذلك من كان عارفًا بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكًا لَهَا، إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بِها مجملًا غير عارف بِها على التفصيل معرفة من أفنَى عمره فِي تصرفها وسلوكها.

والْمَقصود: أن اللَّه سبحانه يحب أن تُعرف سبيل أعدائه؛ لتُجتنب وتُبغض، كما يجب أن تعرف سبيل أوليائه؛ لتُحب وتُسلك، وفِي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا اللَّه من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته وكمال أسْمَائه وصفاته وتعلقها بِمتعلقاتِها واقتضائها لآثارها وموجباتِها، وذلك من أعظم

الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه، والله أعلم.

والله سبحانه أثنى على هذه الأمة وميزها على سائر الأمم؛ لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠].

وذمَّ الذين كفروا من بَنِي إسرائيل ولعنهم؛ لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧٨-٧٩].

فهذه شذرات من نصوص القرآن ومن كلام أئمة التفسير.

أما السنة: فقد كان رسول الله ﷺ يرد الأخطاء خطأً خطأً، والشبهات شبهةً شبهةً، ويقيم الحدود، ومن تكرر منه ما يوجب إقامة الحد فقد كرر عليه الحد جلدًا أو قطعًا، وكان لا يُقر على باطل أبدًا ﷺ، وهذا كله إلى جانب بيان القرآن للحق بالتفصيل ودحضه للشُّبه والباطل بالتفصيل.

وكان مع هذا يُجنِّد الشعراء؛ لنصرة الحق والذود عن حياضه، ودحض الباطل، بل والطعن القاتل للأعداء.

فعن الزهري قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن: أنه سمع حسان بن ثابت الأنصاري يستشهد أبا هريرة: «أنشدك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا حسان، أجب عن رسول الله ﷺ؟ قال أبو هريرة: نعم»(١).

وعن عدي بن ثابت قال: سمعت البراء بن عازب قال: سَمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: «اهجهم، أو هاجهم وجبريل معك»(٢).

وعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشًا، فإنه أشد عليها من

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٥٨).

(٢) صحيح مسلم (٢٤٨٦).

رشق النبل». في حديث طويل عنها فيه أنه دعا عبد الله بن رواحة ثُمَّ كعب بن مالك ثُمَّ حسانًا ﷺ، فقال من الشعر ما أرضى رسول الله ﷺ، قالت عائشة ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفى واشتفى»[(١)].

وروى الإمام أحمد -رَحِمَه اللَّه تعالى- فِي مسنده من طريق شعبة عن إسماعيل ابن أبي خالد قال: سمعت قيس بن أبي حازم يُحدث عن أبي بكر الصديق أنه خطب فقال: يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونَها على غير ما وضعها الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٥]. سَمِعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم اللَّه بعقاب»[(٢)].

وعن النعمان بن بشير ﷺ، عن النَّبِي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود اللَّه والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين فِي أسفلها إذا استقوا من الْمَاء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا ولَم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جَميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجوا ونَجوا جَميعًا»[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٩٠)

(٢) المسند (١/ ٢٢١) حديث (٥٣)، وأخرجه المروزي في مسند الصديق (٨٦-٨٩)، وأبو يعلى في مسنده (١/ ١١٨-١٢٠)، حديث (١٢٨-١٣٢)، كلاهما من طرق إلى إسماعيل بن أبي خالد به، وهذا إسناد صحيح، رجاله رجال الصحيحين.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٥٣٩-٥٤٠)، حديث (٣٠٤-٣٠٥) تحت عنوان: «ذكر بيان بأن المنكر والظلم إذا ظهر كان على من يعلم تغييرهما حذر عموم العقوبة»، وتحت عنوان آخر هو: «ذكر بيان بأن المتأول للآي قد يُخطئ في تأويله وإن كان من أهل الفضل والعلم»، وأخرجه ابن ماجه في الفتن حديث (٤٠٠٥) تحت عنوان: «باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، بلفظ أحمد ومن ذكر معه.

وأخرجه أبو داود في الملاحم حديث (٣٤٤٨)، والترمذي في الفتن حديث (٢٢٥٧) تحت عنوان: «باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر»، وقال الترمذي عقب رواية هذا الحديث: «وفي الباب عن عائشة وأم سلمة والنعمان بن بشير وعبد الله بن عمر وحذيفة»، وفي لفظ أبي داود والترمذي: «إذا رأوا الظالم». ولا تعارض بين اللفظين.

(٣) أخرجه البخاري في الشركة، حديث (٢٤٩٣)، وفي الشهادات، حديث (٢٦٨٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن حديث (٢١٧٣).

واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل عدوًّا كثيرًا، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان قال كعب: فَقَلَّ رجل يريد أن يتغيب يظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله ﷻ.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئًا وأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم، فياليتني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء».

ففي هذا المقطع إشادة ببيعة العقبة ومنزلتها في نفسه؛ لأنها بما فيها من معانٍ كبيرة تمثل القاعدة المكينة التي قامت عليها هجرة أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة النبوية، وقام عليها نصرة الأنصار، وعليها قامت دولة الإسلام، وعلى أساسها قام الجهاد وقوة الإسلام والمسلمين، ومنها وعنها انبثقت الغزوات والسرايا ثم القضاء على الردَّة، وانطلاق جيوش الإسلام إلى العالم لتفتح القلوب بنور الإيمان والإسلام وتخرجهم من الظلمات إلى النور، فمن هنا أدرك هذا الصحابي الجليل مكانة بيعة العقبة فكان لا يرضى بها بديلًا فهو كما قال: «وما أحب أن لي بها مشهد بدر».

تحدث عما اكتنف تخلفه عن غزوة تبوك بشجاعة الصادقين بأسلوب واضح مشرق يفيض بالصدق من قلب امتلأ بالإيمان وروح ومشاعر تتدفق بالنزاهة والصدق الذي لا يعرف مثله لتائب في مثل ذلك الموقف الرهيب الذي ارتكس فيه الجبناء المنافقون، فلجئوا إلى الكذب والتمويه بانتحال الأعذار الكاذبة التي سرعان ما فضحهم الله وأخزاهم وأحلهم به دار البوار.

أخرجه البخاري فِي الشهادات بِهذا اللفظ، وساقه فِي الشركة بلفظ: «مثل المداهن فِي حدود اللَّه والواقع فيها...» الحديث.

وساقه الترمذي بلفظ: «مثل القائم على حدود اللَّه والْمُداهن فيها...». وقال: حديث حسن صحيح.

قال فِي اللسان فِي مادة «دهن»: الْمُداهنة والادهان: المصانعة واللين، وقيل: الْمُداهنة: إظهار خلاف ما يضمر، والادهان: الغش، وداهن الرجل: إذا نافق».

وقال العلامة الْمُبَاركفوري: «والفرق بين المداهنة المنهية والمداراة المأمورة: أن المداهنة فِي الشريعة أن يرى منكرًا فيقدر على دفعه ولَم يدفعه حفظًا لجانب مرتكبه أو جانب غيره لخوف أو طمع أو لاستحياء منه أو قلة مبالاة فِي الدين، والمداراة: موافقته بترك حظ نفسه وحق يتعلق بِمَاله وعرضه فسكت عنه دفعًا للشر ووقوع الضرر»[(١)].

وهذا الحديث مثل رائع يبين خطورة النتائج المهلكة للسكوت عن الباطل والمداهنة فيه، وأنه يجب على الأمة أن تضرب بيد من حديد على أهل البدع وأهل الفجور؛ الذين تؤدي ضلالاتِهم وفجورهم إلى إهلاك الأمة فِي دينها ودنياها.

ولقد اعتبر الرسول ﷺ الأمر بالمعروف جهادًا، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما من نَبِي بعثه اللَّه فِي أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثُمَّ إنَّها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيْمَان حبة خردل»[(٢)].

ومن هنا قال الإمام يَحيَى بن يَحيَى: «الذب عن السنة أفضل من الضرب بالسيوف».

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ٣٢٩).

(٢) صحيح مسلم ص (٨٠).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الراد على أهل البدع مجاهد».

ولَمَّا وقع الضلال كما أخبر النَّبِي ﷺ بِمثل قوله: **«افترقت اليهود إلَى إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى إلَى ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمَّتِي إلَى ثلاث وسبعين فرقة، كلها فِي النار إلا واحدة. قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: الجماعة»**.

وفِي رواية من روايات هذا الحديث: **«من كان على ما أنا عليه وأصحابِي»**.

ومثل قوله: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتَّى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قيل: اليهود والنصارى يا رسول الله؟ قال: نعم»**.

تصدى لِهَذه الطوائف أفرادًا وجماعات أئمة الهدى وأعلام الدجى من صفوة هذه الأمة، فردوا أباطيلهم وضلالاتِهم فما جاءوا بضلالة ولا شبهة إلا دحضوها وبينوا زيفها، وبينوا الحق بيانًا واضحًا تأسيًا بالقرآن والسنة فِي تزييف الباطل وإزهاقه وإظهار الحق.

وقد دونت أعمالهم وجهادهم فِي إنكار المخالفات، وبيان حال أهلها، وبيان بُعْدِ هذه المخالفات عن هدي الكتاب والسنة، وبيان أحكام هذه المخالفات وأحكام أهلها من تبديع واستنكار.

لقد نَهضوا بِهذا البيان القائم على النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، وحماية لدينهم فِي عدد من الكتب سواء كانت فِي مجال العقيدة كما فِي كتب العقائد، أو الأحكام كما فِي كتب الفقه وشروح الحديث، وفِي باب الرواية ونقل السنة عن رسول اللَّه ﷺ كما فِي كتب الرجال والعلل، والكتب فِي ذلك لا تُحصى.

وقد يتكلم على الخطأ الواحد عشرات من الأئمة وعلى العقيدة الفاسدة كذلك وفِي الراوي عشرات الأئمة، وقد يكون للرجل عشرات البدع فيتصدى له أحد العلماء فيفندها واحدة واحدة بالأدلة والبراهين، كما رد شيخ الإسلام ابن تيمية على ابن مطهر الحلي فِي كتابه «الْمِنْهَاج» فِي تسع مجلدات، وكما رد على الرازي فِي «نقض التأسيس» الذي يبلغ أربع مجلدات، ولاحق الرازي فِي عدد من

المؤلفات، وكما رد على البكري فِي كتاب «الاستغاثة الكبرى»، وكما رد على الأخنائي فِي كتابه «الرد على الأخنائي»، وكما رد ابن عبد الْهَادي على السبكي فِي كتابه «الصارم المنكي»، وقبلهم رد الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على بشر فِي كتابه «الرد على بشر المريسي».

وقد يكون للطائفة عشرات البدع فيتصدى لَهَا أحد العلماء فلا يترك لَهَا شاذة ولا فاذة، وقد يتصدى لَهَا عدد من العلماء كلٌّ يطيل النفس فِي مناقشة ضلالاتِها، والأمثلة على ذلك كثيرة.

كما رد الإمام أحمد والإمام الدارمي على الجهمية، وكما رد الإمام الشافعي على المعتزلة والروافض الطاعنين فِي السنة عمومًا وعلى الطاعنين فِي أخبار الآحاد خصوصًا فِي كتابيه «الرسالة» و«جماع العلم»، وكما رد البخاري على الجهمية وغيرهم فِي «خلق أفعال العباد»، وكما رد الخلال والآجري وابن بطة واللالكائي وغيرهم من أئمة الإسلام على طوائف أهل البدع.

فكم من إمام تناول عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء والجاحظ والنظام وأمثالهم، وكم من إمام تناول كتبهم وفند ما فيها من الضلالات.

ولَم يقف أئمة السنة عند نقد واستنكار ضلالات أهل الضلال بل تجاوزوا ذلك إلى نقد العلماء وعلى رأسهم كبار علماء السنة والحديث فِي أخطائهم.

فقد انتقد الإمام الليث بن سعد الإمام مالكًا فِي مسائل مشهورة، بل انتقد الإمام الشافعي شيخه الإمام مالكًا فِي مسائل كثيرة، وانتقد أحمد إسحاق والشافعي وغيرهما، بل انتقد أبو حاتِم وأبو زرعة الإمام البخاري فِي كتابه «التاريخ» فِي عشرات الأسْمَاء.

وانتقد الدارقطني الإمامين البخاري ومسلمًا فِي حوالي مائتي حديث، وانتقد البيهقي الطحاوي فِي كثير من المسائل.

وكما انتقد أبو الحسين بن القطان الفاسي فِي كتابه «بيان الوهم والإيهام» الذي يبلغ خَمس مُجلدات الإمام عبد الحق الإشبيلي فِي كتابه «الأحكام».

كما انتقد أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الدمشقي فِي كتابه «عجالة الإملاء

المتيسرة» فِي خمس مجلدات انتقد فيها الحافظ المنذري فِي كتابه «الترغيب والترهيب»، وهذه أمور لا تُحصى.

وهذا المنهج هو الذي عليه أئمة الدين سلفًا وخلفًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ذاكرًا من يجوز ذمه من الأنواع، وليس ذلك من الغيبة، كالكافر، والفاجر، والفاسق، والظالِم، والغوي، والضال، والحاسد...

إلى أن قال: «وأما الشخص فيُذكر ما فيه من الشر فِي مواضع».

وذكر منها: المظلوم يذكر ظالِمه بِما فيه، وساق الأدلة على ذلك، ثُمَّ قال: ومنها: أن يكون على سبيل النصيحة للمسلمين فِي دينهم ودنياهم، كما فِي الحديث الصحيح عن فاطمة بنت قيس لَمَّا استشارت النَّبِي ﷺ من تنكح؟ قالت: «إنه خطبني معاوية وأبو جهم، فقال: **أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فرجل ضَرَّاب للنساء**».

فكان هذا نصحًا لَهَا وإن تضمن ذكر عيب الخاطب.

وفِي معنَى هذا: نصح الرجل فيمن يعامله، ومن يوكله، ومن يوصي إليه، ومن يستشهده، بل ومن يتحاكم إليه، وأمثال ذلك.

وإذا كان هذا فِي مصلحة خاصة فكيف بالنصح فيما يتعلق به حقوق عموم المسلمين من الأمراء، والحكام، والشهود، والعمال أهل الديوان وغيرها؛ فلا ريب أن النصح فِي ذلك أعظم، كما قال النَّبِي ﷺ: «**الدين النصيحة، الدين النصيحة. قالوا: لِمَن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**».

ثُمَّ تَحدث عن وجوب الكلام فِي نَقَلَة الحديث، الذين يغلطون، أو يكذبون، وأنه من باب المصالح الدينية العامة والخاصة.

ثُمَّ ثَنَّى بالكلام على أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة؛ فقال: «فإن بيان حالهم، وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتَّى قيل لأحمد ابن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك، أو يتكلم فِي أهل

البدع؟ فقال: إذا صام وصلى واعتكف فإنَّما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنَّما هو للمسلمين.

فتبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم، من جنس الجهاد في سبيل الله؛ إذ تطهير سبيل الله، ودينه، ومنهاجه، وشرعته، ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك؛ واجب على الكفاية باتفاق المسلمين.

ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب؛ فإن هؤلاء إذا استولوا لَم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً.

وأعداء الدين نوعان: الكفار، والمنافقون.

وقد أمر الله بجهاد الطائفتين في قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٣، سورة التحريم: الآية ٩] في آيتين من القرآن.

فإذا كان أقوام منافقون، يبتدعون بدعًا تخالف الكتاب، ويلبسونَها على الناس ولَم تُبيَّن للناس؛ فسد أمر الكتاب، وبُدِّل الدين، كما فسد دين أهل الكتاب قبلنا بِمَا وقع فيه من التبديل الذي لَم ينكر على أهله»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مدارج السالكين»[2] معلقًا على قول أبي إسْمَاعيل الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وتخلص من رعونة المعارضات. قال ابن القيم: «يريد أن هذه الملاحظة تخلص العبد من رعونة معارضة حكم الله الديني والكوني الذي لَم يأمر بمعارضته فيستسلم للحكمين، فإن ملاحظة عين الجمع تشهده أن الحكمين صدرا عن عزيز حكيم فلا يُعارض حكمه برأي ولا عقل ولا ذوق ولا خاطر».

ثُمَّ ذكر ما معناه: أن أمر الله لا يُعارَض بالشهوة، وخبره بالشك والشبهة، وأن المؤمن الواعي يخلص قلبه من هاتين المعارضتين، وهذا القلب الذي هذا حاله هو القلب السليم الذي لا يفلح إلا من لقي الله به.

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل: (٥/ ١٠٩-١١١).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٢٢-١٢٣).

ثُمَّ قال: «وأما أهل الإلحاد فقالوا: المراد بالمعارضات هاهنا: الإنكار على الخلق فيما يبدو منهم من أحكام البشرية؛ لأن المشاهد لعين الجمع يعلم أن مراد اللَّه من الخلق ما هم عليه، فإذا علم ذلك بحقيقة الشهود كانت المعارضات والإنكار عليهم من رعونات الأنفس الْمَحجوبة وقال قدوتُهم فِي ذلك: العارف لا ينكر منكرًا؛ لاستبصاره بسر اللَّه فِي القدر. وهذا عين الاتِّحاد والإلحاد والانسلاخ من الدين بالكلية، وقد أعاذ اللَّه شيخ الإسلام من ذلك، وإذا كان الملحد يحمل كلام اللَّه ورسوله ما لا يحتمله فما الظن بكلام مخلوق مثله؟!

فيقال: إنَّما بعث اللَّه رسله وأنزل كتبه بالإنكار على الخلق بِما هم عليه من أحكام البشرية وغيرها، فبهذا أُرسلت الرسل وأُنزلت الكتب، وانقسمت الدار إلَى دار سعادة للمنكرين ودار شقاوة للمُنْكَر عليهم، فالطعن فِي ذلك طعن فِي الرسل والكتب، والتخلص من ذلك انْحِلَال من ربقة الدين، ومن تأمل أحوال الرسل مع أُمَمِهم وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشد القيام حتَّى لَقَوا اللَّه تَعَالَى، وأوصوا من آمن بِهم بالإنكار على من خالفهم.

وأخبر النَّبِي أن المتخلص من مقامات الإنكار الثلاثة ليس معه من الإيْمَان حبة خردل وبالغ فِي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد المبالغة حتَّى قال: «**إن الناس إذا تركوه أوشك أن يعمهم اللَّه بعقاب من عنده**».

وأخبر أن تركه يَمنع إجابة دعاء الأخيار ويوجب تسلط الأشرار، وأخبر أن تركه يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه ويحل لعنة اللَّه كما لعن اللَّه بَنِي إسرائيل على تركه، فكيف يكون الإنكار من رعونات النفوس وهو مقصود الشريعة؟! وهل الجهاد إلا على أنواع الإنكار وهو جهاد باليد وجهاد أهل العلم إنكار باللسان؟!».

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن ذكر الإنسان بِما يكره محرم؛ إذا كان المقصود منه مجرد الذم والعيب والنقص، فأما إذا كان فيه مصلحة لعامة المسلمين، أو خاصة لبعضهم، وكان المقصود به تحصيل تلك المصلحة؛ فليس بِمحرم، بل مندوب إليه».

وقد قَرَّرَ علماء الحديث هذا فِي كتبهم فِي الجرح والتعديل، وذكروا الفرق بين

جرح الرواة وبين الغيبة، وردوا على من سوَّى بينهما من المتعبدين وغيرهم مِمَّن لا يتسع علمه.

ولا فرق بين الطعن فِي رواة ألفاظ الحديث، ولا التمييز بين ما تُقبل روايته منهم ومن لا تُقبل، وبين تبيين خطأ من أخطأ فِي فهم معاني الكتاب والسنة، وتأول شيئًا منها على غير تأويله، وتَمسك بِما لا يُتمسك به؛ ليحذر من الاقتداء به فيما أخطأ فيه.

وقد أجمع العلماء على جواز ذلك أيضًا.

ولِهَذا تجد فِي كتبهم المصنَّفة فِي أنواع العلوم الشرعية من التفسير، وشروح الحديث، والفقه، واختلاف العلماء، وغير ذلك؛ مُمتلئة من المناظرات، وردّوا أقوال من تضعف أقواله من أئمة السلف والخلف، من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، ولَم يترك ذلك أحد من أهل العلم، ولا ادعى فيه طعنًا على من رد عليه قوله، ولا ذمًّا، ولا نقصًا . . . اللهم إلا أن يكون المصنِّف مِمَّن يفحش فِي الكلام، ويُسيء الأدب فِي العبارة؛ فيُنكَر عليه فحاشته وإساءته، دون أصل رده ومخالفته؛ إقامة بالحجج الشرعية، والأدلة المعتبرة.

وسبب ذلك: أن علماء الدين كلهم مجمعون على قصد إظهار الحق، الذي بعث الله به رسوله ﷺ، وأن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمته هي العليا.

وكلهم معترفون بأن الإحاطة بالعلم كله من غير شذوذ شيء منه ليس هو مرتبة أحدٍ منهم، ولا ادَّعاه أحد من المتقدمين ولا من المتأخرين.

فلهذا كان أئمة السلف الْمُجمع على علمهم وفضلهم، يقبلون الحق مِمَّن أورده عليهم وإن كان صغيرًا، ويوصون أصحابَهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر فِي غير قولِهم، كما قال عمر رضي الله عنه فِي مهور النساء، وردت المرأة بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [سورة النساء: الآية ٢٠]. فرجع عن قوله، وقال: «أصابت امرأة ورجل أخطأ».

ورُوِيَ عنه أنه قال: «كل أحد أفقه من عمر».

وكان بعض المشهورين إذا قال فِي رأيه بشيء يقول: «هذا رأينا؛ فمن جاءنا

برأي أحسن منه قبلناه».

وكان الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ) يبالغ فِي هذا الْمَعنَى، ويوصي أصحابه باتباع الحق، وقبول السنة إذا ظهرت لَهم على خلاف قوله، وأن يُضرب بقوله حينئذٍ الحائط، وكان يقول فِي كتبه: لابد أن يوجد فيها ما يخالف الكتاب أو السنة؛ لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: الآية ٨٢].

فحينئذٍ فَرَدُّ الْمَقالات الضعيفة، وتبيين الحق فِي خلافها بالأدلة الشرعية، ليس هو مِمَّا يكرهه أولئك العلماء، بل مِمَّا يحبونه ويَمدحون فاعله، ويثنون عليه؛ فلا يكون داخلًا فِي باب الغيبة بالكلية.

فلو فُرِضَ أن أحدًا يكره إظهار خطئه المخالف للحق؛ فلا عبرة بكراهته لذلك، فإن كراهة إظهار الحق إذا كان مخالفًا لقول الرجل ليس من الخصال الْمَحمودة.

بل الواجب على المسلم أن يحب ظهور الحق ومعرفة المسلمين له، سواء كان فِي موافقته أو مخالفته.

وهذا من النصيحة لله، ولكتابه، ورسوله، ودينه، وأئمة المسلمين، وعامتهم، وذلك هو الدين، كما أخبر به النَّبِي ﷺ.

وأما بيان خطأ من أخطأ من العلماء قبله، إذا تأدب فِي الخطاب، وأحسن الرد والجواب؛ فلا حرج عليه، ولا لوم يتوجه إليه، وإن صدر منه من الاغترار[1] بمقالته فلا حرج عليه.

وقد كان بعض السلف إذا بلغه قول ينكره على قائله يقول: «كَذَبَ فلان».

ومن هذا قول النَّبِي ﷺ: «كذب أبو السنابل» لَمَّا بلغه أنه أفتَى: أن المتوفَّى عنها زوجها إذا كانت حاملًا لا تحل بوضع الحمل، حتَّى تأتِي عليها أربعة أشهر وعشرًا.

---

(١) كذا.

وقد بالغ الأئمة الورعون فِي إنكار مقالات ضعيفة لبعض العلماء، وردها أبلغ الرد، كما كان الإمام أحمد ينكر على أبي ثور وغيره مقالات ضعيفة تفردوا بِها، ويبالغ فِي ردها عليهم.

هذا كله حكم الظاهر.

أما فِي باطن الأمر؛ فإن كان مقصوده فِي ذلك مجرد تبيين الحق، ولئلا يغتر الناس بِمقالات من أخطأ فِي مقالاته؛ فلا ريب أنه مثاب على قصده، ودخل بفعله هذا بِهذه النية فِي النصح لله، ورسوله، وأئمة المسلمين، وعامتهم.

وسواء كان الذي بيَّن الخطأ صغيرًا أم كبيرًا، فله أسوة بِمَن رد من العلماء مقالات «ابن عباس» الَّتِي يشذ بِها[١] وأنكرت عليه من العلماء، مثل: المتعة، والصرف، والعمرتين، وغير ذلك.

ثُمَّ ذَكَرَ: أن العلماء ردوا مقالات لمثل: «سعيد بن المسيب»، و«الحسن»، و«عطاء»، و«طاوس»، وعلى غيرهم، مِمَّن أجمع المسلمون على هدايتهم، ودرايتهم، ومحبتهم، والثناء عليهم.

ولَم يعد أحد منهم مخالفوه[٢] فِي هذه المسائل طعنًا فِي هؤلاء الأئمة، ولا عيبًا لَهُم.

وقد امتلأت كتب أئمة المسلمين من السلف والخلف بتبيين هذه المقالات وما أشبهها مثل: «كتب الشافعي»، و«إسحاق» و«أبي عبيد»، و«أبي ثور»، ومن بعدهم من أئمة الفقه والحديث.

وإما مراد[٣] الراد بذلك: إظهار العيب على من رَدَّ عليه وتنقصه، وتبيين جهله، وقصوره فِي العلم، سواء كان رده لذلك فِي وجه من رَدَّ عليه أو فِي غيبته، وسواء كان فِي حياته أو بعد موته، وهذا داخل فيما ذمه الله فِي كتابه، وتوعد عليه،

---

(١) كذا.

(٢) كذا.

(٣) كذا.

فِي الْهَمز واللمز، ودخل أيضًا فِي قول النَّبِي ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه، ولَم يؤمن بقلبه؛ لا تؤذوا المسلمين، لا تتبعوا عوراتِهم؛ فإنه من يتبع عوراتِهم يتبع اللَّه عورته، ومن يتبع اللَّه عورته يفضحه ولو فِي جوف بيته»[(١)].

وهذا كله فِي حق العلماء المقتدى بِهم فِي الدين.

فأما أهل البدع والضلالة، ومن تَشَبَّه بالعلماء وليس منهم[(٢)]، فيجوز بيان جهلهم، وإظهار عيوبِهم، تَحذيرًا من الاقتداء بِهم.

وليس كلامنا الآن فِي هذا القبيل، واللَّه أعلم.

ومن عُرف منه أنه أراد برده على العلماء النصيحة لله ورسوله؛ فإنه يجب أن يعامل بالإكرام، والاحترام، والتعظيم، كسائر علماء المسلمين الذين سبق ذكرهم، وأمثالهم، ومن تبعهم بإحسان.

ومن عُرف أنه أراد برده عليهم التنقيص والذم وإظهار العيب[(٣)]؛ فإنه يستحق أن يقابل بالعقوبة؛ ليرتدع هو ونظراؤه عن هذه الرذائل الْمُحرمة.

أقول:

هذا هو منهج اللَّه الذي شرعه فِي كتبه وعلى ألسنة رسله، وهو توضيح دين اللَّه عقيدة وعبادة وأحكامًا بالحجج والبراهين والجد فِي إبطال ما يضاده فِي أي جانب من جوانبه دَقَّ أو جَلَّ مهما كان مصدر هذه المضادة والمخالفة طالحين أو صالحين، ولو كانوا أئمة مجتهدين فكيف بالمبتدعين والضالين الجاهلين الأفاكين.

وعلى هذا المنهج سار علماء الإسلام وأئمته وأعلامه من فجر تأريخ الإسلام إلى يومنا هذا حماية للإسلام وذبًّا عن حياضه.

---

(١) أخرجه أحمد: (٤/ ٤٢٠)، وأبو داود فِي الأدب رقم: (٤٨٨٠)، والترمذي، وأبو يعلى فِي مسنده بإسناد حسن.

انظر التعليق عليه (ص ٣٣) من «الفرق بين النصيحة والتعيير» لابن رجب الحنبلي.

(٢) ونَحن -ولله الحمد- لا ننتقد فِي كتاباتنا كلها إلا هذه الأنواع.

(٣) وهذا ما يفعله أهل الأهواء بعلماء السنة ولاسيما هذه الأيام.

ولقد كان من عهود سابقة من يعارض هذا المنهج وعلى رأسهم الصوفية، ثُمَّ تلقى هذا عنهم غلاتُهم وملاحدتُهم، كما مر بك من كلام الإمام ابن القيم، ثُمَّ رفع راية هذه المعارضة أهل الفتن والتحزب المقيت فِي هذا العصر وطوروا هذه المعارضة ودعموها بطرق وأساليب ماكرة لا يعرفها حتَّى غلاة الصوفية ومنها:

١- الحملات الشعواء بالأكاذيب والشائعات على من يرد ضلالات زعمائهم الباطلة ولو كانت طعنًا فِي الأنبياء أو الصحابة، ولو كانت إلحادًا كالحلول ووحدة الوجود وتفننوا جدًّا فِي نشر هذه الشائعات والحرب، واستخدموا فِي إشاعتها وتعميمها كل الوسائل والطرق من الأشرطة والكتب إلى شبكات الإنترنت لتصل لكل أحد.

٢- كل هذا لنصرة الباطل وأهله، وإسقاط الحق وأهله، وإسقاط هذا المنهج العظيم الذي يرفع راية الحق ويسقط راية الباطل، ومن هنا ركزوا على إسقاط علمائه؛ لأن بإسقاطهم يسقط المنهج على الطريقة الماسونية: «إذا أردت إسقاط فكرة فعليك بإسقاط رجالِهَا».

٣- إلباس أنفسهم لباس السلفية، والتشبث بِهذا الاسم، والاستماتة فِي الذب عمن يلبسه ولو كان عنده أقل نسبة من السلفية يتظاهر بِها للخداع والمكر والكيد.

٤- دعاوى التأصيل، وما أدراك ما دعاوى التأصيل، إنه القذف بالأصول الباطلة لحماية أهل البدع والمُحاماة عن بدعهم وضلالاتِهم، ولضرب أصول أهل السنة وإسكات أهل الحق، ولمخادعة الشباب الغر الذي ينتمي إلى المنهج السلفي، ثُمَّ الاستيلاء على عقولِهم ومشاعرهم؛ ليكونوا فِي الأخير جندًا لَهُم يوالون ويعادون من أجلهم ومن أجل أباطيلهم المغلفة بالتأصيل وبالسلفية.

وإنِّي لأدعو أهل السنة علماء ودعاة إلى الحق ناصحين ومؤهلين إلى الاهتمام بِهذا المنهج العظيم والنهوض به كما نَهض به أسلافهم الكرام؛ لأنه منهج اللَّه ومنهج رسله الكرام، ومنهج أئمة الإسلام.

وبالنهوض به يظهر دين اللَّه الحق، وتكون كلمة اللَّه هي العليا، وكلمة أهل

الكفر وأهل البدع والضلال هي السفلى.

وبإهماله والتقصير فيه ينتفش وينتشر الباطل في مشارق الأرض ومغاربها، كما حصل في العصور الَّتي أُهْمِل فيها هذا المنهج أو حصل التقصير فيه والإخلال به، حتَّى يأتيَ اللَّه بِمَن ينهض بهذا المنهج فيظهر اللَّه بِهم الحق كما حصل ذلك بالإمام ابن تيمية وتلاميذه، ثُمَّ بعد قرون بالإمام محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه، وغيرهم مِمَّن يظهر اللَّه على أيديهم الحق.

واليوم قد استفحل أمر أهل الضلال وأمر أهل الإلحاد وغزوا أهل السنة فِي عقر دارهم وحققوا كثيرًا من أهدافهم فِي كثير من شباب أهل السنة.

وعليه؛ فلابد من النهوض بِهذا المنهج الذي يعلي الحق، ويزيل الباطل أو يذله، وبه تعود الأمة أو يعود منهم من أراد اللَّه به خيرًا إلى الكتاب والسنة، وإلى ما كان عليه السلف الصالح.

نسأل اللَّه أن يوفق علماء السنة لِمَا يُحب ويرضى، ولِمَا يقود الأمة إلى شاطئ النجاة، وأن يجمع كلمتهم وكلمة الأمة على الحق، إن ربنا لسميع الدعاء.

وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

في ١٧ جمادى الآخرة من عام ١٤٢٤هـ

* * *

دراسة أقوال العلماء

في حديث: «أرحم أمتي...»

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه:

أما بعد:

فإنه قد اختلف أهل العلم بالحديث في حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر . . .**» الحديث.

فقسم منهم يرى أنه صحيح متصل إلى رسول الله ﷺ.

وقسم يرى أنه مرسل إلا قول النبي ﷺ: «**إنَّ لكل أمة أمينًا وأمين هذه الأمة أبو عبيدة**» على تفاوت في عرضهم.

وسوف أدرس طرق هذا الحديث ثم أبين ما يظهر لي أنه الصواب من الوصل أو الإرسال في ضوء هذه الدراسة وما تقوم عليه من أدلة.

والله أسال أن يرزقني الإنصاف والصدق والإخلاص في القول والعمل وأن يثبتني على ذلك إن ربي لسميع الدعاء.

كتبه:

ربيع بن هادي عمير المدخلي

من أبرز العلماء الذين حصل منهم أو نسب إليهم ترجيح الإرسال على الوصل

الأول: الحافظ أبو بكر الخطيب رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الفصل للوصل المدرج في النقل» (٢/ ٦٧٦):

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: أخبرنا الحسن بن أبي بكر: أنا عثمان بن أحمد الدقاق: نا الحسن بن سلام: نا قبيصة بن عقبة: نا سفيان الثوري، عن خالد الحذاء[١] وعاصم[٢].

وأخبرنا أبو بكر البرقاني وبشرى بن عبد الله الرومي قالا: أنا محمد بن جعفر بن الهيثم البندار: نا جعفر بن محمد بن شاكر الصائغ: نا قبيصة بن عقبة: نا سفيان، عن خالد وعاصم، عن أبي قلابة[٣]، عن أنس قال:

قال رسول الله ﷺ: **«أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأفرضهم زيد، وأقرؤهم أُبيٌّ، وأعلمهم بالحلال والحرام**

(١) خالد الحذاء: قال الذهبي في (الكاشف): «خالد بن مهران البصري أبو المنازل الحذاء الحافظ عن أبي عثمان النهدي ويزيد بن الشخير وعنه شعبة وابن علية ثقة إمام توفي (١٤١) ع».

وقال الحافظ في (التقريب): «وهو ثقة يرسل من الخامسة، أشار حماد بن زيد أن حفظه تغير لما قدم من الشام ع».

(٢) عاصم: هو ابن سليمان الأحول، قال الذهبي في (الكاشف): «عاصم بن سليمان أبو عبد الرحمن البصري الأحول الحافظ عن عبد الله بن سرجس وأنس وعمرو بن سلمة وعنه شعبة وابن علية ويزيد، قال أحمد: ثقة من الحفاظ مات (١٤٢) ع».

وقال الحافظ في (التقريب): «عاصم بن سليمان، أبو عبد الرحمن البصري، ثقة من الرابعة، لم يتكلم فيه إلا القطان فكأنه بسبب دخوله في الولاية، مات بعد سنة أربعين ع».

(٣) أبو قلابة: قال الذهبي في (الكاشف): «عبد الله بن زيد أبو قلابة الجرمي من أئمة التابعين حديثه عن عمر وأبي هريرة وعائشة ومعاوية وسمرة في «سنن النسائي» وتلك مراسيل وعن ثابت بن الضحاك ومالك بن الحويرث وأنس وذلك في الصحاح وعنه قتادة ويحيى بن أبي كثير وأيوب وخلق هرب من القضاء فسكن داريا توفي (١٠٤) وقيل (١٠٧) ع». وقال العلائي بعد أن ذكر عددًا ممن أرسل عنهم: «نعم روايته عن مالك بن الحويرث وأنس بن مالك وثابت بن الضحاك متصلة، وهي في الكتب التسعة.

وقال الحافظ فيه: «ثقة فاضل كثير الإرسال. قال العجلي: فيه نصب يسير من الثالثة، مات بالشام هاربًا من القضاء مات سنة أربع ومائة، وقيل بعدها ع».

معاذُ بن جبل، وإن لكل أمة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

كذلك روى هذا الحديث قبيصة بن عقبة، عن سفيان الثوري، عن خالد الحذاء وعاصم الأحول فانفرد بتجويده والجمع فيه بين خالد وعاصم.

وخالفه وكيع بن الجراح وعبيد الله الأشجعي وقطبة بن العلاء فرَوَوْهُ عن الثوري عن خالد وحده عن أبي قلابة عن أنس.

ورواه عن خالد كذلك عبد الوهاب الثقفي ووهيب بن خالد وعمر بن حبيب القاضي ورواه مُعَلَّى بن عبد الرحمن عن سفيان الثوري عن خالد عن أبي قلابة عن ابن عمر عن النبي ﷺ ووهم في هذا القول.

ولم يكن أبو قلابة يسند جميع المتن وإنما كان يرسله[١] غير ذكر أبي عبيدة وحده، فإنه كان يسنده عن أنس عن النبي ﷺ.

روى ذلك عن خالد الحذاء عن أبي قلابة إسماعيل بن علية مبينًا مفصلًا وميز المسند من المرسل بعد أن ساقه سياقة واحدة، ورواه حماد بن زيد ومعمر بن راشد ذكر أبي عبيدة وكذلك رواه أبو قحذم النضر بن معبد عن أبي قلابة عن النبي ﷺ مرسلًا.

وقد أفرد شعبة بن الحجاج في روايته عن خالد الحذاء عن أبي قلابة المسند من هذا الحديث فقط في ذكر أبي عبيدة.

وروى عن سعيد بن أبي عروبة وعن معمر بن راشد عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ الحديث بطوله، فأما سعيد فلا أعلم رواه إلا محمد بن حميد الرازي عن مهران بن أبي عمر عنه، وأما معمر فاختلف عليه فيه فأسنده عنه ووصله داود بن عبد الرحمن العطار وأرسله عنه عبد الرزاق بن همام[٢].

أقول: في إسناد هذا الحديث عن سعيد بن أبي عروبة: محمد بن حميد الرازي: وثقه ابن معين وجعفر الطيالسي.

---

(١) في هذا القول نظر فقد جاء مسندًا من طرق صحاح.

(٢) رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة وأبي قلابة مرسلًا كما في «مصنف عبد الرزاق».

وقال البخاري: «فيه نظر».

وقال النسائي: «ليس بثقة واتهمه بعضهم بالكذب».

وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: «ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه».

وانظر «الكاشف» للذهبي.

وفي الإسناد مهران بن أبي عمر قال الحافظ في «التقريب»: «صدوق له أوهام سيئ الحفظ».

وقال الذهبي في «الكاشف»: «فيه لين ووثقه أبو حاتم».

وقال ابن معين: «كان شيخًا مسلمًا كتبت عنه وكان عنده غلط كثير في حديث سفيان» الجرح والتعديل (٨/ ٣٠١).

قال الخطيب: فأما حديث وكيع عن سفيان عن خالد الحذاء فأخبرناه الحسن بن علي التميمي: أنا أحمد بن جعفر بن حمدان: نا عبد اللَّه بن أحمد: حدثني أبي: نا وكيع، عن سفيان، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أرحم أمتي أبو بكر، وأشدها في دين اللَّه عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤها لكتاب اللَّه أُبي، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**».

وأما حديث الأشجعي عن سفيان بمتابعة وكيع فأخبرناه الحسن بن أبي طالب: نا عبد الواحد بن علي: نا الحسين بن إسماعيل: نا يعقوب الدورقي: نا خلف بن الوليد: نا الأشجعي، عن سفيان، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس نحو ما تقدم.

وأما حديث قطبة بن العلاء عن سفيان مثل ذلك فأخبرناه أبو الحسن علي بن يحيى بن محمد بن جعفر الإمام: نا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني: نا القاسم بن محمد الدلال الكوفي: نا قطبة بن العلاء بن المنهال الغنوي: نا سفيان الثوري، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أرحم أمتي

بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأفرضهم زيد ابن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

أقول: حديث سفيان صحيح من طرق ولا يضره الكلام في قطبة بن العلاء.

قال الخطيب: وأما حديث عبد الوهاب الثقفي عن خالد الحذاء بموافقة هذه الروايات عن الثوري عن خالد.

فأخبرناه أبو سعيد محمد بن الفضل بن شاذان الصيرفي قال: أنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الشيباني الحافظ: ثنا أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي: نا أبو بكر بن خلاد الباهلي: نا عبد الوهاب الثقفي: نا خالد، عن أبي قلابة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أُبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن إبراهيم بن عروة البندار: أنا محمد بن عبد الله الشافعي: نا إبراهيم بن هاشم: نا محمد بن عبد الله الأزدي: نا عبد الوهاب الثقفي، عن خالد بإسناده... نحوه.

أقول: إن حديث عبد الوهاب الثقفي صحيح من طرق كثيرة صحيحة وستأتي.

قال الخطيب: وأما حديث وهيب، عن خالد مثل حديث الثقفي عنه.

فأخبرنا محمد بن الحسين بن الفضل القطان: أنا حامد بن محمد الهروي: نا علي بن عبد العزيز، وأخبرناه الحسن بن أبي الحسن المؤدب -واللفظ له-: أنا أحمد بن جعفر القطيعي: نا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي قالا: نا عفان: نا وهيب: نا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر -قال عبد الله: قال أبي: وقال عفان مرة: في أمر الله عمر- وأصدقهم حياء عثمان، وأفرضهم زيد ابن ثابت، وأقرؤهم لكتاب الله أُبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن

جبل، ألا وإن لكل أمة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

أقول: إن حديث وهيب بن خالد صحيح من طرق صحيحة وستأتي.

قال الخطيب: وأما حديث عمر بن حبيب، عن خالد مثل ذلك أيضًا.

فأخبرنيه الحسن بن محمد بن الحسن الخلال: نا محمد ابن إسماعيل الوراق وأحمد بن إبراهيم بن الحسن قالا: نا أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن الحذاء: أنا شاذان بن إبراهيم: نا عمر بن حبيب العدوي القاضي: نا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر الصديق، وأقواها في دين الله عمر، وأشدها حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

أقول: في إسناد هذا الحديث عمر بن حبيب القاضي البصري «ضعيف» التقريب.

وقال الذهبي في «الميزان» (٣/ ١٨٤): «كذبه ابن معين وقال النسائي وغيره: «ضعيف» وقال البخاري: «يتكلمون فيه». وقال ابن عدي: «حسن الحديث مع ضعفه».

وكأنَّ الذهبي مال إلى هذا الرأي واختاره انظر الكاشف فعلى رأي غير ابن معين يصلح للمتابعة.

قال الخطيب: وأما حديث مُعَلَّى بن عبد الرحمن، عن سفيان الذي وهم فيه فرواه عنه، عن خالد، عن أبي قلابة، عن ابن عمر.

فأخبرنيه أبو القاسم الأزهري: نا علي بن عمر الحافظ: نا القاسم بن إسماعيل أبو عبيد وعبد الله بن محمد بن إسحاق المروزي قالا: نا خلف بن محمد ابن خلف بن محمد بن عيسى: نا مُعَلَّى بن عبد الرحمن: نا سفيان، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالفرائض زيد بن ثابت، وأقرؤهم أُبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل،

وإن لكل أمة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

أقول: إنَّ مُعَلَّى بن عبد الرحمن متهم بالكذب والرفض. كما في «التقريب».

قال الخطيب: وأما حديث إسماعيل بن علية، عن خالد الذي بين فيه المسند من المرسل وفصل بينهما.

فأخبرناه القاضي أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي: نا علي بن محمد بن أحمد الوراق: نا زكريا بن يحيى الساجي: نا أبو الربيع الزهراني: نا إسماعيل بن علية: نا خالد الحذاء، عن أبي قلابة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أرحم أمتي أبو بكر، وأشدهم في دينه عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت**، قال: وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: **لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»**.

أقول: علي بن المحسن التنوخي قال فيه الخطيب في تاريخه (١٣/ ٦٠٤): «كان متحفظًا في الشهادة صدوقًا في الحديث».

وفي لسان الميزان (٤/ ٢٥٢): «قال ابن خيرون: «كان رأيه الرفض والاعتزال». وقال شجاع الذهلي: «كان يتشيع ويذهب إلى الاعتزال».

وعلي بن محمد بن لؤلؤ الوراق وثقه الأزهري وغيره.

وقال البرقاني: «كان يأخذ على الرواية، وكان رديء الكتاب».

وقال ابن أبي الفوارس: «كان ثقة إن شاء الله وكان فيه قليل تشيع، وكان قليل الفهم في الحديث كثير الخطأ» [لسان الميزان (٤/ ٢٥٦) رقم (٦٩٨)].

ثم وجدت حديث ابن علية في مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٣٤٩) قال: حدثنا ابن علية، عن خالد، عن أبي قلابة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»**. وهذا إسناد صحيح إلى أبي قلابة.

قال الخطيب (٢/ ٦٨٣): وأما حديث حماد بن زيد، عن عاصم الأحول، عن أبي قلابة الذي أرسل جميعه وأدرج فيه ذكر أبي عبيدة.

فأخبرناه أبو بكر البرقاني: أنا أحمد بن جعفر بن حمدان: نا إدريس بن عبد

الكريم المقرئ: نا خلف بن هشام البزاز: نا حماد بن زيد، عن عاصم، عن أبي قلابة أن النبي ﷺ قال: «إن أرحم الناس بالناس -أو: إن أرحم أمتي أبو بكر-، وإن أقواهم في دين الله عمر، وإن أصدقهم حياء عثمان، وإن أقرأهم أبي بن كعب، وإن أفرضهم زيد بن ثابت، وإن أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أمينًا، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح».

أقول: وقع في هذا الحديث وهم من أحد رجال هذا الإسناد بإدراج فضيلة أبي عبيدة في آخر هذا الحديث وحصل فيه شك من بعض الرواة.

ولعل ذلك من أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي، فقد قال فيه الذهبي في «الميزان» (١/ ٨٧): «صدوق في نفسه مقبول تغير قليلًا».

والمعروف أنَّ ابن المذهب روى عنه مسند الإمام أحمد قبل أن يتغير.

قال الخطيب: وأما حديث معمر، عن عاصم بموافقته حمادًا على هذه الرواية.

فأخبرناه علي بن محمد بن عبد الله المعدل: أنا إسماعيل ابن محمد الصفار: نا أحمد بن منصور الرمادي: نا عبد الرزاق: أنا معمر، عن عاصم بن سليمان، عن أبي قلابة قال معمر: وسمعت قتادة يقوله أيضًا قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأقواهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأمين أمتي أبو عبيدة بن الجراح، وأعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ، وأقرؤهم أُبي، وأفرضهم زيد- قال قتادة في حديثه: وأقضاهم علي-».

أقول: رجال إسناد هذا الحديث كلهم ثقات.

أحمد بن منصور الرمادي وصفه الذهبي في «الكاشف» بالحافظ، وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: «ثقة حافظ طعن فيه أبو داود لمذهبه في الوقف».

وإسماعيل الصفار وثقه الدارقطني، انظر تاريخ بغداد (٦/ ٢٩٩-٣٠٠).

وعلي بن محمد المعدل قال فيه الخطيب: «كتبنا عنه وكان صدوقًا ثقة ثبتًا» [تاريخ بغداد (١٢/ ٩٧-٩٨)] وبقية رجاله أئمة ثقات.

لكن جاء في هذه الطريق في الفصل للوصل زيادة «وأقضاهم علي» والحديث

في «مصنف عبد الرزاق» من طريق معمر به وليس فيه هذه الزيادة، فالله أعلم ممن وقع هذا الوهم ولعله من الصفار أو المعدل.

قال الخطيب: وأما حديث أبي قحذم، عن أبي قلابة مثل هذا.

فأخبرنيه أبو الحسن محمد بن عبد الواحد: أنا عمر بن محمد بن علي الناقد: نا محمد بن القاسم بن هاشم البزاز: نا أبي: نا كثير بن هشام: نا أبو قحذم، عن أبي قلابة أن رسول الله ﷺ قال: «**أرحم أمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لما أنزل الله أُبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل**، -وذكر كلمة معناها: **وأعلمهم بالفرائض زيد بن ثابت- وإن لكل أمة أمينًا، وإن أمين أمتي أبو عبيدة بن الجراح**».

أقول: في إسناد هذا الحديث أبو قحذم النضر بن معبد، ذكره ابن حبان في الثقات وضعفه العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٢٩١) وضعفه ابن عدي، وروي، عن ابن معين أنه قال: «أبو قحذم ليس بشيء». وقال: قال النسائي: «ليس بثقة». وذكر له ابن عدي بعض الأحاديث المنكرة. [الكامل (٧/ ٢٤٩٠)].

قال الخطيب: «وأما حديث شعبة، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة المقصور على المسند فقط.

فأخبرناه أبو القاسم إسماعيل بن إبراهيم بن عروة البندار: أنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي: نا إبراهيم بن عبد الرحيم بن دنوقا: نا عفان.

قال الشافعي: ونا إسماعيل بن إسحاق بن مسلم بن إبراهيم قال: ونا محمد بن يونس: نا يحيى ابن كثير أبو غسان قالوا: نا شعبة: أنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «**لكل أمة أمين وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**».

أقول: هذا المتن صحيح ثابت اتفق عليه الشيخان وأخرج من وجوه كثيرة صحيحة، بل كاد ابن عساكر أن يدعيَ له التواتر.

قال الخطيب: وأما حديث سعيد بن أبي عروبة الذي رواه عنه مهران بن أبي عمر فأخبرناه عبد الله بن علي بن محمد القرشي: أنبأ أبو جعفر محمد بن الحسن

ابن علي اليقطيني: ثنا علي بن أحمد الجرجاني: حدثنا محمد بن حميد: ثنا مهران، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأقواهم في دين الله عمر، وأشدهم حياء عثمان، وأفرضهم زيد، وأقرؤهم أُبي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وإن لكل أمة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

أقول: في إسناد هذا الحديث محمد بن حميد الرازي وثقه بعضهم وضعفه جماعة بل اتهمه بعضهم بالكذب، وفيه مهران فيه لين.

قال الخطيب: وأما حديث داود بن عبد الرحمن العطار، عن معمر الموافق لهذه الرواية، عن قتادة، عن أنس فأخبرناه الحسن بن علي الجوهري: أنا محمد بن زيد بن علي بن مروان الأنصاري: نا محمد بن الحسين الأشناني.

وأخبرنيه علي بن أبي علي البصري: نا أحمد بن علي بن محمد بن الجهم الكاتب: نا محمد بن جرير الطبري قالا: نا سفيان بن وكيع: نا حميد بن عبد الرحمن، عن داود العطار، عن معمر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد، وأقرؤهم أُبي، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

أقول: في إسناد هذا الحديث سفيان بن وكيع، قال الحافظ ابن حجر: «كان صدوقًا إلا أنه ابتلي بوراقه، فأدخل عليه ما ليس من حديثه، فنصح فلم يقبل فسقط حديثه». وقال الذهبي في «الكاشف»: «ضعيف».

قال الخطيب: وأما حديث عبد الرزاق، عن معمر المرسل الذي لم يذكر في إسناده أنسًا فأخبرناه القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن بن أحمد الحرشي: نا أبو محمد حاجب بن أحمد الطوسي: نا محمد بن حماد: نا عبد الرزاق: أنا معمر قال: سمعت قتادة يحدث، عن النبي ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأقواهم في دين الله عمر، وأقضاهم علي، وأصدقهم حياء عثمان، وأمين أمتي أبو عبيدة ابن الجراح، وأعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ، وأقرؤهم أُبي،

وأفرضهم زيد بن ثابت» .

وإرسال هذا الحديث، عن معمر، عن قتادة أصح من إيصاله فأما حديث أبي قلابة فالصحيح منه المسند المتصل ذكر أبي عبيدة حسب وما سوى ذلك مرسل غير متصل، والله أعلم .

أقول: حديث معمر في «مصنف عبد الرزاق» (١١/ ٢٢٥) رقم (٢٠٣٨٧) وإسناده في «المصنف» صحيح إلا أنه قرن بين قتادة وأبي قلابة، فهل حصل وهم في هذا الإسناد ومِمَّن حصل؟

الثاني: الحافظ أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني رَحِمَهُ اللَّهُ:

سئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في كتاب «العلل» (١٢/ ٢٤٨-٢٤٩)، عن حديث أبي قلابة، عن أنس: قال رسول الله ﷺ: **«خير أمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤهم أبيٌّ، وأفرضهم زيد، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»** .

فقال: يرويه خالد الحذاء وعاصم الأحول، واختلف عنهما:

فأما حديث خالد الحذاء، فرواه إسماعيل بن علية، عن خالد، عن أبي قلابة مرسلًا .

واختلف، عن الثوريّ:

فرواه قبيصة، عن الثوريّ، عن خالد، (وعاصم)، عن أبي قلابة، عن أنس .

وخالفه مُعَلَّى بن عبد الرحمن، فرواه، عن الثوريّ، عن عاصم، عن أبي قلابة، عن ابن عمر .

وعن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس .

ورواه وكيع، عن الثوريّ، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس .

ورواه ابن عيينة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، عن عاصم، عن أبي قلابة مرسلًا .

ورواه أبو قحذم: النضر بن معبد، عن أبي قلابة مرسلًا - أيضًا - .

وروى شعبة من هذا الحديث كلمة، وهي فضيلة أبي عبيدة بن الجرّاح- خاصة-، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس.

واختلف، عن شعبة في ذلك:

فقيل: عن سليمان بن حرب، عن شعبة، عن ثابت، عن أنس.

وقيل: عن أبي عليّ: عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، عن شعبة، عن عاصم الأحول، عن أنس.

وقيل: عن أبي عمر (الحوضي)، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس.

وأصحها: عن شعبة، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس). اهـ

أقول:

١- سيأتي الكلام على إسناد رواية إسماعيل بن علية وبيان حالها.

٢- ذكر الدارقطني هنا الخلاف على سفيان ولم يرجح رواية على أخرى، زد على ذلك أنه لم يذكر رواية عبيد الله الأشجعي، ولا رواية قطبة بن العلاء، ولا رواية يحيى بن اليمان أبو اليمان كما في السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٥٧٣) رقم (١٢٨١) ولا رواية محمد بن عبد الله الأسدي كما في الطبقات لابن سعد (٢/ ٣٥٩) حيث روى فضيلة زيد بن ثابت في ترجمته و(٣/ ٥٨٦) حيث ذكر فضيلة معاذ في ترجمته و(٧/ ٣٨٨) من الطبقات فضيلة معاذ أيضًا في كل هذه المواطن، عن سفيان، عن خالد ومحمد بن عبد الله الأسدي صدوق.

٣- لم يذكر رواية وهيب بن خالد ولا رواية عبد الوهاب الثقفي كلاهما، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس بهذا الحديث مرفوعًا.

٤- ذكر رواية ابن عيينة ورواية حماد بن سلمة وحماد بن زيد وذكر أنها مرسلة ولم يذكر لها أسانيد.

وقد وجدنا رواية ابن عيينة في كتاب «العيال» لابن أبي الدنيا (١/ ٤٢١) رقم (٢٥٢) وسيأتي نصُّها.

وأما رواية حماد بن زيد فقد ذكرها الخطيب في «الفصل المدرج في النقل»

وسيأتي الكلام عليها .

٥- فتحصل لنا من كلام الدارقطني : أن الخلاف واقع بين إسماعيل بن علية وبين ابن عيينة وحماد بن سلمة وحماد بن زيد فيمن هو الراوي، عن أبي قلابة فإسماعيل بن علية يقول: عن خالد، عن أبي قلابة مرسلًا وابن عيينة والحمادان يقولون: عن عاصم، عن أبي قلابة مرسلًا فهذا اختلاف بين رواة الإرسال له أثره .

وأيَّد ابن علية أبو قحذم فرواه، عن أبي قلابة مرسلًا ولكن ابن قحذم ضعيف فالناظر في كلام الدارقطني يتبادر إلى ذهنه أن الإرسال هو الراجح لأنه لا يقابل رواته على كثرتهم إلا سفيان الثوري .

وقد اختلف عنه الراويان اللذان ذكرهما الدارقطني ألا وهما وكيع وقبيصة فيظهر له ضعف جانب الوصل أكثر .

لكن إذا ضممنا إلى سفيان الثوري حافظين ثقتين من أصحاب خالد الحذاء وهما من أهل البصرة بلد الحذاء ألا وهما عبد الوهاب الثقفي ووهيب بن خالد الباهلي ؛ يتبين لنا رجحان الوصل خاصة إذا علمنا أن هناك رواة، عن سفيان تابعوا وكيعًا في الرواية، عن سفيان، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس، عن النبي ﷺ، ألا وهم عبيد الله الأشجعي وقطبة بن العلاء وقبيصة بن عقبة ومحمد بن عبد الله الأسدي كلهم رووا هذا الحديث، عن سفيان الثوري، عن خالد الحذاء به، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المرسلين قد اختلفوا فيما بينهم كما أسلفنا ازددنا قناعة برجحان الوصل على الإرسال لاسيما وأسانيد هؤلاء الثلاثة الحفاظ الأثبات[1] صحيحة من طرق وردت في عدد من دواوين السنة المعتبرة، كـ «سنن الترمذي» و«سنن النسائي» و«مسند الإمام أحمد» و«صحيح ابن حبان» وغيرهما .

بينما نرى روايات المرسلين على أصناف منها الصحيح وهما روايتا إسماعيل بن علية حيث وردت في مصنف ابن أبي شيبة .

ورواية معمر التي وردت في مصنف عبد الرزاق كلاهما ، عن خالد الحذاء،

---

(١) وهم سفيان الثوري ووهيب بن خالد وعبد الوهاب الثقفي .

عن أبي قلابة مرسلًا، وزِيدَ في رواية معمر قتادة مع أبي قلابة وباقي روايات الإرسال تتراوح بين الضعيف وبين ما لا يوجد له إسناد كما سيأتي توضيح ذلك كله إن شاء اللَّه.

وهناك أمر آخر: وهو أنه عند الواصلين زيادة من ثقات وإذا كان هذا هو حال روايات الوصل والإرسال فلا يبقى عند الناظر البصير أدنى شك في رجحان الوصل على الإرسال.

ثم ذكر الدارقطني رواية شعبة في فضيلة أبي عبيدة وذكر اختلاف أصحابه ثم رجح إحداها بقوله: وأصحها شعبة، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس.

وهذا الترجيح خاص برواية شعبة فيما يتعلق بفضيلة أبي عبيدة.

وأما بالنسبة لحديث «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. . . » الحديث، فقد ذكر أوجه الاختلاف ولم يرجح أي وجه منها لا في الاختلاف بين أصحاب خالد وعاصم ولا في الاختلاف بين أصحاب سفيان الثوري.

مع أن الراجح من روايات أصحابه روايات الوصل التي وردت من طريق وكيع والأشجعي ومن تابعهما ممن أسلفنا ذكره.

وإذن فلا يستطيع المنصف بعد هذا أن يعد الدارقطني ممن رجح الإرسال على الوصل في هذا الحديث المبارك إلا ما ذكره من ترجيح بين أصحاب شعبة.

الثالث: الحافظ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ: في رسالة له سُمِّيَت بـ: «الكلام على حديث «أفرضكم زيد»» ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن عبد الهادي- تحقيق أبي عبد اللَّه حسين بن عكاشة من (ص٥١-٨١) ضمن هذا المجموع.

ساق رَحِمَهُ اللَّهُ حديث سفيان من طريق وكيع عنه، وساق حديث وهيب من طريق عفان عنه وعزاهما إلى مسند أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ.

وساق حديث عبد الوهاب وسفيان أيضًا من سنن ابن ماجه بإسناديهما ثم ساق حديث عبد الوهاب بإسناده من سنن الترمذي، ثم قال: قال الترمذي حسن صحيح.

ثم خرج حديث وهيب وعبد الوهاب الثقفي بإسناديهما من «سنن النسائي».

وخرج حديث عبد الوهاب من المستدرك للحاكم، ثم قال: هو على شرط الشيخين (ص٥١-٥٢) ولم يناقش أسانيد هذه الروايات.

ثم نقل كلام البيهقي على هذه الروايات من (ص٥٣-٥٥) من المجموع المذكور ولم يعلق عليه بشيء.

ثم قال في (ص٥٥): «وقد اختلف العلماء في هذا الحديث قديمًا وحديثًا فقال بعضهم: الصحيح أنه مرسل، وقال بعضهم هو منقطع لم يسمعه أبو قلابة من أنس والصحيح منه ذكر أبي عبيدة».

أقول: ولم يذكر ابن عبد الهادي من صححه من العلماء في هذه الخلاصة وسوف يأتي ذكرهم إن شاء الله.

وذكر قول ابن عبد البر في «الاستيعاب» «أن أكثر الرواة رَوَوْهُ مرسلًا».

أقول: إن كلام ابن عبد البر فيه إجمال لم يصرح فيه بِرُجْحان الإرسال على الوصل.

ولا يُدرَى هل درس ابن عبد البر أحاديث الوصل والإرسال دراسة نقدية أو لا، ولو فرضنا أنه بهذا الكلام يرجح روايات الإرسال على الوصل فهل سبر غورها وهل درس روايات الوصل دراسة وافية، إني لأستبعد ذلك، ومما يؤيد ما أقول أنَّا قد رأيناه يحتج ببعض طرق هذا الحديث في كتابه الاستيعاب نفسه حيث قال فيه (١/ ١٢٧-١٢٨): «وقد وصف رسول الله وجوه أصحابه وحَلَّاهم بِحُلَاهم ليُقتدَى به فيهم بمثل ذلك».

وفيما رواه شيخنا عيسى بن سعيد بن سعدان المقري قال: أخبرنا أبو بكر أحمد ابن إبراهيم بن شاذان قال: حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال: حدثنا محمد بن عبيد بن ثعلبة العامري بالكوفة قال: حدثنا عبد الحميد بن عبد الرحمن أبو يحيى بن يحيى الحماني قال: حدثنا أبو سعيد الأعور -يعني: البقال وكان مولى لحذيفة- قال: أخبرنا شيخ من الصحابة يقال له: أبو محجن أو مِحجن بن فلان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أرأف أمتي بأمتي أبو بكر، وأقواها في أمر دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأقضاها علي، وأقرأها أُبَيٌّ، وأفرضها زيد،**

وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأُمَّة أبو عبيدة بن الجراح».

وروى عفَّان بن مسلم قال: أخبرنا شعبة ووهيب- واللفظ لحديث وهيب- قال: حدثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر . . .». فذكر مثله إلا أنه لم يذكر «وأقضاهم علي».

وروى حماد بن زيد، عن عاصم، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أرحم الناس بالناس». أو قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر الصديق». فذكر مثله سواء إلى آخره.

وروى يزيد بن هارون قال: حدثنا مسلم بن عبيد، عن الحسن قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «علي أقضى أمتي، وأُبيّ أقرؤهم، وأبو عبيدة أمينهم». ذكره الحلواني، عن يزيد بن هارون.

ورُوي (عن)[1] عمر ﷺ من وجوه: «عليٌّ أقضانا، وأُبيٌّ أقرؤنا».

وأخبرنا عبد الوارث بن سفيان حدثنا قاسم بن أصبغ: حدثنا أحمد بن زهير قال: حدثنا أحمد بن عبد اللَّه بن يونس قال: حدثنا سلام، عن زيد العمي، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أرحم أمتي بها أبو بكر، وأقواهم في دين اللَّه عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأفرضهم زيد، وأقرؤهم لكتاب اللَّه أُبيّ بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، وأبو هريرة وعاء للعلم -أو قال: وعاء العلم-، وعند سلمان علم لا يُدرَك، وما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر».

قال أبو عمر- رضي اللَّه تعالى عنه-: «فَضَّل رسول اللَّه ﷺ جماعة من أصحابه بفضائل خصَّ كل واحد منهم بفضيلة وَسَمَهُ بها، وذكره فيها، ولم يأت عنه ﷺ أنه فضَّل منهم واحدًا على صاحبه بعينه من وجه يصح، ولكنه ذكر من فضائلهم

---

(١) لفظة «عن» من نسخة الاستيعاب المطبوعة على حاشية «الإصابة» لابن حجر.

ما يُستدَل به على مواضعهم ومنازلهم من الفضل والدين والعلم. وكان ﷺ أحلم وأكرم معاشرة وأعلم بمحاسن الأخلاق من أن يُواجِه فاضلًا منهم بأن غيره أفضل منه فيجد من ذلك في نفسه. . » اهـ

أقول: فنرى الإمام ابن عبد البر ساق هذه الروايات في مساق الاحتجاج بها والاستفادة من معانيها.

انظر إلى قوله ممهدًا لها: «وقد وصف رسول اللَّه ﷺ وجوه أصحابه وحلاهم بحلاهم ليُقتدى به فيهم بمثل ذلك».

وانظر إلى قوله: «فضَّل رسول اللَّه ﷺ جماعة من أصحابه بفضائل خصَّ كل واحد منهم بفضيلة وسمه بها وذكره فيها. . . » إلخ.

فنراه يجزم بأن رسول اللَّه ﷺ قد وصف أصحابه وحلاهم بهذه الصفات وإن كان يدرك أن في بعض الطرق ضعفًا، ولو كان يضعفها جميعًا لما رأينا منه هذا الاستنباط والجزم بنسبة الحديث إلى رسول اللَّه ﷺ.

وأقول: إنا نراه احتج هنا برواية وهيب ولم يحتج برواية سفيان الثوري وعبد الوهاب الثقفي ولو وقف عليهما أو استحضرهما لما أغفلهما ولما احتج إلى جانب رواية وهيب بالروايات الضعيفة.

ثم نقل الحافظ ابن عبد الهادي كلام الإمام الدارقطني من (ص٥٥-٥٧) ثم علق على قول الدارقطني مرجحًا بين روايات المختلفين على شعبة: «وأصحها شعبة، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس.

قال معلقًا: «وهذا الذي صححه الدارقطني هو الذي رواه البخاري في «صحيحه» من حديث شعبة وساق إسناد شعبة إلى أنس إلى النبي ﷺ مرفوعًا».

ثم قال: «وكذلك مسلم وساقه من طريقين إلى إسماعيل ابن علية به.

ثم قال: وقد تقدم أن بشر بن المفضل ومحمد بن أبي عدي -وهما ثقتان ثبتان- رويا الحديث أيضًا، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن النبي ﷺ مرسلًا إلا ذكر أبي عبيدة». وقد نقل هذا الكلام، عن البيهقي وكأنه بناء على هذا يرجح الإرسال.

ولكن يحول دون هذا الترجيح أنَّا لم نقف لروايتهما على إسناد ولم يذكر إسنادهما لا هو ولا البيهقي.

ولم أجد لهما ذكرًا عند الخطيب ولا عند الدارقطني ولم أجد لهما ذكرًا في مصادر هذا الحديث.

وأخشى أن ذكرهما عند البيهقي جاء، عن طريق الوهم، فالله أعلم، وعلى كل حال يتوقف عندهما في الروايات المرسلة التي خالفت روايات سفيان الثوري ومن معه على وجود روايتهما ومعرفة درجتهما.

ثم نقل كلام الخطيب السابق ذكره في هذا البحث ومنه: «وأما معمر فاختلف عليه فيه فأسنده ووصله داود بن عبد الرحمن العطار وأرسله عنه عبد الرزاق بن همام».

ثم قال الحافظ ابن عبد الهادي: «ثم ساق الخطيب جميع ذلك بأسانيده وقال بعد ذلك فأما حديث أبي قلابة، فالصحيح منه المسند المتصل ذكر أبي عبيدة حسب، وما سوى ذلك مرسل غير متصل».

أقول: إن في معظم الأسانيد التي ساقها الخطيب فيها ضعف فلا تقاوم أسانيد سفيان الثوري وعبد الوهاب الثقفي ووهيب بن خالد.

ثم ساق ابن عبد الهادي كلام ابن عبد البر مرة أخرى مؤيدًا به رأي الخطيب، وقد تقدم بيان حال كلام ابن عبد البر وبيان موقفه من هذا الحديث.

ثم قال في (٥٩-٦٠): «وقد كان شيخنا الإمام العلامة أبو العباس أحمد بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يتكلم في هذا الحديث، ويقول: هو حديث ضعيف. قال: ولا أعلم أن زيد بن ثابت تكلم في الفرائض على عهد النبي ﷺ، بل ولا على عهد أبي بكر ولهذا لم يختلفوا في الجد على عهد أبي بكر، وإنما وقع النزاع بينهم فيه في خلافة عمر رضي الله عنه ولم يكن زيد معروفًا في الفرائض في خلافة أبي بكر».

أقول: رحم الله شيخ الإسلام وابن عبد الهادي.

إنَّ الحديث صحيح بأسانيد كالجبال وما تُضعَّف الأحاديث الصحيحة الثابتة بمثل هذا.

فما المانع أن زيدًا اهتم أكثر من غيره بآيات وأحاديث الفرائض وهي قليلة، فحفظها وتفقه فيها وأمعن النظر فيها أكثر من غيره في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد أبي بكر.

ثم إذا لم يُسلم بهذا فما المانع أن يتحدث رسول الله ﷺ، عن مستقبل زيد رضي الله عنه.

ولشيخ الإسلام نظرة أخرى في هذا الحديث: حيث قال رحمه الله في مجموع الفتاوى (٤/ ٢١٠): «وقوله: **«أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل»**. أقرب إلى الصحة باتفاق علماء الحديث من قوله: **«أقضاكم علي»**. لو كان مما يحتج به، وإذا كان ذلك أصح إسنادًا وأظهر دلالة علم أن المحتجَّ بذلك على أن عليًا أعلم من معاذ بن جبل جاهلٌ.

فكيف من أبي بكر وعمر اللذين هما أعلم من معاذ بن جبل؟!

مع أن الحديث الذي فيه ذكر معاذ وزيد يضعفه بعضهم ويحسنه بعضهم. وأما الحديث الذي فيه ذكر علي فإنه ضعيف». اهـ

ثم قال ابن عبد الهادي رحمه الله: «فإن قيل فقد رُوي هذا الحديث من غير حديث أبي قلابة، عن أنس فرواه معمر، عن قتادة، عن أنس».

قال الترمذي: «حدثنا سفيان بن وكيع: ثنا حميد بن عبد الرحمن، عن داود العطار، عن معمر، عن قتادة، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أرحم أمتي بأمتي أبو بكر . . . »** الحديث.

ثم قال رحمه الله: فالجواب أن مثل هذا الإسناد لا يحتج به لغرابته وضعف راويه.

قال الترمذي: هو حديث غريب لا نعرفه من حديث قتادة إلا من هذا الوجه.

ثم نقل كلام البخاري وأبي زرعة وأبي حاتم والنسائي وابن حبان والدارقطني في تضعيف سفيان بن وكيع.

ثم قال رحمه الله: فإذا كانت هذه حال سفيان بن وكيع، وقد انفرد بهذا الحديث ولم يتابعه عليه أحد ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة إلا الترمذي عنه، ولا

رواه أحمد في «مسنده»، فكيف يجوز أن يحتج به أو يكون شاهدًا لغيره، واللَّه أعلم.

أقول: وأنا مع ابن عبد الهادي في هذا التقرير.

ولكني أقول ما يأتي:

١- ألم تعلم أيها الإمام أن هذا الذي قررته في حديث سفيان بن وكيع ينطبق على الروايات المرسلة التي رجحتها، فهي لم تروَ في الكتب الستَّة ولا في مسند أحمد، وأكثر أسانيدها فيها ضعف، وفي بعض طرقها من وُصِف بالكذب؟

٢- إنَّ الروايات الموصولة في هذا الحديث لها ميزات على الروايات المرسلة منها:

أنها جاءت في سنن الترمذي وسنن النسائي وسنن ابن ماجه، ومدارها على ثلاثة أئمة حفاظ أثبات وهم سفيان الثوري ووهيب بن خالد وعبد الوهاب الثقفي وصححها وقبلها عدد كثير من العلماء، فلماذا لم تصححها والفرق بينها وبين رواية سفيان بن وكيع كما بين الثرى والثريا، كما أن الفرق بين سفيان وبين هؤلاء الحفاظ كما بين الثرى والثريا.

ثم قال في (ص٦٣): «ثم رأيت عبد الرزاق قد روى هذا الحديث، عن معمر، عن قتادة مرسلًا وهو الصواب».

وأيَّد كلامه بقول الخطيب: «وإرسال هذا الحديث أصح من إيصاله».

ثم ساق شواهد لهذا الحديث، عن جابر وأبي سعيد وابن عمر وأبي محجن الثقفي وشداد بن أوس والحسن البصري من (ص٦٤-٨١) ودرس أسانيدها دراسة نقدية واسعة تشهد بطول باعه وسعة اطلاعه وبيَّن ضعفها جميعًا.

ثم قال: «والأقرب في هذه الأحاديث كلها حديث أنس، والأظهر أنه مرسل، وباقي الأحاديث في أسانيدها مقال، وبعض ألفاظ الحديث صحيح ثابت متصل لا شك فيه كذكر أبي عبيدة، وبعضها ضعيف قطعًا، وبعضها مشكوك فيه ومحتمل وفيه ارتياب، واللَّه الموفق للصواب».

أقول:

١- الحق أن حديث أنس ﷺ صحيح متصل من طرق ثابتة كالجبال تدور على حفاظ كالجبال.

٢- وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبعض ألفاظ الحديث صحيح ثابت متصل لا شك فيه كذكر أبي عبيدة».

أقول: بل كل ألفاظ حديث أنس المتعلقة بأبي بكر وعمر وزيد وباقي من ذكر معهم من الصحابة صحيحة ثابتة متصلة واردة في دواوين السنة المعتبرة وقد صحَّحها عدد من الأئمة الحفاظ.

ويفهم من كلامه أنه يسلم بصحة بعض الألفاظ المتعلقة بغير أبي عبيدة في حديث أنس وغيره من الأحاديث التي ضعفها.

٣- وقوله: «وبعضها ضعيف قطعًا وبعضها مشكوك فيه ومحتمل وفيه ارتياب».

أقول: هذا الكلام صحيح في غير حديث أنس من الأحاديث التي سلف ذكرها، ورحم الله الحافظ ابن عبد الهادي فما قرَّره اجتهاد منه؛ أصاب في بعضه كتضعيف أحاديث غير أنس وأخطأ في تضعيف حديث أنس وهو مجتهد مأجور في صوابه وخطئه إن شاء الله.

أقول: ومما اعترض به على الروايات الموصولة من طريق سفيان الثوري ووهيب بن خالد وعبد الوهاب الثقفي رواية مُعَلًّى بن عبد الرحمن، عن الثوري، عن عاصم، عن أبي قلابة، عن ابن عمر.

ومُعَلًّى بن عبد الرحمن: متهم بالرفض وبالوضع فلا أثر لخلافه.

فهذا حال الروايات المرسلة التي عُورِض بها الروايات المتصلة بالأسانيد الصحيحة منها ما لا يوقف له على إسناد ومنها ما في إسناده ضعف بل وأشد من الضعف.

الرابع: الحافظ البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذكر ذلك الحافظان ابن عبد الهادي والحافظ ابن حجر وقد بيَّنَّا من كلامه على هذا الحديث أنه يصحح هذا الحديث في كتابيه السنن الكبرى والمعرفة.

الخامس: الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حكى ذلك عنه ابن عبد الهادي وبينت أن له موقفين أحدهما فيه إجمال والآخر يظهر من موقفه الاحتجاج به.

السادس: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذكر كلامه ابن عبد الهادي وهو في مجموع الفتاوى وقد ناقشت كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

السابع: الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذكر ذلك الأخ مشهور حسن في رسالته: دراسة حديث: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر» وفي قوله نظر؛ إذ يظهر من كلامه في الفتح أنه حاكٍ لكلام العلماء بصيغة فيها نظر وقد ناقشته في هذه الصيغة ويظهر من كلامه في «التلخيص الحبير» أنه متوقف في الأمر فلا يرجح الوصل على الإرسال ولا العكس وقد وضَّحتُ ذلك.

الثامن: الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في كتابه «الإمامة والرد على الرافضة» (ص٢٧٨).

* * *

دراسة روايات الوصل، عن خالد الحذَّاء، عن أبي قلابة، عن أنس

الأولى: رواية عبد الوهَّاب بن عبد المجيد الثقفي:

قال الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي[1] قال: حدثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أُبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أمينًا، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»** [الجامع (٦/ ١٢٧-١٢٨) حديث (٣٧٩١)] وقال الترمذي عقبه: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ٣٦٣) رقم (٨٢٢٩) تحت ترجمة «زيد بن ثابت» قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبرنا محمد بن يحيى بن أيوب بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الوهاب الثقفي قال: حدثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. . . » الحديث.

وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» كما في الإحسان (١٦/ ٧٤) رقم (٧١٣١) تحت ترجمة «ذكر البيان بأن معاذ بن جبل كان من أعلم الصحابة بالحلال والحرام».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: أخبرنا أحمد بن مكرم بن خالد البرتي: حدثنا علي بن المديني: حدثنا عبد الوهاب الثقفي: حدثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك به.

رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن مكرم البرتي، ذكر الخطيب البغدادي في تاريخه (٦/ ٣٩٣) وقال: حدث، عن علي بن المديني روى عنه عبد العزيز بن جعفر الخرقي ومحمد بن إبراهيم بن نيظرا ومحمد بن إسماعيل الوراق ومحمد بن المظفر أحاديث مستقيمة.

---

(١) وانظر الفصل للوصل المدرج في النقل (٢/ ٦٧٩) من طريق محمد بن نصر المروزي عن أبي بكر بن خلاد الباهلي عن عبد الوهاب به.

واحتج به ابن حبان هنا في «صحيحه» وفي مقدمة المجروحين (١/ ٩).

وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» كما في الإحسان (١٦/ ٨٥-٨٦) رقم (٧١٣٧) تحت ترجمة «ذكر البيان بأن زيد بن ثابت كان من أفرض الصحابة» قال: أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ومحمد بن خالد بن عبد الله ومحمد بن بشار وأبو موسى قالوا: حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا خالد، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. . .» الحديث.

الحسن بن سفيان: هو الإمام المشهور.

قال الحافظ الذهبي فيه: «الحافظ الإمام شيخ خراسان أبو العباس صاحب المسند الكبير والأربعين، سمع إسحاق ويحيى بن معين. . . وذكر باقي شيوخه [تذكرة الحفاظ (٢/ ٧٠٣)] وقال في «سير النبلاء» (١٤/ ١٥٧): «الإمام الحافظ الثبت».

وبقية رجاله أئمة ثقات غير محمد بن خالد بن عبد الله الطحان فإنه ضعيف، لكنه كما تراه مقرون بثلاثة من الجبال وهم المقدمي وابن بشار وأبو موسى محمد ابن المثنى.

وأخرجه أيضًا ابن حبان في «صحيحه» كما في الإحسان (١٦/ ٢٣٨) رقم (٧٢٥٢) تحت ترجمة «ذكر الأخبار، عن القصد بالتخصيص في الفضيلة لأقوام بأعيانهم».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أخبرنا محمد بن إسحاق بن خزيمة قال: حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا عبد الوهاب الثقفي قال: حدثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. . .» الحديث. صحيح رجاله رجال الجماعة سوى ابن خزيمة وهو إمام حافظ وأي إمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثانية: رواية وهيب بن خالد بن عجلان الباهلي البصري:

أخرج حديثه النسائي في السنن الكبرى (٧/ ٣٤٥) رقم (٨١٨٥) تحت ترجمة «أبي بن كعب».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخبرنا أحمد بن سليمان قال: حدثنا عفان بن مسلم قال: حدثنا

وهيب قال: حدثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. . . » الحديث.

أقول: صحيح رجاله رجال الجماعة إلا أحمد بن سليمان الرهاوي، فإنه من رجال النسائي وهو ثقة حافظ كما في «التقريب» وفي «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٥٥٩) قال: «الحافظ الثقة أبو الحسين أحمد بن سليمان محدث الجزيرة. . . وكان من أوعية العلم».

ونقل عن النسائي أنه قال فيه ثقة مأمون صاحب حديث.

وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٢٨١) من طريق عفان بن مسلم قال: حدثنا وهيب حدثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. . . » الحديث.

وأخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (ص٢٨١) رقم (٢٠٩٦) قال: حدثنا وهيب، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس قال: قال رسول اللّٰه ﷺ. . . به.

وهذا الإسناد صحيح رجاله كلهم بصريون ثقات حفاظ من رجال الجماعة إلا أبو داود الطيالسي فإنه من رجال مسلم والأربعة.

وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٢٧٩) رقم (٨٠٨) تحت ترجمة «باب بيان مشكل ما روي عنه ﷺ في قوله: «أقرؤهم- يعني: أمته- لكتاب اللّٰه أُبيٌّ بن كعب، وأفرضهم زيد، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل».

قال: حدثنا ابن مرزوق: حدثنا عفان حدثنا وهيب بن خالد: حدثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس به.

أقول: هذا إسناد صحيح ورجاله رجال الستة كما سلف إلا شيخ الطحاوي وهو إبراهيم بن مرزوق بن دينار الأموي البصري نزيل مصر، قال الحافظ في «التقريب»: «ثقة عمي قبل موته فكان يخطئ ولا يرجع».

وقال الذهبي: صدوق.

وأورد البيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢١٠):

قال: أخبرنا أبو طاهر الفقيه: أنا أبو طاهر محمد بن الحسن المحمدآباذي: ثنا أبو قلابة ثنا عفان وسهل بن بكار قالا: ثنا وهيب، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أرأف أمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأفرضهم زيد، وأقرؤهم أُبيٌّ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وإن لكل أمة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**».

أقول: سهل بن بكار أبو بشر البصري ثقة ربما وهم. قاله الحافظ في «التقريب».

وقال أبو حاتم: «ثقة صدوق» [الجرح والتعديل (٤/ ١٩٤)]. وقال الذهبي في «السير» (١٠/ ٤٢٢): «الحافظ الثقة أبو بشر البصري أحد البقايا».

أبو قلابة هو عبد الملك بن محمد بن عبد الله الرقاشي البصري، قال ابن جرير ما رأيت أحفظ من أبي قلابة، وقال أبو داود أمين مأمون كتبت عنه.

وقال الدارقطني: «صدوق كثير الخطأ لكونه يحدث من حفظه» [تذكرة الحفاظ (٢/ ٥٨٠)].

وقال الذهبي في «الكاشف»: «الحافظ الضرير صدوق يخطئ». ونقل عبارة ابن جرير السابقة.

وقال الحافظ في «التقريب»: «صدوق يخطئ تغير حفظه لما سكن بغداد».

أبو طاهر المحمدآباذي قال أبو عبد الله الحاكم في «التاريخ»: «من أكابر المشايخ والثقات» [الأنساب للسمعاني (٥/ ٢١٧)].

أبو طاهر محمد بن محمد أبو طاهر الزيادي كان إمام أهل الحديث وفقيههم ومفتيهم بنيسابور بلا مدافعة [طبقات الشافعية لأبي بكر أحمد بن قاضي شهبة (١/ ١٩٥)].

الثالثة: رواية سفيان الثوري ولها عنه طرق:

أ- عن وكيع:

أخرج حديثه الإمام أحمد في المسند (٣/ ١٨٤).

قال: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر...**» الحديث.

أقول: هذا إسناد صحيح رجاله كلهم رجال الستة.

وأخرجه ابن ماجه في المقدمة في فضائل زيد بن ثابت (١/ ١٦٢) رقم (١٥٥) حدثنا علي بن محمد قال: حدثنا وكيع حدثنا سفيان، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس به.

إسناده صحيح رجاله رجال الستة غير شيخ ابن ماجه فإنه من رجال ابن ماجه وهو ثقة عابد.

وأخرجه أحمد في الفضائل (١/ ٤٤٦) رقم (٧١٦)، عن وكيع به، والخطيب في الوصل للوصل (٢/ ٦٧٨) قال: «أخبرنا الحسن بن علي التميمي أخبرنا أحمد ابن جعفر بن حمدان حدثني عبد الله بن أحمد: حدثنا أبي حدثنا وكيع، عن سفيان، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس قال رسول الله ﷺ: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر**. . . » الحديث.

وإسناده من أحمد إلى آخره رجال الستة وقد تقدم.

ب- عن عبيد الله الأشجعي:

أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ٢٨٠).

قال: حدثنا أبو أمية: حدثنا خلف بن الوليد العتكي حدثنا الأشجعي: حدثنا سفيان، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ.

قال الطحاوي: مثله أي مثل حديث عفان، عن وهيب، عن خالد الحذاء الذي ساقه قبله وقبلَ حديثِ قبيصة قال: غير أنه قال: «**وأفرضها زيد وأعلمها بالحلال والحرام معاذ**».

أقول: وهذا حديث إسناده حسن أو صحيح.

عبيد الله الأشجعي ثقة مأمون أثبت الناس كتابًا، عن الثوري من رجال البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

قال الذهبي في «الكاشف»: «الحافظ أبو عبد الرحمن. . . إمام ثبت كتب، عن الثوري ثلاثين ألفًا، قال ابن معين: ثقة مأمون».

وخلف بن الوليد: وثقه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم. [الجرح والتعديل (٣/ ٣٧١)].

وأبو أمية: هو محمد بن إبراهيم بن مسلم الخزاعي أبو أمية الطرسوسي قال الحافظ: «صدوق صاحب حديث يهم».

وقال الآجري عن أبي داود: ثقة.

وقال أبو بكر الخلال: رفيع القدر جدًّا كان إمامًا في الحديث، مقدمًا في زمانه.

وقال ابن حبان في «الثقات»: «دخل مصر فحدَّثهم من حفظه من غير كتاب بأشياء أخطأ فيها فلا يعجبني الاحتجاج بخبره إلا بما حدث من كتابه».

وقال الحاكم: «صدوق كثير الوهم».

وقال ابن يونس: «كان من أهل الرحلة في الحديث وكان حسن الحديث».

وقال مسلمة بن قاسم: «أنكرت عليه أحاديث ولج فيها وحدث فتكلم الناس فيه، وقال في موضع آخر روى عنه غير واحد وهو ثقة».

أقول: من هو الذي أنكر عليه حتى يُعرَف أمصيبٌ هو في إنكاره أو مخطئ؟ انظر تهذيب التهذيب (٩/ ١٥-١٦) والظاهر: أن الرجل ثقة أو قريب من ثقة.

فحديثه حسن يحتمل الصحة وأما الخطأ فمن يسلم منه لاسيما إذا حدث الرجل من حفظه ولاسيما إذا أكثر.

أقول: وبقية رجال الإسناد أئمة معروفون.

ج- قبيصة بن عقبة:

قال الإمام الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢/ ٢٨٠) رقم (٨٠٩): حدثنا أبو أمية حدثنا قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان، عن خالد الحذاء وعاصم، عن أبي قلابة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: فذكر مثله، غير أنه لم يذكر في حديثه «وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب».

قوله: فذكر مثله يعني مثل حديث وهيب، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس، عن النبي ﷺ «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. . . » الحديث.

وهذا إسناد جيد، أبو أمية تقدمت ترجمته وقبيصة بن عقبة تباينت فيه أقوال أئمة الجرح والتعديل، قال ابن معين: «قبيصة ثقة في كل شيء إلا في حديث سفيان؛ ليس بذاك». وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: «سئل أبو زرعة، عن قبيصة وأبي نعيم فقال: كان قبيصة أفضل الرجلين وأبو نعيم أتقن الرجلين».

وقال أيضًا: «سألت أبي، عن قبيصة وأبي حذيفة فقال: قبيصة أحلى عندي وهو صدوق ولم أر من المحدثين من يحفظ ويأتي بالحديث على لفظ واحد لا يغيره سوى قبيصة وأبي نعيم في حديث الثوري ويحيى الحماني في حديث شريك وعلي ابن الجعد في حديثه».

وقال إسحاق بن سيار النصيبي: «ما رأيت من الشيوخ أحفظ من قبيصة بن عقبة».

وقال صالح بن محمد الحافظ: «كان رجلًا صالحًا إلا أنهم تكلموا في سماعه من سفيان».

وقال الفضل بن سهل الأعرج: «كان قبيصة يحدث بحديث الثوري على الولاء درسًا درسًا حفظًا». وقال النسائي: «ليس به بأس».

وقال أبو زرعة الدمشقي، عن أحمد بن أبي الحواري: «قلت للفريابي: رأيتَ قبيصة عند سفيان؟ قال: نعم رأيته صغيرًا فذكرته لابن نمير فقال: لو حدثنا قبيصة، عن النخعي لقبلنا منه».

وقال هارون بن عبد الله الحمال: «سمعت قبيصة يقول: جالست الثوري وأنا ابن ست عشرة سنة ثلاث سنين».

أقول: وفي هذا رد على من يستصغره في سفيان. انظر تهذيب الكمال (٢٣/ ٤٨١-٤٨٨).

قال الحافظ في «التقريب»: «صدوق ربما خالف».... ع.

وقال الذهبي في «الكاشف»: «حافظ عابد».... ع.

والحاصل: أن طريقه هذا إن لم يكن صحيحًا فحسن لاسيما وقد شاركه في هذه الرواية الإمام وكيع وعبيد الله الأشجعي.

وزيادة عاصم في الإسناد لا يرد بها حديثه إنما يُؤثِّر خطؤه لو أسقط خالدًا الحذاء من الإسناد واستبدله بعاصم. أما وخالد في الإسناد كما رواه غيره من الحفاظ فلا ترد روايته ويقتصر في توهيمه على إضافة عاصم في الإسناد ولا يتجاوز ذلك وإن اللَّه ليحب العدل والإنصاف.

وقال ابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٥٧٤) رقم (١٢٨٢) في فضائل عثمان: «حدثنا يوسف بن موسى: حدثنا قبيصة، عن سفيان، عن خالد وعاصم، عن أبي قلابة، عن أنس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أصدق أمتي حياء عثمان**».

أقول: في إسناد هذا الحديث يوسف بن موسى وأظنه خطأ إما من ابن أبي عاصم أو من نساخ كتابه والذي يروي عن قبيصة بن عقبة إنما هو يوسف بن سعيد بن مسلم المصيصي، وقد ذكره المزي في الرواة، عن قبيصة وذكر المزي في ترجمة يوسف بن سعيد قبيصة بن عقبة في شيوخه.

قال الذهبي فيه: «قال النسائي: ثقة حافظ».

وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: «ثقة حافظ».

وقد تقدمت ترجمة قبيصة وبقية رجال الإسناد.

وقال الإمام الحجة يعقوب بن سفيان الفسوي تحت «فضل أبي بكر وعمر» (١/ ٤٨٩) حدثنا قبيصة قال: حدثنا سفيان، عن خالد وعاصم، عن أبي قلابة، عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. . .**» الحديث.

د- **محمد بن عبد اللَّه الأسدي:**

قال ابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٥٩): أخبرنا محمد بن عبد اللَّه الأسدي: أخبرنا سفيان، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أعلمهم بالفرائض زيد**».

وساق ابن سعد هذا الإسناد في (٣/ ٥٨٦) إلا أن متن هذا الإسناد هنا، عن أنس ابن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل**».

قال الذهبي في ترجمة محمد بن عبدا للَّه الأسدي: «قال بندار: ما رأيت أحفظ منه، وقال آخر: كان يصوم الدهر» [الكاشف].

وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: «ثقة ثبت إلا أنه قد يخطئ في حديث الثوري ع».

و- قطبة بن العلاء:

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح السنة (١٤/ ١٣١) رقم (٣٩٣٠): حدثنا محمد بن أحمد التميمي: أنا عبد الرحمن بن عثمان: أنا خيثمة بن سليمان: نا أحمد بن هاشم الأنطاكي: أنا قطبة ابن العلاء: أنا سفيان الثوري، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. . . » الحديث.

أقول: في إسناد هذا الحديث قطبة بن العلاء قال فيه أبو حاتم: «كتبنا عنه ما بلغنا إلا خير فسأله ابنه عنه فقال: شيخ يكتب حديثه ولا يحتج به».

قال ابن أبي حاتم: «سألت أبا زرعة عنه فقال: يحدث، عن سفيان بأحاديث منكرة» [الجرح والتعديل (٧/ ١٤١-١٤٢)].

وقال ابن عدي: قال البخاري قطبة بن العلاء بن المنهال الغنوي كوفي، عن أبيه وليس بالقوي، وذكر ابن عدي أن البخاري إنما أنكر عليه رواية حديث واحد، عن أبيه ثم قال: ولقطبة، عن الثوري وغيره أحاديث مقاربة وأرجو أنه لا بأس به [الكامل (٦/ ٥٣)].

وإذن فحديثه يصلح في المتابعات وموافقته لرواية وكيع والأشجعي دليل على أنه قد حفظ هذا الحديث، عن سفيان وضبطه، ويشهد له الروايات، عن وهيب وعبد الوهاب.

- الرابعة: من روايات الوصل، عن خالد الحذّاء، عن أبي قلابة، عن أنس:

رواية عمر بن حبيب القاضي البصري: وقد تقدّم الكلام عليه في أوّل هذا البحث وقد بيّنا أنّه ضعيف انظر (ص٧)، وهو على رأي بعض الأئمة يصلح في الشواهد والمتابعات.

وعلى رأي آخرين ولا سيما على قول ابن معين لا يصلح.

وفي روايات الأئمة السّابقين: سفيان ووهيب بن خالد ومن معهما ما يكفي لإثبات أن هذا الحديث متصل صحيح.

من العلماء الذين يُرجِّحُون الإرسال:

- أولًا: أصرحهم: الخطيب البغدادي رحمه الله:

فقد قال في نهاية عرض الأحاديث بطرقها الموصول منها والمرسل قال: «وإرسال هذا الحديث، عن معمر، عن قتادة أصح من إيصاله».

أقول: وهذا ترجيح منه للإرسال على الوصل.

ثم قال: «فأما حديث أبي قلابة فالصحيح منه المسند المتصل ذكر أبي عبيدة حسب وما سوى ذلك مرسل غير متصل والله أعلم».

وهذا حكم منه بالصحة لحديث أنس في فضيلة أبي عبيدة، وترجيح للإرسال على الوصل فيما يتعلق بفضائل من ذكرهم في هذا الحديث.

ثانيًا: الحافظ الدارقطني رحمه الله في كتابه (العلل):

حيث ذكر الاختلاف على خالد الحذاء وعاصم الأحول، والاختلاف على سفيان.

وذكر من خالف الثوري والاختلاف على شعبة في فضل أبي عبيدة هل روى هذا الحديث، عن ثابت، عن أنس أو، عن عاصم الأحول أو، عن قتادة، عن أنس أو، عن خالد الحذاء، عن أنس، ولم يرجح بالنسبة لأصل الحديث طرفًا على آخر.

ولم يذكر رواية وهيب بن خالد ولا رواية عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس، وهذا الترجيح خاص بالاختلاف على شعبة.

وفي نهاية كلامه في الاختلاف على شعبة قال: وأصحها شعبة، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس.

فالظاهر أن هذا الترجيح إنما خَصَّ به الاختلاف على شعبة، والله أعلم.

ثالثًا: الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله:

قال بعد عرضه لطرق الحديث وترجيحه للإرسال على الوصل وسوقه لكلام الدارقطني والخطيب -وقد تقدم ذلك.-

قال: «والأقرب في هذه الأحاديث كلها حديث أنس، والأظهر أنه مرسل، وباقي الأحاديث في أسانيدها مقال، وبعض ألفاظ الحديث صحيح ثابت متصل لا شك فيه كذكر أبي عبيدة، وبعضها ضعيف قطعًا، وبعضها مشكوك فيه ومحتمل وفيه ارتياب، والله الموفق للصواب».

وبيَّنا واقع من نُسب إليهم ترجيح الإرسال وبيَّنا عدم الصراحة في كلامهم في هذا الأمر.

* * *

بيان بالعلماء الذين صحَّحُوا هذا الحديث

أقول: ممن صحَّح روايات سفيان الثوري ومن معه:

أولًا: الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ:

حيث قال في حديث عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي: «هذا حديث حسن صحيح».

ثانيًا: الإمام النسائي رَحِمَهُ اللَّهُ:

حيث يظهر من تصرفه أنه يصحح ما أورد من هذه الطرق.

حيث أورد رواية وهيب تحت عنوان «أبي بن كعب».

وساق عددًا من الروايات تحت هذا العنوان ومنها: رواية وهيب، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس، وأورد رواية عبد الوهاب الثقفي، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس تحت عنوان «زيد بن ثابت» كلاهما في الموضعين أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. . .**» الحديث.

ثالثًا: الإمام ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ:

حيث أورد هذا الحديث من طريق عبد الوهاب الثقفي تحت عنوان «ذكر البيان بأن معاذ بن جبل كان من أعلم الصحابة بالحلال والحرام».

ثم أورده مرة أخرى من طريق عبد الوهاب تحت عنوان «ذكر البيان بأن زيد بن ثابت كان من أفرض الصحابة» وأورده مرة ثالثة من هذه الطريق تحت عنوان «ذكر الأخبار، عن القصد بالتخصيص في الفضيلة لأقوام بأعيانهم» وساق الحديث.

فيظهر من هذه العناوين أن ابن حبان يصحح هذا الحديث في هذه المواضع بالإضافة إلى التزامه بالصحة في كتابه.

رابعًا: الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

في شرح مشكل الآثار (٢/ ٢٧٩-٢٨٠): أورد رواية وهيب بن خالد وسفيان الثوري من طريقين تحت عنوان «باب بيان مشكل ما روي عنه ﷺ: «**أقرؤهم - يعني: أمته- لكتاب اللَّه أبي بن كعب، وأفرضهم زيد، وأعلمهم بالحلال والحرام**

معاذ بن جبل». ثم ساق الحديث من الطريقين المشار إليهما.

ثم قال: «فسأل سائل، عن المراد بما ذُكر به كل واحد من أُبي وزيد ومعاذ في هذا الحديث وهل يوجب ذلك له أن يكون في معناه الذي ذُكر به فوق الخلفاء الراشدين المهديين ومن سواهم من أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين؟

فكان جوابنا له في ذلك: أن من جلَّت رتبته في معنى من المعاني جاز أن يقال: إنه أفضل الناس في ذلك المعنى، وإن كان فيهم من هو مثله، أو من هو فوقه.

ومن ذلك ما قد روي، عن رسول الله ﷺ مما قاله لعلي: إنه يقتله أشقاها يريد البرية».

خامسًا: الإمام ضياء الدين المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ:

في كتابه المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في «صحيحهما»، حيث أورد هذا الحديث في كتابه (٦/ ٢٢٦-٢٢٨) من طريق وهيب، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس.

ثم قال: وتابعه عاصم، عن أبي قلابة.

ثم أورده من طريق قبيصة بن عقبة ثنا سفيان، عن خالد وعاصم، عن أبي قلابة، عن أنس.

ثم أورده من طريق وكيع، عن سفيان، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس.

ثم قال: رواه الإمام أحمد في «مسنده»، عن عفان، عن وهيب، عن خالد وعن وكيع، عن سفيان، عن خالد.

وقال: ورواه النسائي من طريق وهيب، عن خالد ومن طريق عبد الوهاب، عن خالد.

وثم قال: رواه النسائي، عن احمد بن سليمان، عن عفان، عن وهيب، عن خالد.

وعن محمد بن يحيى بن أيوب، عن عبد الوهاب الثقفي، عن خالد.

ثم قال: ورواه ابن ماجه، عن محمد بن المثنى، عن عبد الوهاب، عن خالد.

وعن علي بن محمد، عن وكيع، عن سفيان.

ثم قال: وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» وذكر طرق ابن حبان التي خرج بها هذا الحديث.

ثم قال: وروي في الصحيح منه فضل أبي عبيدة حسب.

سادسًا: الحاكم أبو عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ:

حيث قال في المعرفة (ص١١٤) في الحديث، عن العلل وأنواعها: «والجنس الثاني من علل الحديث: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب: حدثنا العباس بن محمد الدوري قال: ثنا قبيصة ابن عقبة، عن سفيان، عن خالد الحذاء أو عاصم، عن أبي قلابة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أرحم أمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وإنَّ لكل أمة أمينًا، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة**».

قال أبو عبد الله: «وهذا من نوعٍ آخر علَّتُه. فلو صحَّ بإسناده لأخرج في الصحيح إنما روى خالد الحذاء، عن أبي قلابة أن رسول الله ﷺ قال: «أرحم أمتي» مرسلًا، وأسند ووصل: «**إن لكل أمة أمينًا وأبو عبيدة أمين هذه الأمة**». هكذا رواه البصريون الحفاظ، عن خالد الحذاء وعاصم جميعًا وأسقط المرسل من الحديث وخرج المتصل بذكر أبي عبيدة في «الصحيحين»». اهـ

أقول: يريد الحاكم والله أعلم بقوله: «هكذا رواه البصريون الحفاظ، عن خالد الحذاء» إلخ. يريد بهذا الكلام ترجيح الإرسال على الوصل وليس الواقع كما ذكر؛ إذْ إنَّ من أبرز رواة الوصل، عن خالد الحذَّاء البصري وُهيب بن خالد وعبد الوهاب الثقفي وكلاهما بصري وقد سبقت دراسة روايتيهما والطرق إليهما. فتأمَّل.

وقال في «المستدرك» (٣/ ٤٢٢): حدثنا علي بن حَمشاذ حدثنا أبو المثنى ومحمد بن أيوب قالا: حدثنا مسدد: حدثنا عبد الوهاب الثقفي: حدثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي

بأمتي أبو بكر. . . » الحديث.

وقال عقبه: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة إنما اتَّفقا بإسناده هذا على ذكر أبي عبيدة فقط وقد ذكرت علته في كتاب التلخيص.

أبو المثنى: هو معاذ بن المثنى:

قال الحافظ الذهبي: ثقة متقن سير إعلام النبلاء (١٣/ ٥٢٧).

وذكره الخطيب في تاريخ بغداد (١٣/ ١٣٦) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

وذكره في طبقات الحنابلة (١/ ٣٣٩) وقال: «من جملة الأصحاب سكن بغداد وحدث بها، عن محمد بن كثير العبدى ومسدد والقعنبي وغيرهم ونقل، عن أحمد أشياء».

وقال ابن الجوزي: «وكان ثقة» [المنتظم (١٠/ ١٩٥)].

ومحمد بن أيوب: أظن أنه أبو هريرة الكلابي قال فيه الحافظان الذهبي وابن حجر: «صدوق» [انظر «الكاشف»، و«التقريب»].

علي بن حَمشاذ:

قال الذهبي: «العدل الثقة الحافظ الإمام شيخ نيسابور أبو الحسن صاحب التصانيف قال أبو أحمد الحافظ: «ما رأيت في مشايخنا أثبت في الرواية والتصنيف من علي بن حَمشاذ». [السير (١٥/ ٣٩٨- ٣٩٩)].

وقال الحافظ ابن عبد الهادي: «الحافظ الكبير أبو الحسن النيسابوري صاحب التصانيف» [كتاب «علماء الحديث» (٣/ ٤٥) رقم (٧٩٨)] فالحديث صحيح كما قال الحاكم.

وصرَّح بتصحيحه في «المستدرك» (٤/ ٣٣٥) حيث قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ و أبو يحيى أحمد بن محمد السمرقندي (قالا): ثنا أبو عبد الله محمد بن نصر الإمام: ثنا أبو بكر محمد بن خلاد الباهلى: ثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد: ثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أفرض أمتي زيد بن ثابت». هذا حديث صحيح على شرط

الشيخين ولم يخرجاه».

فقد رجح أولًا في معرفة علوم الحديث الإرسال على الوصل، وأشار ثانيًا إلى هذه العلة في «المستدرك» في الموضع المذكور من الجزء الثالث، وصرح ثالثًا بتصحيحه في (٤/ ٣٣٥) حيث أورد من الحديث قوله: «أفرض أمتي زيد بن ثابت».

ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، فالظاهر من تصرفاته هذه أن أمره استقر على تصحيح هذا الحديث.

سابعًا: الحافظ البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ:

في سننه حيث أورد هذا الحديث من طرق في (٦/ ٢١٠) تحت عنوان «باب ترجيح قول زيد بن ثابت على قول غيره من الصحابة- رضي الله عنهم أجمعين- في علم الفرائض».

ثم أورده من طريق سفيان، ثم من طريق وهيب، ثم من طريق عبد الوهاب الثقفي مرفوعًا، عن الجميع.

ثم قال: «ورواه بشر بن المفضل وإسماعيل بن علية ومحمد بن أبي عدي، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن النبي ﷺ مرسلًا إلا قوله في أبي عبيدة فإنه وصلوه في آخره فجعلوه، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ».

ثم قال: وكل هؤلاء ثقات أثبات، والله أعلم.

فيظهر من ترجمته وموقفه أنه يصحح الأحاديث المرفوعة كما أنه يسلم بثبوت الإرسال.

ولهذا قال البيهقي، عن رواة الجانبين «وكل هؤلاء ثقات أثبات».

ومما يدل على تصحيح البيهقي لوصل هذا الحديث ما قرّره في كتاب «معرفة السنن والآثار» (٩/ ١٠٦) حيث قال: «قال أحمد[1]: وقد دلنا رسول الله ﷺ على اتباع زيد بن ثابت في الفرائض بقوله ﷺ: «أفرضهم زيد بن ثابت».

ثم ساق إسناده إلى أبي داود الطيالسي، قال: حدثنا وهيب، عن خالد، عن

---

(١) يعني نفسه.

أبي قلابة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي، أبو بكر. . . » الحديث.

ثم قال: وروينا، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه خطب الناس بالجابية فقال: «من أراد أن يسأل، عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت».

قال أحمد: فلما وجدنا في سنة رسول الله ﷺ أن أفرض أصحابه زيد بن ثابت وجدنا من جعل الله الحق على لسانه وقلبه أمر بالرجوع في الفرائض إلى زيد بن ثابت. . ».

فموقفه هنا واضح في تصحيحه لهذا الحديث.

ثامنًا: العلامة أبو بكر بن العربي المالكي رحمه الله: في «عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي» (١٣/ ٢٠١-٢٠٤): حيث قال في شرحه لهذا الحديث: «ذكر معاذ وأصحابه والحديث حسن صحيح.

ثم قال: «قال ابن العربي: ذكر في هذا الحديث ستّ خصال، الرحمة والشدة في أمر الله والحياء والفقه والفرائض منه والقراءة والأمانة. . . ».

ثم استمر في شرح الحديث بالتفصيل إلى أن قال: وما من أحد من المذكورين السبعة إلا وفيه الخصال السبعة، ولكن النبي ﷺ لما أراد أن يمدح هذه الخصال ويبين أحوال هؤلاء السادة فيها ذكر كل أحد بغالب ما فيه مع معنى آخر يقترن به. . . إلى آخر شرحه رحمه الله.

تاسعًا: العلامة ابن الموّاق وغيره- رحمهم الله-: قال ذلك الحافظ في التلخيص الحبير(٣/ ٧٩-٨٠).

عاشرًا: العلامة النووي رحمه الله: في «تهذيب الأسماء واللغات» حيث قال في (٢/ ٩٩- دار الكتب العلمية): «وعن أنس قال: قال: رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي لأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأشدهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه بأسانيد صحيحة حسنة وقال الترمذي: هو حديث حسن صحيح».

الحادي عشر: الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٧٤-٤٧٥): أخبرنا يحيى بن أبي منصور الفقيه في كتابه: أنبأنا عبد القادر الحافظ: أنبأنا نصر بن سيار: أنبأنا محمود الأزدي: أنبأنا عبد الجبار الجراحي: أنبأنا أبو العباس المحبوبي: حدثنا أبو عيسى الترمذي: حدثنا محمد بن بشار: حدثنا عبد الوهاب الثقفي: حدثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان وأقرؤهم لكتاب الله أُبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ألا وإن لكل أمة أمينًا ألا وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». هذا حديث حسن صحيح.

وبه في «سنن الترمذي» حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا حميد ابن عبد الرحمن، عن داود العطار، عن معمر، عن قتادة، عن أنس قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أُبي ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». هذا حديث غريب.

قلت (الحافظ الذهبي): «سفيان ليس بحجة».

أقول: يظهر من تصرف الحافظ الذهبي أنَّه يُوافق الإمام الترمذي في تصحيح حديث عبد الوهاب الثقفي.

ويُوافقه أيضًا في تضعيف حديث سفيان بن وكيع به، حيث قال: «سفيان ليس بحجة».

وقال في «تاريخ الإسلام» (٤/ ٥٥-٥٦):

«وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «أفرض أمتي زيد بن ثابت».

ويروى، عن معمر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد، وأفتاهم أبي، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة الجراح».

رواه الترمذي وقال: «غريب لا نعرفه من حديث قتادة إلا من هذا الوجه، وقد رواه أبو قلابة، عن أنس».

قلت: هو صحيح من حديث أبي قلابة؛ رواه جماعة، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «**أعلمهم بالفرائض زيد**».

أقول: وهذا النص فيه تصريح من الذهبي بأنه يرجح الوصل على الإرسال.

الثاني عشر: الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: في «البداية والنهاية» (٧/ ٢٢٨):

حديث آخر قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أرحم أمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأشدها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ ابن جبل، وأقرؤها لكتاب الله أبي وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**». وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث خالد الحذاء، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وفي «صحيح البخاري» و«مسلم» آخره «**ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**». وقد روى هشيم، عن كريز بن حكيم، عن نافع، عن ابن عمر مثل حديث أبي قلابة، عن أنس أو نحوه.

الثالث عشر: الحافظ ابن الملقن رَحِمَهُ اللَّهُ: في كتابه «خلاصة البدر المنير» حيث قال في (٢/ ١٢٨- ١٢٩): «حديث: «**أفرضكم زيد**» رواه الحاكم من رواية ابن عمر وأنس بلفظ: «**أفرض أمتي زيد بن ثابت**».

وقال في حديث أنس صحيح على شرط الشيخين والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم من رواية أنس أيضًا بلفظ: «**أعلم أمتي بالفرائض زيد بن ثابت**» قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين وخالف ابن حزم فقال في «محلاه»: «**لا يصح**» ثم غوش».

الرابع عشر: الحافظ أبو زرعة العراقي:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٧٢) عند شرحه لحديث بريدة في صلاة معاذ بأصحابه صلاة العشاء.. الحديث:

«(الثَّانِيَةُ) فِيهِ أَنَّ أَحَقَّ الْجَمَاعَةِ بِالْإِمَامَةِ أَفْقَهُهُمْ ؛ لِأَنَّ مُعَاذًا كَانَ أَفْقَهَ قَوْمِهِ فَكَانَ يَؤُمُّهُمْ بَلْ كَانَ أَعْلَمَ الْأُمَّةِ كَمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَرْحَمُ أُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ» الْحَدِيثَ.

وَفِيهِ «وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ».

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ». اهـ.

الخامس عشر: العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٢٢٤) وفي المشكاة (٦١١١) وفي «صحيح موارد الظمآن» (١٨٦٣) وغيرها.

* * *

خلاصة هذه الدراسة
وهي تتضمن كشفًا ببيان رواة هذا الحديث مرسلًا أو متصلًا وحال رواياتهم

الرواة الذين رووْا هذا الحديث، عن عاصم، عن أبي قلابة مرسلًا :

١- سفيان بن عيينة : روايته معضلة .

٢- حماد بن سلمة : لم نقف لروايته على إسناد .

٣- حماد بن زيد : في إسناد روايته أحمد بن جعفر بن حمدان صدوق تغير قليلًا .

لكن ذكرها ابن عبد البر موصولة مرفوعة حيث قال في الاستيعاب (١/ ١٢٧) : «وروى حماد بن زيد، عن عاصم، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «أرحم الناس بالناس» . أو قال : «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر الصديق . . . » الحديث .

إلَّا أنَّ الملاحظ على هذه الرواية أنَّ ابن عبد البِّر لم يذكر إسنادها إلى حماد بن زيد .

أقول : ومع جلالة حماد بن زيد وثقته وإتقانه قال فيه يعقوب بن شيبة : ثقة غير أنه معروف بأنه يقصر في الأسانيد ويوقف المرفوع كثير الشك بتوقيه وكان جليلًا لم يكن له كتاب يرجع إليه فكان أحيانًا يذكر فيرفع الحديث وأحيانًا يهاب الحديث ولا يرفعه وكان يعد من المتثبتين في أيوب خاصة . [تقريب التهذيب (٣/ ١١)] .

فلعل حمادًا حصل له شك في اتصال إسناد هذا الحديث فأرسله تورعًا منه رَحِمَهُ اللَّهُ .

٤- معمر : صحّ عنه الإرسال، إلا أنه قد قرن أبا قلابة بقتادة، ويمثل هذا أخذ الدارقطني والخطيب على قبيصة حيث قرن بين خالد الحذاء وعاصم .

٥- أبو قحذم : ضعيف .

الرواة الذين أرسلوا هذا الحديث، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة :

١- إسماعيل بن علية : صح عنه الإرسال .

٢- بشر بن المفضل: لم أجد إسنادًا لروايته.

٣- محمد بن أبي عدي: كذلك لم أجد إسنادًا لروايته.

الرواة الذين رووا هذا الحديث عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس متصلًا مرفوعًا:

١- عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي: وقد رواه عنه جماعة من الثقات منهم محمد بن أبي بكر المقدمي وعلي بن المديني ومحمد بن بشار بندار وأبو موسى محمد بن المثنى العنزي وغيرهم.

٢- سفيان الثوري: رواه عنه جماعة منهم وكيع وعبيد الله الأشجعي وقبيصة بن عقبة.

قال عباس الدوري: رأيت يحيى بن معين لا يقدم على سفيان في زمانه أحدًا في الفقه والحديث والزهد وكل شيء.

وقال أبو عُبيد الآجري: سمعت أبا داود يقول: ليس يختلف سُفيان وشعبة في شيء إلا يظفر به سُفيان، خالفه في أكثر من خمسين حديثًا القولُ قولُ سفيانَ.

قال أبو داود: وبلغني عن يحيى بن معين قال: ما خالف أحد سُفيان في شيء إلَّا كان القول قولُ سفيان تهذيب الكمال (١١/ ١٦٦).

٣- وهيب بن خالد الباهلي: رواه عنه عفان بن مسلم وأبو داود الطيالسي وسهل بن بكّار، قال الذهبي في «الكاشف» في ترجمة وهيب: قال ابن مهدي: كان من أبصرهم بالحديث والرجال وقال أبو حاتم: ثقة، يقال لم يكن بعد شعبة أعلم بالرجال منه مات (١٦٥ع).

وهاتان الميزتان لسفيان ووُهيب مما يُرَجح بِهما عند الاختلاف بين الرواة.

أ- ومن يعرف أحوال الرجال وضبطهم وإتقانهم ومنهم هؤلاء الحفاظ يصعب عليه أن يحكم عليهم مجتمعين بأنهم قد وهموا في هذا الحديث على شيخهم خالد الحذاء أو على شيخه أبي قلابة فاجتمعوا وهمًا منهم على رواية هذا الحديث، عن خالد أو شيخه فرووه عنهما متصلًا مرفوعًا بينما هما لا يرويانه إلا مرسلًا!! هذا أمر مستبعد جدًا.

لا سيما إذا اطلع القارئ على حال روايات المرسلين التي أعل بها الوصل وقد بينا ذلك.

بل لا ينشرح صدر المطلع على حال الطرفين كما بين في هذا البحث إلا لقبول هذا الحديث والتسليم بصحته.

ولقد ظهر للقارئ أن بعض من نسب إليه أنه يرجح الإرسال على الوصل كالدارقطني الذي لم يذكر في نقاشه لطرق هذا الحديث شخصين هامين من البصريين مواطني خالد الحذاء ألا وهما وهيب بن خالد وعبد الوهاب الثقفي، وذلك مما يضعف حكمَه إن كان قد حكم بترجيح الإرسال على الوصل.

ومن الإنصاف للدارقطني - كما يظهر من كلامه - أنه لم يرجح الإرسال على الوصل في دراسته لطرق هذا الحديث «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. . . » الحديث.

وإنما رجح فقط بين الرواة، عن شعبة فيما يتعلق بفضيلة أبي عبيدة فقط، فهذا الذي ينبغي أن ينسب إلى الدارقطني وأما ما عداه فلا.

وأبرز من رجح الإرسال على الوصل الخطيب البغدادي وابن عبد الهادي -رحمهما الله- مع اطلاعهما على رواية وهيب وعبد الوهاب، فإن ترجيحهما إنما نشأ -والله أعلم- عن عدم الدراسة الفاحصة لأسانيد المرسلين والكمال لله، ولو درساها حق الدراسة لاختلفت نتيجة دراستهما ولرجحا الوصل على الإرسال فيما أعتقد.

ب- وباقي من نسب إليهم ترجيح الإرسال؛ بعض منهم صح عنهم العكس وهو ترجيح الوصل كالبيهقي والحاكم، وبعضهم لم يظهروا لنا دراسة أسانيد الطرفين وأحكامهم في ضوء هذه الدراسة، وإنما كلامهم عبارة، عن نقل فيه نظر كالحافظ ابن حجر رحمه الله وقد بينا واقعه.

وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ كما هو منهج السلف - رحمهم الله-.

ج- يمكن أن يقال إن الإرسال الثابت الوارد، عن طريق معمر وإسماعيل بن علية ليس ناشئًا، عن وهم منهما وإنما نشأ فيما أظن من تصرف أبي قلابة الجرمي رحمه الله فهو معروف بالإرسال عمَّن لم يلقه من الصحابة وهم كثير، فلا يبعد أن يكون

قد أرسل هذا الحديث، عن أنس ﷺ وإن كان ممن لقيه وسمع منه.

فيغلب على الظن أنه كان يرسله أحيانًا فيسمعه منه بعض أصحابه فيروونه كما سمعوا منه ويصله أحيانًا فيسمعه منه بعض أصحابه فيروونه عنه موصولًا كما سمعوه منه، وأعتقد أن في هذا المسلك ابتعادًا، عن تخطئته الأئمة الحفاظ من الطرفين.

ومما يقرِّب فهم القارئ لما قلته ما يأتي:

ضرب الإمام مسلم أمثلة لعدد من الثقات الذين يُرسلون أحيانًا عمَّن سمعوا منه خلال نقاشه لمن يشترطون ثبوت سماع الراوي من شيخه ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا كانت الْعِلَّةُ عِنْدَ من وَصَفْنَا قَوْلَهُ من قَبْلُ في فَسَادِ الحديث وَتَوْهِينِهِ، إذا لم يُعْلَمْ أَنَّ الرَّاوِيَ قد سمع مِمَّنْ رَوَى عنه شيئًا، إِمْكَانَ الْإِرْسَالِ فيه لَزِمَهُ تَرْكُ الِاحْتِجَاجِ في قِيَادِ قَوْلِهِ بِرِوَايَةِ من يُعْلَمُ أَنَّهُ قد سمع مِمَّنْ رَوَى عنه إلا في نَفْسِ الْخَبَرِ الذي فيه ذِكْرُ السَّمَاعِ لِمَا بَيَّنَّا من قَبْلُ، عن الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ نَقَلُوا الْأَخْبَارَ أَنَّهُمْ كانت لهم تَارَاتٌ يُرْسِلُونَ فيها الحديث إِرْسَالًا ولا يَذْكُرُونَ من سَمِعُوهُ منه، وَتَارَاتٌ يَنْشَطُونَ فيها فَيُسْنِدُونَ الْخَبَرَ على هَيْئَةِ ما سَمِعُوا فَيُخْبِرُونَ بِالنُّزُولِ فيه إن نَزَلُوا وَبِالصُّعُودِ إن صَعِدُوا كما شَرَحْنَا ذلك عَنْهُمْ» اهـ[1].

وحاصل ما ظهر لي وترجح عندي من دراسة طرق هذا الحديث كما سلف: أن الحديث صحيح متصل من طريق سفيان الثوري ووهيب بن خالد وعبد الوهاب الثقفي، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ وشجعني على هذا التصحيح والترجيح مواقف الأئمة الذين صحَّحوه والذين سلف ذكرهم- رحم الله الجميع-.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكان الفراغ من هذا البحث في

٢٤ من شهر محرم عام ١٤٢٨ هـ

كتبه: ربيع بن هادي عمير المدخلي

---

(١) انظر مقدمة «صحيح مسلم» (ص٣٢).

هل يجوز أن يُرمَى بالإرجاء

من يقول:

«إنَّ الإيمانَ أصلٌ والعملَ كمالٌ (فرعٌ)»؟

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

هل يجوز أن يرمى بالإرجاءهل يجوز أن يُرمَى بالإرجاء من يقول: «إنَّ الإيمانَ أصلٌ والعملَ كمالٌ (فرعٌ)»؟[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد للَّه والصلاة والسلام على رسول اللَّه وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فإن اللَّه قال في محكم كتابه عن أهل الضلال:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٩-١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣-٤].

وقال تعالى في شأن أحزاب الكفر والضلال: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

هذه في أعداء الرسل الذين كذبوهم وحاربوهم بأشد أنواع الحرب والأذى والكذب عليهم والافتراء.

ولأهل البدع والأهواء والضلال نصيب من العداوة للحق وأهله وحربهم بالأكاذيب والشائعات وجدالهم بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن جدالهم بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير.

ولهم نصيب من الوعيد الذي توعد اللَّه به أعداء الحق وأعداء الرسل ولهم نصيب من الذم الذي ذم اللَّه به أهل الباطل والهوى.

ومن أهل الأهواء والضلال المحاربين للحق وأهله فرقة الحدادية التي أنشئت

---

(١) الجواب: لا. لماذا؟ لأنه يقتضي تضليل أئمة الإسلام.

في الظلام لحرب أهل السنة السابقين واللاحقين ولحرب عقائدهم وأصولهم وهدمها.

وحربهم هذه لا تقوم على شيء من الحق ولا من العلم والهدى، وإنما تقوم على الكذب والجهل والخيانات، الأمور التي لا غبار عليها ولا مخرج لهم منها، ولا عذر لهم فيها؛ فإنها أمور واضحة مكشوفة لكل ذي عقل وبصر وبصيرة، ونحن لا نكفرهم -وإن كفرونا بغيًا وعدوانًا-!! ولكنهم عندنا من شر أهل البدع وأجهلهم.

ولقد اخترعوا أصولًا لا علاقة لها بالكتاب والسنة لا من قريب ولا من بعيد، منها:

١- جنس العمل: وهو لفظ لا وجود له في الكتاب والسنة ولا خاصم به السلف ولا أدخلوه في قضايا الإيمان، اتخذوه بديلًا لما قرره السلف من أن العمل من الإيمان وأن الإيمان قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

وإذا أخذوا بهذا الكلام على مضض فلا يكفي عندهم أن يقول السلفي:

الإيمان قول وعمل واعتقاد ويزيد وينقص حتى لا يبقى منه إلا مثقال ذرة وأدنى أدنى من مثقال ذرة كما نطقت به الأحاديث النبوية الصحيحة.

بل أوجبوا على الناس أن يقولوا: «حتى لا يبقى منه شيء» والذي لا يقول بهذه الزيادة فهو عندهم مرجئ غال وحتى ولو قالها بعض أهل السنة فهم عندهم مرجئة رغم أنوفهم!!

فعلى عقيدتهم هذه يكون حوالي تسعة وتسعون بالمائة من أهل السنة وأئمتهم مرجئة!

وإذا بين لهم خطورة تأصيلهم وفساده ازدادوا عنادًا وحربًا على أهل السنة.

٢- الذي لا يبدع من لا يكفر تارك جنس العمل فهو عندهم مرجئ غال رمزًا إلى تكفيره.

وحتى وإن كفر تارك جنس العمل فهو مرجئ عندهم لماذا؟

لأنهم قد فصلوا ثوب الإرجاء ليقمصوا به أهل السنة شاءوا أم أبَوْا ! !

٣- أئمة الجرح والتعديل والحديث عندهم ليسوا أهلًا للحكم على أهل البدع وقواعدهم لا تنطبق على أهل البدع ؛ لأن هذه المرتبة إنما هي للعلماء ؛ أي : علماء الحدادية الجهلة المجهولين ، فإن هؤلاء لهم الحق أن يبدعوا وأن يكفروا بالجهل والظلم .

٤- بعض أصولهم ضللت الأئمة وبعضها من صنع الشيطان .

٥- أحكام في التكفير تفوق أحكام الخوارج .

فمن لم يقلد فالحًا وأمثاله فقد نسف رسالات الرسل والكتب التي نزلت عليهم .

والذي يرضَى غيرَهُ من العلماء حَكَمًا فقد كذَّب القرآن والسنة وكذَّب الإسلام .

٦- إلى افتراءات واتهامات بالكفر لمن ينصحهم أو يخالفهم في تلك الأمور التي انفردت بها هذه الطائفة، وقد ناقشناهم فيها وبينا أكاذيبهم وأباطيلهم وجهالاتهم .

واليوم نحن مع أصل من أصولهم الهدامة ألا وهو أن من يقول : إن الإيمان أصل والعمل كمال (فرع) ؛ فهو مرجئ!

وبهذا الأصل الهدام يهدمون أهل السنة وعلماءهم!

وسوف أسوق مقالات لعدد من فحول أئمة السنة وعظمائهم يقولون فيها : إن الإيمان أصل والعمل كمال أو تمام أو فرع أو فروع .

وننتظر من هؤلاء الحدادية إما إعلان ندمهم وتوبتهم من هذه المجازفات أو التمادي في أحكامهم وأباطيلهم فيعرف الناس مكانهم من السنة وأهلها .

لا يجوز أن يُرمى بالإرجاء من يقول: «إنَّ الإيمان أصل وفرع» لأنَّ هذا يقتضي تضليل علماء الأمة

ومنهم الأئمة الآتي ذكرهم وأقوالهم:

وقبل أن أورد كلام الأئمة أسوق بعض الأدلة في هذا الشأن:

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في «مسنده» (٦/ ٤٧، ٩٩):

حدثنا إسماعيل: ثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول ﷺ: **«إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله»**.

إسناد هذا الحديث صحيح إن سلم من إرسال أبي قلابة وأخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان برقم (١٩) قال: حدثنا حفص عن خالد. . . به.

و له شاهد من حديث أبي هريرة قال أبو داود في سننه (٥ / ٦٠): حدثنا أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن سعيد، عن محمد بن عمر، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقًا»**.

وأخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٥٠ و٤٧٢) وابن أبي شيبة في الإيمان من طريقين برقم (١٨و٢٠) والترمذي (٢/ ٤٥٤ رقم ١١٦٢) وقال: حديث أبي هريرة هذا حديث حسن صحيح.

وله شاهد آخر من حديث أبي أمامة مرفوعًا ولفظه: **«من أحب للَّه وأبغض للَّه وأعطى للَّه ومنع للَّه فقد استكمل الإيمان»**. أخرجه أبو داود (٥/ ٦٠ رقم ٤٦٨١).

وشاهد آخر من حديث سهل بن معاذ عن أبيه، ويروى من طريقين ضعيفين يقوي أحدهما الآخر.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدي بن عدي:

«أن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان؛ فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص». [أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان (٤٥ رقم ١٣٥) بإسناد صحيح. وأورده البخاري في كتاب الإيمان معلقًا (١/ ١٩)].

أقول:

وهذه الأحاديث تدل على أن للإيمان أصلًا وكمالًا؛ إذ الكمال لا يقوم إلا على أصل.

كلام الأئمة:

١- قال الإمام محمد بن إسحاق بن منده في كتابه الإيمان (١/ ٣٣١-٣٣٢) بعد أن ذكر أقوال الطوائف في الإيمان:

«وقال أهل الجماعة: الإيمان هو الطاعات كلها بالقلب واللسان وسائر الجوارح غير **أن له أصلًا وفرعًا**.

فأصله المعرفة بالله والتصديق له وبه وبما جاء من عنده بالقلب واللسان مع الخضوع له والحب له والخوف منه والتعظيم له، مع ترك التكبر والاستنكاف والمعاندة؛ فإذا أتى بهذا الأصل فقد دخل في الإيمان ولزمه اسمه وأحكامه، ولا يكون مستكملًا له حتى يأتي بفرعه وفرعه المفترض عليه أو الفرائض واجتناب المحارم، وقد جاء الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإيمان بضع وسبعون أو ستون شعبة أفضلها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**».

فجعل الإيمان شعبًا بعضها باللسان والشفتين، وبعضها بالقلب، وبعضها بسائر الجوارح».

وقال أيضًا في كتاب الإيمان (١/ ٣٥٠): «قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

فضربها مثلًا لكلمة الإيمان وجعل لها أصلًا وفرعًا وثمرًا تؤتيه كل حين».

أقول: بيَّن الإمام ابن منده عقيدة أهل السنة والجماعة في الإيمان وأنه أصل وفرع، وبيَّن أن أصل الإيمان محله القلب وأنه يكون بأمور، منها:

المعرفة بالله والتصديق لله و به وبما جاء من عنده بالقلب واللسان مع الخضوع والحب والخوف والتعظيم... إلخ.

وذكر أنه لا يستكمله العبد إلا إذا أتى بفروعه المفروضة عليه مع اجتناب المحارم واستدل على ذلك بحديث شعب الإيمان.

وفي النص الثاني ساق الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية.

ثم قال: فضربها مثلًا لكلمة الإيمان وجعل لها أصلًا وفرعًا وثمرًا».

فما رأي أهل الشغب في أهل السنة والجماعة الذين حكى عقيدتهم ومذهبهم هذا الإمام وساق بعض أدلتهم أهم مرجئة؟! أم هم أهل السنة حقًّا؟

نريد الإجابة الصادقة الصريحة.

٢- **وقال الإمام محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُ اللهُ خلال مناقشته للمرجئة**: «فلما أقرت المرجئة بأن الإقرار باللسان هو إيمان يكمل به تصديق القلب، ولا يتم إلا به، ثم بيَّن اللَّه تعالى لنا، والرسول ﷺ: أنه أول الإسلام، ثبت أن جميع الإسلام من الإيمان، فإن يكن شيء من الإسلام ليس من الإيمان، فالإقرار الذي هو أول الإسلام ليس من الإيمان، فبإيجابهم أن أول الإسلام بجارحة اللسان هو من الإيمان باللَّه، يلزمهم أن يجعلوا كلما بقى من الإسلام من الإيمان بعدما سمى اللَّه ﷻ والرسول الإقرارَ باللسان إيمانًا، ثم شهدت المرجئةُ أن الإقرار الذي سماه النبي ﷺ إسلامًا هو إيمان، فما بال سائر الإسلام لا يكون من الإيمان، فهو في الأخبار من الإيمان، وفي اللغة، والمعقول كذلك، إذ هو خضوع بالإخلاص، إلا أن له أصلًا وفرعًا، فأصله الإقرار بالقلب عن المعرفة، وهو الخضوع للَّه بالعبودية، والخضوع له بالربوبية، وكذلك خضوع اللسان بالإقرار بالإلهية بالإخلاص له من القلب واللسان، أنه واحد لا شريك له ثم فروع هذين الخضوع له بأداء الفرائض كلها، ألم تسمع قول النبي ﷺ: **«الإسلام شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة»** وما عدا من الفرائض، فَلِمَ جَعَلَتِ المرجئةُ الشهادةَ إيمانًا، ولم تجعل جميع ما جعله النبي ﷺ من الإسلام إيمانًا؟! وكيف جعلتْ بعض ما سماه النبي ﷺ إسلامًا إيمانًا، ولم تجعل جميعه إيمانًا وتبدأ بأصله، وتتبعه بفروعه، وتجعله كله إيمانًا؟!» [تعظيم قدر الصلاة (٢/

٧٠١، ٧٠٢)].

أ- انظر إلى قوله عن الإيمان: «إلا أن له أصلًا وفرعًا، فأصله الإقرار بالقلب عن المعرفة، وهو الخضوع لله بالعبودية، والخضوع له بالربوبية ...» إلخ.

ب - وانظر إلى قوله: «ثم فروع هذين الخضوع له بأداء الفرائض كلها» أي: أعمال الجوارح.

جـ- وإلى قوله: «وكيف جعلت بعض ما سماه النبي ﷺ إسلامًا إيمانًا، ولم تجعل جميعه إيمانًا وتبدأ بأصله وتتبعه بفروعه، وتجعله كله إيمانًا؟!».

وقال أيضًا: «وقالت طائفة أخرى أيضًا من أصحاب الحديث بمثل مقالة هؤلاء[1] إلا أنهم سموه مسلمًا لخروجه من ملل الكفر، ولإقراره بالله، وبما قال، ولم يسموه مؤمنًا، وزعموا أنه مع تسميتهم إياه بالإسلام كافرٌ، لا كافر بالله، ولكن كافر من طريق العمل، وقالوا: كفر لا ينقل من الملة، وقالوا: محال أن يقول النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». والكفر ضد الإيمان، فلا يزول[2] عنه اسم الإيمان إلا واسم الكفر لازم له، لأن الكفر ضد الإيمان إلا أن الكفر كفران: كفر هو جحد بالله، وبما قال، فذلك ضد الإقرار بالله، والتصديق به، وبما قال، وكفر هو عمل ضد الإيمان الذي هو عمل، ألا ترى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه». قالوا: فإذا لم يؤمن فقد كفر، ولا يجوز غير ذلك إلا أنه كفر من جهة العمل (إذ لم يؤمن من جهة العمل) لأنه لا يضيع المفترض عليه، ويركب الكبائر إلا من خوفه[3]، وإن ما يقل خوفه من قلة تعظيمه لله، ووعيده، فقد ترك من الإيمان التعظيم الذي صدر عنه الخوف والورع عن الخوف، فأقسم النبي ﷺ أنه «لا يؤمن إذا لم يأمن جاره بوائقه».

ثم قد روى جماعة عن النبي ﷺ أنه قال: «قتال المسلم كفر». وأنه قال: «إذا

---

(١) الطائفة الأولى هي من أهل السنة والحديث الذين يقولون القول المشهور في مرتكب الكبيرة إنه مؤمن فاسق أو مؤمن ناقص الإيمان.

(٢) في الأصل فيزيل والتصحيح من كتاب «الإيمان» لابن تيمية (٣٠٧).

(٣) والظاهر أنه حصل هنا سقط ولعل أصل الكلام: إلا من قلة خوفه. والسياق يرشد إلى هذا.

قال المسلم لأخيه: (يا كافر) ولم يكن كذلك فقد باء بالكفر». فقد سماه النبي ﷺ بقتاله أخاه كافرًا، وبقوله له: يا كافر؛ كافرًا وهذه الكلمة دون الزنا، والسرقة، وشرب الخمر.

قالوا: وأما قول من احتج علينا، فزعم أنا إذا سميناه كافرًا، لزمنا أن نحكم عليه بحكم الكافرين بالله، فنستتيبه، ونبطل الحدود عنه، لأنه إذا كفر، فقد زالت عنه أحكام المؤمنين، وحدودهم، وفي ذلك إسقاط الحدود، وأحكام المؤمنين عن كل من أتى كبيرة، فإنا لم نذهب في ذلك إلى حيث ذهبوا.

ولكنا نقول: للإيمان أصل وفرع، وضد الإيمان الكفر في كل معنى، فأصل الإيمان: الإقرار والتصديق، وفرعه إكمال العمل بالقلب، والبدن، فضد الإقرار والتصديق الذي هو أصل الإيمان: الكفر بالله، وبما قال، وترك التصديق به، وله.

وضد الإيمان الذي هو عمل، وليس هو إقرار، كفر، ليس بكفر بالله (ينقل عن الملة) ولكن كفر يضيع العمل كما كان العمل إيمانًا، وليس هو الإيمان الذي هو إقرار بالله، فكما كان من ترك الإيمان الذي هو إقرار بالله كافرًا يستتاب، ومن ترك الإيمان الذي هو عمل مثل الزكاة، والحج، والصوم، أو ترك الورع عن شرب الخمر، والزنا، فقد زال عنه بعض الإيمان، ولا يجب أن يستتاب عندنا، ولا عند من خالفنا من أهل السنة، وأهل البدع . . .» [تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥١٧-٥١٩)].

والشاهد في قول هذه الطائفة من أهل السنة «ولكنا نقول: للإيمان أصل وفرع، وضد الإيمان الكفر في كل معنى، فأصل الإيمان: الإقرار والتصديق، وفرعه إكمال العمل بالقلب، والبدن».

٣- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

أ- «ثم هو في الكتاب بمعنيين[1]: أصل، وفرع واجب، فالأصل الذي في القلب وراء العمل؛ فلهذا يفرق بينهما بقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البينة: ٧] والذي يجمعهما كما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، و﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ

---

(١) يعني: الإيمان.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٤٤]. وحديث الحياء، ووفد عبد القيس، وهو مركب من أصل لا يتم بدونه، ومن واجب ينقص بفواته نقصًا يستحق صاحبه العقوبة، ومن مستحب يفوت بفواته علو الدرجة، فالناس فيه ظالم لنفسه ومقتصد وسابق، كالحج وكالبدن والمسجد وغيرها من الأعيان، والأعمال والصفات، فمن سواء أجزائه ما إذا ذهب نقص عن الأكمل ومنه ما نقص عن الكمال، وهو ترك الواجبات أو فعل المحرمات، ومنه ما نقص ركنه وهو ترك الاعتقاد والقول، الذي يزعم المرجئة والجهمية أنه مسمى فقط، وبهذا تزول شبهات الفرق، وأصله القلب وكماله العمل الظاهر، بخلاف الإسلام؛ فإن أصله الظاهر، وكماله القلب»[1]

أقول:

ففي هذا النص جعل شيخ الإسلام للإيمان معنيين أصلًا وفرعًا وأشار إلى كون العمل كمالًا للإيمان بقوله: «فمن سواء أجزائه ما إذا ذهب نقص عن الأكمل ومنه ما نقص عن الكمال وهو ترك الواجبات أو فعل المحرمات . . » إلخ وأكد هذا التقرير بقوله عن الإيمان: «وأصله القلب وكماله العمل الظاهر».

وقال عن الفرق بينه وبين الإسلام: «بخلاف الإسلام؛ فإن أصله الظاهر، وكماله القلب».

فماذا يقول المتطفلون على علوم الإسلام وعقائده في هذا الإمام الجهبذ وفي تقريره هذا عن الإيمان والعمل؟!!

ب- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والدين القائم بالقلب من الإيمان علمًا وحالًا هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع، وهي كمال الإيمان».

فالدين أول ما يبنى من أصوله ويكمل بفروعه، كما أنزل الله بمكة أصوله من التوحيد والأمثال التي هي المقاييس العقلية، والقصص، والوعد، والوعيد، ثم أنزل بالمدينة- لما صار له قوة- فروعه الظاهرة من الجمعة والجماعة، والأذان والإقامة، والجهاد، والصيام، وتحريم الخمر والزنا، والميسر وغير ذلك من

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٧).

واجباته ومحرماته.

فأصوله تمد فروعه وتثبتها، وفروعه تكمل أصوله وتحفظها، فإذا وقع فيه نقص ظاهر فإنما يقع ابتداء من جهة فروعه؛ ولهذا قال ﷺ: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة»[١].

صرح شيخ الإسلام هنا بأن الإيمان هو الأصل والأعمال الظاهرة هي الفروع وهي كمال الإيمان، وأن أصوله تمد فروعه وتثبتها، وأن فروعه تكمل أصوله.

ج- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما قولهم: إن الله فرق بين الإيمان والعمل في مواضع، فهذا صحيح. وقد بينا أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها.

وقد يقرن به الأعمال، وذكرنا نظائر لذلك كثيرة؛ وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب. والأعمال الظاهرة لازمة لذلك. لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب؛ فصار الإيمان متناولًا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب؛ وحيث عطفت عليه الأعمال، فإنه أريد أنه لا يكتفي بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة»[٢].

وهنا ذكر شيخ الإسلام أن أصل الإيمان هو ما في القلب وأن الأعمال الظاهرة لازمة له.

ولا يريد بهذا التلازم إلا التلازم بين الأصل وفروعه.

د- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك يذكر الإيمان أولًا لأنه الأصل الذي لابد منه.

ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضًا من تمام الدين لابد منه، فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح»[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥٥، ٣٥٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٩).

وهنا بين شيخ الإسلام أن الإيمان: «هو الأصل الذي لابد منه وأن العمل الصالح من تمام الدين لابد منه.

فأنت ترى أنه اعتبر العمل من تمام الدين يعني: الإيمان، وهذا أمر يبدَّع به أهل الفتن فهل من مدكر».

هـ- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم أكثر المتأخرين الذين نصروا قول جهم يقولون بالاستثناء في الإيمان، ويقولون: «الإيمان في الشرع» هو ما يوافي به العبد ربه، وإن كان في اللغة أعم من ذلك، فجعلوا في «مسألة الاستثناء» مسمى الإيمان ما ادعوا أنه مسماه في الشرع، وعدلوا عن اللغة، فهلّا فعلوا هذا في الأعمال. ودلالة الشرع على أن الأعمال الواجبة من تمام الإيمان لا تحصى كثرة، بخلاف دلالته على أنه لا يسمى إيمانًا؛ إلا ما مات الرجل عليه فإنه ليس في الشرع ما يدل على هذا، وهو قول محدث لم يقله أحد من السلف»[1].

انظر إلى شيخ الإسلام كيف صرح أن دلالة الشرع على أن الأعمال الواجبة من تمام الإيمان لا تحصى كثرة، أي: أنها من كمال الإيمان فقد جعل الأعمال الواجبة من تمام الإيمان.

وهذا أمر منكر وإرجاء خطير عند جهال أهل الفتن والشغب، فماذا يقول فيهم من يهون من شأنهم و من خطر فتنتهم، ويرى أنه يجب السكوت عنهم؟!

و- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا ذكر اسم الإيمان مجردًا، دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة، كقوله في حديث الشعب: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: قول: لا إله إلا الله. وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق**». وكذلك سائر الأحاديث التي يجعل فيها أعمال البر من الإيمان.

ثم إن نفي الإيمان عند عدمها، دل على أنها واجبة، وإن ذكر فضل إيمان صاحبها -ولم ينف إيمانه- دلَّ على أنها مستحبة؛ فإن الله ورسوله لا ينفي اسم مسمى أمر -أمر الله به ورسوله- إلَّا إذا ترك بعض واجباته، كقوله: «لا صلاة إلا بأم القرآن». وقوله:

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤٣).

«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له». ونحو ذلك.

فأما إذا كان الفعل مستحبًا في العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب، فإن هذا لو جاز، لجاز أن ينفي عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج؛ لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه. وليس أحد يفعل أفعال البر مثلما فعلها النبي ﷺ؛ بل ولا أبو بكر ولا عمر. فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه، لجاز أن ينفي عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين، وهذا لا يقوله عاقل.

فمن قال: إن المنفي هو الكمال.

فإن أراد أنه نفي الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة، فقد صدق. وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب، فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله، ولا يجوز أن يقع؛ فإن من فعل الواجب كما وجب عليه، ولم ينتقص من واجبه شيئًا، لم يجز أن يقال: ما فعله لا حقيقة ولا مجازًا. فإذا قال للأعرابي المسيء في صلاته: «ارجع فَصَلِّ، فإنك لم تُصَلِّ». وقال لمن صلى خلف الصف- وقد أمره بالإعادة-: «لا صلاة لفَذٍّ خلف الصف». كان لترك واجب، وكذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، يبين أن الجهاد واجب، وترك الارتياب واجب»[(١)].

ذكر شيخ الإسلام هنا حديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»، وذكر أن أعمال البر من الإيمان، وذكر ما يفيد أن للإيمان كمالًا واجبًا وكمالًا مستحبًا، وأنه إذا نفي الإيمان عن المسلم فإنما يراد بهذا النفي نفي الكمال الواجب لا الكمال المستحب.

مثل: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن»، فنفي الصلاة هنا عمن لم يقرأ بأم القرآن دليل على وجوب قراءة الفاتحة لا استحبابها وبعض العلماء يقول إن النفي هنا نفي للكمال الواجب لا نفي لحقيقة الصلاة.

ونفي الإيمان عمن لا أمانة له يدل على أن الأمانة من الواجبات وهي من كمال الإيمان، وليس المراد بنفي الإيمان عنه أنه كافر خارج من ملة الإسلام.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤، ١٥).

ونبه القارئ هنا على أن هذا الحديث ضعيف، وقد يكون عند شيخ الإسلام صالحًا للاحتجاج به، وعلى كل حال فإن قصد شيخ الإسلام من التمثيل به في مثل هذا السياق بيان أن مثل هذا النفي إنما يراد به نفي الكمال الواجب لا نفي حقيقة الإيمان ولا نفي الكمال المستحب.

ويلتحق بهذا مثل قول النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن» متفق عليه.

ومثل قوله ﷺ: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن». قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه». متفق عليه، واللفظ للبخاري.

فليس المراد هنا تكفير هؤلاء العصاة بالكبائر التي ارتكبوها ولا إخراجهم من الإسلام كما يعتقد الخوارج وليس المراد نفي كمال الإيمان المستحب عنهم وإنما المراد نفي الكمال الواجب.

فالذي لا يجيز أن يقال إن للإيمان كمالًا وتمامًا ماذا يقول في نفي الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر والمنتهب ومؤذي جاره؟.

إن قال: المراد نفي الكمال الواجب؛ تبين بطلان مذهبه في رمي من يقول بأن الإيمان أصل والعمل كمال.

وإن قال: إن المنفي عن العاصي -الزاني وغيره- إنما هو الإيمان المقابل للكفر الأكبر المخرج من الإسلام، فقد نادى على نفسه بأنه من الخوارج المكفرين بالذنوب.

ح- وقال -رحمه الله تعالى- في «المجموع» (١٣/ ١٥٧-١٥٩): «وقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

والأصول مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء؛ ولهذا يقال فيه: الأصل ما ابتنى عليه غيره، أو ما تفرع عنه غيره.

فالأصول الثابتة هي أصول الأنبياء، كما قيل:

أيها المغتدي لتطلب علمًا ... كل علم عبد لعلم الرسول

تطلب الفرع كي تصحح حكما ... ثم أغفلت أصل أصل الأصول

والله يهدينا وسائر إخواننا المؤمنين إلى صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

وهذه الأصول ينبني عليها ما في القلوب، ويتفرع عليها.

وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين، ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين. والكلمة هي قضية جازمة وعقيدة جامعة، ونبينا ﷺ أوتي فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والآخرية على أتم قضية؛ فالكلمة الطيبة في قلوب المؤمنين- وهي العقيدة الإيمانية التوحيدية- كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فأصل أصول الإيمان ثابت في قلب المؤمن كثبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها في السماء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] والله- سبحانه- مَثَّل الكلمة الطيبة، أي: كلمة التوحيد، بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء».

وهنا استدل شيخ الإسلام بهذه الآية التى ضرب الله فيها المثل للكلمة الطيبة كلمة التوحيد والإيمان بالشجرة الطيبة لها أصل ثابت وفرعها في السماء فكما أن لهذه الشجرة الطيبة أصل يقوم عليها فروع ولها ثمار طيبة؛ كذلك شجرة الإيمان لها أصل ثابت ولها فروع وثمار طيبة والأصل كما قال: ما انبنى عليه غيره أو ما تفرع عنه غيره.

هكذا يفهم العلماء الراسخون القرآن وأمثاله المضروبة وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قال عمر بن عبد العزيز: «من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح». فأما العمل الصالح بالباطن والظاهر: فلا يكون إلا عن علم، ولهذا أمر

الله ورسوله بعبادة الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له ونحو ذلك، فإن هذه الأسماء تنتظم العلم والعمل جميعًا: علم القلب وحاله، وإن دخل في ذلك قول اللسان وعمل الجوارح أيضًا، فإن وجود الفروع الصحيحة مستلزم لوجود الأصول، وهذا ظاهر، ليس الغرض هنا بسطه». [مجموع الفتاوى (٢/ ٣٨٢)].

وقال أيضًا: «والدين القائم بالقلب من الإيمان علمًا وحالًا هو «الأصل» والأعمال الظاهرة هي «الفروع» وهي كمال الإيمان». [مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥٥)].

٤- قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «إعلام الموقعين» (١/ ١٧١-١٧٤):

«ومنها -أي: الأمثال- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

فشبه ﷻ الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة؛ فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة، وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ قول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

وقال الربيع بن أنس: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هذا مثل الإيمان؛ فالإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه، وفرعه في السماء: خشية الله، والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن؛ فإنه- سبحانه- شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علوًا التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من **الأعمال الصالحة** صاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها.

فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها -التي هي حقيقتها- واتصف قلبه بها وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها؛ فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله وواطأ قلبُه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللًا، غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلًا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلًا؛ فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلمًا كثيرًا طيبًا يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

فأخبر -سبحانه- أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملًا صالحًا كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفًا بمعناها وحقيقتها نفيًا وإثباتًا متصفًا بموجبها قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة بالسماء وهي مخرجة لثمرتها كل وقت.

ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة: هي النخلة ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح.

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي: حدثني عمي: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ يعني بالشجرة الطيبة: المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض والفرع في السماء: يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض. وقال عطية العوفي في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: ذلك مثل المؤمن لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلى الله.

وقال الربيع بن أنس: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال: ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وحده لا شريك له ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ قال: أصل عمله ثابت في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال: ذكره في السماء، ولا اختلاف بين القولين، والمقصود بالمثل المؤمن، والنخلة مشبهة به وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك، ومن قال من السلف إنها شجرة في الجنة فالنخلة من أشرف أشجار الجنة.

حكمة تشبيه المؤمن بالشجرة

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به ويقتضيه علم الذي تكلم به وحكمته.

فمن ذلك أن الشجرة لابد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبَّه به، فعروقها: العلم والمعرفة واليقين، وساقها: الإخلاص، وفروعها: الأعمال، وثمرتها: ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدي والدلّ المرضي؛ فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور.

أقول:

١- انظر إلى قوله: «لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح والكلمة الطيبة عند الجمهور هي شهادة أن لا إله إلا الله تثمر الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، كل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة».

٢- وانظر إلى قوله: «والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن؛ فإنه -سبحانه- شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علوًا . . . إلى قوله: وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة . . .» إلخ.

٣- وإلى قوله: «وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به ويقتضيه علم الذي تكلم به وحكمته؛ فمن ذلك: أن الشجرة لابد لها من عروق وساقٍ وفروع ووَرق وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المشبَّه المشبَّه به؛ فعروقها: العلم والمعرفة واليقين، وساقها: الإخلاص، وفروعُها: الأعمال، وثمرتهُا: ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسَّمتِ الصالح والهدي والدل المرضي، فيستدل على غَرْسِ هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور».

فتراه هنا اعتبر الإخلاص والتوحيد شجرة في قلب المؤمن وفروعها الأعمال ... إلخ.

والشرك والكذب والرياء شجرة في قلب الكافر وذكر أن ثمارها في الدنيا الخوف وثمارها في الآخرة: الزقوم والعذاب الأليم، وأحال بالمثلين إلى القرآن سورة إبراهيم.

فهل هذا الإمام مرجئ عند أجهل الفرق؟!

بل أهل السنة كلهم مرجئة على أصلهم ومذهبهم، ومنهم جمهور المفسرين، لكن القرآن والسنة يبرآن أهل السنة وأئمتهم مما يقذفهم به الحدادية: خوارج ومرجئة العصر تبعًا للخوارج الأولين.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الفوائد» (ص١٧٩، ١٨٠- ط دار مكتبة الصفا):

«والإخلاص والتوحيد شجرة في القلب؛ فروعها: الأعمال، وثمرها: طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك.

والشرك والكذب والرياء؛ شجرة في القلب ثمرها في الدنيا: الخوف والهم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة: الزقوم والعذاب المقيم، وقد ذكر الله هاتين الشجرتين في سورة إبراهيم».

٥- وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٥١):

«وقد ضرب العلماء مثل الإيمان بمثل شجرة لها أصل وفروع وشعب فاسم

الشجرة يشمل ذلك كله، ولو زال شيء من شعبها وفروعها لم يزل عنها اسم الشجرة، وإنما يقال: هي شجرة ناقصة أو غيرها أتم منها.

وقد ضرب الله مثل الإيمان بذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

والمراد بالكلمة: كلمة التوحيد، وبأصلها التوحيد الثابت في القلوب، وأكلها: هو الأعمال الصالحة الناشئة منه.

وضرب النبي ﷺ مثل المؤمن والمسلم بالنخلة ولو زال شيء من فروع النخلة أو من ثمرها لم يزل بذلك عنها اسم النخلة بالكلية، وإن كانت ناقصة الفروع أو الثمر.

وقال أيضًا في «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١/ ٢٧-٢٨):

وقد ضرب اللَّه ورسولُه مثل الإيمان والإسلام بالنخلة، قال اللَّه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم ٢٤-٢٥].

فالكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد وهي أساس الإسلامِ، وهي جاريةٌ على لسانِ المؤمنِ وثبوتُ أصلها هو ثبوتُ التصديق بها في قلب المؤمن، وارتفاعُ فرعها في السماء: هو علوُّ هذه الكلمةِ وبُسُوقها وأنها تخرق الحجب ولا تتناهى دونَ العرشِ، وإتيانُها أكلها كل حينٍ: هو ما يرفع بسببها للمؤمن في كل حينٍ من القولِ الطيبِ والعملِ الصالحِ؛ فهو ثمرتها.

وجعل النبي ﷺ مثل المؤمنِ أو المسلمِ كمثلِ النخلةِ.

وقال طاوس: مثل (الإسلام) كشجرة أصلها الشهادةُ، وساقُهَا كذا وكذا، وورقُهَا كذا وكذا، وثمرُهَا: الورعُ، ولا خير في شجرةٍ لا ثمرَ لها، ولا خير في إنسانٍ لا ورَعَ فيه.

ومعلوم أن ما دخل في مسمَّى الشجرةِ والنخلةِ من فروعها وأغصانها وورقِهاَ وثمرها إذا ذهب شيء منه لم يذهب عن الشجرةِ اسمُهَا؛ ولكن يقال: هي شجرةٌ

ناقصةٌ، وغيرها أكمل منها، فإن قطع أصلُها وسقطت لم تبق شجرةً؛ وإنما تصير حَطبًا، فكذلك الإيمان والإسلام إذا زالَ منه بعض ما يدخل في مسماه مع بقاء أركان بنيانه لا يزولُ به اسمُ الإسلامِ والإيمانِ بالكليةِ، وإن كان قد سُلِبَ الاسم عنه لنقصه بخلافِ ما انهدمت أركانُهُ وبنيانُهُ فإنه يزول مسماه بالكليةِ، واللَّهُ أعلمُ».

أقول: وهذا المثل القرآني من أقوى وأوضح الأمثلة والأدلة على أن للإيمان أصلًا وفروعًا وهذا المثل وتفسيره من أقوى ما يرد به على الخوارج الذين يكفرون المؤمن بارتكاب الكبيرة ويخرجونه من الإسلام، لأن عقيدتهم الفاسدة تقول: إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله.

وهو أيضًا رد على المرجئة الذين يعتقدون أن العمل ليس من الإيمان، ويعتقدون أيضًا أنه إذا ذهب بعضه ذهب كله، وينكرون أن يكون العمل من الإيمان.

٦- قال الإمام عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح المجيد» (ص٨، ٩):

«وأما كتابه[1] المذكور فموضوعه في بيان ما بعث به اللَّه رسله من توحيد العبادة وبيانه بالأدلة من الكتاب والسنة، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر أو ينافي كماله الواجب، من الشرك الأصغر ونحوه، وما يقرب من ذلك أو يوصل إليه».

أقول: إن توحيد العبادة هو مضمون شهادة أن لا إله إلا اللَّه أصل الإيمان، وأن الشرك الأكبر ينافي هذا التوحيد، والشرك الأصغر ينافي كماله، وإذن فللإيمان أصل وكمال عند هذا الإمام وهذا سير منه على طريق السلف.

ونقل عن الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: «فإن القرآن إما خبر عن اللَّه وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته وأمره ونهيه، فهو حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما

---

(١) يعني: كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ.

خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم» انتهى[1].

انظر كيف جعل للتوحيد بأنواعه حقوقًا ومكملات وهي الأوامر والنواهي والطاعات فما حكم ابن القيم والشيخ عبد الرحمن هل قالوا هنا بقول المرجئة.

فما أكثر سعي الحدادية لهدم أهل السنة وأصولهم العظيمة بجهالاتهم ووساوسهم.

قال الإمام محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب التوحيد في باب: من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما . . . إلخ، ساق في الباب بعض الأدلة، ثم قال: «ولابن أبي حاتم عن حذيفة: أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحمى فقطعه وتلا قوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في «فتح المجيد» (ص١٠٤-١٠٥): «قوله (وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾. استدل حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالآية على أن هذا شرك، ففيه صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله في الشرك الأكبر لشمول الآية ودخوله في مسمى الشرك، وتقدم معنى هذه الآية عن ابن عباس وغيره في كلام شيخ الإسلام وغيره، والله أعلم، وفي هذه الآثار عن الصحابة ما يبين كمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه أو ينافي كماله».

فهنا يثني الإمام عبد الرحمن على الصحابة بكمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه وينافي كماله، وهذا حق؛ فمن أعلم بالله وبدينه من الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم-؟!

٧- وقال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (ص ١١٤):

«فإن كمال الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمام ذلك

---

(١) فتح المجيد (ص١٥-١٦) وانظر «مدارج السالكين» (٣/ ٤٤٩).

بالجهاد في سبيل اللَّه، ومن نشأ في المعروف، فلم يعرف غيره، فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم».

وهنا يثبت الشيخ سليمان بن عبد اللَّه أن للإسلام كمالًا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمام ذلك بالجهاد في سبيل اللَّه.

٨- وقال الإمام عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في رده على افتراءات عثمان بن منصور على الإمام محمد بن عبد الوهاب: «فمحا اللَّه بدعوته -أي: الإمام محمدًا- شعار الشرك ومشاهده، وهدم بيوت الكفر والشرك ومعابده، وكبت الطواغيت والملحدين، وألزم من ظهر عليه من البوادي وسكان القرى بما جاء به محمد ﷺ من التوحيد والهدى، وكفَّر من أنكر البعث واستراب فيه من أهل الجهالة والجفاء، وأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وترك المنكرات والمسكرات، ونهى عن الابتداع في الدين، وأمر بمتابعة سيد المرسلين والسلف الماضين، **في الأصول والفروع** من مسائل الدين، حتى ظهر دين اللَّه واستعلن. واستبان بدعوته منهاج الشريعة والسنن وقام قائم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحُدّت الحدود الشرعية، وعزرت التعازير الدينية، وانتصب علم الجهاد، وقاتل لإعلاء كلمة اللَّه أهل الشرك والعناد، حتى سارت دعوته وثبت نصحه للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وجمع اللَّه به القلوب بعد شتاتها، وتألفت بعد عداوتها، وصاروا بنعمة اللَّه إخوانًا» [مصباح الظلام في الرد على من كذب الشيخ الإمام (ص١٧)].

وقال الإمام عبد اللطيف أيضًا خلال مناقشته لعثمان بن منصور وبيان جهله وضلاله: «ولذلك رد على أهل التوحيد والإيمان بما رد به على المتكلمين من أهل منطق اليونان فظن أن البحث في التوحيد وتحقيقه. والنهي عن الشرك وسد ذرائعه، وقطع وسائله وتبين حقيقته. والفرق بين أصغره وأكبره هو من جنس أبحاث المتكلمين المخالفين للسلف في خوضهم في مسألة الجوهر والعرض، وبقية المقولات العشر. ولذلك رد على المسلمين بما رد به ابن عقيل على المتكلمين. وذكر أن تحقيق التوحيد وذكر **أصوله وفروعه** وثمراته وبيان الشرك

وذكر أصوله وفروعه ووسائله وذرائعه من جنس بدعة المتكلمين وانفتح بها البثق.

فقف هنا واعتبر واعرف بعد هذا الضرب من الناس عن طريق العلم والهدى واعرف ما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾». [مصباح الظلام (ص٣٧٨)].

وعندهم الآن وأمام أعينهم تشاد في الجامعات كليات باسم كليات أصول الدين، وكليات الشريعة، أي: الفروع.

فعلى أي أساس قامت هذه التسميات، على أيدي علماء السنة والتوحيد؟! على مذهب الإرجاء عند الحدادية وعلى مذهب أهل السنة عند أهل السنة.

وأقولها صريحة: لو قال عالم إن في الأعمال أصولًا مثل الأركان الأربعة الصلاة والزكاة والصوم والحج لقلت وغيري: نعم، ولا حرج في ذلك.

ومع ذلك فهي مرتبطة بأعمال القلوب وقائمة على أساسها كما قرر ذلك علماء السنة، وقد ذكرنا أقوالهم وأدلتهم في هذا المقال، فلا تخالف ولا تصادم بين هذا القول وذاك.

٩- قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»: (ص ٤٢٥):

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا﴾ منتشر ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وهي كثيرة النفع دائمًا، ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ أي: ثمرتها ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ فكذلك شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علمًا واعتقادًا. وفرعها من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة، في السماء دائمًا، يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان، ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه، فإن في ضرب الأمثال تقريبًا للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذي أراده الله غاية البيان ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته وحسن تعليمه. فلله أتم الحمد

وأكمله وأعمه، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها في قلب المؤمن.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في «القول السديد» (المجموعة الكاملة ٣/ ١٣-١٤) في شرح باب: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب:

«وهذا الباب تكميل للباب الذي قبله وتابع له، فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع والمعاصي التي تكدر التوحيد وتمنع كماله، وتعوقه عن حصول آثاره».

فهنا صرح الشيخ السعدي بأن للتوحيد أصلًا ينافيه الشرك الأكبر، وله كمال ينافيه الشرك الأصغر وأن البدع والمعاصي تمنع من كمال الإيمان.

فماذا يريد من ينكر أن للإيمان أصلًا وكمالًا (فرعًا)؟! وبأي حق يضلل من يثبت ما أثبته الله ورسوله وقال به علماء السنة وأئمتها؟!

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» (٨٧/ ٨٨):

«أما بعد: فهذا كتاب يحتوي على مباحث الإيمان التي هي أهم مباحث الدين، وأعظم أصول الحق واليقين؛ مستمدًا ذلك من كتاب الله الكريم- الكفيل بتحقيق هذه الأصول تحقيقًا لا مزيد عليه- ومن سنة نبيه محمد ﷺ: التي توافق الكتاب وتفسره وتعبر عن كثير من مجملاته، وتفصل كثيرًا من مطلقاته. مُبتدِئًا بتفسيره، مُثْنِيًا بذكر أصوله ومقوماته، ومن أي شيء يستمد؟ مُثلِّثًا بفوائده وثمراته، وما يتبع هذه الأصول.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

فمثل الله كلمة الإيمان- التي هي أطيب الكلمات- بشجرة هي أطيب الأشجار، موصوفة بهذه الأوصاف الحميدة: أصولها ثابتة مستقرة، ونماؤها

مستمر، وثمراتها لا تزال، كل وقت وكل حين، تغل على أهلها وعلى غيرهم المنافع المتنوعة، والثمرات النافعة.

وهذه الشجرة متفاوتة في قلوب المؤمنين تفاوتًا عظيمًا، بحسب تفاوت هذه الأوصاف التي وصفها الله بها.

فعلى العبد الموفق أن يسعى لمعرفتها، ومعرفة أوصافها وأسبابها، وأصولها وفروعها؛ ويجتهد في التحقق بها: علمًا وعملًا. فإن نصيبه من الخير والفلاح، والسعادة العاجلة والآجلة بحسب نصيبه من هذه الشجرة».

انظر قوله عن شجرة الإيمان وتفاوتها: «فعلى العبد أن يسعى لمعرفتها ومعرفة أوصافها وأسبابها وأصولها وفروعها . . .» إلخ.

وحاصل ما دل عليه الكتاب والسنة وكلام الأئمة: أن للإيمان أصولًا وفروعًا وكمالًا وأن الإيمان كالشجرة الطيبة لها أصل وفروع وثمار وتلك الفروع والثمار من تلك الشجرة.

فأين هذا المذهب الأصيل القائم على الكتاب والسنة وآمن به أساطين الأمة من مذهب الإرجاء الذي لا يعتبر العمل من الإيمان وأنه لا يزيد ولا ينقص، أي: أنه ليس من شجرة الإيمان، وأهل السنة يعتبرون العمل من الإيمان وفرع وكمال للإيمان ومن شجرة الإيمان.

وهذا ما تيسر نقله من كلام الأئمة العلماء والتعليقات الموجزة عليه، وأسأل الله أن ينصر دينه ويعلي كلمته.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

وكتبه

ربيع بن هادي بن عمير المدخلي

١٠ / شوال/ ١٤٢٧هـ

القول الواضح المبين

في المراد بظل الله

الذي وعد به المؤمنين العاملين

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فقد حصل أخيرًا اختلاف في حديث: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ**»، وكثرت التساؤلات عن المراد منه؛ فرأيت أن من واجبي أن أبين مراد رسول الله ﷺ من هذا الحديث في ضوء النصوص النبوية والقواعد الشرعية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أسأل الله أن ينفعني وينفع إخواني المسلمين بهذه الدراسة، وأن يجعله في صحيفة حسناتي.

*** نص الحديث:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

هذا الحديث صحيح؛ اتفق الشيخان على تخريجه، نسأل الله أن يجعلنا من أهله.

لكن ما المراد من قوله ﷺ: «**يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**»؟

---

(١) أخرجه أحمد (٩٦٦٥)، والبخاري في كتاب الأذان، باب: من جلس في المسجد ينتظر الجماعة (٦٦٠) و(١٤٢٣) و(٦٨٠٦)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل إخفاء الزكاة (١٠٣١)، والترمذي في كتاب الزهد، باب: الحب في الله (٢٣٩١) وغيرهم.

والجواب: أن هذا الظل إنما هو ظل العرش، وإضافته إلى الله إنما هو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه إضافة تشريف مثل:

١- قول الله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣].

٢- ومثل قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ [الحج: ٢٦].

٣- ومثل قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩].

٤- وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

فإضافة هذه الناقة إلى الله إضافة تشريف، وإضافة البيت إلى الله -والمراد به: الكعبة- إضافة تشريف، وكذلك إضافة الرسول إلى الله إضافة تشريف، وكل أولئك مخلوقون، وإضافتهم إلى الله إضافة مخلوق إلى خالقه إضافة تشريف؛ وإلا فالعالَمون كلهم مخلوقون.

*** وهناك قواعد عظيمة يجب مراعاتها عند تفسير كلام الله وكلام رسوله ﷺ:**

منها: قاعدة عظيمة يذكرها شيخ الإسلام في المضاف إلى الله، ينبغي للباحث في قضايا التوحيد وما يتصل بها أن يراعيها ويجعلها نصب عينيه، ومن لم يراعها وقع في الخطأ مهما بلغ من العلم والفضل.

*** وسألخص كلامه بحسب ما يقتضيه المقام:**

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٠-٢٩١) وهو يتحدث عن الروح في الإنسان، وأنها تدبر الجسم وتخاطب، وأن نسمة المؤمن طائر تعلق من ثمر الجنة ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وأن الأرواح أسودة عن يمين آدم وعن يساره، وأنها تقبض وترسل، وأنها تعرج إلى السماء، وأنها تسمى روحًا وتسمى نفسًا باعتبارين.

ثم قال: «ولهذا تسمى الريح روحًا، وقال النبي ﷺ: «الريح من رُوح الله»، أي: من الروح التي خلقها الله».

ثم ذكر القاعدة العظيمة فقال: فإضافة الروح إلى الله إضافة ملك لا إضافة وصف؛ إذ كل ما يضاف إلى الله إن كان عينًا قائمة بنفسها فهو مِلك له، وإن كان

صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله .

فالأول : كقوله : ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا﴾ [الشمس: ١٣] .

وقوله : ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريل ، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧-١٩] .

وقال : ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] .

وقال عن آدم : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] .

قلت : يعني أن هذه الأمور المذكورة في هذه الآيات التي مثل بها هي أعيان قائمة بذاتها فإضافتها إلى الله إضافة ملك ، أو قُل : إضافة تشريف ، وليست من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ، تعالى الله عن ذلك .

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «والثاني : كقولنا : علم الله ، وكلام الله ، وقدرة الله ، وأمر الله» .

قلت : يعني أن هذه الصفات الجليلة صفات لله قائمة بذاته ، فإضافتها إليه من إضافة الصفة إلى الموصوف .

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : لكن قد يعبر بلفظ المصدر عن المفعول به ، فيسمى المعلوم علمًا ، والمقدور قدرة ، والمأمور أمرًا ، والمخلوق بالكلمة كلمة ، فيكون مخلوقًا كقوله : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٧٥] .

وقوله : ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] .

ومنه قوله في الحديث الصحيح للجنة : «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي» كما قال للنار : «أنت عذابي أعذب بك من أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها» .

قلت: أي أن الإضافات في هذه الأمثلة من إضافة المخلوق إلى الخالق ﷻ كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، أي: مأموره، وقوله عن عيسى: إنه كلمته وكلمة منه، أي: أنه كان وخُلق بالكلمة التي هي كلمة الله التي يخلق بها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ١١-١٢] الآية.

وقوله للجنة: «أنت رحمتي»، وللنار: «أنت عذابي»، من إضافة المخلوق إلى الخالق.

وكل هذه الأشياء المذكورة أعيان قائمة بنفسها؛ فإضافتها إلى الله من إضافة المخلوق إلى الخالق.

وذكر شيخ الإسلام هذه القاعدة العظيمة في موضع آخر[1] وجعل المضاف إلى الله في الكتاب والسنة ثلاثة أقسام:

ومثَّل لإضافة الصفة إلى الموصوف: بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقوله ﷺ: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك».

وقال في الحديث الآخر: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق».

ومثَّل لإضافة المخلوقات إلى الخالق: بقول الله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦].

وقوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

و: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ٤٠].

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ١٤٤-١٤٥).

وقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ [البروج: ١٥].

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا القسم لا خلاف بين المسلمين في أنه مخلوق، كما أن القسم الأول لم يختلف فيه أهل السنة والجماعة في أنه قديم وغير مخلوق».

وقد لخص هذه القاعدة الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح المجيد»[١].

ثانيًا: ومن القواعد التي يجب مراعاتها عند تفسير كلام اللَّه وعند شرح كلام رسول اللَّه ﷺ: حمل المبهم على المبين والمطلق على المقيد.

فإذا لم يراع هذه القواعد وقع في الزلل وفي القول على اللَّه بغير علم.

ومن القواعد التي يجب مراعاتها في باب التوحيد وإثبات صفات الله: أن يثبت لله ما أثبت لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، على أساس قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: نظيرًا وشبيهًا.

فإذا لم يراعِ العالم وطالب العلم هذه القواعد في أبواب تفسير كلام اللَّه أو شرح وبيان حديث رسول اللَّه ﷺ؛ وقع في الزلل والقول على اللَّه بغير علم.

وسوف أسوق في هذا البحث بعض الأحاديث التي نص فيها رسول اللَّه ﷺ على إكرام اللَّه بعض عباده المؤمنين العاملين بأن يظلهم اللَّه في ظل عرشه منها:

١- حديث أبي هريرة:

قال الإمام الترمذي في الجامع (٢/ ٥٧٥) حديث (١٣٠٦): حدثنا

---

(١) (ص٣٩-٤٠).

أبو كريب، قال: حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي، عن داود بن قيس، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أنظر معسرًا أو وضع له، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله»**. وفي الباب عن أبي اليسر، وأبي قتادة، وحذيفة، وابن مسعود، وعبادة، وجابر.

حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٥٩)؛ قال: حدثنا إسحاق بن سليمان، حدثنا داود بن قيس، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة... وساق المتن مثله إلا أنه قال: **«أظله الله في ظل عرشه يوم القيامة»**.

وهو حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، كما قال الإمام الترمذي.

٢،٣- حديث معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت:

قال الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٣٦-٢٣٧): حدثنا وكيع، حدثنا جعفر بن برقان، عن حبيب بن أبي مرزوق، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي مسلم الخولاني قال: أتيت مسجد أهل دمشق؛ فإذا حلقة فيها كهول من أصحاب النبي ﷺ وإذا شاب فيهم أكحل العين براق الثنايا كلما اختلفوا في شي ردوه إلى الفتى فتى شاب.

قال: قلت لجليس لي: من هذا؟ قال: هذا معاذ بن جبل، قال: فجئت من العشي، فلم يحضروا، قال: فغدوت من الغد. قال: فلم يجيئوا، فرحت فإذا أنا بالشاب يصلي إلى سارية فركعت ثم تحولت إليه، قال: فسلم فدنوت منه فقلت: إني لأحبك في الله. قال: فمدني إليه، قال: كيف قلت؟ قلت: إني لأحبك في الله، قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن ربه، يقول: **«المتحابون في الله على منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله»**.

قال: فخرجت حتى لقيت عبادة بن الصامت فذكرت له حديث معاذ بن جبل، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن ربه ﷻ يقول: **«حقت محبتي للمتحابين فيَّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ، وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ، والمتحابون في الله على منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله»**.

إسناد حديث معاذ وعبادة بن الصامت رجاله رجال الصحيحين إلا جعفر بن

برقان؛ فإنه من رجال مسلم والأربعة، وثقه ابن معين وابن نمير إلا في حديث الزهري فإنه ضعيف فيه.

وقال الإمام أحمد: لا بأس به في غير حديث الزهري.

وقال أبو حاتم: محله الصدق يكتب حديثه.

وقال الحافظ: صدوق يهم في حديث الزهري، ونقل فيه الذهبي توثيق ابن معين فقط.

وإلا حبيب بن أبي مرزوق فإنه ثقة فاضل من رجال الترمذي والنسائي، وبقية رجاله رجال الصحيحين؛ فالحديث حسن لذاته يحتمل الصحة ويزداد قوة وصحة بحديث أبي هريرة السابق وبما يأتي بعده.

وأخرج البغوي حديث: «**سبعة يظلهم الله في ظله...**» الحديث، في شرح السنة (٢/ ٣٥٤-٣٥٥) ثم قال: «قيل في قوله: يظلهم الله في ظله؛ معناه: إدخاله إياهم في رحمته ورعايته، وقيل: المراد منه ظل العرش».

وروي عن شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة في هذا الحديث: «**سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله**»، وعلق عليه المحقق بقوله: أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (ص٣٧١) وفي سنده جعفر بن محمد بن الليث ضعفه الدارقطني وقال: كان يتهم في سماعه.

وقال البغوي: «وروي عن سلمان أنه قال: التاجر الصدوق مع السبعة في ظل عرش الله يعني: مع هؤلاء السبعة التي جاءت في الحديث».

وقال البغوي: «وروي أيضًا عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة».

وأورد البيهقي في الأسماء والصفات (ص٣٧١) حديث السبعة، قال: «ومعناه عند أهل النظر: إدخاله إياهم في رحمته ورعايته كما يقال: أسبل الأمير أو الوزير ظله على فلان بمعنى الرعاية، وقيل: المراد بالخبر: ظل العرش».

أقول: وتأويله بالرحمة والرعاية غلط، وأهل النظر هنا -فيما يبدو- هم أهل الكلام الذين دأبهم التأويل.

والحق: أن المراد به: ظل العرش، كما هو ثابت بالأحاديث الصحيحة.

ثم ساق البيهقي بإسناده رواية شعبة، عن خبيب، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة، ورواية ابن سيرين عن أبي هريرة بدون إسناد.

وأخرجه الخطيب في تاريخه (٩/ ٢٥٣-٢٥٤)، والبيهقي في الشعب من طريق عبد الله بن عامر الأسلمي، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ: «تحت عرشه»، وعبد الله بن عامر ضعيف لكنه ليس بمتروك، وحديثه حسن في المتابعات. قاله الحافظ في الفتح (٢/ ١٤٧).

ونقله عنه الألباني في الثمر المستطاب (٢/ ٦٣١-٦٣٢)، وقال: «يقويه الحديث الآخر المشار إليه حديث سلمان عند سعيد بن منصور بإسناد حسن موقوف عليه، قال الحافظ: لكن له حكم الرفع، وهذا القول للحافظ في الفتح (٢/ ١٤٧)».

حديث معاذ من طريق أخرى:

وقال الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٣٣): حدثنا روح، ثنا الحجاج ابن الأسود، عن شهر بن حوشب، عن معاذ بن جبل أن رسول ﷺ قال: «المتحابون في الله في ظل العرش يوم القيامة».

حديث معاذ هذا فيه الحجاج بن أبي زياد الأسود، وثقه الإمام أحمد وقال: رجل صالح.

وقال أبو حاتم: صالح الحديث. وفيه شهر بن حوشب.

قال الحافظ ابن حجر: صدوق كثير الإرسال والأوهام، وضعفه شعبة ووثقه الإمام أحمد وابن معين.

وقال أبو حاتم: ليس بدون أبي الزبير (٤)، وقرنه مسلم. راجع الكاشف (١/ ٤٩١).

وروح بن عبادة؛ ثقة فاضل روى له الجماعة.

وعلى كل حال؛ فهو يتقوى بما قبله وبما بعده من الأحاديث الواردة في هذا البحث.

وأخرج حديث عبادة بن الصامت ومعاذ بن جبل ﷺعبد الله ابن أحمد في زوائد المسند (٥/ ٣٢٨)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده، وابن حبان كما في الإحسان (٢/ ٣٣٨).

قال عبد الله بن أحمد: ثنا أبو أحمد مخلد بن الحسن أبو زميل إملاء من كتابه، ثنا الحسن بن عمر بن يحيى الفزاري ويكنى أبا عبد الله ولقبه أبو المليح الرقى، عن حبيب بن أبي مرزوق... به.

وساقه أبو يعلى بهذا الإسناد، ورواه ابن حبان من طريق أبي يعلى... به.

الحسن بن عمر الفزاري أبو المليح الرقى؛ قال فيه الحافظ الذهبي: وثقه ابن معين وأحمد، وقال فيه الحافظ ابن حجر: ثقة/ بخ د س.

ومخلد بن الحسن؛ قال فيه الذهبي: وثقه النسائي، وقال الحافظ ابن حجر: لا بأس به.

فهذا الإسناد صحيح يحتمل التحسين ويقويه ما قبله وما بعده.

٤- حديث العرباض بن سارية:

قال الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٢٨): حدثنا هيثم بن خارجة قال: حدثنا ابن عياش -يعني: إسماعيل-، عن صفوان بن عمرو وعبد الرحمن بن ميسرة، عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله ﷿: المتحابون بجلالي في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي»**، قال عبد الله: وأحسبني قد سمعته منه.

حديث العرباض ﷺ في إسناده إسماعيل بن عياش الحمصي، قال فيه الذهبي: عالم الشاميين، قال يزيد بن هارون: ما رأيت أحفظ منه، وقال دحيم: هو في الشاميين غاية وخلط في المدنيين، وقال البخاري: إذا حدث عن أهل حمص فصحيح، وقال أبو حاتم: لين. الكاشف (١/ ٢٤٩).

وقال الحافظ ابن حجر: صدوق في روايته عن أهل بلده، مخلط في غيرهم.

أقول: والذي يترجح لي: ما قاله فيه يزيد بن هارون ودحيم والبخاري، لاسيما ودحيم من أهل بلده؛ فهو أعرف به من أبي حاتم، وروايته هنا عن الشاميين

الحمصيين.

صفوان بن عمرو السكسكي أبو عمرو الحمصي؛ ثقة.

وعبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي؛ مقبول من الرابعة، وفيه الهيثم ابن خارجه الخراساني، قال فيه الذهبي: الحافظ ببغداد، وكان يسمى: شعبة الصغير. الكاشف (٢/ ٣٤٤).

وقال أبو حاتم: صدوق. الجرح والتعديل (٩/ ٨٦).

وقال الحافظ ابن حجر: صدوق/ خ س ق.

فالحديث صحيح يحتمل التحسين ويتقوى بما قبله وبما بعده.

وحسَّن الألباني إسناد حديث العرباض هذا في مختصر العلو (ص١٠٦) ثم قال: أخرجه أحمد (٤/ ١٢٨) وقال: قال المنذري في الترغيب (٤/ ٤٨): بإسناد جيد.

٥- حديث أبي قتادة:

قال الإمام أحمد في المسند (٥/ ٣٠٠ و٣٠٨): حدثنا يونس وعفان قالا: ثنا حماد بن سلمة، قال عفان في حديثه: أنا أبو جعفر الخطمي، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من نَفَّسَ عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة**».

ورواه الإمام أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي في سننه (٢/ ١٧٦) من طريق عفان... به.

حديث أبي قتادة في إسناده حماد بن سلمة الإمام؛ قال فيه الحافظ ابن حجر: ثقة عابد أثبت الناس في ثابت، وتغير حفظه بأخرة. خت م ٤.

وقال فيه الذهبي: قال ابن معين: إذا رأيت من يقع فيه فاتهمه على الإسلام.

ثم قال الذهبي: قلت: هو ثقة صدوق يغلط، وليس في قوة مالك.

أقول: وكون حماد بن سلمة تغير بأخرة فإن تغيره لا يضر بكثير من أحاديثه، ومنها هذا الحديث؛ فإنه من رواية عفان عنه.

قال عبد الله بن أحمد: سمعت يحيى بن معين يقول: من أراد أن يكتب حديث حماد فعليه بعفان بن مسلم.

وقال النسائي: «أثبت أصحاب حماد بن سلمة: ابن مهدي، وابن المبارك، وعبد الوهاب الثقفي». الكواكب النيرات (ص٤٦١).

أبو جعفر الخطمي؛ هو عمير بن يزيد الأنصاري نزيل البصرة.

قال الحافظ ابن حجر: صدوق/ ٤.

وقال الحافظ الذهبي: ثقة. الكاشف (٢/ ٩٨).

وقال ابن أبي حاتم: عن إسحاق بن منصور، عن يحيى بن معين أنه قال: أبو جعفر الخطمي ثقة.

وفيه محمد بن كعب القرظي؛ ثقة حجة. قاله الحافظ الذهبي في الكاشف (٢/ ٢١٣).

وقال الحافظ ابن حجر: ثقة عالم. التقريب.

فهذا الحديث بهذا الإسناد صحيح يحتمل التحسين ويزداد قوة بما قبله.

وبالجملة؛ فهذا الحديث صحيح في أقصى درجات الصحة؛ حيث روي عن عدة من الصحابة وبعض طرقه صحيح لا غبار عليه وبعضها صحيح يحتمل التحسين، وبمجموع طرقه يقرب من التواتر.

ورواه البغوي في شرح السنة (٨/ ١٩٩) من طريق الدارمي... به، وقال: هذا حديث حسن، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٦٤٥٢).

٦- حديث أبي اليسر:

قال أبو بكر بن أبي شيبة (٧/ ٥٥٢) حديث (٢٢٤٨٤): حدثنا حسين بن علي، عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي قال: حدثني أبو اليسر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أنظر معسرًا أو وضع له أظله الله في ظل عرشه**».

وهذا إسناد صحيح؛ أبو بكر هو الإمام، ورجال إسناده كلهم ثقات رجال الجماعة.

٧- حديث سلمان رضي الله عنه:

قال البيهقي رحمه الله بعد أن نقل قول من قال: إن المراد بالخبر ظل العرش وإنما الإضافة إلى الله بمعنى الملك.

قال: واحتج من قال ذلك بما أخبرنا أبو الحسن بن بشران، أنا إسماعيل الصفار، حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن قتادة قال: إن سلمان قال: «التاجر الصدوق مع السبعة في ظل عرش الله تعالى يوم القيامة...»، ثم ذكر السبعة في الخبر المرفوع. الأسماء والصفات (ص٣٧١)، وحسن ابن حجر إسناده في الفتح (٢/ ١٤٤).

والحاصل: أن حديث سلمان يتقوى بما قبله من الأحاديث، وهي تزداد به قوة وصحة لاسيما وحديث سلمان في درجة الحسن كما قال الحافظ.

ولقد تمنيت ألا يذكر البيهقي والحافظ هذا التأويل لاسيما وقد دلت الأحاديث الصحيحة على مراد رسول الله من قوله: «في ظله» حيث بينتْ هذه الأحاديث أن هذا الظل المبهم في حديث السبعة أنه ظل عرش الله، وإن كان يظهر من كلامهما ترجيح ما دلت عليه هذه الأحاديث، بل صرح الحافظ بترجيح ما دلت عليه هذه الروايات.

ويظهر -والله أعلم- أن بعض العلماء حينما يسوقون حديث السبعة لا يستحضرون هذه الأحاديث، ويحتمل أنها لم تبغلهم، ولولا ذلك لما لجئوا إلى التأويل المذكور.

أقوال العلماء في إثبات أن هذا الظل إنما هو ظل العرش

١- الإمام ابن حبان:

ابن حبان يرى أن الظل الوارد في حديث السبعة إنما هو ظل العرش.

قال -رحمه الله تعالى- كما في الإحسان (٢/ ٣٣٢): «ذكر الخصال التي يرتجى لمن فعلها أو أخذ بها أن يظله الله يوم القيامة في ظل عرشه..».

ثم ساق حديث: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . . .**» الحديث، من طريق حفص بن عاصم، عن أبي سعيد أو عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا.

فأنت ترى أنه أخذ هذه الترجمة التي فيها أن الظل إنما هو ظل العرش أخذها من هذا الحديث حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله، وهذا أمر واضح.

٢- الإمام محمد بن إسحاق بن منده رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بيان آخر يدل على أن العرش[1] ظل يستظل فيه من يشاء الله من عباده؛ أخبرنا علي بن الحسن بن علي، ثنا إسحاق ابن الحسن بن ميمون، ثنا شريح بن النعمان، ثنا فليح بن سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن أبي طوالة، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة قال: قال رسول ﷺ: «**إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي**».

انظر: «كتاب التوحيد» لابن منده (٣/ ١٩٠-١٩١).

وساق هذا الحديث بإسناد آخر عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا، ثم أورد حديث: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**» من ثلاث طرق، وفي الطريق الأخيرة عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد.

وظاهر من ترجمة الإمام ابن منده لهذه الأحاديث: أنه يعتقد أن الظل المذكور في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله أن المراد منه ظل العرش.

٣- الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح مشكل الآثار (١٥/ ٧٣) بعد أن روى حديث أبي هريرة في السبعة الذين يظلهم الله في ظله من ثلاثة طرق في طريقين منها: «**يظلهم بظله**»، وفي الثالث: «**يظلهم الله بظل عرشه**» قال عقب ذلك:

«ثم نظرنا في الأصل المذكور في هذا الحديث ما المراد به؟ فلم يكن في حديث مالك عن خبيب بن عبد الرحمن ما يدل على ذلك ما هو وهو قوله: «**يظلهم الله في ظل**

---

(١) كذا، والصواب: «أن للعرش»، ولعل الخطأ من النساخ أو الطابع.

عرشه» فأخبر بذلك أن الظل المراد في هذا الحديث هو ظل عرش الله ﷻ.

وقد روي في مثل هذا المعنى من الظل المذكور في كتاب الله ﷻ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]».

٤- الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال في التمهيد شرح الموطأ (١٧/ ٤٣١) في شرح حديث أبي هريرة: عن رسول الله ﷺ: «**إن الله -تبارك وتعالى- يقول يوم القيامة: أين المتحابون لجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**».

قال: «قال أبو عمر: فمن الحب في الله: حب أولياء الله، وهم الأتقياء العلماء الفضلاء ومن البغض في الله: بغض من حاد الله وجاهر بمعاصيه، أو ألحد في صفاته، وكفر به وكذب رسله، أو نحو هذا كله.

وأما قوله: «في ظل الله» فإنه أراد -والله أعلم-: في ظل عرشه، وقد يكون الظل كناية عن الرحمة كما قال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٢]. يعني بذلك: ما هم فيه من الرحمة والنعيم، وقال: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]».

والظاهر: أن ابن عبد البر يرجح ما دل عليه الحديث.

٥- الذين أشار إليهم البيهقي بقوله فيما سبق:

وقيل: المراد بالخبر ظل العرش؛ فإن هؤلاء الذين أشار إليهم وقد يكونون عددًا كثيرًا من علماء أهل السنة وأئمتهم الموجودين قبل عصره.

٦- الإمام ابن القيم شمس الدين محمد بن أبي بكر رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في طريق الهجرتين (ص٢٩٣)، ط: دار الوطن: «لا ريب أن الحب والأنس المجرد عن التعظيم والإجلال يبسط النفس، ويحملها على بعض الدعاوى والرعونات والأماني الباطلة وإساءة الأدب والجناية على حق المحبة.

فإذا قارن المحبة مهابة المحبوب وإجلاله وتعظيمه وشهود عز جلاله وعظيم

سلطانه، انكسرت نفسه له، وذلت لعظمته، واستكانت لعزته، وتصاغرت لجلاله، وصفت من رعونات النفس وحماقاتها ودعاويها الباطلة وأمانيها الكاذبة.

ولهذا في الحديث: «**يقول الله ﷻ: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أُظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**»، فقال: «**أين المتحابون بجلالي**»، فهو حب بجلاله [سبحانه] وتعظيمه ومهابته، ليس حبًّا لمجرد جماله؛ فإنه سبحانه الجليل الجميل.

والحب الناشئ عن شهود هذين الوصفين هو الحب النافع الموجب لكونهم في ظل عرشه يوم القيامة، فشهود الجلال وحده يوجب خوفًا وخشية وانكسارًا، وشهود الجمال وحده يوجب حبًّا بانبساط وإدلال ورعونة، وشهود الوصفين معًا يوجب حبًّا مقرونًا بتعظيم وإجلال ومهابة، وهذا هو غاية كمال العبد، والله أعلم». اهـ

فأنت ترى أن هذا الإمام قد فسر الظل هنا بظل العرش الذي يستظل به المتحابون.

وقال رحمه الله في الكتاب نفسه (ص٣٥٤): «الطبقة الخامسة: أئمة العدل وولاته الذين تؤمَّن بهم السبل، ويستقيم بهم العالم، ويستنصر بهم الضعيف، ويذل بهم الظالم، ويأمن بهم الخائف، وتقام بهم الحدود، ويدفع بهم الفساد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقام بهم حكم الكتاب والسنة، وتطفأُ بهم نيران البدع والضلالة.

وهؤلاء الذين تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن ﷻ يوم القيامة؛ فيكونون عليها.

والولاة الظلمة قد صهرهم حرُّ الشمس وقد بلغ منهم العرق مبلغه، وهم يحملون أثقال مظالمهم العظيمة على ظهورهم الضعيفة في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يُرى سبيل أحدهم إما إلى الجنة وإما إلى النار.

قال النبي ﷺ: «**المقسطون على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن - تبارك وتعالى -، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**».

وعنه ﷺ: «**إن أحب الخلق إلى الله وأقربهم منه منزلة يوم القيامة: إمام عادل، وإن أبغض الخلق إلى الله وأبعدهم منه منزلة يوم القيامة: إمام جائر**» أو كما قال.

وهم أحد السبعة الأصناف الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وكما كان الناس في ظل عدلهم في الدنيا كانوا في ظل عرش الرحمن يوم القيامة؛ ظلًا بظل جزاءً وفاقًا». اهـ

وهنا ذكر حديث السبعة الذي قال فيه النبي ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»، ومع ذلك حمل هذا الظل على ظل العرش.

وقال رحمه الله في الوابل الصيب (ص٥٤-٥٥)، ط: دار الكتاب العربي: «جاء في الحديث: «**من ستر مسلمًا ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومن نَفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نَفَّس الله تعالى عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله تعالى حسابه، ومن أقال نادمًا أقال الله تعالى عثرته، ومن أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله تعالى في ظل عرشه**».

لأنه لما جعله في ظل الإنظار والصبر ونجاه من حر المطالبة وحرارة تكلف الأداء مع عسرته وعجزه نجَّاه الله تعالى من حر الشمس يوم القيامة إلى ظل العرش». اهـ

وهنا ذكر حديث: «**من أنظر معسرًا أظله الله في ظل عرشه**» الذي رواه أبو هريرة وأبو قتادة، وأقر ما دل عليه بل احتج به.

وقال رحمه الله في الكتاب نفسه (ص٦٥): «التاسعة والعشرون: أنه مع البكاء في الخلوة سبب لإظلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر في ظل عرشه، والناس في حر الشمس قد صهرتهم في الموقف، وهذا الذاكر مستظل بظل عرش الرحمن عز وجل». اهـ

والإمام هنا يتكلم عن واحد من السبعة الذين يظلهم الله في ظله، ومع ذلك ينص على أن الله يظله في ظل عرشه.

وقال رحمه الله في روضة المحبين (ص٣٧٩-٣٨٠)، ط: دار الحديث- القاهرة: «التاسع والأربعون: أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة وتذله في

الظاهر وفي الباطن، وإذا جمع اللَّه الناس في صعيد واحد نادى مناد: ليعلمَنَّ أهل الجمع من أهل الكرم اليوم ألا ليقم المتقون فيقومون إلى محل الكرامة.

وأتباع الهوى ناكسو رءوسهم في الموقف في حر الهوى وعرقه وألمه، وأولئك في ظل العرش». اهـ

وهنا ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن من مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا والآخرة، ومن ذلك إظلالهم في ظل العرش؛ جعلنا اللَّه منهم وجنبنا الهوى وكل أسباب الردى.

ثم قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخمسون: أنك إذا تأملت السبعة الذين يظلهم اللَّه ﷻ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله؛ وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى؛ فإن الإمام المسلط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه.

والشاب المؤثر لعبادة اللَّه على داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك.

والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفة الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات.

والمتصدق المخفي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك.

والذي دعته المرأة الجميلة الشريفة فخاف اللَّه ﷻ وخالف هواه.

والذي ذكر اللَّه ﷻ خاليًا ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه.

فلم يكن لحر الموقف وعرقه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة.

وأصحاب الهوى قد بلغ منهم الحر والعرق كل مبلغ وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوى.

فاللَّه ﷻ المسئول أن يعيذنا من أهواء نفوسنا الأمارة بالسوء وأن يجعل هوانا تبعًا لما يحبه ويرضاه؛ إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير». اهـ

وهنا يتحدث عن السبعة المشهورين والمشهور حديثهم، ويصرح بأن اللَّه يظلهم في ظل عرشه.

٧- ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: «والظل هنا ظل من دخان نار جهنم سطع ثم افترق ثلاث فرق، وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع أن يتشعب فيقال: لهم كونوا فيه إلى أن يفرغ من الحساب كما يكون أولياء الله في ظل عرشه أو حيث شاء من الظل، ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقره من الجنة والنار»(١).

٨- الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (١٤/ ٤٧) في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾ [الملك: ١٢]: «يقول تعالى مخبرًا عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن الناس فينكفُّ عن المعاصي ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله: بأنه له مغفرة وأجر كبير، أي: يكفر عنه ذنوبه ويُجازى بالثواب الجزيل كما ثبت في الصحيحين(٢): «سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم رجلًا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلًا تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

٩- قال أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص٢٦٤):

وروى الأئمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».

---

(١) انظر: زاد المسير (٨/ ٤٥٠) لابن الجوزي.

(٢) كذا هنا: «في ظل عرشه» في هذا الحديث المعزو إلى الصحيحين، ويغلب على الظن أن هذا من سهو النساخ والطابعين، ولقد ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة يوسف (٨/ ٣٩) ط: دار عالم الكتب، كما هو في الصحيحين: «في ظله»، على أنه قد ورد في بعض طرق هذا الحديث بهذا اللفظ: «في ظل عرشه».

فأنت تراه قد حمل معنى في ظله في حديث السبعة على معنى الأحاديث المصرحة بأن هذا الظل إنما هو ظل عرش الرحمن.

١٠- الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في نهاية شرحه لحديث: «**سبعة يظلهم الله في ظله...**» في شرحه لصحيح البخاري: «وهذا الحديث يدل على أن هؤلاء السبعة يظلهم الله في ظله، ولا يدل على الحصر، ولا على أن غيرهم لا يحصل له ذلك؛ فإنه صح عن النبي ﷺ: «**من أنظر معسرًا أو وضع عنه، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**». خرجه مسلم من حديث أبي اليسر الأنصاري عن النبي ﷺ.

وخرَّج الإمام أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من نفس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة**»[1]، وهذا يدل على أن المراد بظل الله: ظل عرشه».

انظر: فتح الباري لابن رجب (٦/ ٥١).

١١- الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح (٢/ ١٤٤) في شرح حديث السبعة: «قوله: «في ظله»، قال عياض: إضافة الظل إلى الله إضافة مِلك، وكل ظل فهو ملكه. كذا قال.

وكان حقه أن يقول: إضافة تشريف؛ ليحصل امتياز هذا على غيره، كما قيل: الكعبة بيت الله مع أن المساجد كلها ملكه.

وقيل: المراد بظله: كرامته وحمايته، كما يقال: فلان في ظل الملك، وهو قول عيسى بن دينار، وقواه عياض.

وقيل: المراد: ظل عرشه، ويدل عليه حديث سلمان عند سعيد بن منصور بإسناد حسن: «**سبعة يظلهم الله في ظل عرشه...**» فذكر الحديث، وإذا كان

---

(١) هذا نص حديث أبي قتادة رضي الله عنه، وحديث أبي هريرة نحوه كما ترى، لكن الترمذي لم يرو حديث أبي قتادة.

المراد ظل العرش استلزم ما ذكر من كونهم في كنف الله وكرامته من غير عكس فهو أرجح، وبه جزم القرطبي[1].

ويؤيده أيضًا: تقييد ذلك بيوم القيامة كما صرح به ابن المبارك في روايته عن عبيد الله بن عمر، وهو عند المصنف في كتاب الحدود، وبهذا يندفع قول من قال: المراد ظل طوبى أو ظل الجنة؛ لأن ظلهما إنما يحصل لهم بعد الاستقرار في الجنة، ثم إن ذلك مشترك لجميع من يدخلهما والسياق يدل على امتياز أصحاب الخصال المذكورة، فيرجح أن المراد: ظل العرش». اهـ

فأنت ترى أن الحافظ يرجح في هذا السياق مرتين أن المراد بالظل في الأحاديث المضافة إلى العرش والتي لم يضف فيها الظل إلى العرش.

ومجموعها بلغ درجة التواتر، والحافظ من أكثر العلماء اطلاعًا على هذه الأحاديث؛ فقد ألف في ذلك رسالة سماها: «**معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال**» وأورد جملة منها في كتابه: «**الأمالي**».

وقد نقل بيتين في ذلك عن أبي شامة وهما:

وقال النَّبِي المصطفى أن سبعة ... يظلهم الله الكريم بظله
محب عفيف ناشئ متصدق ... وباك مصل والإمام بعدله

«. . . ثم تتبعت بعد ذلك الأحاديث الواردة في مثل ذلك؛ فزادت على عشر خصال، وقد انتقيت منها سبعة وردت بأسانيد جياد ونظمتها في بيتين تذييلًا على بيتي أبي شامة، وهما:

وزد سبعة إظلال غاز وعونه ... وإنظار ذي عسر وتَخفيف حمله
وإرفاد ذي غرم وعون مكاتب ... وتاجر صدق في المقال وفعله

فأما إظلال الغازي؛ فرواه ابن حبان وغيره من حديث عمر.

وأما عون المجاهد؛ فرواه أحمد والحاكم من حديث سهل بن حنيف.

---

(١) يشير إلى كلام القرطبي الذي أسلفناه قريبًا في هذا البحث.

وأما إنظار المعسر والوضيعة عنه؛ ففي صحيح مسلم كما ذكرنا.

وأما إرفاد الغارم وعون المكاتب؛ فرواهما أحمد والحاكم من حديث سهل بن حنيف المذكور.

وأما التاجر الصدوق؛ فرواه البغوي في شرح السنة من حديث سلمان وأبو القاسم التيمي من حديث أنس، والله أعلم.

ونظمته مرة أخرى فقلت في السبعة الثانية:

وتَحسين خلق مع إعانة غارم ... خفيف يد حتى مكاتب أهله

وحديث تحسين الخلق؛ أخرجه الطبراني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

ثم تتبعت ذلك فجمعت سبعة أخرى ونظمتها في بيتين آخرين وهما:

وزد سبعة حزن ومشي لمسجد ... وكره وضوء ثم مطعم فضله

وآخذ حق باذل ثم كافل ... وتاجر صدق في المقال وفعله

ثم تتبعت ذلك فجمعت سبعة أخرى ولكن أحاديثها ضعيفة.

وقلت في آخر البيت: تربع به السبعات من فيض فضله.

وقد أوردت الجميع في الأمالي، وقد أفردته في جزء سميته: معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال». فتح الباري (٢/ ١٤٣-١٤٤).

١٢- الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي:

وقد صرح رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «**تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش**» (ص١٣٢)، وعنوان كتابه يفيد هذا.

١٣- العلامة محمد عبد الرحمن المباركفوري:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تحفة الأحوذي (٤/ ٥٣٤) في شرح حديث أبي هريرة عند الترمذي: «من أنظر معسرًا أو وضع له، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله»: «أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه: أي أوقفه الله تحت ظل عرشه».

١٤- العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (ص ٤٠٩) عند ذكر العبر والفوائد الجليلة التي اشتملت عليها قصة يوسف عليه السلام: «ومنها: أن الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله، مما يقربه إلى الله زلفى؛ لأن الهمَّ داعٍ من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى.

فكان ممن: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، وإنما الهم الذي يلام عليه العبد الهم الذي يساكنه، ويصير عزمًا، ربما اقترن به الفعل».

١٥- العلامة محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله تعالى-:

أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مختصر العلو (ص١٠٥) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل**».

قال: وساق الحديث -يعني: الذهبي- وأخرجه البخاري، ثم ساق حديث أبي هريرة: «**إن الله تعالى يقول: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي**».

ثم قال الألباني: وقد ورد في ظل العرش أحاديث تبلغ التواتر.

وأورد الألباني في الإرواء (٣/ ٣٩٥) حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...**» الحديث، خرجه من صحيح البخاري ومسلم وسنن النسائي وموطأ مالك.

ثم قال: وللحديث شاهد من حديث سلمان بلفظ: «**سبعة يظلهم الله في ظل عرشه...**» فذكر الحديث، رواه سعيد بن منصور بإسناد حسن كما في الفتح (٢/ ١٢١).

فقول الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد ورد في ظل العرش أحاديث تبلغ التواتر».

وقوله: «وللحديث شاهد من حديث سلمان -يعني: حديث السبعة-».

يفيد أن الألباني يرى أن الظل إنما هو ظل العرش، ويرى أن معنى الأحاديث كلها معنًى واحد.

وما أعتقد أن أحدًا من علماء السنة السابقين يخالف هؤلاء العلماء.

وأخيرًا:

فإن المتأمل المنصف في النصوص النبوية والقواعد الشرعية لا يخالجه شك في أن المراد من الظل الوارد في النصوص النبوية -التي مر ذكرها في هذا البحث- إنما هو ظل عرش الله ﷻ.

هذا ما يسره الله لي ووفقني له من هذا البحث، الذي أرجو الله الرءوف الرحيم أن ينفعني به وأن يجعلني ممن يظلهم بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

وصلى الله على نبينا محمد وإخوانه من النبيين والمرسلين وآله وصحابته أجمعين.

كتبه

ربيع بن هادي بن عمير المدخلي

١٤٢٧/٧/٢٥هـ

أسئلة مهمة

حول الرقية والرقاة

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

باسم الله، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه.

أما بعد:

السؤال: فضيلة شيخنا الوالد ربيع بن هادي المدخلي -حفظكم الله تعالى-: عندنا راقٍ يأمر المرأة المصروعة بأن تضع المسك على فرجها وعلى دبرها وحلمتي ثدييها وشفتيها، ويقول: إن هذه الوصفة تمنع جماع الجني المتلبس بها، ويقول: إن هذا ثبت عنده بالتجربة، فهل فعله هذا صحيح؟ افيدونا بارك الله فيكم.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومَن اهتدى بهداه.

وبعد:

فالتداوي مشروع وجائز: **«ما أنزل الله داءً إلا قد أنزل له شفاء، علمه مَن علمه وجهله مَن جهله»**.

والرقية مشروعة بالقرآن؛ القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا، ولا دواء أنجع من الرقية بالقرآن والسنة.

ولكن بشروط منها:

إخلاص الراقي وإخلاص المرقي -بارك الله فيك-، وصدق اللجأ إلى الله تبارك وتعالى.

فإذا كان الطرفان مخلصين لله ﷻ، والرقية بالقرآن أو السنة؛ فإنه لا دواء أنجع من هذا الدواء، وهذا معروف عن العلماء يقولونه وينقلونه.

والرسول ﷺ يقول: **«لا رقيةَ إلا مِن عينٍ أو حُمَةٍ»**. العين معروفة؛ وهي الإصابة بعين العائن، قد يكون العائن خبيثًا؛ فينتقل من عينيه الشريرتين إلى

الشخص المحسود فيضر؛ فالعين حق، ولكن بإذن الله، ولها تأثيرٌ لا شك في ذلك، والرسول ﷺ قال: «العينُ حقٌّ».

والسحر حقيقة، ولا يضر إلا بإذن الله، وكلها لا تقع ولا تضر إلا بإذن الله.

وأنجع علاج لها - للسحر والعين والحمة وما شاكل ذلك-: هو الرقية الشرعية بالقرآن والسنة، إذا توفر الإخلاص والصدق؛ لأنه قد يكون الإنسان ما عنده الثقة بالله ﷻ، قد يكون عنده شيء من سوء الظن -والعياذ بالله-، وقد يكون الراقي دجَّالًا كذابًا ولا يستعمل القرآن، فيلجأ إلى حيل أخرى!

وقد تصدَّر كثير من الناس للرقية، يتصدر ويعلن إعلانات عن نفسه ويشاع عنه أنه ما شاء الله راقٍ!!

وهذا مِن أعمال الشعوذة والدجَل والنَّصْب وأخذ أموال الناس بالباطل، فهؤلاء لا يفيدون الناس شيئًا، وأكثر ما يعتمدون على الحيل، هذا الأسلوب الفارغ!!

يعني: هذا يقول: تأتيه امرأة والثانية والثالثة! ويخاطبها بهذا الأسلوب الخسيس: حطي لفرجك، حطي لدبرك!! سيئ الخلق! هذا رديء! وأنا أنصح هذا الإنسان أن يتقي الله ويترك التصدي للرقية.

الرقية مِن أي مسلم مخلص صادق معروف بالتقوى والصلاح يرقي، وما يُصدِّر نفسه ويعلن للناس أنه راقٍ ويأتيه الرجال والنساء مِن أماكن بعيدة وقريبة، هذا ليس مشروعًا أبدًا.

الرسول ما نصب نفسه هكذا؛ كان يرقي نفسه ويرقي غيره إذا احتاج الناس إلى الرقية، أما الإنسان ينصب نفسه ويضع نفسه في منصب الرقية -مثل منصب الإفتاء-؛ هذا غلط، وخاصة إذا لجأ إلى مثل هذه الأساليب التي فيها دلالة على سوء الإرادة وسوء القصد والسفه.

يا أخي! عالِج ولا تتكلف ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

الرسول أخبرك أن الرقية بالقرآن والرقية بالسنة، والأمور بيد الله ﷻ، ابذل السبب المشروع ولا تلجأ للحيل والتجارب القبيحة والكلام الفارغ.

والاتباع الصادق للرسول: أن تفعل كما فعل على الوجه الذي فعل، لا تُغير، لا في كيفية ولا في صفة ولا في شيء، افعل كما فعل، تصلي كصلاة الرسول، وتحج كما حجَّ، وكما تتبعه في كل شيء وتفعل مثل فعله.

أما الاختراعات في هذا الباب -يعني: باب الرقية- والحاجات هذه؛ فما لها لزوم، إذا لم تنفع رقيتك بالقرآن -ترقي الناس بالقرآن ما نفع، بالسنة ما نفعت-؛ إما لخلل في المرقي أو لأمر يريده الله تعالى، فلماذا تذهب لوسائل أخرى وتخترع أشياء أخرى؟! ما الذي كلَّفك؟ إلا حب المال وحب الشهرة والكلام الفارغ!

أنا لا أرقي أحدًا، وكرهت الرقية مِن أجل أعمال هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم للرقية لأخذ أموال الناس ويلجئون إلى مثل هذه الأساليب وهذه الحيل!!

فأنا أنصح هذا الإنسان إن كان سلفيًّا: أن يتقي الله ﷻ ويترك طلب الشهرة، وتنصيب نفسه للرقية، يترك هذا الأسلوب، أنت واحد من المسلمين إذا احتاج إليك إنسان؛ ارقه بالطريق الشرعي ويكفيك، وخلِّ المجال لغيرك، لا تحتكر الرقية، الاحتكار هذا دليل على سوء القصد -بارك الله فيكم- في المجتمع مَن هو أفضل منك، ويستجاب له دعاؤه أكثر مما يستجاب لك؛ فلماذا تحتكر هذا المنصب وتلجأ إلى مثل هذه الوسائل؟!

أنصح هذا: أن يتقي الله ويتبع سبيل المؤمنين ويتبع سنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، ولا ينصب نفسه للرقية، ولا يتكلف في هذه الأشياء ويفسح المجال لغيره. أي مسلم فيه خير وعنده تقوى؛ فهو مظنة الإجابة، يستجاب له إذا دعا، إذا قرأ القرآن يستجيب الله دعاءه ويشفي الله بسببه -بسبب إخلاصه وصدقه-، وبسبب الوسيلة الشرعية التي اتخذها لشفاء هذا المريض.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وسلم.

* * *

السؤال: الذي لا يحسن قراءة القرآن؛ هل يجوز له أن يرقي؟

الجواب:

يجوز له أن يرقي إذا اضطر إلى ذلك، لكن عليه أن يتعلم: «الماهِرُ بالقرآنِ مع السَّفَرَةِ الكِرامِ البررة، والذي يَقرأ القرآنَ ويَتَتَعْتَعُ فيه وهو عليه شاقٌّ؛ له أجْرانِ» يعني: هو مأجور -ولو يتتعتع في قراءته-، وقد لا يستطيع الإحسان في القراءة فيقرأ ويحاول أن يحسِّن قراءته.

* * *

السؤال: هل التجربة لها مجال في الرقية؟

الجواب:

التجربة في الطب وليس في الرقية، الطب قائم على التجارب، وفي الرقية: الأحسن أن يقتصر المسلم على الرقية الشرعية، أما التجارب: ما الذي يدريك أولًا، ومن أين جاءتك الفكرة هذه؟!

* * *

السؤال: هل يجوز مخاطبة الجن المسلم؟

الجواب:

لا يجوز؛ ما الذي يدريك أنه مسلم؟ قد يكون منافقًا ويقول: أنا مسلم! يكون كافرًا، ويقول: أنا مسلم! جني ما تعرفه وأنت لا تعلم الغيب.

ما يجوز -بارك الله فيك-، يكون إنسان أمامك يدعي الإسلام قد تأخذ بظاهره، تراه أمامك يصلي و. . و. . .، ثم أنت لا تعرفه، لكن جن دخل في إنسان يقول لك: أنا مسلم، وقد يكون فاجرًا يقول لك: أنا مسلم! وليس هناك داعٍ للتكلف فما الذي كلفك -يا أخي-؟! هناك مستشفيات مفتوحة وإذا صبر المريض يثيبه الله ﷻ.

النبي ﷺ يأتيه الأعمى ويطلب منه أن يدعو له بالشفاء؛ فيقول له: «إن شئتَ؛

دعوتُ لك، وإن شئتَ؛ صبرتَ».

وتأتيه الجارية تقول: يا رسول الله! إني أُصرَع؛ فادعُ اللّه لي. فيقول لها: «إن شئتِ؛ دعوتُ لكِ، وإن شئتِ؛ صبرتِ، ولكِ الجنة».

فليس هناك هذا التكلف! أنت أرحم مِن رسول اللّه ﷺ؟!

اللّه يبتلي العباد بالأمراض، يبتليهم: «ما مِن شيء يصيب المؤمنَ مِن نَصَبٍ، ولا حزنٍ، ولا وَصَبٍ، حتى الهم يهمه؛ إلا يكفِّرُ اللّه به عنه سيئاته».

فالمؤمن معرَّض للأمراض ويُثاب إن صبر: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ﴾ -مثل هذه الأمراض- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

والرسول -عليه الصلاة والسلام- يقول في السبعين الذين يدخلون الجنة: «لا يَسترقون ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون».

لا يطلب الرقية مِن أحد، وهذا الذي ذهب يطلب الرقية وكذا وكذا نقص في إيمانه، نقص توكله على اللّه ﷻ، علِّمه وقل له: اصبر، لا تطلب الرقية، والجأ إلى اللّه، وادْعُ اللّه ﷻ؛ لأن الرقية من نوع السؤال؛ لهذا فهي تؤثر على مسألة التوكل على اللّه ﷻ.

ولهذا قال ﷺ: «لا يَسترقون» يعني: لا يطلبون الرقية؛ لأن الرقية سؤال تنقص من إيمانه وتنقص من توكله.

فالمؤمن يُبتلى في هذه الحياة بالأمراض والنكبات والمصائب؛ ليرفع اللّه درجاته إن صبر -بارك اللّه فيكم-، «إنَّ اللهَ إذا أحَبَّ قومًا ابتلاهم، فمَن صبر؛ فله الصبرُ، ومَن جزع؛ فله الجزع».

فالمؤمن أولًا: عليه أن يصبر على قضاء اللّه، وإذا ارتفع أكثر إلى درجة الرضا بقضاء اللّه ﷻ؛ فهذا أعلى المراتب في الإيمان -إن شاء اللّه-.

فالصبر واجب والجزع حرام، فلا يجزع على أقدار اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وإذا أراد اللّه ألا تشفى لا تنفعك رقية ولا غيرها، كل شيء بإرادة اللّه ومشيئته ﷻ.

فالمؤمن يلجأ إلى الله ﷻ، عليه أولًا أن يؤمن بقضاء الله وقدره، ويصبر على ذلك -بارك الله فيك-، وإذا وفقه الله أن يرتقي إلى درجة الرضا هذا أمر مطلوب -بارك الله فيك-، وإذا أحب مثلًا أن يتداوى، يتداوى، وإذا استرقى لا نقل: حرام، لكنه مكروه ويُنقص من درجته -بارك الله فيكم-.

وأما الذي يتصدى للرقية ويعمل لنفسه شهرة، بل بعضهم ينشرون في الصحف! وبعضهم ينشئون مكاتب! هؤلاء نصَّابون! والله يُتَّهم مَن ينصب نفسه للرقية، متهم في دينه، ما الذي يحمله على هذا؟! أنتَ -يا أخي- واحد من سائر المسلمين، ما هي الخصوصية التي جاءتك؟! فيه أتقى منك وأفضل منك وأعلم منك... وإلخ، كيف جاءت لك هذه الخصوصية؟!! ثم لا تكتفي بالرقية الشرعية، وتذهب إلى أشياء تخترعها!! وفق الله الجميع.

* * *

سؤال: هل تجوز رقية الكافر؟

الجواب:

تجوز؛ أبو سعيد رقى كافرًا، لما خرج في سرية ومَرُّوا بحيٍّ أو بماء فاستضافوهم فلم يضِيفوهم، فلُدغ سيدهم فجاءوا وقالوا: سيدنا قد لدغ؛ فهل فيكم من راقٍ؟ قالوا: والله لا نرقيه حتى تجعلوا لنا جعلًا؛ استضفناكم فلم تُضِيفونا! فأعطوهم قطيعًا من الغنم، ورقاه بالفاتحة، فشفي فكأنما نشط من عقال! يعني الراقي مخلص -بارك الله فيكم-، وأقره رسول الله -عليه الصلاة والسلام- أقره على هذه الرقية.

الآن الراقون يأخذون الأجور والأموال من الناس -وإن لم يستفيدوا منهم- !! وجواز أخذ الأجر على الرقية مشروط بشفاء هذا المريض، كما في هذا الحديث: في الوقت نفسه كأنما نشط من عقال! فأخذوا القطيع، ولو كان ما شفي؛ ما أخذوا القطيع.

فالآن يلهف الراقي بالأموال ويذهب المريض بمرضه والمصاب بمصيبته، ولا يستفيد وماله منهوب، فتكون هذه الأموال التي يأخذها حرامًا! بارك الله فيك.

السؤال: ما حكم قراءة القرآن في الماء؟

الجواب:

لا ينبغي، وإن قاله بعض العلماء؛ لا يوجد دليل عليه، الرسول ﷺ ما فعل هذا، والصحابة ما فعلوا، بارك الله فيكم، وهؤلاء الذين يُجيزون الكتابة وبعض الأشياء والغُسل ومثل هذه الحاجات ما عندهم أدلة، وهم علَّمونا أننا لا نقبل مسألة إلا بالدليل، فكلٌ يؤخذ من قوله ويُرد إلا رسول الله -عليه الصلاة والسلام-.

* * *

السؤال: ما معنى هذا الحديث: «لا بَأسَ بالرُّقَى ما لم تَكُنْ شِرْكًا»؟

الجواب:

نعم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا، الرقية بالطيب في الفرج والدبر ليس منها، يعني: تدعو الله ﷻ، تقرأ آية أو حديثًا أو دعاءً؛ فهذا جائز في الشرع.

بعضهم يرقي بالسحر! يرقي بكلمات فيها شِرك! يرقي بكلمات أعجمية تحتمل الباطل والشرك! الرقية تكون باللغة العربية، والتقي الصالح ما يتجاوز كلام الله وكلام الرسول، لكن إذا توسَّع وزاد دعاءً من عنده جائزًا؛ لا بأس.

مثل دعاء الرسول -عليه الصلاة والسلام-: **«باسم الله، ربَّ الناس! أذهِبِ البأسَ، واشْفِ أنتَ الشافي، لا شِفاءَ إلا شفاؤُكَ، شِفاءً لا يُغادرُ سقمًا»**.

أو يرقي نفسه فيقول: باسم الله، باسم الله، باسم الله، أعوذ بعزة الله وقدرته مِن شر ما أجد وأحاذر (سبع مرات)، وباسم الله (ثلاث مرات). هذا يعني: عثمان بن أبي العاص الثقفي كان يشكو مرضًا، فقال الرسول: **«ضعْ يَدكَ على الموضع الذي يؤلمك، واقرأ: قل: باسم الله -ثلاث مرات-، وقل: أعوذ بعزة الله وقدرته مِن شرِّ ما أجِد وأحاذر -سبع مراتٍ-»**. فقالها فبرأ وشفي.

أفضل شي كلام الله، ثم كلام الرسول، فاخترِ الأفضل.

فيكم رقاة؟ والله أنا أنصح السلفيين ألا يدخلوا هذا الباب ولا ينصب أحد نفسه.

الألباني، ابن باز، ابن عثيمين؛ هل نصبوا أنفسهم لهذه الأشياء؟ السلف من

الصحابة، التابعين، وأئمة الهدى: أحمد، مالك، الشافعي؛ هل نصبوا أنفسهم هكذا؟! أين أنتم؟ نقول: السلف السلف، ونحن سلفيون، بعدين نخترع هذه الأشياء!

الرقية جائزة لكن ليست بالطرق هذه، فكونوا أهل اتباع حقًّا -بارك الله فيكم-، اتركوا هذه الأشياء التي تشوِّه الدعوة، وتشوه أهلها -بارك الله فيكم-.

إذا جاءك إنسان يطلب منك الرقية؛ ارْقِه، أو يذهب عند غيرك وخلاص، والشفاء بيد الله يدعو الله ﷻ، يشفيه الله ﷻ، ويخلِص ويدعو بهذه الأدعية لنفسه، والله يجعل له مخرجًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

* * *

السؤال: نخشى -يا شيخنا- أن يذهب العوام إلى السحرة والمشعوذين؟

الجواب:

خلهم يذهبون ولا يرجعون، أنت مَن الذي كلَّفك؟! تُفسد نفسك وتُفسد حياتك ودينك؛ من أجل أنهم يذهبون للسحرة! أنت ترقي؟ نصبت نفسك للرقية؟

السائل: لا -يا شيخ-، لكن هم يأتون إليَّ.

الشيخ: اترك اترك، ما يأتون إليك إلا لأنك نصّبتَ نفسك للرقية؛ فاترك هذا الشيء -بارك الله فيك-، اترك الناس لله ﷻ، ولا تتكلف: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

هذه حجة أول راقي في المدينة، كان زميلنا، وكان سلفيًّا جيدًا جدًّا، وكان يدرِّس في المسجد النبوي، واللهِ أثَّر في كثير من الشباب الصوفية في المدينة، أثر أكثر مِن غيره، ثم جاءه الشيطان! والله استشارني قبل أن يدخل -لأنه صديقي وزميلي- استشارني وقال: يا شيخ ربيع! أنا علَّمت فلانًا الرقية، والآن يرقي ويأخذ فلوسًا قد يأخذ على الرقية (١٤) ألفًا! قلت له: أنصحك ألا تدخل في هذا الباب. قال: والله أخاف على الناس مِن المشعوذين والسحرة. قلت: والله ما أنت مسئول. وقلت له: أنت لا تقدر على السحرة والمشعوذين؟ فقال: نعم.

فقلت له: افعل كما فعل الدعاة إلى الله ﷻ؛ الشيخ عبد الله القرعاوي جاء

عندنا في المنطقة وكثير من الناس مرضى على الفرش لا يقومون، من أي شيء؟ من الجن، من الزار، من كذا، ويخرجون ويحصلون الجن في الليل في الأشجار، في الطرق، وكذا، وتتسلط عليهم الشياطين -جهال ما عندهم توحيد-، فجاء ونشر التوحيد، لا رقية ولا شيء -بارك الله فيكم- . كل هذه الأشياء انتهت، كلها انتهت لما انتشر التوحيد والعلم، ولما ينتشر التوحيد والعلم تذهب هذه الأشياء وتزول، ولما يطبق الجهل يكثر السحرة والكهنة والشياطين وإلخ، وفيه تعاون بين السحرة والكهنة والشياطين.

فنصحته بأن يفعل كما فعل المصلحون من الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك والخرافات فتذهب عنهم الشياطين فلا يحتاجون إلى الرقاة من الشياطين من السحرة وغيرهم، فأبى ودخل في الرقية -بارك الله فيك-! ثم بعد ذلك، الناس نافسوه: واحد في الرياض، وواحد في تبوك، وواحد في جدة، فكتب في الصحيفة: إن الشيطان لا يدخل في الإنسان!! وهو لما كان يرقي يضرب الإنسان ضربًا مبرحًا، يقول له: اخرج -يا عدو الله- اخرج! يعني يعترف بأن الشيطان يدخل في الإنسان!! ثم لما كثر المنافسون له؛ قال: الشيطان لا يدخل في الإنسان!! ألاعيب وحيل -بارك الله فيكم-.

اتباع الرسول: أن تفعل كما فعل، لا تتكلفوا، أخلصوا لله ﷻ، وادعوا الله ﷻ وينفع الله ﷻ، خير الهدي هدي محمد ﷺ، هذا هديه في الرقية، لا تتوسع، اسلك طريقه -عليه الصلاة والسلام- عقيدةً وعلمًا وعملًا، وحتى في الرقية اسلك طريقته، ولا تتكلف أشياء ما فعلها الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

أوصيكم -يا إخوة-: بتقوى الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

في أي باب من الأبواب؛ يجعل الله لك فرجًا ومخرجًا، إن تتقِ الله ﷻ يجعل لك فرجًا في الدنيا والآخرة، تنجو بتقوى الله من غضب الله وسخطه، تنجو من عقابه في الآخرة، أعد الله لك بهذه التقوى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٣].

كل هذه تنال بالتقوى؛ تنال الفرج والرخاء والرحمة من الله ﷻ بهذه

بالتقوى، وتنال أعلى الدرجات -بارك الله فيك- في الآخرة بهذه التقوى، كن سليم العقيدة، سليم المنهج، سليم العبادة تعتقد ما شرعه الله من العقائد في أبواب التوحيد، الربوبية، في الأسماء والصفات، في توحيد العبادة، في صلاتك، في صومك، في زكاتك، في حجك، في بر الوالدين، في اجتناب المعاصي الكبائر والصغائر.

فعليكم بتقوى اللهِ، وعليكم بالإخلاص، الإخلاصُ ضروريٌّ في العبادة، في طلبِ العلم، في الدعوة إلى الله ﷻ، كل الأعمال التي تتقرب بها إلى الله يجب أن تكون مخلصًا فيها لله ﷻ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

الإخلاص لابد منه، وإياكم والرياء، وإياكم والشرك؛ الشرك الأكبر والأصغر.

فأنت تتعلم تريد وجه الله، تبسط لك الملائكة أجنحتها رضًا بما تصنع، وإذا بلغتَ درجة العلماء؛ صِرت من ورثة الأنبياء في ماذا؟ في الإيمان، في التقوى، في التبليغ، في الدعوة إلى الله، في الأمر بالمعروف، في النهي عن المنكر، في حمل راية الجهاد إذا رفعت راية الجهاد، في كل خير تنفع الناس وتدفع الشر عن الناس.

ولا ينتشر الخير إلا عن طريق العلم الصحيح، ولا يقضى على الشرور إلا بالعلم الصحيح، لا يقضى على الشرك إلا بالعلم الصحيح، لا يقضى على البدع إلا بالعلم الصحيح، لا يقضى على المنكرات إلا بالعلم الصحيح، إذا انتشر هذا العلم وهذا الخير؛ قلَّت الفتن، قلت البدع، ذهب الشرك... إلى آخره، إذا ساد العلم في مجتمع من المجتمعات؛ كل هذه الأشياء تتبخر وتذهب إلا ما يبقى من النفاق الذي يتستر أهله هذا شيء آخر، أما الأمور الظاهرة تختفي ولله الحمد.

وتتقي الله في طلب العلم، وفي نشره في الدعوة إلى الله، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تخلص لله تتقيه وتخلص له.

عليكم بالعلم، عليكم بالعلم، العلم الذي جاء به محمد ﷺ: كتاب الله، وسنة رسوله -عليه الصلاة والسلام- بفهم السلف الصالح.

يعني إذا صعب عليك فهم الآية والحديث عندك -ولله الحمد- دُونت شروح وتفاسير القرآن؛ تفاسير السلف: تفسير ابن جرير، تفسير البغوي، تفسير ابن كثير،

تفسير عبد الرزاق -يعني الشيء المطبوع منه-، تفسير أبي حاتم الشيء المطبوع، بارك الله فيكم، ويكفيكم بعضها، وتفسير السعدي جيد -بارك الله فيكم-.

عليكم بكتب التوحيد، كتب العقيدة، وشروح الحديث: الحافظ ابن حجر في الفتح -مع تجنب زلاته في الفتح-، وهو أحسن شرح لكتاب البخاري -صحيح البخاري-، لكن يساعدك في فهم كثير من النصوص لا تستغني عنه، مع الحذر مما ورد في هذا الكتاب من المخالفات العقدية.

ثم التآخي فيما بينكم -يا إخوتاه-، نحن ما عرفنا مثل هذا التفرق والتمزق، واللهِ، الفتنة -الآن- التي تكتنف السلفية والسلفيين في العالم ما مر مثلها؛ لأن الرءوس كثرت، وحب الزعامات انتشر -مع الأسف-، والمدسوسون بين صفوف السلفيين كثر -أيضًا-، فمزقوا السلفيين شذر مذر؛ فاحذروا من الفرقة وتنبهوا لهؤلاء المفرِّقين، وتآخوا فيما بينكم، كونوا كالجسد الواحد.

كما قال ﷺ: «تَرى المؤمنين في تراحُمِهم وتوادِّهم وتعاطفهم كمثل الجسد؛ إذا اشتكى عضوٌ تَداعى له سائرُ الجسد بالسَّهر والحمى».

وقال: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان؛ يشد بعضُه بعضًا ثم شبَّك بين أصابعه».

أنا أظن -الآن- أنّ كثيرًا من السلفيين إذا مرض أخوه أو أصابته مصيبة يفرح بذلك ولا يتألم! لماذا؟! لكثرة الفتن التي انتشرت فيهم، ونشرها أهل الأهواء.

أنا أقول -غير مرة-: إنا أدركنا السلفيين في مشارق الأرض ومغاربها كلهم متحابون متآخون على منهج واحد لا خلافات بينهم، فانتشرت الدعوة السلفية في العالم شرقه وغربه؛ فانتبه الخبثاء من اليهود والنصارى والمبشرين ورءوس الضلال من الروافض والصوفية الذين يتعاونون مع الأعداء والأحزاب الضالة، واللهِ يتعاونون مع الأعداء وبينهم علاقات خفية وظاهرة، ولا يتعاونون إلا ضد المنهج السلفي، فنشروا وبثوا سموم الفرقة في السلفيين لما امتدت في مشارق الأرض ومغاربها، بثوا سموم الفرقة في أوساط السلفيين؛ فمزقوهم شرَّ ممزق.

ونشأ أناس لا يفهمون السلفية على وجهها، يزعم أحدهم أنه سلفي!! ثم لا تراه إلا وهو يقطع أوصال السلفية؛ لسوء سلوكه وسوء المنهج أو المناهج السيئة التي انتشرت وتهدف إلى تفريق السلفيين وتمزيقهم. السلفية تحتاج إلى عقلاء،

تحتاج إلى رحماء، تحتاج إلى حكماء، تحتاج قبل ذلك إلى علماء، فإذا كانت هذه الأمور ليست موجودة في السلفيين، فأين تكون السلفية؟ تضيع -بارك الله فيكم-.

فتعلَّموا العلم، الذي يحس منكم بالكفاءة، الله أعطاه موهبة الحفظ، موهبة الفقه في الدين؛ يشمر عن ساعد الجد في تحصيل العلم؛ حتى ينفع الله به، ويلم بقدر ما يستطيع شتات السلفيين على دين الله الحق، ويؤاخي ويؤلف بينهم.

وابحثوا عن هؤلاء، وشجعوهم في التعلم ونشر الأخوة والمودة فيما بين السلفيين، أما الآخرون -حتى لو كانوا يهودًا أو نصارى- انشروا دعوتكم في أوساطهم بالحكمة والموعظة الحسنة.

أنتم ما تقرءون قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]؟ الله يخاطب رسوله ليستخدم هذه الدعوة في أوساط الكفار؛ لأن الحكمة والموعظة الحسنة إذا فارقت الدعوة انتهت الدعوة، إذا استخدمنا التوحش في الأخلاق وتنفير الناس، خلاص انتهت السلفية!

«إنَّ منكم مُنَفِّرين»، «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا».

استخدموا هذه الأساليب إن أردتم لأنفسكم خيرًا وللناس خيرًا؛ فاتبعوا هدي القرآن والسنة في التعامل فيما بينكم، وفي نشر هذه الدعوة.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

رسول الله أكمل البشر وأفضلهم وأفصحهم وأعلمهم، لو لم يوجد فيه هذا الوصف؛ لانفض الناس عنه، وتركوه، وتركوا دعوته، كيف أنت المسكين!!

نحتاج إلى حسن الأخلاق وحسن التعامل فيما بيننا قبل كل شي، والتآخي والتلاحم، ثم في دعوتنا نستخدم الحكمة والموعظة الحسنة.

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، إذا ما استجابوا لدعوتنا، يعني نقاتل من يستحقون القتال، طبعًا بعد المقدمات، وبعد الدعوة، وبعد البيان، وبعد كل شيء -بارك الله فيكم-، الشدة على المنافقين يعني: نقيم عليهم الحجة والبرهان، ليس

بسوء الأخلاق.

والشدة على الكفار: بالسيف، إذا لم يدخلوا في الإسلام، وعاندوا، وكابروا، وفعلوا وفعلوا، واعتدوا على المسلمين؛ حينئذ يشرع القتال -بارك الله فيكم-.

الشاهد: الآن نحن ما عندنا سيوف غير الحجة والبرهان والأخلاق، الأخلاق هي أمضى الأسلحة في كبت أهل الضلال ودمغهم بالحجة وفي رد الكافرين، وفيه هداية الجميع إن شاء الله -بارك الله فيكم-.

نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى، وأرجو أن يجعلني الله وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وطنوا أنفسكم على الاستفادة مما تسمعون من الخير والحق، وطِّنوا أنفسكم على التطبيق والعمل -بارك الله فيكم-، وإن شاء الله هذه الظواهر السيئة بالحكمة والتعقل تنتهي، وييأس الأعداء من تفريقنا وتمزيقنا، وإلا إذا لم نسمع ونستخدم هذه الأخلاق فسيظل الشباب السلفي لعبة بأيدي خصومهم وأعدائهم.

عليكم بالحكمة وعليكم بالتعقل، وعليكم بالصبر، وعليكم بالتراحم والتآخي فيما بينكم، ثم نشر هذه الدعوة بالأخلاق العالية، وسترون كيف يقبل الناس على هذه الدعوة، نسأل الله لنا ولكم التوفيق.

أستأذنكم -بارك الله فيكم- وليس المراد كثرة الكلام، الإنسان قد يسمع كلمة، وينفعه الله بها؛ وكان السلف قليلي الكلام، كلامهم قليل، ولكن كان نفعهم كبيرًا؛ لأنهم يجدون آذانا صاغية.

فنسأل الله لنا ولكم التوفيق.

قام بتفريغها: أحمد الديواني

وقام بمراجعتها وعرضها على الشيخ:

فواز الجزائري

-غفر الله له ولوالديه-

عشية يوم الثلاثاء ١٤٢٧/٥/١٧هـ

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢-١٣].

وشكر الله المذكور في الآية يتحقق بالقيام بتلك الغاية التي خلقت من أجلها والتفكير الجاد في هذا الكون والتدبر الواعي للقرآن والسنة يؤديان إلى القيام بهذا الشكر.

والله -تبارك وتعالى- يلفت أنظار عباده إلى حسن عنايته بالإنسان: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١] فيها حض لعباده الواعين الذين أدركوا المهمة التي خلقوا من أجلها أن يغتنموا الفرصة التي أتيحت لهم فلا يضيعوها.

ثم بين لهم أنه قد أعد لهم كل ما من شأنه أن يساعدهم على القيام بواجبهم على أتم الوجوه، وأن لهم منزلة عظيمة عند الله بحيث إن ما يشاهدونه مما بين أيديهم وما خلفهم من السموات والأرض قد سخر لهم حتى يشعروا بعظم النعمة وجسامة المسئولية: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

* * *

موقف الإسلام من عيسى ﷺ تقتضي من النصارى أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه..

أما بعد:

فإن المقرر عند جميع الأمم: أنَّ الله وحده هو خالق هذا الكون بسَمَوَاته وأرضه وما بينهما، وما فيهما من ملائكة، وجنٍّ، وإنس..

وأنه هو المدبِّر لهذا الكون ومنظمه، وكل شيء في هذا الكون خاضع لإرادته وقهره، ومع ذلك يرعاه بلطفه ورحمته وحكمته..

وكلف العقلاء بعبادته وطاعة أمره؛ ولأجل ذلك خلقهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وزودهم بما يساعدهم على القيام بهذا التكليف «العبادة» من الفطر السليمة، والعقول المدركة الواعية، وسَخَّرَ لهم ما في السَّمَوات والأرض.

وبعث إليهم الرسل الكرام كلما ما حرفهم الشيطان وأعوانه عن الغاية التي خلقوا لها إلى الشرك وعبادته والخروج عن صراط الله المستقيم.

وعلى رأس هؤلاء الرسل الكرام أولو العزم من الرسل: محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح -عليهم الصَّلاة وأكرم التسليم-.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فالرسل جميعًا -وعلى رأسهم من ذُكر- دينهم الإسلام وحده، لا دين لهم سواه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

والمراد بالأمَّة هنا: الملة والدين، فدينهم واحد وهو الإسلام، المتضمن إخلاص الدين لله الواحد الأحد، المعبود وحده بحق.

والخلق جميعًا عباده، ومنهم الرسل الكرام، ومنهم أولو العزم: محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح، فهم عباده خلقهم لعبادته ودعوة الناس إلى ذلك..

وهو الرب الخالق المعبود، لا يشركه أحد من جميع خلقه في ذرة من هذا الكون؛ لا في الخلق، ولا في الرزق، ولا في الإحياء والإماتة، ولا في شيء مما انفرد واختص به من صفات الربوبية، والألوهية، وصفات كماله ونعوت جلاله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

والمقصود بعد هذه المقدمة: بيان حال رسول الله الكريم عيسى ابن مريم -عليه الصلاة والسلام- ومكانته في الإسلام.

إنَّ هذا النبي الكريم له منزلة عظيمة في الإسلام جهلها وتجاهلها اليهود والنصارى في واقعهم وعقائدهم وكتاباتهم..

وقام بها الإسلام، وقرَّرها أفضل تقرير وأكمله، وأنصفه في كثير من آياته البينة الكريمة، وذلك الذي قرره الإسلام لا يقبل العقل السليم الصريح سواه..

ويرفض ما عداه مما قررته اليهوديَّة: من قذف له ولأمه!!

وما قررته النصرانية: من غلو فيه وتأليه له تارة باعتباره ابن الله، وتارة هو الله أو ثالث ثلاثة، وتارة بتحقيره وتشويهه مما يدل على التيه والضَّلال في الدين والعقل.

لقد قصَّ الله علينا أحسن القصص وأروعه عن عيسى وأمِّه من بداية أمرهما، وتابع ذلك في مراحل حياتهما في غاية البيان مع غاية الإكرام، فآمن بذلك المؤمنون من أتباع محمد ﷺ، وقدروا عيسى وأمَّه حق التقدير، واحتفوا بهما غاية الاحتفاء، كما احتفوا بسائر الأنبياء والرسل وآمنوا بهم..

بل قرر الإسلام الإيمان بهم ركنًا عظيمًا من أركان الإيمان، بل من انتقص أي أحد منهم أي انتقاص؛ فقد كفر عندهم، وخرج من ملة الإسلام، فكيف بمن يكذبهم أو أحدًا منهم!!

*** لقد أشاد الله بعيسى وأمه مريم الطهور في كثير من سور القرآن نذكر بعضها:**

١- منها: قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٨].

فمهَّد لقصة مريم بهذا الربط العظيم بمن اصطفاهم الله على العالمين، ومنهم: آل عمران آباء مريم؛ ليبين بهذا الربط: أن مريم من أسرة كريمة، وأنها من ذرية الأنبياء المصطفين، وأنَّ أمَّها امرأة صالحة، ومن صلاحها: أنها نذرت ما في بطنها محررًا لله، وكانت تأمل أن يكون ذكرًا؛ فإذا بالمولود أنثى، فأرجعت أمرها إلى الله معتذرة إليه، معوذة بنتها وذريتها من الشيطان الرجيم، فاستجاب دعاءها؛ فتقبلها ربُّها قبولًا حسنًا، وأنبتها نباتًا حسنًا، وكفلها نبيًّا كريمًا رحيمًا هو زكريا ﷺ، فهذه رعاية عظيمة

وذكر كريم لأمّ عيسى.

٢- ويزيدها الله من فضله وإكرامه، فيخبرنا بذلك بقوله -جل وعلا-: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٤].

فما كان محمد النبي الأمي ولا قومه يعلمون مثل هذه الأخبار العظيمة الصادقة عن جميع الرسل، ولا عن مريم وأمها، وزكريا ومن خاصمه في كفالة مريم، ولا بظفر زكريا بكفالتها بعد القرعة بالأقلام، ولا بحفاوة زكريا بها، ولا بما كان يأتيها من رزق من عند الله تكريمًا لها؛ مما دفع زكريا على كبر سنّه وعقم زوجته إلى طلب الذريّة الطيبة من الله؛ ما كان محمد ﷺ يعلم هذا ولا قومه..

ولا يمكن أن تجد مثل هذا الكلام العالي في جلالته وبلاغته وحسن تركيبه وروعة عرضه في الأناجيل، ولا في غيرها؛ مما يدل على صدق محمد ﷺ، وأنه رسول الله حقًّا، وأنه لا ينطق عن الهوى؛ إن هو إلا وحي يوحى إليه من ربّ العالمين.

٣- ثمّ تابع الله قصّة مريم الطهور وابنها عيسى عبد الله ورسوله -صلى الله عليه وعلى نبينا وسائر الأنبياء وسلم تسليمًا كثيرًا-، فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾

إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٤٥-٥١].

هذا حديث عن بدء أمر عيسى عليه السلام، والطريقة التي خلقه الله بها، وعن رسالته إلى بني إسرائيل، وما أكرمه الله به من الآيات العظيمة الدالة على صدق رسالته، وعلى براءته وبراءة أمّه مما قذفها به اليهود.

فإذا كان من سنَّة الله الجارية في الخلق من البشر والدواب أن يتم الإنجاب والتوالد عن طريق أبوين ذكر وأنثى؛ فإنه قد سبق ذلك أن خلق آدم أبا البشر من طين -أي: من غير أبوين-، وخلق أم البشر حواء من ذكر دون أنثى: من ضلع آدم، وكل ذلك من آيات الله العظيمة الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء..

كذلك في هذه الحقبة من الزمن من عُمر البشرية أراد الله أن يُري الناس آية جديدة من آياته الدالة على عظيم قدرته؛ ألا وهي: خلق عيسى عليه السلام من أنثى بدون ذكر، ولقد استغربت مريم -عليها السلام- هذا الأمر العجيب والنبأ الغريب، فقال لها الملك -وهو جبريل-: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

فكل المخلوقات كبيرها وصغيرها من العرش إلى الكرسي إلى السَّمَوات والأرض والجبال والبحار بما فيها، والأفلاك وما فيها من شمس وقمر وكواكب يحدث بإرادة الله ومشيئته، وبقوله: ﴿كُن﴾. فسبحانه وتعالى من ربٍّ عظيم قادر قاهر، لا يعجزه ولا يستعصي على قدرته شيء، ولا يَندُّ عن إرادته شيء، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

إن إكرام الله عيسى عليه السلام بالعلم والحكمة والرسالة والآيات العظيمة هو من باب إكرام الأنبياء والرسل جميعًا، وكونه خُلق بكلمة الله: ﴿كُن﴾ من أنثى فقط؛ هو من باب آياته الدالة على قدرته، قد أسبقها بما هو أعظم منها وهو خلق آدم عليه السلام من غير ذكر وأنثى، وخلق حواء من ضلع آدم من دون أنثى، كل ذلك يدل على عظمة الله وعظيم قدرته لدى المؤمنين العقلاء؛ فيدفعهم إلى شكره، وحبِّه، وتعظيمه، وتقديسه، وإجلاله، وإخلاص العبادة والدين له وحده.

وأعظم الناس إدراكًا لهذا وقيامًا به ودعوة إليه هم: الأنبياء الكرام، وعلى

رأسهم أولو العزم ومنهم عيسى -عليهم جميعًا أفضل الصَّلوات وأتم التسليم-، كما صرَّح بذلك القرآن وقبله الوحي المحفوظ قبل التبديل من نصوص الإنجيل!!

فلقد صرح عيسى ‹: أنه عبد الله مخلوق مربوب، وأن الله ربُّه وسيِّدُه وخالقه، وربُّ المخلوقين وسيدهم ومالكهم، فأثبت هذا أولًا، ثم دعاهم إلى عبادة هذا الربِّ العظيم السيِّد، الخالق لكل شيء، المالك لكل شيء، فقال ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾. وقال قبل: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

فالله وحده هو الذي يُخشى ويُرهب ويُتقى، والأنبياء -ومنهم عيسى- يَدْعُون إلى هذا، ويَمُدُّهُم الله بالآيات المعجزة الباهرة؛ براهين على صدقهم، فما على الناس بعد كل هذا إلا أن يستجيبوا لدعوة الرسل، ويُطيعوهم فيما بلغوهم به عن الله من الوحي المتضمن للأمر بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له وحده.

* والشاهد من هذه النصوص:

- أنها تضمنت أن لعيسى ﷺ وغيره من الأنبياء منزلة عظيمة في الإسلام..

- وتضمنت خلقه، وخلق أمِّه على غاية من الطهر ومن أرسخ الأسر في الإسلام والطهر..

- وتضمنت ذكر رسالته، وآياته، ودعوته إلى الإيمان بربوبية الله، وعبادته وخشيته واتقائه، مثل حديثه عن آدم وعن سائر الرسل وسيرهم وأخلاقهم ودعواتهم -عليهم السَّلام-؛ أحاديث صدق ليس فيها خرافات ولا غلو، وآمن بذلك محمد ﷺ وأتباعه، وأحبوا الأنبياء من أعماق قلوبهم، وأجلوهم، وأكرموهم -ومنهم عيسى ﷺ-، واعتبروا ذلك من أصول دينهم: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٤- وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ

وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ١٦-٣٨].

وفي هذا القصص الحق: بيان لحال مريم بعد أن أنبتها الله نباتًا حسنًا في كفالة ذلكم النبي الكريم، وبعد اشتهارها بالعبادة والطهر والشرف، لقد حان الوقت الذي حدَّده الله لإنفاذ إرادته بخلق عيسى عليه السلام بالطريقة التي أخبرنا بها: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾. وهو جبريل عليه السلام.

لقد انقطعت هذه الطاهرة لعبادة الله، واتخذت لذلك حجابًا؛ حفاظًا على شرفها وعفتها؛ ولتقوم بعبادة الله، وإذا بها تفاجأ بهذا البشر السوي بكماله وجماله، فبرهنت في هذا الموقف على حصانتها وعفتها بقولها: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾. إنَّ هذا لا يصدر إلَّا من قلب مؤمن؛ استعاذة بالله ولجوء إليه في حال الكرب والشدَّة، وتذكير وتخويف بتقوى الله؛ لتدفع بكل ذلك ما تبدَّى لها من هذا الأمر المخوف الخطير.

فأخبرها هذا الرسول الكريم بما يُبدِّد مخاوفها؛ وليطمئن قلبها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

فأبدت استغرابها: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. وهذه هي الطريقة المعهودة لإنجاب الولد.

فأخبرها الرسول: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ إلخ. فخَلْقُ الكون كله بما فيه عليه هين؛ كما قال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. فنفخ فيها هذا الروح (جبريل) الذي أرسله الله لهذه المهمَّة العظيمة منفذًا أمر الله.

فحملته فانتبذت به مكان قصيًّا، ثم وضعته وواجهت المشكلة التي تحس بها مثلها من ذوات الشرف والعفاف؛ فتمنت الموت، وجاء ما يُبدِّد مخاوفها وقلقها: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾. آيات ومعجزات تزيدها ثقة واطمئنانًا وإيمانًا بأن الله قد تولى الدفاع عنها، وإظهار براءتها، وإظهار شرفها وكرامتها؛ فليس عليها إلّا أن تشير إلى هذا المولود الذي أرجف عليها به المرجفون: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾!!

وفاجأهم هذا الذي استبعدوا كلامه وهو في المهد بتلك المعجزة الباهرة فـ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

إنه لآية عظيمة من آيات الله في طريقة حمله وولادته، وتبرئة ساحة أمّه البتول، ثم بيان لمهمته ورسالته التي أرهصت لها هذه الآيات العظيمة..

ومن هذه الرسالة العظيمة: بيان أنه عبد الله، ومن العجب أن يكون ذلك أول نطقه، ثم ثنّى برسالته: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. ثم ثلث بآثار دعوته: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾. ثم ربّع ببيان شريعته وشريعة من قبله من الرسل: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾. ثم تحدث عن صفاته الجميلة من البر، وتنزيه الله إيّاه من صفات الجبارين الأشقياء: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

ثم قال تعالى مُعقبًا على كل ما يتعلق بعيسى وأمّه مما سلف ذِكْرُهُ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

إنه القول الحق الحاسم الذي قاله الربُّ خَالقُ عيسى وغيره، العليم الخبير بكل دقيقة وجليلة من أحوال هذا الكون وأحوال البشر ومنهم عيسى، لقد قال اللَّه فيه الحق الذي لا يشوبه ذرَّة من شوائب الباطل الكبير الذي قاله فيه المبطلون من هؤلاء الممترين المختلفين، قال فيه الحق الذي تقبله العقول السَّديدَة الرشيدة والفطر السليمة، ونطقت به الشرائع، ودان به المؤمنون.

فتلك الأحوال التي مرت به: من نفخ جبريل في جيب أمه، ثمَّ حملها به، ثم ولادته، وما واجه أمه من أهوال ومصاعب، ثم تخليصها من تلك الأهوال بأن أنطق اللَّه ابنها في المهد بما يدل على براءتها من جهة، وبما يدل على أنه عبد من عباد اللَّه اصطفاه بالنبوة والرسالة والكتاب، وكلفه بالشرائع العظيمة التي كلف بها الأنبياء والرسل قبله؛ من الصَّلاة والزكاة والبر.

كل ذلك هو الحق الثابت، وما خالفه من الدعاوى فأباطيل، فالطعون والاتهامات التي افتراها اليهود على عيسى وأمه أباطيل، ودعاوى خصومهم من النصارى في حقِّ عيسى بأنه هو اللَّه أو ابن اللَّه أو ثالث ثلاثة أباطيل وضلالات كبرى ترفضها العقول والشرائع والفطر.

والقول الحق هو الذي قاله اللَّه الذي خلقه، وخلق الأولين والآخرين والجن والإنس لعبادته، واصطفاه عبدًا ورسولًا كما اصطفى غيره لحمل رسالته وتبليغها إلى البشر؛ ليحققوا الغاية التي خلقهم من أجلها، وهي: عبادته وحده، وإخلاص الدين له.

ولقد بلَّغ عيسى رسالته على أحسن الوجوه، وكان في طليعة العابدين الخاشعين لله رب العالمين من أمته، صادعًا بالحق من مهده وفي كهولته إلى أن رفعه اللَّه إليه.

هذه هي منزلة نبي اللَّه ورسوله عيسى ﷺ في الإسلام ولدى أمَّة الإسلام، وذلك هو الحق، وما سواه هو الإفك والضلال الذي يشهد ببطلانه الشرائع والعقول والفطر.

فما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه، ونسبة الولد إليه من أعظم أنواع الكفر

والضلال؛ إذ ذلك غاية السبِّ والتنقص لجلاله وعظمته وربوبيته، فلا يكون غيره إلَّا مخلوقًا له، خاضعًا لجلاله وعظمته، مُكلفًا بعبادته، واللَّه سبحانه مُقدَّس مُنزَّه عن اتخاذ الولد؛ ولهذا قال -وقوله الحق- لمن نسب إليه الولد: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٩-٩٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وقال تعالى في شأن محمد ﷺ: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤-٥].

فكل من ادَّعَى لله ولدًا لا يقول إلا الكذب؛ سواء العرب الذين قالوا: إنَّ الملائكة بنات اللَّه. أو البوذيين أو البراهمة الذين يدَّعُون ذلك لبوذا أو إبراهما، أو النصارى الذين يدَّعُون: أن عيسى هو ابن اللَّه، أو اللَّه، أو ثالث ثلاثة..

كل ذلك كذب وافتراء على اللَّه، وهم جميعًا يُكذب بعضهم بعضًا، لا يُسلِّم أي فريق لخصمه؛ فتساقطت الأكاذيب والافتراءات بتكذيب الفرق بعضها لبعض وبتكذيب القرآن والإسلام والمسلمون لهم، وبتكذيب العقول والفطر لدعاوهم الباطلة.

ويبقى الحق الواضح الذي أخبر اللَّه به في كتابه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

ذلكم الكتاب العظيم الذي تحدَّى اللَّه الجنَّ والإنس أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله؛ فعجزوا عن كل ذلك منذ أربعة عشر قرنًا ونيف، ولن يأتوا بذلك إلى يوم القيامة.

فأي برهان أصدق وأقوى من عجز الجن والإنس عن أن يأتوا بشيء من ذلك الذي أتى به رجل أمِّي لا يقرأ ولا يكتب؟!!

وإذن؛ فما قاله في شأن عيسى هو الحق الذي ليس وراءه إلَّا الباطل.

والشاهد من هذا: أن القرآن أعطى عيسى حقَّه كاملًا، وأنزله منزلته الكريمة اللائقة به، وخلد ذكره بالحق قرآنًا يتلى يُردِّده المسلمون في بيوتهم ومساجدهم، ويتلونه في صلواتهم كما هو الحال مع سائر النبيين والمرسلين.

أليس في كل هذا الذي قام به الإسلام والمسلمون ما يستدعي النصارى -وعلى رأسهم الحكام والبابوات والقسس والرهبان والمثقفون- إلى التفكر والتدبر، وإعادة النظر في موقفهم من محمد ﷺ، والكتاب العظيم المعجز الذي جاء به، وموقفهم من أتباعه الذين آمنوا بعيسى نبيًّا رسولًا، وبما أنزل عليه من كتاب، وبَجَّلوه، وكرَّمُوه، وأنصفوه وأحلوه المنزلة اللائقة بالأنبياء والمرسلين؛ فأين ردُّ الجميل؟!!

هل من ردِّ الجميل أن يضعوا أيديهم في أيدي اليهود الذين كفروا بعيسى وكذبوه، وقذفوه وأمه بأخبث القذائف والتهم، وعادوه أشد العداوة من ولادته إلى يومنا هذا، وفعلوا بأتباعه ظلمًا وعدوانًا ما تقشعر له الجلود؟!!

وأفسدوا عقيدته ودينه إمعانًا منهم في المكر والكيد، وجعلوا عيسى -نزهه الله- أسطورة من الأساطير هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة إفسادًا لرسالته، وإبطالًا لها، وجعلوا دينه وأتباعه هزؤًا وضحكة للعقلاء وحتى لأسفه السفهاء، لقد حولها الكائدون إلى ديانة أسطورية وثنية يخجل العقلاء وغيرهم منها.

٥- يزيد هذا الأمر إيضاحًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٢].

فهذا المثل العظيم حُجَّة قاطعة لدابر دعاوى النصارى.

فإذا كان آدم الذي خلقه الله من تراب بيده، ونفخ فيه من روحه لا يجوز ولا يصح في العقول والشرائع والفطر أن يُدعى فيه: أنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.

فعيسى أولى ألا يُدعَى له ذلك؛ إذ إن خلق آدم أعجب وأغرب؛ فهو مخلوق

من تراب، وليس التراب من جنس البشر.

وعيسى خُلق من امرأة من جنس البشر، حملت به كما تحمل النساء وولدته كما تلد النساء، فهذا من أعظم الحجج الدامغة للدَّعاوى الباطلة والشبه المتهافتة.

بل خلق الملائكة من نور من غير آباء وأمهات، وخلق إبليس من نار من غير أبوين أعجب وأدل على قدرة اللَّه الخالق الباري بديع السَّمٰوات والأرض..

بل خلق حواء من ضلع آدم من غير أمٍّ أعجب من خلق عيسى الذي حملته امرأة في بطنها، وولدته كما تلد النساء، فلم يبقَ للنصارى أي متعلق عند كل ذي عقل ودين وإنصاف!!

ومع كل هذا فعيسى في الإسلام وعند المسلمين أفضل من آدم ومن كثير من الأنبياء والرسل؛ اتباعًا للقرآن والسنَّة الكريمة النبويَّة، فعيسى في الإسلام من أولي العزم من الرسل.

فما الذي يحول بعد هذا كله بين النصارى وبين الإسلام دين اللَّه الحق ودين عيسى والأنبياء جميعًا..

ألا فليدركوا أن أعظم الضلال والكفر: أن يُدعَى لله الصاحبة والولد؛ لأنه أعظم السب والانتقاص لله ربِّ العالمين..

وأن أعظم الكفر بعيسى: تكذيبه في رسالته بالقول فيه: إنه ابن اللَّه.. إلخ.

بعد تصريحه من أول يوم بأنه عبد اللَّه، آتاه الكتاب وجعله نبيًا، وجعله مباركًا أينما كان، وأوصاه بالصَّلاة والزكاة.

وهذه صفات مخلوق مربوب مُفتقر إلى ربِّه، خاضع لجلاله، مطيع لأمره.

وهل يريدون من المسلمين أن يلغوا عقولهم، فيكفروا باللَّه وبما جاء به المرسلون جميعًا، وأن يختاروا غضب اللَّه وشديد عقابه بالنار التي أعَدَّها للكافرين على رضاه وجزائه للمتقين الموحدين جنَّة عرضها السَّمٰوات والأرض؟!!

أيها العقلاء المنصفون من النصارى، إننا ندعوكم أن تقوموا لله مثنى وفرادى، ثم تتفكروا في موقفكم من الإسلام الذي هو دين اللَّه الحق، ودين عيسى

وجميع الأنبياء والمرسلين، الإسلام الذي كرَّم عيسى وأنصفه، وأنزله المنزلة الكريمة اللائقة به، إنكم إن فعلتم ذلك متجردين من الأهواء، واستعنتم بالله، ثم بما بقي بعد التحريف من أناجيلكم؛ فستصلون -إن فعلتم ذلك- إلى الحق والحقيقة وهو:

أنَّ محمدًا رسول الله، وأن كتابه الذي جاء به لا يكون إلَّا حقًّا من عند الله، وأنَّ ما قاله في شأن عيسى هو الحق، وأنه عبد الله ورسوله خلقه الله كما خلق سائر البشر، ومنهم الرسل الكرام خلقهم لعبادته والخضوع لجلاله، والقنوت لعظمته وكبريائه.

وإليكم ما يُصدق ما جاء به محمد ﷺ في القرآن والسنَّة من بعض أناجيلكم:

١- في الآية السَّابعة من الفصل الرابع من إنجيل متى: «**لا تمتحن الرب إلهك**»[1].

٢- وفي هذا الفصل نفسه قصة جرت لعيسى ﷺ مع الشيطان وأنَّ الشيطان أمر عيسى ﷺ أن يسجد له، فأجابه عيسى المسيح بقوله: «**قد جاء في الكتب السابقة: لا تسجد إلَّا للربِّ إلهك، وهو وحده تعبده**».

وهذا ما جاء به الرسل جميعًا، قد احتج به عيسى على الشيطان، فهذا دليل واضح أنَّ الأنبياء جميعًا -ومنهم عيسى ومحمد ﷺ- جاءوا بالتوحيد؛ بأن الله هو الرب، والإله المعبود وحده.

فعيسى هنا احتج بما جاءت به الكتب السَّابقة بـ: أن الله هو الرب وحده، وهو الإله المعبود وحده، وأنه لا يُسْجَد إلَّا له وحده.

ولقد أوحى الله إلى محمد ﷺ قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وأوحى إليه قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ

---

(١) في نسخة: «لا تختبر».

إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فهذا الذي جاء به محمد ﷺ يتفق تمام الاتفاق مع ما صرَّح به عيسى في مجابهة الشيطان، ويتفق مع قالة عيسى عليه السلام في دعوته لبني إسرائيل: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [مريم: ٣٦].

ومع قوله يوم القيامة حينما يخاطبه ربُّه بقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

٣- وفي الفصل الحادي عشر رقم (٢٥) من إنجيل متى: «**أحمدك أيها الرب، رب السماء والأرض؛ لأنك أخفيت هذه الأشياء عن الحكماء والفهماء، وألهمتها الأطفال**».

فعيسى عليه السلام عَبدٌ من عباد الله ورسله، عرف حق ربِّه الذي خلقه، وأسبغ عليه نعمه؛ فتوجَّه إليه بالحمد والإقرار بأنه رب السماء والأرض وحده؛ لأنه الذي خلقهما وما فيهما وما بينهما وما تحت الثرى وليس لأحد فيهما من شرك؛ لا عيسى ولا غيره، وما له منهم من ظهير.

٤- وفي الفصل الرابع عشر من إنجيل متى رقم (٢٣): «**وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفردًا ليصلي**».

والصَّلاة أعظم العبادات، ولا تكون إلَّا من العبد الفقير المحتاج إلى رحمة ربِّه وخالقه ومعبوده؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقال تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ١٧٢].

فعيسى عَبدٌ من عباد الله، لا يستنكف عن عبادة الله، ولن يستنكف أبدًا، وهذا شأنه وشأن الأنبياء والملائكة جميعًا.

٥- وفي الفصل السادس والعشرون رقم (٩٣): «أن المسيح خرَّ ساجدًا لله، وقال: **يا أبت، إن أمكن أن تصرف عنِّي هذا البأس، ولكن ليس كما أريد أنا؛ بل كما تريد أنت**».

ففي هذا النص: أنَّ عيسى عبد الله لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، وأنه يلجأ إلى الله في الشدائد يستغيث به، ويضرع إليه؛ ليدفع عنه الضر والبأس، فيسجد له متقربًا إليه، خاضعًا له، مفتقرًا إليه، معتقدًا أنه لا يكشف الضر إلَّا هو سبحانه، وهذا حال الرسل جميعًا، بل سائر البشر.

٦- وفي الفصل الحادي والعشرون رقم (٤٥): «**لما أرادوا أن يقبضوا عليه خافوا من الجموع؛ لأنه كان عندهم نبيًا**».

ففي هذا دليل على أن الجموع من المؤمنين بالله وبعيسى أهل توحيد وإيمان خالص، وأنهم يؤمنون بأن عيسى رسول ونبي، وأن نبيهم عيسى قد عَلَّمَهم ذلك وربَّاهم عليه، ولم يكونوا يعتقدون فيه أنه إله أو ابن الله، وحتى الناس يعلمون ذلك عنه.

٧- وفي الفصل الثالث والعشرون رقم (٨): «**أمَّا أنتم فلا تدعوا أحدًا: سيِّدكم؛ فإن سيِّدكُم -حتى المسيح- واحد**».

وهذا النص يُماثل النص القرآني، وهو قول الله مخبرًا عن رسوله عيسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾.

فالله هو ربُّ عيسى وسيده ومربِّيه ومالكه، ورب الناس جميعًا وسيدهم ومالكهم جميعًا -عز شأنه وجل جلاله-.

وقد نبَّه الشيخ تقي الدين الهلالي في رسالته «البراهين»: أنَّ بعض المترجمين قد حرَّف هذا النص، وأنَّ الترجمة الإنكليزيَّة قد سلمت من هذا الفساد.

٨- وفي الفصل السابع عشر رقم (٣): «**وهذه هي الحياة الأبديَّة أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته**».

وفي هذا النص إثبات ما جاء به جميع الرسل: «أن لا إله إلا الله، وأن عيسى رسول الله»، وهذا في زمانه، ولكل أمَّة زمان ورسول؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ

أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٩- وفي إنجيل مرقس الفصل الثاني عشر رقم (٢٨-٣٠) وما بعده ما نصه: «فجاء واحد من الكتبة، وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسنًا؛ سأله: أية وصية هي أول الكل؟ فأجابه يسوع: إنَّ أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل، الرَّب إلهنا واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك». هذه هي الوصية الأولى..

وفي رقم (٣٢) ما نصه: «فقال له الكاتب: جيِّد يا معلم، قلتَ وقد نطقتَ بالحق؛ لأن اللَّه واحد، ولا إله غيره».

وفي رقم (٣٤): «قال يسوع: لست بعيدًا عن ملكوت الله».

وهذه الوصية الأولى هي وصية اللَّه إلى كل رسله ومنهم عيسى -عليهم السَّلام جميعًا-، ووصية الرسل إلى أممهم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

والدِّين الذي شرعه لهم هو: التوحيد، وهو معنى «لا إله إلَّا الله»، وأمروا جميعًا بالدعوة إليه، وهو الذي يعظم على المشركين، ويحاربون الرسل من أجله.

وهي وصية إبراهيم ويعقوب -وهو إسرائيل-، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٣٣].

إنها ملة عظيمة؛ إسلام لله رب العالمين، وتوبة إليه، ولجوء إلى اللَّه أن يجعل من ذريتهم ذرية مسلمة، وأن يبعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته، ويُعَلمهم الكتاب والحكمة ويُزكيهم، تبعدانهم هذه التزكية والحكمة عن الشرك والسَّفه والضَّلال، والحكم من اللَّه على من يرغب عن ملة إبراهيم -وهي التوحيد-: إلَّا مَن سفه نفسه.

والشاهد من هذا: التقاء دعوات الأنبياء جميعًا في التوحيد والإسلام، وأنه «لا إله إلَّا الله»، يدعون إلى ذلك أممهم، ويوصون بها من بعدهم من ذريَّاتهم وأممهم.. والشاهد هذا الآخر: هي وصية إسرائيل -وهو يعقوب- التي يُطابق فيها نص الإنجيل النص القرآني، وما في نص الإنجيل من المحبَّة داخل في الدين، بل الدين يشتمل أمورًا كثيرة أو أعمالًا عظيمة سوى المحبَّة.

هذا مع جلالة وروعة النص القرآني المؤثرة في الوجدان، والباعثة على التعظيم والإكبار والإيمان بـ: أن هذا الكلام لا يرقى إلى مثله البشر، وأنه تنزيل من حكيم حميد على النبيّ الأمي الذي ما قرأ كتابًا، ولا خطه بيمينه.

انظر إلى قول عيسى ﷺ ووصيته العظيمة، وإلى إيمان الكاتب السَّائل المستفيد، وقوله: «نطقت بالحق؛ لأن اللَّه واحد، ولا إله غيره».

وإجابة المسيح له: «لست بعيدًا عن ملكوت الله». وهذا -واللَّه أعلم- وعد له بالجنَّة، وفيه الدليل أنَّ غير الموحد لا يدخل الجنَّة؛ كما قال تعالى مخبرًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

★ ملاحظـة:

في لغة التوراة والأناجيل كل تقي بر يُسَمَّى ابن اللَّه، ولم يختص عيسى بلفظ: «ابن».

١٠- وفي الفصل الخامس من إنجيل «متى»: «طوبى لصانعي السلام؛ لأنهم أبناء اللَّه يدعون».

١١- وفي الفصل نفسه رقم (٤٥): «لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء».

١٢- وفي رقم (٤٨): «فكونوا أنتم كاملين؛ كما أنَّ أباكم الذي في السَّماء كامل».

١٣- وفي الفصل السادس رقم (١): «وإلَّا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السَّماء».

١٤- وفي الفصل الثالث والعشرون، رقم (٩): «ولا تدعوا لكم أبًا على الأرض؛ لأنَّ أباكم واحد وهو الذي في السماء».

ومن ذلك تعرف أنَّ الأبوَّة والبنوَّة بمعنى: العلاقة بين الربِّ والعبد ثابتة في الإنجيل لجميع الناس، ولا خصوصية للمسيح في ذلك[1].

وقد يكون كل هذا من تصرف بعض اليهود والنصارى، والله أعلم!!!

ولقد قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

والعاقل المنصف يدرك مما سقناه من نصوص القرآن ما حوته في طياتها من إكرام وتبجيل وحفاوة وإشادة بعيسى، وإثبات نبوته ورسالته، وأنه من كبار الرسل العظام الذين حملوا لواء التوحيد ودعوا البشر إلى هذا التوحيد (توحيد الله)، وإخلاص الدين له، وأنهم حاربوا الشرك بالله، وتوَعَّدُوا أهله بالخلود في النار وبئس القرار.

وأن الله قد برأ عيسى وأمَّه مما قذفهما به اليهود، ورفع من شأنهما، واعتبر قول اليهود فيه وفي أمِّه كفرًا وبُهتانًا عظيمًا.

وقد تطابقت نصوص القرآن والإنجيل على أن عيسى عبد الله ورسوله، وهذا هو الكمال الذي لا يناله إلَّا الرسل العظام ومنهم عيسى عليه السلام، وقد جاءت السنَّة النبويَّة بمثل ذلك، والمسلمون يؤمنون بهذا كله، فأي حيف في الإسلام والمسلمين؟!! لا شيء أبدًا لدى العقلاء والمنصفين.

---

(١) البراهين (ص٦-١٠).

بل حيف على الله، والأمر الإد الذي تكاد السَّمَوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدًّا هو: خلاف ما دل عليه القرآن والسنَّة وما عليه المسلمون، بل وما دلت عليه نصوص التوحيد المحفوظة في الإنجيل.

أمَا آن للنصارى بعد كل هذا أن يهرعوا ويبادروا إلى الإسلام؛ ولاسيما عقلاؤهم ومثقفوهم وأحرار الفكر منهم.

إننا ندعوهم مرة أخرى أن يقوموا لله مثنى وفرادى، ثم يتفكروا في هذا الأمر العظيم الذي لا أعظم منه بجد وإنصاف وطلب مُلِحّ؛ لإدراك الحق والحقيقة؛ لأنها مسألة مصيريَّة، إمَّا إلى جنَّة عرضها السَّمَوات والأرض، وإمَّا إلى نار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين خالدين فيها أبدًا، وهذا أمر اتفق عليه الرسل جميعًا وتضمنته كتبهم، ومنهم عيسى عبد الله ورسوله -صلى الله عليه وعلى نبينا وسائر النبيين والمرسلين وسلم تسليمًا كثيرًا-.

ويجدر هنا أن نقول لكم صادقين:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إنها دعوة جَادَّة تتطلب منكم الجد، فلا يصدنكم عدوُّ الله الشيطان؛ إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ مبين، وإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، والله الرءوف الرحيم يدعوكم إلى الجنَّة والمغفرة: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥].

والله إنَّ السعادة كل السَّعادة في الدنيا والآخرة في الإسلام العظيم الذي شرعه ربُّ العالمين، أرحم الراحمين..

ووالله إنَّ فيه الحلول الكاملة لكل مشاكل البشر العقائديَّة والسياسيَّة والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، وفيه القضاء على العداوات والأحقاد والضغائن التي تحصد حياة البشر حصدًا؛ بل تحولها إلى جحيم.

فلا دين اليوم ولا منهج على وجه الأرض يَتضمَّن ويَضمن ما قلناه آنفًا بحقٍّ إلَّا

هذا الدين العظيم؛ بقرآنه المعجز، وسنته العظيمة، وقواعده المحكمة الحكيمة، وأصوله المتينة.

فهلمُّوا هلموا إلى الأسباب الحقيقيَّة للنجاة من شقاء الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من الحروب المدمِّرَة والكروب الخانقة.

اللَّهُمَّ اهدِ هذه الأمم إلى دينك القويم وصراطك المستقيم؛ إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

وللبحث صلة -إن شاء الله- نبين فيه عظمة الإسلام، وصدق رسول الإسلام، وبعده ورسالته عن الإفراط والتفريط، وموافقته للعقول الرصينة والفطر السليمة.

* * *

نصيحة دعوية للبابوات

إلى الإسلام

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه..

أما بعد:

فقد أذيع وأشيع في وسائل الإعلام -من إذاعات، وصحف، ومواقع فضائية- بـ: أن بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر قد طعن في الإسلام ورسول الله محمد -عليه الصلاة والسلام- ووصفه ورسالته بالشر، ومجافاة العقل!!

وهذا أمر عجيب ومذهل، ومصادم للمنطق والعقل، ولحقيقة الإسلام الناصعة؛ ذلكم الإسلام الذي أخرج الله به البشرية من الظلمات إلى النور، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، الذي شهد به عقلاء الأعداء..

ولا أطيل في مدح الإسلام ورسول الإسلام فإنه قد امتلأت به الدنيا، وزخرت به المكتبات.

* وأختصر فأقول:

إن محمدًا رسول الله حقًّا وصدقًا، أرسله الله رحمة للعالمين، أرسله بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله وسراجًا منيرًا، جاء باحترام الأنبياء وكتبهم؛ بل جاء بحبهم والإيمان بهم وبكتبهم.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى -آمرًا محمدًا ﷺ وأمته-: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ

مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

جاء محمد ﷺ بالعدل والإحسان؛ ناهيًا عن الفحشاء والمنكر والبغي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

جاء بالجهاد؛ لإعلاء كلمة الله، وللقضاء على الكفر والشرك والفساد، وقد سبقه إلى ذلك موسى -عليه الصلاة والسلام-، وأنبياء بني إسرائيل من بعده.

وجاء بشريعة القصاص والحدود؛ لحفظ الدين والأنفس والأعراض والأموال، وقد سبقه إلى ذلك موسى، وأنبياء بني إسرائيل من بعده، وذلك خير وإحسان وحفظ للأعراض والأموال.. إلخ؛ ولإشاعة الأمن والأمان، وجلب المصالح ودرء المفاسد.

ولا يصف محمدًا ورسالته بالشر إلا كاذب كَفَّار، طاعن في موسى ورسالته، وطاعن في الأنبياء بعده الذين كانوا يحكمون بالتوراة.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٤-٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وقد كفر اليهود والنصارى بالتوراة والإنجيل، فلم يعملوا بما فيهما من عقائد وأحكام، وكذبوا محمدًا ﷺ الذي جاء مصدقًا للأنبياء وكتبهم ومنها التوراة والإنجيل.

كفروا بمحمد، وما تضمنته رسالته من: تصديق للأنبياء جميعًا، وتصديق لما في التوراة والإنجيل، وما فيهما من عقائد وأحكام، إلا ما نسخه الإسلام،

وحاربوه أشد الحرب؛ ولا سيما أحبارهم ورهبانهم وبابواتهم؛ كبرًا وبطرًا وحسدًا وبغيًا، بعد أن حرفوا كتبهم وتلاعبوا بنصوصها، وحَوَّلوا ما فيها من عقائد وتوحيد وإيمان إلى شرك وكفران، وعطلوا ما فيها من أحكام!!

فإذا كان هذا موقفهم من كتبهم التي يدَّعون الإيمان بها؛ فكيف يصعب عليهم الكفر بمحمد، وبما جاء به من قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟!

يا أهل الكتاب! توبوا إلى الله توبة نصوحًا، واتبعوا محمدًا الذي بشرت به كتبكم، وبشر به عيسى -عليه الصلاة والسلام-، حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

يا من يُسمَّى بـ: «بابا الفاتيكان» أَسْلِم تَسْلم يؤتك الله الأجر مرتين، فإن أبيت فإنما عليك إثم أتباعك من النصارى الأوربيين وغير الأوربيين.

أسلم وليسلم أهل ملتك، يدخلكم الله جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، أتباع الرسل الصادقين، آمِنْ بهذا القرآن العظيم الذي هيمن على كل الرسالات، وجاء بالعقائد الصحيحة، والأحكام العادلة التي تؤيدها العقول الراجحة، والفطر السليمة.

آمِنْ أنت وأتباعك بهذا القرآن، الذي تضمن ما ذكرت لكم، وبلغ مرتبة من الإعجاز لا يلحقه إعجاز مادي ولا معنوي.

تحدَّى الله الجن والإنس أن يأتوا بمثله؛ فعجزوا أن يأتوا بمثله؛ بل عجزوا أن يأتوا بعشر سور من مثله؛ بل عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله، عجزوا وعجزوا

وعجزوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

وفي هذا وحده ما يدعو البابوات وأتباعهم إلى الإيمان، لو كان عندهم حظ من العقل والتعقل والإدراك والإنصاف.

أسلموا أيها البابوات تسلموا، وتغنموا جنة عرضها السموات والأرض، وإلا فأيقنوا بالعذاب الشديد الخالد من نار أعدها الله للكافرين، حرها شديد، وقعرها بعيد.

قال تعالى في القرآن العظيم، وكتابه الحكيم: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

وقال تعالى في كتابه العظيم: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١١-١٦].

أيها البابوات! لا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، واعلموا أن أسلافكم قد حرفوا كتبكم، وأفسدوا ملتكم، وجعلوا من البشر آلهةً من دون الله، وادَّعوا أن عيسى ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قال الله في كتابه الخالد المعجز، المحفوظ من التحريف والتبديل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وقال تعالى -في هذا الكتاب العظيم المعجز-: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٩-٩٥].

يا أهل الكتاب، ويا أيها البابوات! لقد جاء كل الرسل بالتوحيد، وحاربوا الشرك، ومنهم عيسى -عليه الصلاة السلام-، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن

يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

فأمر ﷺ بعبادة الله وحده، وصرح بأن الله ربه، ورب من خاطبهم وأُرْسِل إليهم، وأن من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

فانتهوا أيها النصارى والبابوات عما حذركم الله من تأليه عيسى وغيره من المخلوقات، وإلا فأنتم على الكفر والشرك، وجزاء ذلك أن يُحرِّم الله عليكم الجنَّة، وأن يجعل مأواكم النار.

ولا تغتروا بما وجدتم عليه أسلافكم وبابواتكم ورهبانكم، فإنهم والله على الباطل والكفر، ولقد حرفوا التوراة والإنجيل كما أسلفت لكم.

ولا تظنوا أن عيسى سيشفع لكم، أو يدخلكم الجنَّة وينجيكم من النار؛ لأن هذا ليس بيده؛ ولأنكم قد خالفتموه وخالفتم عقيدته، عقيدة التوحيد، واتخذتموه إلهًا وهو يُكفِّر من يفعل ذلك، وسيتبرأ منكم ومن ضلالكم ومن اتخاذكم إيَّاه وأمه إلهين من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

فهذا عيسى يتبرأ من عقيدة النصارى، واعتقادهم الباطل فيه وفي أمِّه أنهما إلهان من دون الله، ويُصرح أمام الله أنه ما أمر الناس إلَّا بما أمره به ربه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. فاللَّه ربه ورب الناس، وأنه من المستحيل أن يدَّعي لنفسه ولأمه الإلهيَّة، وأن يأمر الناس بالشرك بالله.

فإن كذبتم بما تضمنه هذا الخطاب من حقائق، وحاججتم، وجادلتم في ذلك، فإنني أدعوكم إلى المباهلة، كما أمر الله رسوله الصادق الأمين فقال له:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ[1] مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

ولي ولكل مسلم في ذلك أسوة حسنة بمحمد ﷺ.

والسلام على من اتبع الهدى.

كتبها

ربيع بن هادي عمير المدخلي

٢٤/شعبان/١٤٢٧هـ

---

(١) أي: في عيسى.

الموقف الصحيح

من أهل البدع

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة شيخنا العلامة الشيخ ربيع بن هادي المدخلي -حفظه الله-.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

شيخنا -حفظكم الله-، لا يخفاكم ما للجليس من أثر على جليسه، سواءً كان خيرًا أو شرًا.

ولقد وقع بعض إخواننا السلفيين في هذه الأيام في مخالطة بعض المخالفين للمنهج السلفي على سبيل الصحبة وتوافق الطبع؛ فتجد أن هذا الأخ أقل ما يصاب به هو التبلد تجاه الأفكار المخالفة للعقيدة السلفية، ويشمئز من ذكر القضايا المنهجية.

فنريد منكم -حفظكم الله تعالى- ذكر كلمه تربوية سلفية؛ تبين خطورة مخالطة هؤلاء، وذكر الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار السلفية في تبيين خطورة ذلك، وذكر الأمثلة من التاريخ تبين تحول بعض أهل السنة إلى البدعة بسبب مماشاة أهل الأهواء.

بارك الله في عمركم وعلمكم، وجزاكم الله خيرًا.

أجاب -حفظه الله- بقوله:

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

فإجابةً على هذا السؤال أقول: إن هذه المسألة مهمة جدًّا وشأنها خطير؛ ولهذا اهتم بها الكتاب والسنة، والسلف الصالح في دواوين الإسلام، وخاصةً ما يتعلق بالعقائد، وبالذات ما يتعلق بالمواقف من أهل البدع والضلال، وأهل الفتن والانحرافات، وجلساء السوء بالذات، ففيما بينوه الشفاء والكفاية لمن أراد لنفسه الخير، وأراد لنفسه أن يحيا حياة تُرضي ربه وتقربه إليه، وتبعده عن النار.

لقد اهتم بهذا الموضوع سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم- علمًا وعملًا وتطبيقًا -رضوان الله عليهم-، فما علينا إن كنا نريد النجاة إلا أن نتبع سبيل هؤلاء المؤمنين الصادقين المخلصين، الذين عرفوا الشريعة الإسلامية عقائدها، ومناهجها، ومقاصدها، ومراميها، فقدموا النصح و البيان و التحذير لمن أراد الله به خيرًا من هذه الأمة، وأراد له النجاة وركوب سفينة النجاة فعلًا.

في القرآن الكريم تقرءون قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

فبين الله في هذه الآية واقع وحال أهل الزيغ والأهواء، وأنهم يتقصدون الشر للأمة، و يتقصدون لهم الفتن؛ لأن نواياهم ليست بسليمة، وقلوبهم مريضة، ويريدون أن يصاب الناس بأدوائهم لأنه كما يقال في المثل: «كلما عَمَّت هانت»، وفي المثل العامي: «قُطِع ذنب الثعلب فقَطَعَ أذناب الآخرين».

وقد قال الله -تبارك وتعالى- في الكفار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ

ﵟٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَﵞ [آل عمران: ١٠٠].

ويود الكفار والنصارى واليهود للمسلمين أن يرتدوا عن دينهم، ولأهل البدع نصيبٌ كبير من هذا القصد السيئ، ، من إرادة السوء لأهل الخير؛ من هنا يجب الحذر منهم غاية الحذر.

وقد نبهَنا الله في هذه الآية التي ذكرناها أن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، يتقصدون فتنة الناس في دينهم والانحراف بهم عن دين الله الحق إلى ما هم فيه من البدع والضلال، وما هم فيه من الشبهات والتخبطات والانحرافات، وهم يريدون السوء لمن يثق فيهم، ولمن يجالسهم ويخالطهم.

ولهذا تراهم يسلكون شتى المسالك لصد أهل الحق -ولا سيما الشباب- عن منهج الله الحق، فلهم طرق قد برعوا فيها، وأساليب قد مهروا فيها وربوا عليها شبابهم، فتجده لا يعلم كيف يتوضأ؛ ولكنه يجيد عرض الشبه والتشكيك والتشويه والتنفير من الحق وأهله، قد تجده يجيد هذا إجادة عظيمة -والعياذ بالله-، ونسأل الله أن ينقذهم من هذه المسالك الشيطانية، وأن ينقذهم من أسباب الهلاك.

الرسول -عليه الصلاة والسلام- تلا هذه الآية لما تلاها قال: «**فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**»[1].

فهؤلاء أهل الأهواء وأهل الزيغ هم الذين يتتبعون المتشابهات، الرسول ﷺ يقصد أن أهل الزيغ الذين يتبعون المتشابه هم الذين يجب أن يحذرهم الناس، فمن علامة أهل البدع، ومن علامة أهل الزيغ: أنهم لا يسلكون مسالك أهل السنة في بناء دينهم على الآيات المحكمة، ورَدّ المتشابهات إلى المحكمات؛ وإنما يتعلقون بما يوافق هواهم، ويستطيعون أن يروجوا به لدعواهم الفاسدة، وبدعهم الضالة؛ كما فعل الخوارج، والروافض، والمرجئة، والقدرية؛ فإنهم يتعلقون من النصوص المجملة والمتشابهة بما يوافق هواهم؛ فيضلون به ويضلون الناس.

وعلى هذه الشاكلة أهل البدع في كل زمان ومكان، مهما كان نوع بدعتهم،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، صحيح أبو داود (٣/ ٨٦٩).

ولا تحتقرن شيئًا من البدع ولا تستصغرن منها شيئًا؛ فإن هذه مسالكهم، يَفتن ويَزيغ، ويريد أن يُفتن الناس ويزيغون مثل زيغه، وينحرفون مثل انحرافه، ويُفتنون مثل فتنته، والعياذ بالله، فأنت ترى الآية بينت حالهم والرسول ﷺ بين حالهم وحذر منهم.

وإذا كان قد أمر بهجران الصحابة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك حتى بعد توبتهم، وهم لم يركضوا بهذه فتنة ولم يتحركوا بها، بل تابوا وندموا واعترفوا، ومع ذلك لما وقعوا فيه من المخالفة لأمر الرسول ﷺ؛ لأنهم متهمون في هذه الحال وقد يكونون متهمين بالنفاق.

فإحسان الظن بأهل الانحرافات، وأهل البدع والضلالات مخالفٌ لمنهج الله -تبارك وتعالى-، فلابد من الحذر منهم، ولهذا قال الرسول -عليه الصلاة والسلام-: «**فإذا رأيتم من يتبع المتشابه فأولئك الذين لعن الله؛ فاحذروهم**»[(١)].

ما قال: أحسنوا بهم الظن، كما يقول الآن كثير من أهل الأهواء: أنتم تتكلمون عن النوايا، أنتم تتكلمون عن المقاصد! يا أخي إذا رأينا عندك شبه وضلالات أنت متهم، الله حذرنا منك، ورسول الله حذرنا منك، كيف لا نحذر منك، وكيف نحسن بك الظن وقد نبهنا الله -تبارك وتعالى- إلى سوء قصدك، وحذر رسول الله منك؟!

فالرسول ﷺ لماذا ما أحسن الظن بهؤلاء وهم صحابة وبعضهم بدريون، وتخلفوا لعذر من الأعذار وبينوا، وهو لسبب من الأسباب، ما نقول: عذر من الأعذار، بينوا الحقيقة لرسول الله -عليه الصلاة والسلام- كما هي، فقال: «**أما هؤلاء فقد صدقوا**». ولكن نكِل أمرهم إلى الله ﷻ، وحتى يقضي الله فيهم ما أراد ﷻ.

فأمر رسول الله بهجرانهم إلى أربعين يومًا، وبعد أربعين يومًا يرسل لهم الرسل أن يعتزلوا نسائهم، هجرهم المجتمع برمته، ما كان يكلمهم أحد أبدًا، بقي

---

(١) سبق تخريجه.

معهم زوجاتهم يعطفن عليهم، فأمرهم رسول الله باعتزال نسائهم، أمر الله الرحيم الرءوف، ورسوله الرءوف الرحيم -عليه الصلاة والسلام- يعامل هؤلاء بمثل هذه المعاملة.

فالحذر من أهل البدع وبغضهم وهجرانهم ومقاطعتهم هو السبيل الصحيح لحماية الأصِحَّاء من أهل السنة من الوقوع في فتنتهم، و التساهل معهم وحسن الظن بهم والركون إليهم هو بداية في طريق الضلال والانحراف: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

ومن أظلم من أهل البدع؟! أهل البدع شر من الفساق وأهل المعاصي، ولهذا يقول فقيه البصرة وعاقلهم سلام بن أبي مطيع: «لأن ألقى الله بصحيفة الحجاج، أحب إلي أن ألقاه بصحيفة عمرو بن عبيد».

عمرو بن عبيد[١]، عابد زاهد ما شاء الله، لكن مبتدع ضال، والحجاج فاجر سفاك مجرم، يرى أنه لو خُيِّر أن يلقى الله بصحيفة الحجاج، وصحيفة عمرو بن عبيد، لاختار أن يلقى الله بصحيفة الحجاج السفاك الظالم الفاجر، لماذا؟ لإدراكه لخطورة البدع وشناعتها، ويكفينا أن الرسول ﷺ كان في كل خُطَبِهِ أو جُلِّها يصفها بأنها شر الأمور، كما في حديث جابر ؓ قال: «كان الرسول ﷺ إذا خطب يعلو صوته ويحمر وجهه كأنه منذر جيش، يقول: صَبَّحكم ومَسَّاكم، ثم يقول: أما بعد، فإن خير الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها»[٢].

وهي تدخل في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ٣١].

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٢٨)..

(٢) رواه مسلم وغيره، الإرواء (١٠/ ٦٠٨) خطبة الحاجة.

فهؤلاء أتباع أهل البدع، مهما كان هذه البدع تتناوله مثل هذه الآيات، لماذا؟ لأنهم يقدمون طاعة أمرائهم وسادتهم وقادتهم على طاعة الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وعلى طاعة الله -تبارك وتعالى-.

وكثير من هو سيلقى الله بهذه الإجابة: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

كثير منهم -لا أقول: كلهم- كثير منهم سيلقى الله بهذه الإجابة، خاصة من يتبع هواه في محاربة الحق، والرضا بالباطل، بل الدعوة إلى الباطل وتشويه الحق؛ كما يجري من كثير من الناس في هذه الأيام، تراهم يلبسون مُسوح الإسلام بل مسوح السلفية؛ وهم أشد الناس حربًا على السلفية وأهلها.

فالذي يحترم المنهج السلفي ويحترم العقيدة السلفية ويحترم أهل هذا المنهج سابقهم ولاحقهم، كيف يحسن الظن ويركن إلى أهل الباطل؟! إن قلت: كتاب الله، فهو عليك، إن قلت: سنة رسول الله، فهي حجة عليك، إن قلت: أئمة الإسلام، فمواقفهم معروفة، ومدوناتهم وتآليفهم معروفة في مجافاة أهل البدع وبغضهم والتحذير منهم- ولاسيما أئمة السنة- كمالك، والأوزاعي، والشافعي، والسفيانين، وأبي حاتم، وأبي زرعة، أئمة الإسلام وجبال السنة، وهم قدوة الأمة، فمن لا يقتدي بهؤلاء ويحيد عن سبيلهم فوالله إنه لمتبع لسبيل الشيطان، ويركض في ميادين الشيطان، مهما ادعى لنفسه.

الآن هات موقف الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام ممن يسب أصحاب محمد ﷺ، الرسول -عليه الصلاة والسلام- يقول: **«لا تسبوا أصحابي؛ والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»**[1].

يعني: الصحابة فوق القمم، ما هم قمم بل فوق القمم، يعني هم بعد الأنبياء مباشرةً لماذا تسبهم، لماذا تسب أحدًا منهم وأنت لو جئت بأعمال الخير كلها وأنفقت جبال الذهب كلها لو صارت جبال الدنيا مثل جبل أحد ذهبًا وأنفقته ما

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، صحيح ابن ماجه (١/ ٣٢).

بلغت مد أحدهم ولا نصيفه، فكيف تسبهم والرسول ﷺ يلعن من يسب أحدًا من أصحابه؟!

ثم تجد هؤلاء الضالين لا يغضبون لأحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، ويا ويلك إن انتقدت إمامًا من أئمة الضلال السابين للأنبياء والصحابة والقائلين بالحلول ووحدة الوجود، يبغضونك ويحاربونك من أجل هذا الضال لا من أجل أصحاب محمد ﷺ، فهذا ضلال وأي ضلال.

كثير منهم يزعمون أنهم من أهل السنة وهذا واقعهم وهذا حالهم، فأي احترام عندهم للسنة وقد أهين أصحاب رسول الله ﷺ فلم ينصروهم؟!

ومن كذبهم وفجورهم: أنهم رفعوا عقيدتهم بمنهج الموازنات، ويسمونه بمنهج العدل و الإنصاف، لماذا لا تنصفون الصحابة، لماذا ما تنصبون موازينكم هذه أول شيء لنبي من الأنبياء ولأصحاب محمد ﷺ؟

هذا دليل أنكم ما أنشأتم مثل هذا المنهج وما تعلقتم به إلا لنصرة الباطل، ونصرة الضلال، ولحماية الضلال وأهله، ولحماية مناهج الضلال، والله لو كنتم صادقين ما اخترعتم هذا المنهج، لو كنتم صادقين لبدأتم بنصرة أصحاب محمد ﷺ وإنصافهم ممن افترى عليهم وظلمهم وأهانهم ورمى بعضهم بالنفاق ورمى بعضهم بالردة... وفعل وفعل، ومثل هذا مقدس عندكم، مثل هذا مقدس، مجدد، إمام... إلى آخره.

أَبَلَغ هذا الشأو، وبلغ هذه المنزلة بسبه لأصحاب محمد ﷺ أم بسبه لموسى، أم بقوله بالحلول، أم بقوله بوحدة الوجود، أم لتعطيله للصفات، أم بقوله بالاشتراكية؟! بلغ هذه المنزلة السامية عندكم بهذه الأشياء، وكثير وكثير من المخازي، ومع ذلك هو عندكم قمة، وأصحاب الرسول ﷺ في الهامش، وبعيدون عن الهامش، لو كنتم تحترمونهم والله، لو كان هذا الشخص أباكم وجدكم لحاربتموه، ولكن إنما هي الأهواء، وإنما هو الضلال والانحراف والاستهانة بدين الله وحملته، مهما ادعيتم لأنفسكم فهذا الواقع يكشفكم ويفضحكم.

على كل حال؛ أنا أحيل الشباب إلى كتب أئمة السنة لينهلوا منها مباشرة، لا يأخذون من أشرطة فلان، وكتابات فلان، وإنما يأخذوا العلم من مناهله الأصيلة، ويرجعون إلى العلماء فيما يشكل عليهم.

وإن الأمر -والله- لجد -ورب السماء- لاسيما والمشاكل بلغت حدًّا لا نظير له، فالسنة الآن تُحارب، وأهلها يحاربون بمختلف وسائل الإعلام، وفي الكتب وفي الأشرطة والإنترنت وفي كل مكان، ويصورون أهل السنة بأنهم خوارج!! بل يكفرونهم، فأي فتنة أخبث وأشد على الإسلام والمسلمين من هذه الفتنة الخطيرة التي ملأت الأرض والأجواء والفضاء؟! فنسأل الله العافية.

فنحن نحذر الشباب السلفي من مخالطة هؤلاء، والاستئناس بهم، والركون إليهم، فليعتبروا بمن سلف ممن كان يغتر بنفسه ويرى نفسه أنه سيهدي أهل الضلال، ويردهم عن زيغهم وضلالهم؛ وإذا به يترنح ويتخبط ثم يصرع في أحضان أهل البدع.

وقد مضت تجارب من فجر تاريخ الإسلام، فأناس من أبناء الصحابة لما ركنوا إلى ابن سبأ؛ وقعوا في الضلال.

وأناس من أبناء الصحابة والتابعين لما ركنوا إلى المختار بن أبي عبيد؛ وقعوا في الضلال.

وأناس ركنوا إلى كثير من الدعاة السياسيين الضالين ومن رءوس البدع؛ فوقعوا في حبائل أهل الضلال.

وكثيرون وكثيرون جدًّا، ولكن نذكر منهم قصة عمران بن حطان، كان من أهل السنة وهوى امرأة من الخوارج، فأراد أن يتزوجها ويهديها إلى السنة، فتزوجها؛ فأوقعته في البدعة-قبحه الله-، وكان يريد أن يهديها فضلَّ بسببها.

وكثير من المنتسبين إلى المنهج السلفي يقول: أنا أدخل مع أهل الأهواء لأهديهم، فيقع في حبائلهم.

عبد الرحمن بن ملجم، و عمران بن حطان، كلهم كان ينتمي إلى السنة ثم وقع في الضلال، وأدى بعبد الرحمن بن ملجم فجوره إلى أن قتل عليًّا، وأدى بعمران

بن حطان فجوره إلى أن مدح هذا القاتل نسأل الله العافية قال:

يا ضربة من تقي ما أراد بها	إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره حينًا فأحسبه	أوفى البرية عند الله ميزانا
أكرم بقوم بطون الطير قبرهم	لم يخلطوا دينهم بغيًا وعدوانا[1]

إلى آخر أبيات رديئة قالها في مدح هذا المجرم، بارك الله فيكم.

وحصل لعبد الرزاق من أئمة الحديث أن انخدع بعبادة وزهد جعفر بن سليمان الضبعي، وأنِسَ إليه؛ فوقع في حبائل التشيع.

وانخدع أبو ذر الهروي راوي الصحيح بروايات، وهو من أعلام الحديث، انخدع بكلمة قالها الدارقطني في مدح الباقلاني؛ فجَرَّته هذه الكلمة في مدح الباقلاني، إلى أن وقع في حبائل الأشاعرة، وصار داعية من دعاة الأشعرية؛ وانتشر بسببه المذهب الأشعري في المغرب العربي، فأهل المغرب يأنسون إليه، ويأتونه ويزورونه، ويبث فيهم منهج الأشعري، وهم قبله لا يعرفون إلا المنهج السلفي؛ فسن لهم سنة سيئة[2]. نسأل الله العافية.

كما قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «**من دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزارهم إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيئًا**»[3]. فنسأل الله العافية.

والبيهقي انخدع ببعض أهل الضلال، كابن فورك وأمثاله، وكان من أعلام الحديث.

أنت جاهل وتثق بنفسك، وتغتر بنفسك، وأنت ما عندك علم يحميك؛ فأنت أولى مئات المرات بالوقوع في البدعة من هؤلاء.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٥٨).

(٣) صحيح ابن ماجه (١/ ٤١).

وانخدع البيهقي بابن فورك فوقع في الأشعرية، وكثير وكثير من الناس.

وفي هذا العصر أمثلة كثيرة ممن عرفناهم كانوا على المنهج السلفي؛ ولما اختلطوا بأهل البدع ضلوا؛ لأن أهل البدع الآن لهم أساليب، ولهم نشاطات، ولهم طرق -يمكن ما كان يعرفها الشياطين في الوقت الماضي- فعرفوا الآن هذه الأساليب وهذه الطرق وكيف يخدعون الناس.

فمن أساليبهم: أنك تقرأ وتأخذ الحق وتترك الباطل، كثير من الشباب لا يعرف الحق من الباطل، ولا يميز بين الحق والباطل، فيقع في الباطل يرى أنه حق، ويرفض الحق يرى أنه باطل، وتنقلب عليه الأمور، وكما قال حذيفة ﷺ: **«إن الضلالة كل الضلالة أن تنكر ما كنت تعرف، وتعرف ما كنت تنكر»**.

فترى هذا سائر في الميدان السلفي والمضمار السلفي ما شاء الله ما تحس إلا وقد استدار المسكين، فإذا به حرب على أهل السنة، وأصبح المنكر عنده معروفًا، والمعروف عنده منكرًا، وهذه هي الضلالة كل الضلالة، فنحن نحذر الشباب السلفي من الاغترار بأهل البدع والركون إليهم.

فأنصح الشباب السلفي:

أولًا: أن يطلبوا العلم، وأن يجالسوا أهل الخير، وأن يحذروا أهل الشر، فإن الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام- ضرب مثلًا للجليس السوء وآثاره السيئة، والجليس الخير وآثاره الطيبة، فقال: **«مثل الجليس الصالح والجليس السوء: كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة** - يعني: أنت رابح و مستفيد منه على كل حال من الأحوال، لا تجد منه إلا الخير، كالنخلة كلها خير، وكلها نفع كما هو مثل المؤمن- **والجليس السوء كنافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما ألا تسلم من دخانه»**[(١)].

(١) أخرجه البخاري ومسلم رقم الحديث (٥٨٣٩)، صحيح الجامع وصحيح النسائي (٤٦٦٥) عن أبي موسى.

فالأذى لابد لاحقٌ بك، والشر لابد أن يلحق بك، جسيمًا أو خفيفًا، فإذا كان لابد من الضرر من مجالسة أصحاب السوء، فلماذا تحرص على مجالستهم ومخالطتهم؟!

ما دليلك على الجواز؟!

الرسول ﷺ حَذَّر، الرسول ﷺ أنذر، الرسول ﷺ بَيَّن الخطر فما هو عذرك؟!

وأئمة الإسلام حَذروا وأنذروا، ونفذوا توجيهات الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وتوجيهات القرآن الكريم والسنة، فبأيِّ دليل تخالف منهج أهل السنة والجماعة، وتتحدى إخوانك الذين يحبون لك الخير، ويخافون عليك من الوقوع في الشر؟!

فأنا أنصح الشباب السلفي أينما كانوا، وأينما نزلوا: أن يدرسوا منهج السلف، وأن يعرفوا قدْر أهل السنة والجماعة، وأن يدركوا فيهم أنهم أهل النصح، وأهل الخبرة، وما يقولونه -والله- يتحقق فيمن يأخذ بقولهم أو يخالفهم، فمن خالفهم؛ فالغالب عليه الوقوع في الباطل والوقوع في الشر، ومن استفاد منهم؛ سَلِمَ ونجا، والسلامة والنجاة لا يعدلها شيء.

وإذا كان كبار السلف من أمثال أيوب السختياني، وابن سيرين، ومجاهد، وغيرهم، لا يطيقون أن يسمعوا كلمة أو نصف كلمة من أهل الباطل، ولا يسمحون لك أن تناظر أهل البدع؛ لأن المناظرة تجرك إلى الوقوع في الفتنة، فهم أهل خبرة، وأهل ذكاء، وأهل نصح، فأوصي الشباب أن يستفيدوا:

أولًا: من كتاب الله.

ثانيًا: من سنة رسول الله ﷺ.

ثالثًا: من توجيهات ومواقف السلف الصالح، بدءًا بالصحابة، وعلى رأسهم عمر، الخليفة الراشد، وعلي بن أبي طالب-رضوان الله عليهم-، وعبد الله ابن عباس، وجابر بن عبد الله، و عبد الله بن عمر -رضوان الله عليهم جميعًا-.

ونذكر لكم مواقف بعضهم؛ لأن الوقت لا يتسع لاستقصائهم:

أما عمر؛ فقصته مع صبيغ بن عسل مشهورة و معروفة، إذ كان يقذف ببعض

الشبهات في أوساط الناس؛ فاستدعاه عمر، وضربه ضربًا شديدًا، وأودعه في السجن، ثم استدعاه مرةً أخرى، وضربه، وأودعه في السجن، ثم في الثالثة قال: يا أمير المؤمنين، إن أردت قتلي فأحسن قتلتي، وإن أردت أن يخرج ما في رأسي فوالله لقد خرج، فلم يأمن جانبه أبدًا، بعد كل هذا نفاه إلى العراق، وأمر بهجرانه.

فهذه عقوبة بسبب هذه الشبهات الذي كان يقذفها في أوساط الناس، إذا قِستَها بالبدع التي تنتشر من أخف الناس بدعة تجد البون الشاسع بين ما عند صبيغ وما عند هؤلاء المتأخرين من الضلالات؛ لأن هذه أخطر وأشد بكثير وكثير، ولها دعاة، ولها نشاطات- مع الأسف الشديد- على كل المستويات.

وأما علي بن أبي طالب؛ فيكفي أنه قَتَل الخوارج، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «شر الخلق والخليقة، شر من تحت أديم السماء».

وفي هذا الوقت بزغ قرن الخوارج في غاية العنف، وفي غاية الشدة، ولهم من الوسائل والإعلام والدعايات والأعمال والفتك ما لا يعلمها إلا الله -تبارك وتعالى-؛ فكيف يأنس المسلم الصادق إلى من يحب هؤلاء ويواليهم؟! وكيف يثق بمن هذا منهجه وهذه عقيدته وهذا موقفه من الأمة؟!

وأما عبد الله بن عباس؛ فله كلام شديد في أهل القدر ﷺ، منها: قال: «ائتوني بواحد منهم حتى أعض أنفه، حتى أجدعه»، أو كما قال، يعني: هكذا سيتعامل مع أهل البدع.

ابن عمر؛ لمَّا بلغه أن قومًا يتقفرون العلم ويقولون: أن لا قدر، قال: «أبلغهم أنني منهم بَراء، وأنهم مني بُرآء».

لم يفتح ملف وتحقيقات وإلى آخره كما يفعل الآن أهل البدع، يقذفون الناس ظلمًا وعدوانًا، فإذا ثبت لك شيء من ضلالهم وتكلمت وحذرت منه قالوا: ما يتثبت، نعوذ بالله من الهوى، ولو يأتي ألف شاهد على ضال من ضلالهم لا يقبلون شهادتهم، بل يسقطونها، ألف شاهد عدل، على ضال من ضُلَّالهم لا يقبلون شهادته؛ فضيعوا الإسلام وضيعوا شباب الإسلام بهذه الأساليب الماكرة، نسأل

اللَّه العافية.

ابن عمر؛ لَمَّا أخبره واحد، والثاني يسمع فقط؛ صدقه لأنه مؤمن، عدل، وثقة، وديننا يقوم على أخبار العدول، من قواعده أخبار العدول، فإذا نقل لك الإنسان العدل كلامًا فالأصل فيه الصحة، ويجب أن تبني عليه الأحكام، وحذر اللَّه من خبر الفاسق، فإذا إنسان معروف بالفسق وجاءك بخبر لا تكذبه، تثبت؛ لأن هناك احتمالًا أن يكون هذا الفاسق في هذا الخبر صادق، تثبت لا بأس.

أما الآن؛ العدل تلو العدل، والعدل تلو العدل يكتب ويشهد، ما يُقبل كلامه! ويَنقل كلام الضال بالحروف ما تقبل شهادته! يقولون: حاقد، فهذه من الأساليب عند أهل البدع والفتن في هذا الوقت -نسأل اللَّه العافية- لا يعرفها الخوارج، ولا الروافض، ولا أهل البدع في الأزمان الماضية، وجاءوا للأمة بأساليب وقواعد ومناهج وفتن ومشاكل وأساليب؛ إذا جمعتها -والله- ما يبقى من الدين شيء.

إذا جمعت أساليبهم وقواعدهم لا يُبقون من الإسلام شيئًا، ومنها: أخبار العدول يريدون أن يسقطوها، ومنهج السلف في نقد أهل البدع يسقطونه بطرق خبيثة، يسموها بالعدل والموازنة بين السيئات والحسنات... إلى آخره، وإذا أخذت بهذا المنهج صار أئمتنا كلهم فاسقين، غير عدول، ظالمين، فَجَرَة على هذا المنهج الخبيث.

الشاهد: أنَّا كما ذكرنا غير مرة أن اللَّه حذرنا من أهل البدع، وبيَّن أن مقاصدهم سيئة، والرسول ﷺ أكَّدَ ذلك وحذر منهم، حذر منهم -عليه الصلاة والسلام-.

فَهِمَ السلف من هذه النصوص ومن غيرها الكثير والكثير، فهموا منها المواقف السليمة والصحيحة من أهل البدع والضلال، ودَوَّنوا ذلك في كتبهم، وقالوا: إن المبتدع لا غيبة له، وأنه يجب التحذير منه، وأن محاربة أهل البدع جهاد، وهو أفضل من الضرب بالسيوف لماذا؟

لأن هذا يفسد الدين مباشرة، هذا يفسد الدين، الفاسد يفسد الدين، الفاسق معترف بأنه منحرف، وأنه مخالف للدين، ويُحدِّث نفسه بالتوبة، أما هذا لا، هذا

يُفسد الدين، ويفسد الناس.

لهذا نرى أن الله -تبارك وتعالى- حارب أحبار اليهود ورهبانهم وعلماء السوء منهم أشدَّ من محاربته للحكام والطغاة الجبابرة لماذا؟ لأن أولئك ضلالهم وفسادهم معروف وواضح للناس، لكن هؤلاء يلبسون الحق بالباطل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

وهذا حال أهل البدع عندهم شيء من الحق أو شيء من الضلالة يلبسونه بشيء من الحق حتى يروج، طرق ماكرة، فالله ﷻ أعلم بعباده، تراه كم صب من اللوم والذم والتحذير والطعن لليهود وعلمائهم وللنصارى لماذا؟ لأنهم أفسدوا دين الله.

وهذا شأن أهل البدع، ولهم حظ من هذا الذ. الذي يوجهه الله -تبارك وتعالى- إلى اليهود والنصارى، والدليل قول الرسول ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[(١)].

فقد وقع أهل البدع في هذا الشر، وتابعوا اليهود في التأويل وفي التحريف وفي الكذب وفي نشر الباطل والدعاية في الباطل، شاركوهم في كل هذه الأشياء، فالشبه قوية جدًّا بينهم وبين هؤلاء، وقد أخبر الرسول ﷺ أن هؤلاء سيتابعونهم.

فنحن عل كل حال بعد هذا كله ننصح الشباب السلفي: أن يُقبلوا على طلب العلم، وأن يحرصوا على معاشرة الصالحين، وأن يحذروا كل الحذر من مخالطة أهل البدع وأهل الشبه والفتن.

وهذه النصيحة أرجو أن تلقى آذانًا صاغية من إخواننا طلاب الحق وأهل الحق، ونسأل الله أن ينفعنا وإياهم، وأن يجعلنا وإياهم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يجعلنا من أتباع محمد ﷺ الذين يُؤثِرون طاعته واتباعه على كل أمر من أمور الحياة هذه، إن ربنا سميع الدعاء.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

---

(١) صحيح ابن ماجه (٣٦٤).

مسألة اشتراط

إقامة الحجة في التبديع

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

جواب للشيخ ربيع حول
مسألة اشتراط إقامة الحجة في التبديع

السؤال: شيخنا -حفظكم الله- هناك سؤال يدور بين طلاب العلم، وهو: هل يشترط في تبديع من وقع في بدعة أو بدع أن تقام عليه الحجة لكي يبدع أو لا يشترط ذلك، أفيدونا جزاكم الله خيرًا؟

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه. أما بعد:

فالمشهور عن أهل السنة: أنه من وقع في أمر مكفر لا يكفر حتى تقام عليه الحجة.

أما من وقع في بدعة؛ فعلى أقسام:

القسم الأول:

أهل البدع، كالروافض، والخوارج، والجهمية، والقدرية، والمعتزلة، والصوفية القبورية، والمرجئة ومن يلحق بهم، كالإخوان والتبليغ وأمثالهم؛ فهؤلاء لم يشترط السلف إقامة الحجة من أجل الحكم عليهم بالبدعة؛ فالرافضي[1] يقال عنه: مبتدع، والخارجي يقال عنه: مبتدع وهكذا، سواء أقيمت عليهم الحجة أم لا.

القسم الثاني:

من هو من أهل السنة ووقع في بدعة واضحة كالقول بخلق القرآن أو القدر أو رأي الخوارج وغيرها؛ فهذا يبدع وعليه عمل السلف.

ومثال ذلك: ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما حين سئل عن القدرية قال: «فإذا لقيت

---

(١) الرافضي أو غيره إن كفر الصحابة كلهم أو جلهم، أو فسقهم كلهم أو جلهم؛ فهو كافر.

أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني». رواه مسلم (٨).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٥٤):

«فطريقة السلف والأئمة: أنهم يراعون المعاني الصحيحة المعلومة بالشرع والعقل، ويُراعون أيضًا الألفاظ الشرعية، فيعبرون بها ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا، ومن تكلم بما فيه معنى باطل يخالف الكتاب والسنة ردوا عليه.

ومن تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حقًّا وباطلًا نسبوه إلى البدعة أيضًا، وقالوا: إنما قابل بدعة ببدعة وردَّ باطلًا بباطل».

أقول:

في هذا النص بيان أمور عظيمة ومهمة يسلكها السلف الصالح للحفاظ على دينهم الحق وحمايته من غوائل البدع والأخطاء، منها:

١- شدة حذرهم من البدع ومراعاتهم للألفاظ والمعاني الصحيحة المعلومة بالشرع والعقل؛ فلا يعبرون -قدر الإمكان- إلا بالألفاظ الشرعية، ولا يطلقونها إلا على المعاني الشرعية الصحيحة الثابتة بالشرع المحمدي.

٢- أنهم حراس الدين وحماته؛ فمن تكلم بكلام فيه معنى باطل يخالف الكتاب و السنة ردوا عليه.

ومن تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حقًّا وباطلًا نسبوه إلى البدعة، ولو كان يرد على أهل الباطل، وقالوا: إنما قابل بدعة ببدعة أخرى، ورد باطلًا بباطل، ولو كان هذا الراد من أفاضل أهل السنة والجماعة، ولا يقولون ولن يقولوا: يحمل مجمله على مفصله؛ لأنا نعرف أنه من أهل السنة.

قال شيخ الإسلام بعد حكاية هذه الطريقة عن السلف والأئمة: «ومن هذا: القصص المعروفة التي ذكرها الخلال في كتاب «السنة»[١]، هو وغيره[٢] في مسألة

---

(١) (٥/ ١٢٩-١٤١).

(٢) يعني: مثل اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٢/ ٣٥٧-٣٨٤)، و الآجري في «الشريعة» (١/ ٥٢٦-٥٥٠).

اللفظ والجبر».

أقول:

يشير -رحمه الله تعالى- إلى تبديع أئمة السنة من يقول: «لفظي بالقرآن مخلوق»؛ لأنه يحتمل حقًّا وباطلًا، وكذلك لفظ: «الجبر» يحتمل حقًّا وباطلًا، وذكر شيخ الإسلام أن الأئمة كالأوزاعي وأحمد بن حنبل ونحوهما قد أنكروه على الطائفتين التي تنفيه والتي تثبته.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويروى إنكار إطلاق: «الجبر» عن الزبيدي وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهم».

وقال الأوزاعي وأحمد وغيرهما: «من قال: جبر؛ فقد أخطأ، ومن قال: لم يجبر؛ فقد أخطأ، بل يقال: إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ونحو ذلك».

وقالوا: ليس للجبر أصل في الكتاب والسنة، وإنما الذي في السنة لفظ: الجبل، لا لفظ: الجبر؛ فإنه قد صح عن النبي ﷺ أنه قال لأشج عبد القيس: «إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والأناة. فقال: أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما؟ فقال: بل جبلت عليهما. فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله».

وقالوا: إن لفظ: «الجبر» لفظ مجمل.

ثم بين أنه قد يكون باعتبارٍ حقًّا وباعتبارٍ باطلًا، وضرب لكل منهما مثالًا.

ثم قال: «فالأئمة منعت من إطلاق القول بإثبات لفظ الجبر أو نفيه؛ لأنه بدعة يتناول حقًّا وباطلًا».

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أحمد بن كامل القاضي: كان يعقوب بن شيبة من كبار أصحاب أحمد بن المعذل، والحارث بن مسكين، فقيهًا سريًّا، وكان يقف في القرآن».

قال الذهبي: «قلت: أخذ الوقف عن شيخه أحمد المذكور، وقد وقف علي ابن الجعد، ومصعب الزبيري، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وجماعة، وخالفهم نحو من ألف إمام، بل سائر أئمة السلف والخلف على نفي الخليقة على القرآن،

وتكفير الجهمية، نسأل الله السلامة في الدين».

قال أبو بكر المروذي: «أظهر يعقوب بن شيبة الوقف في ذلك الجانب من بغداد، فحذر أبو عبد الله منه، وقد كان المتوكل أمر عبد الرحمن بن يحيى بن خاقان أن يسأل أحمد بن حنبل عمن يقلد القضاء، قال عبد الرحمن: فسألته عن يعقوب بن شيبة، فقال: مبتدع صاحب هوى».

قال الخطيب: وصفه بذلك لأجل الوقف. السير (١٢/ ٤٧٨).

وقدم داود الأصبهاني الظاهري بغداد وكان بينه وبين صالح بن أحمد حَسنٌ، فكلم صالحًا أن يتلطف له في الاستئذان على أبيه، فأتى صالح أباه فقال له: رجل سألني أن يأتيك.

قال: ما اسمه؟

قال: داود.

قال: من أين؟

قال: من أهل أصبهان.

قال: أي شيء صنعته؟

قال: وكان صالح يروغ عن تعريفه إيَّاه، فما زال أبو عبد الله يفحص عنه حتى فطن.

فقال: هذا قد كتب إليَّ محمد بن يحيى النيسابوري في أمره أنه زعم أن القرآن محدث فلا يقربني.

قال: يا أبت ينتفي من هذا وينكره.

فقال أبو عبد الله: محمد بن يحيى أصدق منه، لا تأذن له في المصير إليَّ. [تاريخ بغداد (٨/ ٣٧٤)].

القسم الثالث:

من كان من أهل السنة ومعروف بتحري الحق ووقع في بدعة خفية؛ فهذا إن كان قد مات فلا يجوز تبديعه، بل يذكر بالخير، وإن كان حيًّا فيناصح ويبين له

الحق، ولا يتسرع في تبديعه، فإن أصر فيبدع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وكثير من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنه بدعة، إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها، وإما لرأي رأوه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم، وإذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وفي الحديث: أن الله قال: «قد فعلت»، وبسط هذا له موضع آخر». [معارج الوصول (ص: ٤٣)].

وعلى كل حال؛ لا يجوز إطلاق اشتراط إقامة الحجة لأهل البدع عمومًا، ولا نفي ذلك والأمر كما ذكرت.

فنصيحتي لطلاب العلم: أن يعتصموا بالكتاب والسنة، وأن ينضبطوا بمنهج السلف في كل ناحية من نواحي دينهم، وخاصة في باب التكفير والتفسيق والتبديع؛ حتى لا يكثر الجدال والخصام في هذه القضايا.

وأوصي الشباب السلفي خاصة: بأن يجتنبوا الأسباب التي تثير الأضغان والاختلاف والتفرق، الأمور التي أبغضها الله وحذر منها، وحذر منها الرسول الكريم ﷺ، والصحابة الكرام والسلف الصالح، وأن يجتهدوا في إشاعة أسباب المودة والأخوة فيما بينهم الأمور التي يحبها الله ويحبها رسوله ﷺ.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

في ٢٤/رمضان/١٤٢٤هـ

أهل البدع يدخلون في جرح أئمة الحديث

دخولًا أوليًّا وغير أهل البدع يدخلون في تحذيرهم دون شك

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فقد كتب من سمّى نفسه السيق الأثري مقالًا في شبكة الأثري تحت عنوان: الإمام ابن باز رحمه الله يوافق الشيخ فالح في مسألة التفريق بين جرح الرواة والتحذير من أهل البدع.

وهذا نص مقاله:

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد فرح الكثير ممن يكتب في شبكة سحاب الخراب وغيرهم من المميعة والحزبيين بقول الشيخ ربيع -هداه الله- في مسألة أن جرح أهل البدع كجرح الرواة، وأن أحكام جرح الرواة لابد[1] أن يعمل بها من أراد أن يتكلم في أهل البدع، ولقد تحامل الشيخ ربيع -هداه الله- على الشيخ فالح عندما قال بالتفريق في ذلك، وزعم الشيخ ربيع -هداه الله- أن الشيخ فالح هو أول من فرق بين جرح الرواة والكلام على أهل البدع.

والحق في المسألة لمن أراد الحق: أن الشيخ ربيع هو أول من خلط بين جرح الرواة والتحذير من أهل البدع، ولذلك تجد في رواة الحديث أنّهم يقبلون حديث مبتدع قوي الحفظ لا ينصر بدعته في حديثه، ويردون حديث صاحب سنة لسوء

---

(١) أنا لم أقل: إن جرح أهل البدع كجرح الرواة. . إلخ، ومن أراد أن يعرف قولي فليرجع إلى نصيحتي، وإلى كتاب أئمة الجرح والتعديل هم حماة الدين.

حفظه، بينما تجد أهل السنة لا يجالسون رجلًا لمجرد تحذير الإمام أحمد منه لأجل بدعة ابتدعها في الدين[١]، فهناك فرق واضح.

والشيخ ربيع لابد أن يذكر لنا من وافقه في هذا الخلط الذي ذكره، فنحن ننتظر من الشيخ ربيع أن ينقل لنا من وافقه في مقولته: لا فرق بين التحذير من أهل البدع وجرح المجروحين من رواة الحديث فلابد من تطبيق قواعد جرح وتعديل الرواة عند التحذير من أهل البدع.

وأما الشيخ فالح -حفظه الله- فقد وافقه أهل السنة في ذلك التفريق مع العلم أن الشيخ فالح ذكر لفظ: جرح أهل البدع بدل لفظ: التحذير من أهل البدع في بعض كلامه، والصحيح أنه لا مشاحة في الألفاظ[٢] ولقد أشار إلى ذلك أخونا أبو شقران الجبري في رده البينات.

والذي أريد نقله الآن: هو أن الإمام حماد بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ قد وافق الشيخ فالح[٣] في تفريقه بين التحذير من أهل البدع وجرح الرواة، وهذا هو حال أهل السنة كما ذكرنا فلقد نقل الإمام أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث رقم (٣٢٠٠): قال: وسمعت أحمد بن إبراهيم الموصلي يحدث أحمد بن حنبل قال: ما أعلم أني جلست من حماد بن زيد مجلسًا إلا نهى فيه عن عبد الوارث وجعفر بن سليمان. انتهى.

والمعروف أن عبد الوارث وجعفر بن سليمان من رواة الحديث الثقات ومن رواة الصحيحين، فكان تحذير الإمام حماد بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ منهما لأجل ما عندهما من بدع، فانظر التفريق يا رعاك الله.

وإليك أيضًا موافقة الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ للشيخ فالح في المسألة نفسها، والذي سوف تسمعونه صوتيًا بإذن الله، ولكن أكتب منه هذه العبارة:

حيث يقول رَحِمَهُ اللَّهُ كما في شريط (شرح كتاب العلم من صحيح البخاري)

---

(١) الإمام أحمد وغيره لا يقصرون التحذير على أهل البدع، تجدهم أيضًا يحذرون من الفساق والكذابين وحتى من الصالحين الذين ليسوا أهلًا للأخذ عنهم.

(٢) هذا يقال في حق العلماء لا في أهل الجهل المتلاعبين بقواعد أهل العلم والسنة.

(٣) كذا.

الشريط الأول الوجه الأول كما في تسجيلات البردين الإسلامية في الرياض ما نصه: المعرف، الأئمة عرفوا المجروحين، ومحذر من أهل البدع كذلك والناصح معروف كذلك مظهر الفسق والمستفتي... إلخ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

فأنت ترى أنه فرق رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: الأئمة عرفوا المجروحين، وقوله: ومحذر من أهل البدع، ولقد عرضت هذا الكلام على شيخنا الفاضل فالح الحربي فوافقني بأن هذا تفريق من الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ بين التحذير من أهل البدع وبين جرح الرواية، وكذلك وافقني شيخنا عمر الحربي وقال: هذا تفريق من الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ وهذا ما عليه أهل السنة.

التعليق:

أولًا: قوله: لقد فرح الكثير ممّن يكتب في شبكة سحاب الخراب وغيرهم من المميعة والحزبيين بقول الشيخ ربيع -هداه الله- في مسألة أن جرح أهل البدع كجرح الرواة وأن أحكام جرح الرواة لابد أن يعمل بها من أراد أن يتكلم في أهل البدع.

أقول:

أ- إن هذه الحرب التي تشنونها على سحاب إنّما هي حرب على أهل السنة ومنهجهم.

ب- أنتم أخرجتم أهل البدع عن قواعد أهل الحديث وعلومهم!! وهذا شيء لم تسبقوا إليه، ودوافع هذا الإخراج رديئة جدًا وقائمة على الجهل والهوى.

ج- لقد فرح العلماء برد هذا الباطل المفترى والانتصار لأهل الحديث ممّن تنقصهم وحط من منزلتهم، وهو فالح وزمرته الجهال المشبوهون، وليست سحاب هي الوحيدة التي فرحت بما قام به ربيع تجاه هذا الباطل، والفرح بالحق من ميزات أهل الحق، والفرح بالباطل هو من ميزات أهل الباطل.

ثانيًا: قولك: والحق في المسألة لمن أراد الحق: أن الشيخ ربيع هو أول من خلط بين جرح الرواة والتحذير من أهل البدع.

أقول: لا دخل للجهال في الأحكام ولاسيما في القضايا العلمية، وأما

العلماء السابقون ومؤلفاتهم وقواعدهم فهي مع ربيع، وكذلك كل من اطلع من أهل العلم على كتابة ربيع قد أيدوا ربيعًا ولم يؤيد فالحًا إلا الجهلاء ولا عبرة بتأييدهم؛ لأنه من باب شهادة الزور على طريقة الخطابية من الروافض، فهؤلاء يدخلون بأحكامهم الباطلة في حديث: «القضاة ثلاثة قاض في الجنة وقاضيان في النار؛ رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار».

فاتقوا الله في أنفسكم فقد حشرتموها فيمن يقضي بالجهل وقد عرفتم حكمه.

ثالثًا: قوله: فهناك فرق واضح والشيخ ربيع لابد أن يذكر لنا من وافقه في هذا الخلط الذي ذكره فنحن ننتظر من الشيخ ربيع أن ينقل لنا من وافقه في مقولته... إلخ.

أقول: نعم، هناك فرق واضح بين أهل البدع وأهل السنة، ولكن نقد أهل البدع وتجريحهم بها داخل في صميم علم الجرح والتعديل وجزء منه بل هم الهدف الأول من جرح أئمة الحديث والنقد، ويكذب كذبًا واضحًا مفضوحًا من يخرجهم من دائرة نقد أهل الحديث وجرحهم وينادي بجهله وكذبه على رءوس الأشهاد.

فما كشف عوار أهل البدع وهتك أستارهم إلا أئمة الحديث، والعلماء من فقهاء وغيرهم تبع لهم وعيال عليهم في هذا الباب العظيم؛ لأنَّ هذا اختصاصهم والمعول في كل فنٍّ على أهله المتخصصين فيه وهذا من البدهيات عند العلماء وعقلاء البشر.

وأقول:

أولًا: إن ما يتطلبه البيان قد قمت به على أكمل الوجوه المطلوبة في نصيحتي المتعلقة بالتقليد الذي دعا إليه فالح والمتعلقة بالجرح والتعديل، وفي كتابي: أئمة الجرح والتعديل هم حماة الدين، وبينت في الأخير مدى الاستخفاف والحط من أئمة الجرح والتعديل في الأصول الفاسدة التي اخترعها فالح وفيما بناه هو وغيره عليها؛ فارجع إليها وتأملها إن كان لك عقل وفهم ونزاهة من الهوى والتعصب الأعمى للباطل؛ فستجد أن الحق مع ربيع وأن فالحًا على الباطل.

هذا وليعلم الناس أولو النهى أن أول من أخرج أهل البدع عن قواعد أئمة

الحديث ونقدهم هو فالح.

ومن أقواله الدالة على الجهل والهوى: قوله جوابًا على سؤال: هل يشترط بيان أسباب الجرح؟

فأجاب: ما يشترط هذا بالنسبة لأسباب الجرح، بيان أسباب الجرح والتعديل في علم الرواية وليس في كلام المخالفين في مناهجهم وسلوكياتهم.

فقال السائل: لأنهم قد يقولون قد يجرح الشيخ بما لا يعتبر جرحًا عند غيره.

فقال فالح: لا، لا هذه قاعدتهم، أعوذ بالله، هذه قاعدة ظالمة ضللت الأمة، هذه قاعدتهم هذه قاعدة ابتدعوها.

وهذا من أوضح الأدلة على أن فالحًا من أشد الناس جهلًا بعلم الجرح والتعديل وقواعد أهله.

فقال السائل: إذن يكفي الجرح المجمل؟.

فقال فالح: من العالم، ما فيه جرح ما تقول جرح، ما هو من الجرح، الرواية قد يكون عالمًا إذا تكلم في أهل البدع ويتكلم في المنهج يتكلم في العقيدة يتكلم في الدين يكون إمامًا في هذا.

وقد يكون لا تقبل روايته لأن ضوابط الرواية ما تنضبط[1] عليه، فرق بين هذا الذي هو علم آلة وعلم وسيلة وفن من فنون لحفظ الشريعة وبين الكلام في المذاهب وأهل البدع والنحل.

لقد اخترع فالح هذه القواعد الباطلة ولا يعرفها أهل الحديث ولا الفقهاء ولا غيرهم من علماء الأمة، ولقد بينت له بطلانها بلطف، فذهب يعاند ويكابر ويصر على أباطيله، وهو رجل مسكين لا ناقة له ولا جمل في علوم الحديث، وأكد ذلك بتخبطاته المفتعلة التي لم يسبقه إليها أحد.

وجاء من يسمي نفسه بأبي عبد الله ليقول بناءً على هذا التأصيل الفاسد وتأكيدًا له: هل الجرح والتعديل الذي في علم المصطلح هو نفسه كلام الأئمة والعلماء في

---

(١) يعني: ما تنطبق.

أهل البدع والأهواء؟

أو بمعنى آخر: هل تنطبق قواعد هذا العلم في الكلام على أهل النحل؟

ثم قال: إن علم الجرح والتعديل جانب من علوم الشريعة له ضوابط وقواعد محددة معروفة يبينها أهل هذا العلم في كتبهم، أما الكلام في الرجال غير الذين في الرواية فهذا يحتاج إلى عالم محيط بالشريعة، ينظر في الأصول ويستقرئ الأدلة ليخرج بعدها بحكم على هذا الرجل، وهل خالف منهج أهل السنة والجماعة أو لا.

وفي هذا الكلام من هذا الجاهل طعن في علوم الحديث وإخراج لها من علوم الشريعة وطعن في أئمة الحديث وتجهيل لهم وإسقاط لكفاءتهم، فهم عنده أقل من أن يحكموا بالبدعة على أحد، لأنهم لا يرقون عنده إلى درجة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ولا منكر بعد الكفر أعظم من البدع، ولا يمتلكون أدوات النظر والاستدلال، ولا يستطيعون استقراء الأدلة بل المؤهل لذلك هو وأمثاله من مثل الشيخ فالح، فهم الذين أحاطوا بالشريعة وهم المؤهلون للنظر في الأصول والحكم على أهل البدع، وكفى بهذا التأصيل ضلالاً وخبثًا وحطًّا على أئمة السنة، الأمر الذي لم يقله ولم يتجرأ عليه إلا فالح وفئته الجاهلة الشاذة عن السنة وأهلها والطاعنة فيهم.

وقد أيد فالح هذه الأباطيل ولا يبعد أنه هو ممليها على قائلها.

ثم مع هذا يتمسحون بأهل السنة والأثر، وما أبعدهم عن السنة والأثر!!

ولقد بينت فساد هذه الأصول الفاسدة في نصيحتي وكتابي: أئمة الجرح والتعديل هم حماة الدين، فليرجع إليهما من يريد الحق.

ثانيًا: أقول: لا حجة لك في كلام حماد بن زيد[1] رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنه ليس بنص ولا ظاهر في التحذير من بدعته فقط دون التحذير من روايته ولم يقل: إنَّ هناك فرقًا بين جرح الرواة والتحذير من أهل البدع، ولم يوافق حمادًا في هذا التحذير المطلق

---

(١) انظر نص كلام حماد في مقال السبيق الذي سقناه سلفًا.

لا الإمام شعبة فقد كان يثني عليه ثناءً مطلقًا ولا يحذر منه، ولا يحيى بن معين فإنه يجعله مثل حماد بن زيد في أيوب ويفضله على عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي وابن علية في أيوب ولم يشر إلى بدعته ولم يحذر منه.

وهذا الإمام أحمد يقول: كان عبد الوارث أصح الناس حديثًا عن حسين المعلم وكان صالحًا في الحديث.

وهذا أبو حاتم يقول فيه: ثقة صدوق ممن يعد مع ابن علية وبشر بن المفضل ووهيب يعد من الثقات هو أثبت من حماد بن سلمة، وقال النسائي: ثقة ثبت، وقال محمد بن سعد: كان ثقة حجة. ولم يشر أحد منهم إلى أنه مبتدع ولم يحذر منه ومن بدعته.

وقال البخاري: قال عبد الصمد: إنه لمكذوب على أبي، وما سمعته منه يقول في القدر قط وكلام عمرو بن عبيد.

وكلام البخاري هذا وأمثاله أنه يرى أنه لابد من بيان أسباب الجرح بالتبديع، لا كما يقوله فالح، ذلك القول المفتعل الذي لم يسبق إليه، انظر هذه الأقوال في تهذيب الكمال (١٨/ ٤٨١-٤٨٣).

وانظر قول البخاري في تهذيب الكمال وفي تأريخه الكبير (٦/ ١١٨) رقم الترجمة (١٨٩١) وفيه: وقال أبو جعفر: حلف لي عبد الصمد: إنه لمكذوب على أبي وما سمعت قط -يعني: القدر- وكلام عمرو بن عبيد، قال أبو جعفر: وكان عند شعبة، فلما قام قال شعبة: يعرف الإتقان في هامة البصري.

فهل تثبت القواعد والفروق بينها بمثل هذه الدعوى التي لا يقولها إلا أهل الأهواء والجهل لنصرة الترهات والأباطيل.

ومن عجائب تلونكم: أنكم كنتم تقولون: إن العلماء هم الذين يبينون حال أهل البدع لا أهل الحديث، وهذا حماد من أئمة الحديث وإلى يومنا هذا لم تأتوا بعالم واحد من غير علماء أهل الحديث لإثبات دعواكم.

ثالثًا: ليس في كلام الشيخ ابن باز[1] أدنى شبهة فضلًا عن حجة في التفريق بين

---

(١) انظر نص كلام ابن باز في مقال السبق.

باب التبديع وباب جرح الرواة، فإذا ثبت هذا الكلام عن ابن باز فليس في قوله تفريق بين البابين أبدًا، فقوله: الأئمة عرفوا المجروحين ومحذر من أهل البدع، لا يريد إخراج أهل البدع من باب الجرح وحاشاه من ذلك؛ بل واضح أنه عطف قوله: ومحذر على المجروحين للتأكيد ومن عطف العام على الخاص، فهو مثل قول الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

فالصلاة الوسطى من الصلوات التي أمر المسلمون بالمحافظة عليها، وعطفها لتميزها، وقد ورد في فضلها والأمر بالمحافظة عليها أحاديث، وعطف الخاص على العام أسلوب قرآني عربي لا يجهله إلا مثل هؤلاء، ومنه قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

فجبريل وميكال من الملائكة، وأفردهما ثم عطفهما من عطف الخاص على العام على الرسل والملائكة لقصد مهم: وهو بيان فضلهما على الملائكة.

والشيخ ابن باز أخذ هذا الكلام من قول أحد العلماء:

القدح ليس بغيبة في ستة ... متظلم ومعرف ومحذر
ومجاهر فسقًا ومستفت ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر

فهذه الأصناف الستة الكلام فيها قدح -أي: جرح- ولكنها مستثناة من النصوص التي تذم الغيبة وأهلها؛ لما في جرح هذه الأصناف[1] من النصيحة للمسلمين، فأخذ الشيخ كلمة معرف ومحذر يعني: من أهل البدع.

وكذلك من يستشار في خاطب فيحذر من الخاطب إذا كان يعلم فيه عيبًا ولو كان من علماء أهل السنة فيشمله، ومثله كلمة: محذر، وليس قصد الشيخ في هذا السياق بيان المصطلحات والتفريق بين قواعد الجرح وقواعد التبديع، الأمور التي لم تخطر ببال أحد من العلماء من محدثين وفقهاء وغيرهم.

وتشويه العلوم والعبث بالمصطلحات العلمية والتهويش عليها من أجل نصرة

---

(١) ومنهم المبتدع.

إنسان متخبط متبع لهواه، ومن أعجب عجائب هذا العصر أن يصدر من أناس يدعون السلفية ويحتكرونها لأنفسهم ويطاردون أهلها، فأخلقوا السلفية وشوهوها وأفرحوا أعداءها بهذه الأعمال التي يرتكبونها.

رابعًا: قال المسكين: ولقد عرضت هذا الكلام على شيخنا الفاضل فالح الحربي فوافقني بأن هذا تفريق من الإمام ابن باز رحمه الله بين التحذير من أهل البدع وبين جرح الرواية، وكذلك وافقني شيخنا عمر الحربي وقال: هذا تفريق من الإمام ابن باز رحمه الله وهذا ما عليه أهل السنة.

أقول:

لا يسعنا إلا أن نقول: إنا لله وإنا إليه راجعون من حال أناس غرباء على العلم والفهم يلصقون جهالاتهم بأهل السنة.

لقد جاء العلماء ومنهم الإمام ابن القيم بمائة دليل من الكتاب والسنة على أن أخبار الآحاد تفيد العلم ردًا على أهل لأهواء، وجاء بواحد وثمانين دليلًا لإبطال دعوى مشروعية التقليد، وأن الأصل وجوب الاتباع ولا يستثنى إلا العاجز، وأنتم ائتونا بعشرة أو خمسة أدلة على هذا التفريق، لا أقول: من الكتاب والسنة؛ فإن هذا أشد تعجيزًا لكم ولكن من كلام أئمة العلم، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا الله وراقبوه وارجعوا إلى الصواب ولا تفرقوا أهل السنة بهذه التأصيلات الفاسدة، ثم دعمها بتصيد الشبهات، ثم الادعاء العريض الذي ترده مؤلفات وقواعد ومصطلحات الاختصاص؛ توبوا إلى الله من إلصاق أباطيلكم في أهل السنة.

واعلموا أن للسنة وعلومها رجالًا يحمونها من ترهات وغوائل أهل الباطل ويكشفون عوار المبطلين الأدعياء وإن أسرفوا في الدعاوى وفي الالتصاق بأهل السنة.

خامسًا: ولتأكيد بطلان هذه الترهات والجهالات؛ أسوق لكم أمثلة من كلام الرسول ﷺ ومن كلام أئمة هذا الشأن:

عقد الإمام مسلم بابًا في مقدمته ترجم له النووي بقوله: باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط في تحملها:

١- وساق إسناد مسلم إلى أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم؛ فإياكم وإياهم»**.

وهذا تحذير شديد يشمل أهل البدع والفساق والكذابين والمتهمين والضعفاء الشديدي الضعف الذين لا تنجبر رواياتهم بروايات غيرهم.

٢- وساق إسناده إلى مسلم بن يسار أنه سمع أبا هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: **«يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم؛ فإياكم وإياهم»**. مقدمة مسلم (ص١٢).

وهذا تحذير شديد من الدجالين الكذابين ومن أهل البدع.

لكن في أهل البدع من يروى عنه لصدقه وأمانته ويحذر من الرواية عن غير أهل البدع من الكذابين والفساق والمتروكين والمتهمين، وما أكثر الدجالين الآن الذين يأتون أهل السنة بقواعد وأصول وأقوال لم يسمعها أهل السنة ولا آباؤهم فيجب الحذر والتحذير منهم أشد التحذير.

التحذير من جلساء السوء:

٣- قال رسول الله ﷺ: **«مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»**.

فهذا فيه تحذير من كل أصناف جلساء السوء كالفساق الفجار وآكلي الربا والراشي والمرتشي والرائش والنمامين والمغتابين، ويدخل فيهم أهل البدع.

فأين تخصيص التحذير بأهل البدع في هذا الحديث؟

وكان السلف يحذرون من مجالسة هذه الأصناف بل قد يأخذون الحديث من أصناف أهل البدع غير الدعاة كالقدرية والمرجئة والشيعة والخوارج ولا يأخذون من أصناف أهل الفسق ويحذرون منهم.

٤- كان بشير بن كعب يحدث عند ابن عباس فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه

ولا ينظر إليه، فقال: يا بن عباس، ما لي لا أراك تسمع لحديثي، أحدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع؟! فقال ابن عباس: «إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلًا يقول: قال رسول الله، ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف». مقدمة مسلم (ص١٣).

أي: فلما سلك الناس كل مسلك مما يحمد ويذم لم نأخذ من الناس... إلخ، وفي رواية مثلها: «فلما ركب الناس الصعب والذلول فهيهات».

أقول: كيف لو رأى ابن عباس وأمثاله من الصحابة ومن السلف الصالح كيف تهافت أناس على أقوال باطلة وأصول ومناهج فاسدة يقدمها أناس من أفجر خلق الله وأكذبهم على دين الله وعلى أهله، كيف لو رأوا الحمقى والسفهاء يركضون وراء كل ناعق وجاهل متعالم.

بشير بن كعب من الثقات وعامله ابن عباس هذه المعاملة ليربّي الناس على التثبت في أخذ السنة والدين وليحذرهم من الأخذ عن كل من هبَّ ودبَّ، فإلى الله المشتكى من أناس هان عليهم دينهم وهانت عليهم أنفسهم فصاروا ذيولًا للأفاكين والدجالين والتافهين.

٥- ساق مسلم روايات ترجم لها النووي بقوله: باب بيان أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات، وأن جرح الرواة بما فيهم جائز بل واجب، وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرمة. من هذه الروايات قوله:

أ- قال ابن سيرين: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.

وهذا تحذير من أهل البدع ومن غيرهم من الضعفاء والكذابين والمتهمين ممن لا يجوز أخذ الدين عنهم.

ب- وقال ابن سيرين أيضًا: لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم؛ فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم.

وهذه حجة قاصمة على من يقول: إن أهل الحديث ليسوا أهلًا للتبديع وإنما

المؤهل لذلك العلماء الذين أحاطوا بالكتاب والسنة وعندهم قدرة على الاستنباط وليس أهل الحديث كذلك؛ وهذا عين الكذب.

ومن الأقوال القبيحة التي حذرنا منها رسول الله ﷺ ومن أهلها بقوله: «**يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم؛ فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم**».

وفيه التصريح بالتحذير من الأخذ عن أهل البدع وغيرهم من الكذابين.

ج- وقال مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا نصر بن علي الجهضمي: حدثنا الأصمعي عن ابن أبي الزناد، عن أبيه قال: أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهله. (ص١٥) من المقدمة.

وهذا فيه أن أهل العلم وطلابه في المدينة النبوية كانوا يتواصون فيما بينهم ويحذر بعضهم بعضًا من الأخذ عن هؤلاء الأفاضل المأمونين من أهل السنة؛ لأنّهم ليسوا من أهل الحديث.

وقال عبد الله بن المبارك: انتهيت إلى شعبة فقال: هذا عباد بن كثير فاحذروه.

وعباد بن كثير ليس من أهل البدع وهو من أهل الصلاح ولكنه ليس من حفاظ الحديث؛ فكان شعبة يحذر منه.

فسقط بهذا البيان وبغيره قول الجهال: إن أهل الحديث يجرحون الرواة ويحذرون من أهل البدع.

وما يدري المسكين أن الجرح يتضمن التحذير وأن التحذير لا يكون إلا من المجروحين سواء كان الجرح بكذب أو فسق أو كفر أو ببدعة، كل هؤلاء يشملهم الجرح ويشملهم التحذير.

وتذكروا حديث الرسول ﷺ: «**سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم؛ فإياكم وإياهم**».

وهذا يشمل الكذابين والدجالين ودعاة البدع الضالين ولاسيما المقعدين منهم والمؤصلين الذين يأتون بأصول وقواعد باطلة مما لم يعرفه أهل العلم والسنة

ولا آباؤهم ولا أسلافهم.

سادسًا: قال أبو حاتم بن حبان في مقدمة كتابه المجروحين:

ذكر أنواع جرح الضعفاء، ثم قال: أما الجرح في الضعفاء فهو على عشرين نوعًا يجب على كل منتحل للسنن طالب لها باحث عنها أن يعرفها لئلاً يطلق على كل إنسان إلا ما فيه ولا يقول عليه فوق ما يعلم.

ثم قال: النوع الأول من أنواع الجرح في الضعفاء؛ فهم الزنادقة الذين كانوا يعتقدون الزندقة والكفر ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر، كانوا يدخلون المدن ويتشبهون بأهل العلم ويضعون الحديث على العلماء... إلخ.

ثم ذكر النوع الثاني والثالث والرابع في الكذابين الوضاعين.

وذكر في النوع الخامس من غلب عليه الصلاح والعبادة وغفل عن الحفظ والتمييز، فإذا حدث رفع المرسل وأسند الموقوف وقلب الأسانيد.

ثم قال: النوع السادس... ومنهم جماعة ثقات اختلطوا في أواخر أعمارهم.

وفي النوع السابع من كان يجيب عن كل شيء يسأل، سواء كان من حديثه أو من غير حديثه فلا يبالي أن يتلقن ما لقِّن... إلخ.

ثم قال: النوع الثامن... ومنهم من كان يكذب ولا يعلم أنه يكذب إذ العلم لم يكن صناعته.

وذكر في هذه الأنواع: فاحشي الغلط والمعلن بالفسق والمدلسين.

وفي النوع التاسع عشر قال: ومنهم المبتدع إذا كان داعية يدعو إلى بدعته حتى صار إمامًا يقتدى به في بدعته ويرجع إليه في ضلالته كغيلان وعمرو بن عبيد وجابر الجعفي وذويهم.

وذكر في النوع العشرين: القصاص والسؤال الذين كانوا يضعون الحديث في قصصهم ويروونها عن الثقات.

وكل أئمة الجرح والتعديل على هذا المنهج يدخلون في الجرح كل أنواع

المجروحين من الزنادقة والمبتدعين والكذابين وسائر الضعفاء على اختلاف أنواعهم.

وكل أصناف أهل العلم يتبعون أئمة الحديث ويقتدون بهم ويرجعون إليهم في جرح أهل البدع وغيرهم حتى جاء فالح فأخرج أهل البدع عن جرح أئمة الحديث، وزعم المسكين أن الطعن في أهل البدع وتبديعهم لا يقوم به إلا العلماء -أي: فالح وأمثاله ومن لا وجود لهم-.

سابعًا: وقال الذهبي: أبان بن أبي عياش فيروز وقيل: دينار، الزاهد أبو إسماعيل البصري أحد الضعفاء.

قال شعبة: لأن أشرب من بول حمار حتى أروى أحب إلي من أن أقول: حدثنا أبان بن أبي عياش.

وقال أحمد بن حنبل: قال عباد بن عباد: أتيت شعبة أنا وحماد بن زيد فكلمناه في أن يمسك عن أبان بن أبي عياش. قال: فلقيهم بعد ذلك فقال: ما أراني يسعني السكوت عنه، قال أحمد: هو متروك الحديث.

ونقل عن يحيى بن معين أنه متروك، ونقل الذهبي تضعيفه عن غيره، ونقل عن حماد بن زيد أنه قال: كلمنا شعبة في أن يكف عن أبان بن أبي عياش لسنه وأهل بيته، فضمن أن يفعل ثم اجتمعنا في جنازة فنادى من بعيد: يا أبا إسماعيل إني قد رجعت عن ذلك، لا يحل الكف عنه لأن الأمر دين. الميزان (١/ ١٠-١١).

وقال ابن أبي حاتم: نا محمد بن حمويه بن الحسن قال: سمعت أبا طالب قال: قال أحمد -يعني: ابن حنبل-: لا تكتب عن أبان بن أبي عياش شيئًا. قلت: كان له هوى؟ قال: كان منكر الحديث، وقال: سمعت أبي يقول: أبان بن أبي عياش متروك الحديث، وكان رجلًا صالحًا لكن بلي بسوء الحفظ.

ونقل عن ابن معين وأبي زرعة الكلام فيه. الجرح والتعديل (٢/ ٢٩٦).

فهذا أبان بن أبي عياش وصف بالزهد ووصف بالصلاح وليس من أهل البدع ومع هذا يحذر منه شعبة ويبالغ في التحذير منه، ويطلب منه السكوت عن هذا الرجل فيأبى ويقول: لا يحل الكف عنه لأن الأمر دين، ويقره على ذلك حماد بن زيد وأحمد بن حنبل، بل يصرح أحمد بالتحذير منه وكل أهل الحديث يحمدونه

على هذا النصح والتحذير.

فعلى منطق هؤلاء المحرفين لمنهج السلف عمدًا الطاعنين في أئمة الحديث وقواعدهم المزحزحين لهم عن اختصاصهم ومنه جرح أهل البدع وتبديعهم على منطق هؤلاء، هذا كله ليس من باب التحذير لأن التحذير غير الجرح والجرح خاص بالرواة لا يتناول أهل البدع وهذا تمادٍ في تلاعبهم وجهلهم وعنادهم، وإلا فقد بينا ترهاتهم وأبطلناها وهي كثيرة في كتابنا: أئمة الجرح والتعديل هم حماة الدين.

ألا فليعلم أن الجرح والتعديل وبيان ضلال طوائف البدع وضلال أفرادهم وبدعهم إنما قام به أئمة الحديث والناس تبع لهم، وهذا يعترف به الفقهاء وهم متفقون على أن مرجعهم في الجرح والتعديل إنما هم أئمة الحديث.

ثامنًا: قال الخطيب البغدادي: باب في أن السفه يسقط العدالة ويوجب رد الرواية، وساق ثلاث روايات عن شعبة ويحيى بن سعيد القطان وأبي عبد الرحمن بن بكار أحد الثقات أنهم ما كانوا يأخذون الحديث عن السفهاء أهل الفحش في الكلام.

ثم ساق إسناده إلى عطاف بن خالد قال: قيل لزيد بن أسلم عمن يا أبا أسامة؟ قال: ما كنا نجالس السفهاء ولا نتحمل عنهم، ثم ساق إسناده إلى إبراهيم بن المنذر قال: حدثني معن بن عيسى قال: كان مالك بن أنس يقول: لا تأخذ العلم عن أربعة وخذ عمن سوى ذلك: لا تأخذ عن سفيه معلن بالسفه وإن كان أروى الناس، ولا تأخذ عن كذاب يكذب في أحاديث الناس إذا جرب ذلك عليه وإن كان لا يتهم أن يكذب على رسول الله ﷺ، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من شيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث. الكفاية (ص١٨٧-١٨٩).

فهل سيعترف هؤلاء الجهلة المفلسين من بدهيات العلم أو سيسلكون مسلك غلاة أهل البدع في التمادي في أباطيلهم؟ نحن ننتظر أي الطرفين سيسلكون.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

٥ ذو الحجة ١٤٢٥هـ

تكملة المقال السابق:

أهل البدع يدخلون في جرح أئمة الحديث دخولًا أوليًا وغير أهل البدع يدخلون في تحذيرهم دون شك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذا المقال تكملة الرد على قاعدة فالح في التفريق بين جرح الرواة والتحذير من أهل البدع.

أقول:

ولتأكيد بطلان هذه التُّرهات والجهالات أسوق لكم أمثلة من كلام الله ومن كلام رسوله ﷺ ومن كلام أئمة هذا الشأن:

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤- ١٥].

في هاتين الآيتين يحذر الله تعالى المؤمنين عداوة بعض الأزواج والأولاد والأموال وفتنتهم؛ لأن كلًّا من ذلك قد يكون فيه ضرر على المؤمنين في دينهم، وفي ذلك تحذير من كل ما يضر المؤمن في دينه.

قال ابن زيد في تفسير ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾: يعني: على دينكم.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ قال: يحمل الرجل

على قطيعة الرحم، أو معصية ربه؛ فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه.

وقال ابن كثير تفسيرًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. يقول تعالى: «إنّما الأموال والأولاد فتنة» أي: اختبار وابتلاء من اللّه لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠١-٤٠٢).

فهذا تحذير من اللّه ﷻ من غير أهل البدع؛ فإن كان فيهم مبتدع فالتحذير أشد.

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وكل الآيات والأحاديث التي تحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هي دعوة للناس إلى كل خير وتحذير لهم من كل شر ومنكر وخطأ.

وقال رسول اللّه ﷺ: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثمّ تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن باللّه واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر». [صحيح مسلم: ٣/ ١٤٧٢].

فهذا الحديث فيه دلالة للأمة إلى خير ما يعلمه لهم وتحذير من الفتن والشرور، ودلالة على طريقة القضاء على بعض الشرور.

وقال ﷺ: «الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

فدعوة المسلمين إلى الخير وتحذيرهم من كل أنواع الشرور وأهلها تدخل في

النصيحة التي هي جامعة لكل خير .

والحقيقة : أن هذه القاعدة التي أتيتم بها من أشد القواعد فسادًا وتدميرًا ومواجهة للنصوص القرآنية والنبوية والأصول الإسلامية التي لا يقوم الإسلام إلا بها .

قاتل الله الجهل والهوى ، كيف يرديان أهلهما في مهاوي الهلاك؟!!

وقال عبد الرحمن بن عوف لابن عباس رضي الله عنهما : «لو شهدت أمير المؤمنين أتاه رجل قال : إن فلانًا يقول : لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلانًا .

فقال عمر : لأقومن العشية فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوهم .

قلت : لا تفعل ، فإن الموسم يجمع رعاع الناس يغلبون على مجلسك ، فأخاف ألَّا ينزلوها على وجهها ، فيطير بها كل مطير ، فأمهل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة فتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فيحفظوا مقالتك وينزلوها على وجهها .

فقال : والله لأقومن به في أول مقام أقومه بالمدينة .

قال ابن عباس : فقدمنا المدينة .

فقال : إن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل آية الرجم . . . » صحيح البخاري (٤/ ٣٦٨) حديث رقم (٧٣٢٣) . وفي مسند الإمام أحمد (١/ ٥٥) .

وفي لفظ : «فغضب عمر ثمّ قال : إنّي إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم» . صحيح البخاري (٤/ ٢٥٧) حديث رقم (٦٨٣٠) .

وقال أبو داود : حدثنا يزيد بن خالد بن يزيد بن عبد الله بن موهب الهمداني : حدثنا الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب : أن أبا إدريس الخولاني عائذ الله أخبره أن يزيد بن عميرة -وكان من أصحاب معاذ بن جبل- أخبره ، قال : كان لا يجلس مجلسًا للذكر حين يجلس إلا قال : الله حكم قسط ، هلك المرتابون .

فقال معاذ بن جبل يومًا: «إن من ورائكم فتنًا يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتّى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن؟ ما هم بمتبعيَّ حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق».

قال: قلت لمعاذ: ما يدريني -رحمك الله- أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟

قال: «بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال لها: ما هذه؟!! ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع، وتلقَّ الحق إذا سمعته فإن على الحق نورًا».

وفي لفظ لأبي داود: «المشبهات» مكان: «المشتهرات». (السنن/ كتاب السنة: حديث ٤٦١١).

فهذا الخليفة الراشد يحذر من أناس غير مبتدعين، فمن قال: إن التحذير لا يكون إلا من أهل البدع فقد أتى بما لا يعرفه المسلمون ولا آباؤهم، فهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه الفقيه يحذر من البدع، ويحذر من زيغة الحكيم، ويحذر من المشتهرات والمتشابهات من كلام الحكيم، وهذا الحكيم قد يكون إمامًا من أئمة السنة والحق.

وفي كلامه رد على من يقول: إنه لا يحذر إلا من أهل البدع، ورد على من يقول بحمل المجمل على المفصل فإن المجمل من المتشابهات، ولا يبعد أن يكون معاذ رضي الله عنه تلقى هذا الكلام من الرسول الكريم ﷺ فيكون له حكم الرفع.

وقال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في كتابه معرفة علوم الحديث (ص٥٢-٥٣): ذكر النوع الثامن عشر من علوم الحديث. هذا النوع من علم الحديث معرفة الجرح والتعديل.

وهما في الأصل نوعان كل نوع منهما علم برأسه، وهو ثمرة هذا العلم،

والمرقاة الكبيرة منه، وقد تكلمت عليه في كتاب المدخل إلى معرفة الصحيح بكلام شافٍ رضيه كل من رآه من أهل الصنعة، ثمّ ذكرت في كتاب المزكين لرواة الأخبار على عشر طبقات في كل عصر منهم أربعة، وهم أربعون رجلًا، فالطبقة الأولى منهم: أبو بكر وعمر وعلي وزيد بن ثابت فإنهم قد جرحوا وعدلوا وبحثوا عن صحة الروايات وسقمها، والطبقة العاشرة منهم: أبو إسحاق إبراهيم بن حمزة الأصبهاني وأبو علي النيسابوري وأبو بكر محمد بن عمر بن سالم البغدادي وأبو القاسم حمزة بن علي الكناني المصري.

وقد ذكرت في كتاب «المدخل إلى معرفة كتاب الإكليل» أنواع العدالة على خمسة أقسام والجرح على عشرة أقسام، وتكلمت في هذه الكتب على الجرح والتعديل مما يغني عن إعادته، واستشهدت بأقاويل الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين.

وأصل عدالة المحدث أن يكون مسلمًا لا يدعو إلى بدعة، ولا يعلن من أنواع المعاصي ما تسقط به عدالته، فإن كان مع ذلك حافظًا لحديثه فهي أرفع درجات المحدثين، وإن كان صاحب كتاب فلا ينبغي أن يحدث إلا من أصوله.

تعليق:

في هذا النص من الحاكم أن علم الجرح والتعديل نوعان:

أحدهما: علم التعديل وقد ألف فيه كتب مثل: كتاب الثقات للعجلي، وكتاب الثقات لابن حبان، وكتاب الثقات لابن شاهين.

وعلم الجرح وقد ألف فيه كتب منها: كتاب الضعفاء للبخاري، والضعفاء والمتروكين للنسائي، وكتاب المجروحين لابن حبان، وكتب في الضعفاء للدارقطني، وفيه تقسيم المجروحين إلى عشرة أقسام يأتي في طليعتهم الكذابون والزنادقة وأهل الأهواء والبدع، وقد رضي عمله كل من رآه من أهل الصنعة في وقته.

وأقول: وكذلك من أتى بعده من أهل العلم، ولم يخالفهم أحد في إدخال أهل البدع في علم الجرح والتعديل إلا فالح الذي لا ناقة له ولا جمل في هذا العلم، بل

لو جاء مليون فالح من أمثاله فلا قيمة لهم ولا وزن لكلامهم ولا يزيدهم اعتراضهم ومخالفتهم لعلماء الأمة إلا سقوطًا .

وانظر كيف بدأ الحاكم هنا في تعريف العدالة بأن يكون المحدث مسلمًا لا يدعو إلى بدعة ؛ لأن البدعة جرح في صاحبها فإذا كان داعية سقط صاحبها .

ونأسف أننا أصبحنا تجاه قوم يجهلون البدهيات ، ويجادلون فيها بالتُّرهات ! !

وقال الحاكم في كتابه المدخل إلى الإكليل : ذكر أنواع الجرح (ص٣٣-٤٩) :

ذكر معرفة أنواع الصحيح

والصحيح من الحديث منقسم إلى عشرة أقسام :

خمسة متفق عليها ، وخمسة مختلف فيها . . .

ثمّ ذكر الخمسة المتفق عليها والخمسة المختلف فيها .

فقال : خامسها : روايات المبتدعة وأصحاب الأهواء . . . ثم قال : فإن رواياتهم عند أكثر المحدثين مقبولة إذا كانوا فيها صادقين ، وذكر بعض من قبل رواياتهم كالبخاري ومسلم وابن خزيمة .

ونقل عن مالك قوله : لا يؤخذ حديث رسول الله ﷺ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من كذاب يكذب في حديث الناس وإن كنت لا تتهمه أن يكذب على رسول الله ﷺ .

ولم يذكر السفيه ولا من كان فيه صلاح ولكنه ليس من أهل الحديث .

وقد ذكرهما غيره كالخطيب في الكفاية والرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص٤٠٣) ، والشاهد منه ذكر المبتدع في المجروحين وبيان اختلاف أئمة الحديث فيه من أجل بدعته .

ثم قال الحاكم : والمجروحون على عشرة طبقات .

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ : أول أنواع الجرح : وضع الحديث على رسول الله ﷺ ، وقد صحت الرواية عنه ﷺ أنه قال : «من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» .

ثم قال: وممن ارتكب هذه الكبيرة جماعة فمنهم:

١- قوم من الزنادقة، مثل: المغيرة بن سعيد الكوفي، وأبي عبد الرحيم الكوفي، ومحمد بن سعيد الشامي المصلوب في الزندقة، تشبهوا بالعلماء، فوضعوا الأحاديث وحدثوا بها ليوقعوا في قلوبهم الشك.

وذكر كلام العلماء فيهم.

٢- قال: ومنهم قوم وضعوا الحديث لهوى يدعون الناس إليه -يعني بهم أهل الأهواء والبدع- وذكر منهم شيخًا من الخوارج والجاحظ وأبا العيناء.

قال عبد الله بن لهيعة: قال: سمعت شيخًا من الخوارج تاب ورجع وهو يقول: إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، فإنا كنا إذا هوينا أمرًا صيَّرناه حديثًا.

٣- قال: ومنهم جماعة وضعوا الحديث حسبة -كما زعموا- يدعون الناس إلى فضائل الأعمال، مثل: أبي عصمة نوح بن أبي مريم، ومحمد بن عكاشة الكرماني، وأحمد بن عبد الله الجوباري.

٤- قال: ومنهم جماعة وضعوا الحديث للملوك في الوقت مما تقربوا به إليهم، وذكر منهم: غياث بن إبراهيم، وميسرة بن عبد ربه، وزياد بن ميمون، وأبو البختري، وأبو داود سليمان بن عمر النخعي، وغيرهم.

٥- قال: ومنهم جماعة وضعوا الحديث في الوقت لحاجتهم إليه، وذكر منهم: سعد بن طريف، وذكر المتعصبين للمذاهب ومنهم: مأمون بن أحمد الهروي الذي وضع حديثًا في الطعن في الشافعي وفي مدح أبي حنيفة، وذكر منهم: محمد بن عكاشة الكرماني الذي وضع حديث: «من رفع يده في الركوع فلا صلاة له».

٦- قال: ومنهم قوم من السؤال والمتكدين يقفون في الأسواق والمساجد والمحافل فيضعون في الوقت على رسول الله بأسانيد صحيحة قد حفظوها فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد.

ثم قال الحاكم: فهذه الطائفة بأنواعها كذبة على رسول الله ﷺ.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: الطبقة الثانية من المجروحين: قوم عمدوا إلى أحاديث مشهورة على رسول الله ﷺ بأسانيد معروفة، ووضعوا إليها غير تلك الأسانيد، فركبوها عليها ليستغرب بتلك الأسانيد، منهم: إبراهيم بن اليسع، وحماد بن عمر النصيبي، وبهلول بن عبيد، وأصرم بن حوشب، وغيرهم.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: الطبقة الثالثة من المجروحين: قوم من أهل العلم حملهم الشره على الرواية عن قوم ماتوا قبل أن يولدوا، مثل: إبراهيم بن هدبة، وعبد الله بن إسحاق الكرماني، وهذا النوع من المجروحين فيهم كثرة.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: الطبقة الرابعة من المجروحين: قوم عمدوا إلى أحاديث صحيحة عن الصحابة رفعوها إلى رسول الله ﷺ: كأبي حذافة أحمد بن إسماعيل السهمي، ويحيى بن سلام البصري.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: الطبقة الخامسة من المجروحين: قوم عمدوا إلى أحاديث مروية عن التابعين أرسلوها عن رسول الله ﷺ، فزادوا فيها رجلًا من الصحابة فوصلوها، مثل: إبراهيم بن محمد المقدسي، وعلى هذا النوع جماعة يستشهد به على الجملة.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: الطبقة السادسة من المجروحين: قوم الغالب عليهم الصلاح والعبادة، لم يتفرغوا إلى ضبط الحديث وحفظه والإتقان فيه، فاستخفوا بالرواية فظهرت أحوالهم، قال الحاكم رَحِمَهُ اللَّهُ: فيهم كثرة وأكثرهم زهاد عباد.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: الطبقة السابعة من المجروحين: قوم سمعوا من شيوخ وأكثروا عنهم، ثم عمدوا إلى أحاديث لم يسمعوها من أولئك الشيوخ، فحدثوا بها ولم يميزوا بين ما سمعوا وما لم يسمعوا وورد خراسان جماعة من هذه الطبقة كإبراهيم ابن إسحاق الغسيلي، وأحمد بن محمد بن عمر المنكدري وغيرهما . . . وقد رأينا في عصرنا منهم جماعة من أعيان الغرباء من أهل العلم فعلوا ذلك.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: الطبقة الثامنة من المجروحين: قوم سمعوا كتبًا مصنفة من شيوخ أدركوهم، ولم ينسخوا سماعاتهم عند السماع، وتهاونوا بها إلى أن طعنوا في السن، وسئلوا عن الحديث فحملهم الجهل والشره على أن حدثوا بتلك الكتب

من كتب مشتراة ليس لهم فيها سماع ولا بلاغ، وهم يتوهمون أنهم في رواياتهم صادقون وهذا النوع مما كثر في الناس.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: الطبقة التاسعة من المجروحين: قوم ليس الحديث من صناعتهم، ولا يرجعون إلى أي نوع من الأنواع العشرة الّتي يحتاج المحدث إلى معرفتها فلا يحفظون حديثهم، فيجيئهم طالب العلم فيقرأ عليهم ما ليس من حديثهم، فيجيبون ويقرون بذلك وهم لا يدرون، ومثل بهذا بموسى بن دينار وقيس بن ربيع.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: الطبقة العاشرة من المجروحين: قوم كتبوا الحديث ورحلوا فيه وعرفوا به، فتلفت كتبهم بأنواع من التلف: الحرق أو النهب أو الهدم أو الغرق أو السرقة؛ فلما سئلوا عن التحديث حدثوا بها في كتب غيرهم أو من حفظهم على التخمين، فسقطوا بذلك، منهم: عبد اللَّه بن لهيعة المصري على محله وعلو قدره.

فهل هذه الأصناف والطبقات المجروحة لا يحذر منها على منهج هؤلاء؟ وهل يقول هذا إنسان يعقل أن العلماء لا يذكرون هؤلاء المجروحين على اختلاف أنواعهم إلا للتحذير منهم ومن زلاتهم وكذب من يكذب منهم على رسول اللَّه ﷺ؟!!

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في النزهة (ص٨٢-٨٣): وخبر الآحاد؛ بنقل عدل تام الضبط، متصل السند، غير معلل ولا شاذ: هو الصحيح لذاته.

وشرح العدالة بقوله: والمراد بالعدل: من له ملكة تحمله على ملازمة التقوى والمروءة.

وشرح التقوى بقوله: والمراد بالتقوى: اجتناب الأعمال السيئة من شرك أو فسق أو بدعة.

فجعل في تعريف الصحيح المقبول، الشرك والفسق والبدعة من الأمور الّتي تنافي العدالة والتقوى، وهذا جرح شديد بالبدعة إذ هي مشتقة من الشرك وآيلة إليه.

وقال أيضًا في أسباب الطعن في الراوي -أي: الجرح- (ص١١٤-١١٧):

ثمّ الطعن: إما أن يكون لكذب الراوي، أو تهمته بذلك، أو فحش غلطه، أو

غفلته، أو فسقه، أو وهمه، أو مخالفته، أو جهالته، أو بدعته، أو سوء حفظه.

فجعل البدعة من أسباب الطعن.

وقال أيضًا في (ص١٣٦-١٣٨): ثم البدعة: إما بمكفر، أو بمفسق: فالأول: لا يقبل صاحبها الجمهور، والثاني: يقبل من لم يكن داعية في الأصح؛ إلا إن روى ما يقوّي بدعته، فيرد على المختار، وبه صرح الجوزجاني شيخ النسائي.

ثمّ ذكر في شرحه مذاهب أئمة الجرح والتعديل في قبول رواية المبتدع من ردها.

فانظر إلى ابن حجر لا تأتي مناسبة إلا ويذكر فيها أهل البدع في المجروحين، وقد سبقه إلى ذلك أئمة الجرح والتعديل وأيدهم وتابعهم في ذلك كل علماء الأمة.

وبهذه البيانات والإيضاحات التي سردناها يتبين للقارئ أن القرآن والسنة قد حذَّرا من كل ما يضر بالإسلام والمسلمين في دينهم بل ودنياهم، وكذلك الصحابة والتابعون وأئمة الهدى وأئمة الحديث قد حذَّروا المسلمين من كل ما يضرهم في دينهم سواء من الرواة السالمين من البدع أو أهل البدع أو من الدجالين والكذَّابين، وكل ذلك يدخل في صميم منهج أئمة الجرح والتعديل.

وبكل هذا وذاك يسقط قول أهل الجهل والهوى: إن أهل البدع لا يدخلون في قواعد أهل الحديث ولا يدخلون في جرحهم، وأن غير أهل البدع لا يدخلون في تحذيرهم.

ولا أعرف جهلًا وكذبًا على أهل الحديث وأصولهم ومنهجهم يفوق هذا الجهل والكذب.

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

١٦ / ١٢ / ١٤٢٥هـ

نور السنة والتوحيد عند أهل الحديث

وظلمات البدع والأهواء تخيم على غيرهم

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

إن البقاع المضيئة بالكتاب والسنة في العالم الإسلامي هي بقاع أهل الحديث السلفيين.

وإن البقاع المظلمة في العالم الإسلامي هي بقاع أهل البدع والضلال المخالفين المحاربين لأهل الحديث.

وإن الأحزاب السياسية المعاصرة -بما فيهم الإخوان المسلمون وفصائلهم - والفرق الضالة -بما فيهم جماعة التبليغ- يريدون أن يبقى هذا الظلام مخيمًا في العالم الإسلامي مطبقًا عليه، لا يحركون ساكنًا ضده، وليس لهم إرادة في تبديده، وليس لهم نهج يدفعهم إلى إزاحته وإحلال التوحيد ونور الكتاب والسنة بديلًا عنه.

فهم يحافظون على هذا الظلام -ولاسيما ظلام الرفض والتصوف- بحجة أنهم يحاربون أعداء الإسلام، وهم ليسوا كذلك، وبحجة نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، وبحجة تجميع المسلمين بما فيهم الروافض ومن غلاة الصوفية لمواجهة أعداء الإسلام.

ثم هم يحاربون أهل الحديث ويضعون في وجوههم شتى العقبات والسدود التي تصد الناس عن الاستضاءة بما عند أهل الحديث من نور التوحيد ونور الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح.

فإلى متى تستمر حماية الظلام المطبق على الأمة؟!

ومتى يرى المسلمون هذا النور؟!

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- ناقلًا كلام السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «فزعم كل فريق منهم -أي: المبتدعة- أنه هو المتمسك بشريعة الإسلام، وأن الحق الذي قام به رسول الله ﷺ هو الذي يعتقده وينتحله؛ غير أن الله تعالى أبى أن يكون الحق والعقيدة الصحيحة إلا مع أهل الحديث والآثار.

لأنهم أخذوا دينهم وعقائدهم خلفًا عن سلف، وقرنًا عن قرن، إلى أن انتهوا إلى التابعين.

وأخذه التابعون عن أصحاب النبي ﷺ.

وأخذه الصحابة عن رسول الله ﷺ.

وشهيرها، وغنوا عن صحبة أهلها، وطعنوا فيها وفيهم، وزهدوا الناس في حقها، وضربوا لها ولأهلها أسوأ الأمثال، ولقبوهم أقبح الألقاب، فسموهم نواصب أو مشبهة وحشوية أو مجسمة، فعلمنا بهذه الدلائل الظاهرة والشواهد القائمة أن أولئك أحق بها من سائر الفرق». [مختصر الصواعق (ص٤٢٣-٤٢٩)].

وخصوم أهل الحديث الجدد يرددون الطعون التي يطعن بها الشيوعيون والعلمانيون والبعثيون في خصومهم من المسلمين وغيرهم وهي: جواسيس، عملاء أمريكا، وعلماء البلاط، وعلماء الصحون.

نسأل الله للجميع الهداية إلى الحق والرجوع عن الباطل والخروج من ظلام البدع.

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

١٩ / ٥ /١٤٢١هـ

الحقوق والواجبات

على الرجال والنساء في الإسلام

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

تقديم

فضيلة الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم العلامة صالح الفوزان

الحمد لله الحكيم الخبير، الذي خلق الذكر والأنثى وجعل لكل منهما حقوقًا وعليه حقوق وواجبات، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه وتمسك بسنته.

وبعد:

فلا شك أن الله ﷻ شرع لعباده ما يُصلح دينهم ودنياهم، وأمرهم بالعدل فيما بينهم باتباع الكتاب والسنة لا باتباع الأهواء والرغبات: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فمن لَم يرض بما شرعه الله فهو غير مؤمن؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ومن ذلك: قضية المرأة الَّتِي تُثار فِي هذا الوقت، ويتكلم فيها كلُّ من هبَّ ودَبَّ من الرجال والنساء، إما بِجهل وإما بِهوى، ومن ذلك: ما دار فِي منتدى النساء الذي عُقد فِي جدة منذ أيام.

وقد تعقب ذلك الشيخ الفاضل: ربيع بن هادي عمير المدخلي -حفظه الله- وبيَّن ما جرى فِي ذلك المنتدى من الخلط والجهل ودعوى أن النساء مظلومات ومهضومات حقوقهن، وهذا إن كان اتِّهامًا للإسلام بأنه ظلم المرأة فهو كفر بالله، وإن كان اتِّهامًا لبعض الرجال أنَّهم يظلمون النساء فهذا قد يحصل لكن لا يُنسب ذلك إلى الإسلام، وإنَّما يُنسب إلى من صدر منه، وكما أنه قد يقع ظلم من بعض

الرجال للنساء فالظلم الذي يَحصل من النساء للرجال أكثر، وسبيل رفع ذلك يرجع فيه إلى المَحاكم الشرعية لا إلى المنتديات كما ذكر ذلك الشيخ ربيع -حفظه الله- فقد أجاد وأفاد جزاه الله خيرًا ونفع بِما كتب.

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فقد ظهر في هذه الأيام في بلاد الحرمين من ينادي بحقوق المرأة ويتباكى عليها، ووجد من بعض النساء من يتجاوب مع هذا النداء، وهذا أمر يضطر المسلم إلى أن يقول كلمة الحَق في بيان حقوق الرجال والنساء وواجباتهم جَميعًا، وأن يبين وضع المرأة عند الأمم الأخرى غير المسلمين؛ إذ بضدها تتبين الأشياء.

حال الناس قبل الإسلام وحال المرأة

من حديث عياض بن حمار الطويل قوله ﷺ: **«وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لَهُم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لَم أُنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلَى أهل الأرض فمقتهم عربَهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»**[1].

وقد ذكر القرآن الكريمِ صورًا كثيرة من الجاهليات وأخلاقهم من وثنيين وأهل الكتاب.

ومنها: ظلم العرب للمرأة واحتقارهم لَهَا وسقوط منزلتها عندهم، والتأفف والتضجر منها منذ ولادتِها ووأدها طفلة وفتاة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

وهي عند الأمم الأخرى أسوأ حالًا منها عند العرب: فكانت الأمة اليونانية

---

(١) رواه مسلم حديث (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢).

تنظر إليها بأنَّها من سقط المتاع، ولَم يكن لَهَا أي حقوق أهلية، وكانت تباع وتشترى فِي الأسواق.

وفِي الحَضارة الرومانية: كان للرجل السيادة المطلقة، وله الحقوق الكاملة على أهله، فله أن يحكم على زوجته بالقتل لأدنَى تُهمة، وله أن يقتل أولاده أو يعذبَهم دون أي مسئولية.

وهي عند الهُنود فِي غاية الهَوان والذل: وإذا مات زوجها فعليها أن تحرق جسدها على مقربة من جسده.

وقد تفرح بِهذا المصير تخلصًا من الاضطهاد والهوان الذي تلقاه.

وهي عند اليهود: لعنة؛ لأنَّها أغوت آدم، وعند بعض طوائفهم: لأبيها الحق أن يبيعها، ولا يُجالسونَها ولا يؤاكلونَها إذا حاضت، ولا تلمس وعاء حتَّى لا ينجس.

وقرر النصارى الأوائل: أن الزواج دنس يَجب الابتعاد عنه، وأعلنوا أن المرأة باب الشيطان، وأن العلاقة بِها رجس.

وعقد الفرنسيون عام (٥٨٦م) مؤتَمَرًا للبحث: هل تعد المرأة إنسانًا أو غير إنسان؟! وهل لَهَا روح أو ليس لَهَا روح؟! وإذا كان لَهَا روح فهل هي روح حيوان أو روح إنسان؟! وقرروا أخيرًا: أنَّها روح إنسان ولكنها خُلقت لخدمة الرجل فحسب!!

وظلت النساء طبقًا للقانون الإنجليزي العام حتَّى منتصف القرن الماضي تقريبًا غير معدودات من «الأشخاص» أو المواطنين الذين اصطلح القانون على تسميتهم بِهذا الاسم، لذلك لَم يكن لَهن حقوق شخصية، ولا حق فِي الأموال الَّتِي تكسبها، ولا حق فِي ملكية شيء حتَّى الملابس الَّتِي كن يلبسنها.

بل القانون الإنجليزي حتَّى عام (١٨٠٥م) كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته، وقد حدد ثَمن الزوجة بستة سنتات (نصف شلن).

وقد حدث أن باع إنجليزي زوجته عام (١٩٣١م) بِخمسمائة جنيه، وقال محاميه فِي الدفاع عنه: إن القانون الإنجليزي عام (١٨٠١م) يُحدد ثَمن الزوجة

بستة سنتات بشرط أن يتم البيع بموافقة الزوجة، فأجابت المَحكمة: إن هذا القانون قد أُلغي عام (١٨٠٥م) بقانون يَمنع بيع الزوجات أو التنازل عنهن، وبعد المداولة حكمت المَحكمة على بائع زوجته بالسجن عشرة أشهر.

وجاء فِي مَجلة «حضارة الإسلام» السنة الثانية (ص١٠٧٨): «حدث فِي العام الماضي أن باع إيطالي زوجته لآخر على أقساط، فلما امتنع المشتري عن سداد الأقساط الأخيرة قتله البائع».

وقال الأستاذ مُحمَّد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من الغرائب الَّتِي نقلت عن بعض صحف إنجلترا فِي هذه الأيام: أنه لا يزال يوجد فِي بلاد الأرياف الإنجليزية رجال يبيعون نساءهم بثمن بَخس جدًّا كثلاثين شلنًا، وقد ذكرت -أي: الصحف الإنجليزية- أسمَاء بعضهم»[(١)].

ونقل عن أحد الدارسين فِي أمريكا أن فِي الأمريكيين أقوامًا يتبادلون زوجاتِهم لمدة معلومة، ثُمَّ يسترجع كل واحد زوجته المعارة تَمَامًا كما يعير القروي دابته أو الحضري فِي بلادنا شيئًا من متاع بيته.

وتاريخ المرأة عند الصينيين والفرس فِي غاية السوء.

هذه هي أحوال النساء عند الأمم غير الإسلامية.

أما الإسلام: فقد انتشل المرأة من وهدتِها، وبدَّد عنها كوابيس الظلم والظلام والإذلال والاستعباد، وأنزلَها مَنزِلًا كريمًا ومكانة لا نظير لَهَا عند الأمم، سواء كانت أمًّا أو بنتًا أو زوجة أو أختًا.

فقرر اللَّه إنسانيتها من فوق سبع سَموات فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولَم تَحتج المرأة المسلمة إلى عقد مؤتَمرات لإثبات إنسانيتها وحقوقها، فقد قررها اللَّه ورسوله وآمن بِها المسلمون.

---

(١) نقلًا عن عودة الحجاب (٢/ ٤١-٤٧)، وقد اختصرت بعض نصوصه.

ولها حق الهجرة والنصرة والحماية من المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وحرم الله من يؤذي المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وتوعد من يفتن المؤمنين والمؤمنات عن دينهم بعذاب جهنم؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

وأمر الله رسوله الكريم أن يستغفر لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات؛ فقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وإذا أراد المنحلون وأعداء الإسلام أن يعرفوا شيئًا عن منزلة المرأة فِي الإسلام فليمدوا أبصارهم إلى تشييع جنازتها والصلاة عليها، ولعل مِمَّا يدهش الكفار والمنافقين أن يروا مئات الآلاف فِي المسجدين الشريفين تنتظم صفوفهم للصلاة على جنازة امرأة مؤمنة أو طفلتها.

فهذه مزايا أعطاها الإسلام للمرأة المؤمنة، يستحيل مثلها فِي أي ديانة مُحرفة أو مُخترعة، أو قوانين مزيفة، مهما بالغت فِي تكريم المرأة كما تزعم.

بل الحضارة المعاصرة الَّتِي يقودها اليهود والنصارى قد مسخت المرأة مسخًا شنيعًا فجعلتها سلعة رخيصة وملعبة للرجال فِي ميادين العمل والأسواق ومعارض الأزياء والصحف والمَجلات، فكم ترى فِي هذه الصحف من الصور النسائية الخليعة الفاضحة للنساء؛ ليتلهى بِهن الفجار ويستمتعوا بِهذه المناظر الفاضحة المخزية، ولعل الإحصائيات قد عجزت عن تسجيل حوادث الحمل والأولاد غير الشرعيين.

كل هذا نتيجة للقوانين الَّتِي تدعي أنَّها أنصفت المرأة وأعطتها حقوقها، ومنها: الحرية والمساواة!!

ونتيجة للإعلام الخبيث الذي تشجعه هذه القوانين والأنظمة الَّتِي تُحارب تشريع الله الخالق الحكيم الذي تضمنه الإسلام كتابًا وسنة، الذي أعطى كلًّا من

الرجل والمرأة حقه بشرف وعدل وإنصاف.

هذه هي الأنظمة والقوانين الَّتِي يسيل عليها لعاب المنحلين من الإسلام كالعلمانيين والليبراليين والإباحيين فِي بلاد الإسلام، ويريدون أن يَجُرُّوا المرأة المسلمة إلى مستنقعاتِها المهلكة.

لقد أعطى الإسلام كلًّا من الرجل والمرأة حقه بالعدل والقسطاس المستقيم، فشرع للرجال من الحقوق والواجبات ما يلائم رجولتهم وقواهم وعقولهم واستعدادهم لمواجهة الأخطار وتحمل المشاق وفطرهم الَّتِي زودهم اللَّه بِها.

وشرع للنساء من الحقوق والواجبات ما يلائم أنوثتهن وضعفهن ونقصهن عن الرجال فِي العقل والقوة، وضعفهن فِي الاستعداد لمواجهة الأخطار والمشاق.

وقد رضي المسلمون رجالًا ونساءً هذا التشريع الإلهي الحكيم الرحيم، واعتبروه من عقائدهم المُسَلَّمة.

ومن تَفَلَّت منه فليس بالمؤمن، ويُعتبر مُستدرِكًا على اللَّه ورسوله، وحاشا مؤمنًا باللَّه ورسله وكتبه أن يقع فِي ذلك.

وقد راعى الإسلام هذا التفاوت؛ فبَنَى عليه الحقوق والواجبات لكلٍّ من الرجل والمرأة وعليهما بعد حقوق اللَّه، فمن حق اللَّه على عباده رجالًا ونساءً: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأن يقوموا بأركان الإسلام والإيمَان المعروفة.

وأن يقوموا ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من الأمور المشتركة بين الرجال والنساء.

*** ومن الواجبات الَّتِي تَخص الرجال:**

١- الجهاد بالنفس والمال فِي سبيل اللَّه لإعلاء كلمة اللَّه ونشر الإسلام، والذياد عن ديار الإسلام.

٢- صلاة الجمعة والجماعة فِي المساجد.

٣- النفقة والكسوة والسكن تَجب على الرجال لزوجاتِهم بالمعروف، وهذه وتلك أمور عظيمة تبذل فيها الأموال والطاقات والأنفس، ولا طاقة للنساء بِها إلا ما تقوم به على وجه التطوع منها.

٤- تكوين الجيوش لا يكون إلا من الرجال دون النساء.

* **ومن الحُقوق المَشروعة الَّتِي فضل فيها الرجال على النساء:**

١- **القوامة:** قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

٢- **الولاية على المرأة فِي عقد النكاح:** إذ لا تكون هذه الولاية إلا للرجال، فلا تتولى المرأة عقد النكاح على نفسها ولا على غيرها.

٣- **تفضيل الذكر على الأنثى فِي العقيقة:** إذ يُعق عن الغلام بشاتين وعن الجارية بشاة واحدة.

٤- **تفضيل الذكر على الأنثى فِي المِيراث:** فللمرأة نصف ميراث الرجل بنتًا كانت أو أختًا أو أمًّا أو زوجة.

٥- **التفاوت فِي الديات:** إذ دية المرأة على النصف من دية الرجل.

٦- **يفضل الرجل على المَرأة فِي الشهادة:** إذ شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين، وهناك أمور لا تقبل فيها شهادة المرأة كالجنايات.

٧- **ومنها:** الخلافة والإمارة والقضاء وقيادة الجيوش وتدبير أمر الأمة، فهذه للرجال وعليهم.

٨- **وللرجال أن يُعددوا الزوجات إلى أربع:** وليس للمرأة أن تعدد الأزواج، وهذا التفضيل حتَّى فِي الآخرة.

ولقد أعطى الإسلام المَرأة حقوقًا أكثر من الواجبات الَّتِي افترضها عليها: فالواجبات الثقيلة والشاقة ومنها ما فيه بذل المال والنفس فإنَّما فرضها على الرجال، أما المرأة فهي معفوة منها، فأي نظام فِي الماضي والحاضر يعطي المرأة مثل هذا العطاء؟!

* **فمن الواجبات عليها:**

١- طاعة زوجها فِي غير معصية اللَّه، وحق الرجل عليها أعظم من حق أبويها.

٢- رعاية البيت والأسرة، «والمرأة راعية فِي بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها».

٣- ألَّا تصوم تطوعًا إلا بإذنه.

٤- وألَّا تأذن لأحد فِي بيته إلا بإذنه.

٥- وألَّا تَخرج من بيتها إلا بإذنه.

٦- أن تَحفظه فِي دينه وعرضه.

وهناك حقوق أخرى له عليها.

*** ومن حقوق المَرأة على الرجل:**

١- أن يدفع لَهَا مهرًا للزواج بِها.

٢- النفقة عليها فِي حدود المعروف.

٣- أن يُؤَمِّن لَهَا الملبس والسكن.

٤- وأن يعاشرها بالمعروف.

وهذا له تفاصيل: منها: أن يتحبب إليها، ويناديها بأحب الأسمَاء إليها، وأن يَحترم حديثها، ويجمعها حسن الأخلاق معها.

وإنِّي مع إيمَانِي بفضل الرجل على المرأة فإنِّي أحترم المرأة سواءً كانت أمًّا أم بنتًا أم زوجة أم أختًا أو أي قريبة من القريبات.

وأرى أن على المسلمين أن يحترموها وأن يكرموها وأن يستوصوا بِها خيرًا، كما أوصاهم بذلك رسول اللَّه وعلمهم حقوقها الَّتِي سلبتها الجاهليات فاستعادها لَهَا.

وأوصى النساء أن يعرفن حق الرجال، وأن يقمن به على الوجه الذي شرعه اللَّه، وبقيام كل من الطرفين بِحقوق اللَّه وبِحقوق الآخر وواجباته: يسعد الزوجان وتسعد الأسر والأمة وتطيب لَهم الحياة فِي الدنيا والآخرة.

ولقد اطلعت على ما نشر فِي جريدة المدينة فِي ملحقها الصادر يوم الأربعاء الموافق (٢٢ ذي القعدة ١٤٢٤هـ) تحت عنوان: المنتدى النسائي لعدد من الكاتبات فِي المملكة العربية السعودية.

ولَهن فِي هذا المنتدى مطالبات باسم الإسلام، وقد سقن خلال حوارهن آيات وأحاديث ودعوة إلى مراجعة سيرة الصحابيات الكريمات -رضي اللَّه عنهن-.

ولِي عليهن مؤاخذات لا يتسع المقام لاستقصائها وينبغي أن أذكر بعضها :

أولًا : منها الإجمال فِي العبارات ثُمَّ التوسع فِي المطالب.

*** ومن هذا الإجمَال :**

١- المطالبة بالعدالة والحق والمساواة النوعية.

٢- الحرية والتحرر.

٣- استخراج مظاهر الحقوق الإنسانية الكامنة فِي الدين وإظهارها وتطبيقها بالإجراءات التشريعية والقوانين أيضًا.

٤- مطالبتهن بولاية متكافئة وعلاقات متوازنة.

٥- اعتبار ولاية الرجل على المرأة وقوامته عليها خدمة للمرأة وتكليفًا لا تشريفًا[١].

٦- قالت إحداهن : «ربَّما أعتبر نفسي أكثر من هوجمت من قِبَل قراء من الرجال بسبب كتابتِي عبر زاويتِي سلسلة تتحدث عن جهل المرأة بِحقوقها وتَهاونِها وسلبيتها تِجاه حقوقها، وما أريد قوله حقيقة : أن لدينا الكثير مِمَّن يجهلون الإسلام ويعتبرون أن المرأة ما هي إلا تابع للرجل، والمرأة ليست تابعًا للرجل بل ندًّا للرجل سواء فِي الحقوق أو الواجبات...» إلخ.

٧- التركيز على حقوق النساء وإشارات مقتضبة إلى حقوق الرجال.

٨- التظلم للنساء دون أن يذكرن ظلم النساء للرجال.

٩- اتِّهام بعضهن للعلماء بقولها : أعتقد الاجتهادات معظمها تعتمد على أدلة انتقائية، بِمعنًى : ننتقي ما نريده.

فالمرأة لَهَا حقوق وعليها أن تطالب بِحقوقها، ولا تشعر أن المُجتمع

---

(١) بل هي تشريف وتكليف برعاية المرأة ومصلحتها.

والأعراف كبلتها وضيقت الخناق عليها .

خاصةً أن بعض الخطابات الدينية تنتقي بعض الآيات القرآنية والأحاديث من خلال ما يتناسب مع العادات والتقاليد؛ لكي تبرهن وتثبت أن المرأة أقل من الرجل، وأن المرأة يجب أن تكون تحت وصاية الرجل دائمًا .

هذا عرض موجز لبعض ما ورد فِي هذا الاجتماع النسائي لا لكل ما ورد فيه، ولا يتسع وقتِي لإلقاء الأضواء حتَّى على هذا الموجز، غير أنِّي رأيت أن أوضح بعض الأمور المهمة منه، ولسوف أضع كلًّا من الرجل والمرأة فِي موضعه الذي وضعه فيه الإسلام دون زيادة أو نقص، وأعتقد أن العقول السليمة والفطر المستقيمة تحترم هذا التشريع، وترى أنه هو عين العدل والإنصاف، وتقف هذه العقول مبهورة أمام هذا التشريع الحكيم؛ لأنه بلغ النهاية فِي الحكمة والعدل .

*** الأمور الَّتِي أريد توضيحها من مطالب صواحب المُنتدى :**

١- المساواة بين الرجال والنساء فِي الحقوق والواجبات .

٢- القوامة الَّتِي شرعها اللَّه ودان بِها المسلمون وبيان أسبابِها .

٣- هل أدلة العلماء انتقائية؟

٤- هل المرأة هي المظلومة فقط؟

أولًا: المساواة بين الرجال والنساء

ومنها المساواة في الحقوق والواجبات

هذه المساواة ادَّعاها بعضهن -وهي زينب غاصب- لا كلهن، وصرحت بأن المرأة ليست تابعة للرجل بل هي ندٌّ للرجل سواء فِي الحقوق أو الواجبات، واحتجت بقول اللَّه تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] .

ثُمَّ قالت: فاللَّه ﷻ لَم يجعل العمل والأجر حكرًا على الرجل، ولَم يجعله مضاعفًا له، وإنَّما ساوى بينهما فِي الحقوق والواجبات، وذكرت أن اللَّه فَضَّل الرجل بدرجة وهي النفقة. . . واستمرت تتكلم بِما فيه مجانبة للصواب انطلاقًا من

رؤيتها هذه.

فأقول: إن هذه المساواة الَّتِي تدعيها هذه المرأة لَم يأت بِها شرع ولا عقل.

أما الشرع: فالله ﷻ قد بيَّن فِي مُحكم كتابه أنه خلق المرأة للرجل، فهي نعمة من النعم الَّتِي امتن الله بِها على الرجال فِي الدنيا والآخرة.

١- قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [سورة النحل: ٧٢].

٢- وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

تأملوا أيها المؤمنون والمؤمنات العقلاء قول الله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ و﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ لتدركوا ما ميز الله به الرجل على المرأة وأنَّها جُعلت للرجل ومن أجله، وهذه نعمة عظيمة، وينشأ عنها نعمة أخرى: وهي أنَّها تنجب له الأولاد والأحفاد الذين لا يُنسبون إلا إليه لا إلى المرأة، فيقال: ابن فلان وبنت فلان وحفيد وحفيدة فلان.

وكذلك الآية من سورة الروم: هي نصٌّ فِي أن المرأة خُلقت للرجل لحكمة عظيمة: وهي أن يحصل له السكن والاستقرار النفسي، وأكد هذه النعمة بأن جعل بين الزوج والزوجة المودة والرحمة، فإنه لا تتحقق تلك النعمة وهي السكن إلا إذا كانت فِي جو تَحُفُّه وتعطره المودة والرحمة.

فإذا كانت المرأة تنظر إلى الرجل بأنَّها أفضل منه أو ندًّا له وأنَّها تساويه فِي الحقوق والواجبات تَحولت الحياة إلى صراع مرير وجحيم لا يطاق، وذهبت السكينة والاستقرار النفسي أدراج الرياح، وذهبت المودة والرحمة.

قال الرسول ﷺ: «الدنيا متاع؛ وخير متاعها المَرأة الصالِحَة»(١).

فالمَتاع: هو ما يُنتفع به من عرض الدنيا قليلها وكثيرها، وخير ما ينتفع به الرجل المؤمن المرأة الصالحة.

---

(١) أخرجه مسلم حديث (٣٥٣٣)، والنسائي، وابن ماجه.

فالمَرأة الصالِحَة نعمة، وغير الصالِحَة نقمة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

فالمرأة غير الصالحة قد تفتن الرجل في دينه وتثبطه عن الطاعات وعن فعل الخير وتَحمله على قطيعة الرحم وغير ذلك، فليحذرها؛ لأن فعلها هذا فعل الأعداء، وعليه بنصحها وتوجيهها ووعظها وتَخويفها بالله، ثُمَّ العفو والصفح والمغفرة عما يعانيه من تصرفاتِها لا سيما إذا كانت ترى نفسها ندًّا له.

٣- وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فجعل هذه الأشياء من شهوات الرجال ومطامِحهم ومِمَّا يتمتعون به في هذه الحياة الدنيا، ومن ضمن ذلك بل أولها: المرأة، فهي من متاع الرجل وفي مقدمة شهواته.

فإن كان الرجل صالِحًا والمَرأة صالِحَة فنعم المَتاع.

وكذلك الأموال إن استعان بِها على طاعة الله فنعم المال الصالح للرجل الصالِح.

وإن كان الرجل والمَرأة غير صالِحين فبئس المَتاع والمُستمتع.

وكما أن المرأة من نعم الله على الرجل في هذه الحياة الدنيا فهي في الآخرة نعمة تدخل ضمن ما يُجازي الله به عباده الصالحين على إيمانِهم وعملهم الصالِح.

٤- قال تعالى بعد الآية السالفة الذكر: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

٥- وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقد ذكر الله جزاء المؤمنين في الآخرة في عدد من سور القرآن ومن ضمن هذا الجزاء: الحور العين من النساء.

٦- وقال تعالى في سورة النبأ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ الآيات [٣١-٣٥].

وإذا ذكر جزاء المؤمنات فإنَّما يذكره تبعًا لجزاء المؤمنين، ولا يعدهن برجال من أوصافهم كذا وكذا.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [سورة محمد: ١٥].

وقال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥].

ومن هذه الآيات يدرك المؤمنون والمؤمنات بالله فضل الرجال على النساء في الدنيا والآخرة، وأن المرأة دون الرجل في الدنيا والآخرة، لا ينازع في ذلك إلا من يُجادل في آيات الله بالباطل ليدحض به الحق، فيا ويل له من عقاب الله.

*** يؤكد كل هذا ما يأتي من النصوص القرآنية والنبوية:**

٧- قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]. تسفيهًا وتوبيخًا لسفهاء المشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله، ومبينًا بذلك حقيقة الأنثى.

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «معنَى يُنَشَّأ: يُرَبَّى، والنشوء: التربية، والحلية: الزينة. والمَعنَى: أَوَجعلوا له سبحانه مَن شأنه أن يُربَّى في الزينة وهو عاجز أن يقوم بأمور نفسه، وإذا خوصم لا يقدر على إقامة حجته ودفع ما يُجادله به خصمه لنقصان عقله وضعف رأيه؟!».

وقال ابن زيد: «المراد: الأصنام».

وهو تفسير غير صحيح يرده ما يكاد يجمع عليه المفسرون ومنهم ابن عباس.

وقال: وأخرج عبد بن حميد عنه -أي: عن ابن عباس- ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ قال: هو النساء، فرق بين زيهن وزي الرجال، ونقصهن من الميراث، وبالشهادة وأمرهن بالقعدة، وسمَّاهن خوالف»(١).

وكان العرب في جاهليتهم يعبدون الأوثان، ويَجعلون منها شركاء لله في العبادة، ومنها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وسمُّوها بأسماء الإناث؛ فوبَّخهم اللّه على هذه الأعمال.

٨- فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: أتجعلون له ولدًا وتجعلون ولده أنثى وتَختارون لأنفسكم الذكور؟! فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت قسمة ضيزى، أي: جورًا باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة الَّتِي لو كانت بين مخلوقين كانت جورًا وسفهًا؟!»(٢).

٩- ومن السنة النبوية: ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النَّبِي ﷺ أنه قال: **«يا معشر النساء تصدقن؛ فإنِّي رأيتكن أكثر أهل النار.** فقلن: وبِمَ يا رسول الله؟ قال: **تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحَازم من إحداكن.** قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: **أليست شهادة المَرأة مثل نصف شهادة الرجل؟** قلن: بلى، قال: **فذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لَم تصلِ ولَم تصم؟** قلن: بلى، قال: **فذلك من نقصان دينها»**(٣).

فهذا الحديث فيه تصريح بنقصان دين النساء وعقولهن، والظاهر أن هذا النقص من أسباب إكثارهن اللعن، ومن أسباب وقوعهن فِي كفران العشير.

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٥٨-٦٥٩).

(٢) تفسير القرآن لابن كثير (٤/ ٢٧٢).

(٣) رواه البخاري فِي كتاب الحيض حديث (٣٠٤)، ومسلم فِي الإيمان بنحوه من حديث ابن عمر حديث (١٣٢)، وأشار إلى حديث أبي سعيد هذا وإلى نَحوه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنهم أجمَعين-.

كما أن الحديث صريح في أن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد سببه نقصان عقلها.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وأشار بقوله: «مثل نصف شهادة الرجل» إلى قوله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ لأن الاستظهار بأخرى مؤذن بقلة ضبطها، وهو مشعر بنقص عقلها».

١٠- وعن أبي أمامة رضي الله عنه وغيره عن النَّبِي ﷺ قال: «**أيُّما امرئٍ مسلم أعتق امرأً مسلمًا كان فكاكه من النار يَجزي كل عضو منه عضوًا منه، وأيُّما امرئٍ مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكاكه من النار يجزي كل عضوين منهما عضوًا منه**».

قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا يدل أن عتق العبد أفضل، وأن عتق العبد يعدل عتق أمتين فكان أكثر عتقائه ﷺ من العبيد وهذا أحد المواضع الخمسة الَّتِي تكون فيها الأنثى على النصف من الذكر.

والثاني: العقيقة، فإنه عن الأنثى شاة وعن الذكر شاتان عند الجمهور وفيه عدة أحاديث صحاح وحسان، والثالث: الشهادة فإن شهادة امرأتين بشهادة رجل، والرابع: الميراث، والخامس: الدية»(١).

* **وهناك أمور لا تُقبل فيها شهادة النساء:**

الأول: الزنا وما يوجب حده، فلا يقبل فيه إلا شهادة أربعة رجال أحرار، فلا تقبل هنا شهادة النساء.

الثاني: القصاص والحدود فلا يقبل فيه إلا رجلان حران.

الثالث: ما ليس بمال ولا يقصد به المال ويطلع عليه الرجال في غالب الأحوال غير الحدود والقصاص كالطلاق والنسب والولاء والوكالة في غير المال والوصية إليه وما أشبه ذلك، فلا يقبل فيه إلا رجلان، ولا يقبل فيه شهادة النساء، وإذا شهد بقتل العمد رجل وامرأتان لَم يثبت قصاص ولا دية.

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٦٠).

وهناك أمور تقبل فيها شهادة الرجل وامرأتين: كالبيع، والقرض، والرهن، والوصية له، وكذلك الخيار في البيع وأجله، والإجارة، والشركة، والشفعة، والحوالة، والغصب، والصلح[1].

والأمور الَّتي تختص بشهادة الرجال لا يقبل فيها العشرات من النساء، وكذلك الأمور الَّتي تقبل فيها شهادة الرجال والنساء لا يقبل فيها شهادة النساء إذا انفردن عن الرجال ولو كثرت أعدادهن.

والأمور الَّتي لا يطلع عليها الرجال كعيوب النساء تحت الثياب، والرضاع، والاستهلال، والبكارة، والثيوبة، والحيض يقبل فيها شهادة امرأة واحدة، وفي رواية للإمام أحمد: لا يُقبل في ذلك أقل من امرأتين[2].

قال أبو بكر المَعروف بـ «ابن العربِي» رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالَى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]:

«فَضَّل اللَّه تعالى الذكرَ على الأنثى من ستة أوجه:

الأول: أنه جُعِل أصلها وجُعِلَت فرعه، لأنَّها خُلقت منه كما ذكر اللَّه في كتابه.

الثاني: أنَّها خلقت من ضلعه العوجاء.

قال النَّبِي ﷺ: «**إن المَرأة خلقت من ضلع أعوج فإن ذهبت تقيمها كسرتَها وإن استمتعت بِها استمتعت بِها على عوج**، وقال: وكسرها طلاقها».

الثالث: أنه نقص دينها.

الرابع: أنه نقص عقلها.

وفي الحديث: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحَازم منكن**. قلن: يا رسول اللَّه، وما نقصان ديننا وعقلنا؟ قال: **أليس تَمكث أحداكن الليالِي لا تصوم ولا تصلي، وشهادة إحداكن على نصف شهادة الرجل؟**».

---

(١) المقنع وشرحه (٣/ ٧٠٦-٧٠٨).

(٢) المقنع وشرحه.

الخَامس: أنه نقص حظها فِي الميراث، قال اللَّه تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

السادس: أنَّها نقصت قوتُها فلا تقاتل ولا يسهم لَهَا، وهذه كلها معانٍ حكيمة.

فإن قيل: كيف نُسب النقص إليهن وليس من فعلهن؟ قلنا: هذا من عدل اللَّه يَحُط ما شاء ويرفع ما شاء، ويقضي ما أراد، ويَمدح[1] ويلوم ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وهذا لأنه خلق المخلوقات منازل، ورتَّبها مراتب، فبين ذلك لنا فعلمنا وآمنا به وسلمناه»[2].

والمُتأمل فيما أوردناه سابقًا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يَجد أن جهات تفضيل اللَّه الرجل على المرأة أكثر من هذه الجهات الَّتِي ذكرها ابن العربِي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وذلك فضل اللَّه يختص بفضله من يشاء.

والمؤمن المسلم والمستسلم لله يتلقى ذلك بإيمَان ورضا، وكذلك المؤمنة المسلمة، وهذا مقتضى ربوبية اللَّه وألوهيته وحكمته، ومن يأنف ويستكبر تِجاه حكم اللَّه وآياته الشرعية والكونية فلن يضر إلا نفسه ولن يضر اللَّه شيئًا.

وقد عرف كل مسلم جزاء المُستكبرين.

وقد ظهرت فِي شريعة اللَّه آثار هذا التفاوت بين الرجال والنساء فِي الحقوق والواجبات، فيجب على الرجال من الأمور العظيمة ما لا يَجب على النساء، مثل: الجهاد بالمال والنفس، وصلاة الجمعة والجماعة فِي كل المكتوبات وفِي المساجد، ويشتركان فِي وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج والطهارة وتوابع ذلك وتفاصيله معروفة، ويَجب عليه: مهرها والنفقة على المرأة وسكناها وكسوتُها ومعاشرتُها بالمعروف، ويَجب عليه: نفقة الأولاد، وهذه الأمور عظيمة وشاقة لا

---

(١) يَمدح من يستحق المدح، ويلوم من يستحق اللوم، ولا يظلم ربك أحدًا.

(٢) أحكام القرآن (١/ ٣٠٠-٣٠١).

تطيقها المرأة لضعف تركيبها وبنيتها، وضعف عقلها ونفسها.

وله عليها: القوامة والطاعة وجلب السكن والراحة له، ولا تخرج من بيته إلا بإذنه، ولا تسافر إلا بإذنه معه أو مع ذي محرم لَهَا.

وحَقُّه عليها عظيم، فلقد قال الرسول الكريم مبينًا عظيم حق الرجل على المرأة: «لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المَرأة أن تسجد لزوجها».

ولو باتت هاجرة لفراشه لعنتها الملائكة حتَّى تصبح.

وقالت زينب الغاصب: إن لدينا الكثير مِمَّن يَجهلون الإسلام، ويعتبرون المرأة ما هي إلا تابع للرجل، والمرأة ليست تابعًا للرجل، بل ندًّا للرجل سواء فِي الحقوق والواجبات، ويقول اللَّه ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فاللَّه سبحانه لَم يجعل العمل والأجر حكرًا على الرجل ولَم يجعله مضاعفًا له وإنَّما ساوى بينهما فِي الحقوق، وساوى بينهما فِي الواجبات، وكما قلت: إنه فِي بعض النساء يجهلن حقوقهن، فما أعرفه أنا مثلًا أنه يكون هناك امرأة خريجة شريعة إسلامية ودراسة فِي هذا المجال تقول لي: إن اللَّه فضل عليَّ الرجل بدرجة فِي كل شيء مع أن اللَّه ﷻ فضل عليَّ الرجل بدرجة واحدة وهي الَّتِي ذكرتها الأستاذة نادية وهي النفقة: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. فهو ليس مفضلًا عليها فِي كل شيء، فلماذا هو مفضل، فاللَّه سبحانه لَم يعط هذه الأحقية شرعًا، بل بعض النساء أعطينها لرجالهن تطوعًا إلى جانب تَجاهل كثير من النساء لحقوقهن.

وضَرَبت مثلًا: رجل نائم الليل والنهار وزوجته تعمل وتجتهد، ثُمَّ تساءلت: أيهما أفضل؟ أي: أن المرأة إذا عملت فهي أفضل من الرجل.

وذَكَرَت أن الإسلام لَم يفرق بين الرجل والمرأة فِي أي حق من الحقوق ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وهذا يعني معادلة تامة من الشريعة الإسلامية، فنجد مثلًا أن المرأة فِي عهد الرسول ﷺ كانت تستفسر أولًا عن حقوقها الدينية قبل كل شيء، وهناك السيدة نسيبة المازنية بالإضافة إلى أنَّها مجاهدة معروفة فعندما رأت

فِي البدايات أن القرآن يذكر ويتكلم عن مواقف الرجال ولا يتكلم عن النساء ذهبت إلى رسول اللَّه ﷺ وقالت: لَم أر النساء يُذكرن فِي شيء، فلم يجبها رسول اللَّه ﷺ وإنَّما أجاب عليها اللَّه ﷻ وأنزل آية فِي سورة الأحزاب تقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ثُمَّ قالت بعد كلام: أيضًا النساء كان لَهُن حق المشورة، ومعروف أن الرسول ﷺ أخذ برأي السيدة أم سلمى -تعني: أم سلمة- عندما غضب المسلمون ولَم يَحلقوا رءوسهم، فقالت: افعل أنت وهم سوف يتبعونك.

وبالتالِي فإن القوامة أعطت -تعني: أُعطِيَت- تكريمًا للمرأة لِمَن يفهمها بِمعنًى: مثلًا فِي حالة السفر، وهذا يُمكن أن يكون أكثر شيء، والذي يتطلب وجود المحرم، وهذا الأمر أعطاه الإسلام تكريمًا للمرأة نظرًا لتكويناتِها الجسدية؛ لكي يكون الرجل حاميًا لَهَا فِي ذلك الوقت، لكن فِي عصرنا الآن المواصلات أصبحت سهلة، بِمعنًى أننا نريد ولاية تتناسب مع العصر الذي نعيشه، ليس أن نأتِي بِما فِي العصور القديمة وما لا يوجد الآن فِي عصرنا يطالبون به، فالمرأة ليست ناقصة الأهلية، فالإسلام أشرك المرأة فِي أن تنقل أخطر العلوم نقلًا وهو الفقه، وزوجات الرسول كن يُدرِّسن الصحابة، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» وإن يذهب البعض إلى أنه حديث ضعيف ليبرروا فقط أقوالهم.

* أقول: تضمن كلام هذه المَرأة ما يأتِي:

١- إن الكثير من الناس يجهلون الإسلام لأنَّهم يعتبرون المرأة تابعًا للرجل.

٢- إعلانَها أن المرأة ليست تابعة للرجل بل هي ندٌّ للرجل سواء فِي الحقوق والواجبات.

٣- نسبة هذا التشريع إلى اللَّه مستدلة بقول اللَّه تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

٤- إنكار أن اللَّه فَضَّل الرجل وأعطاه هذه الأحقية، وإنَّما أعطاها بعض النساء لرجالِهن.

٥- استنبطت من هذه الآية الكريمة أن الله ﷻ لَم يَجعل العمل حكرًا على الرجل، ولَم يجعله مضاعفًا له وإنَّما ساوى بينهما فِي الحقوق وساوى بينهما فِي الواجبات.

ونقول: إن نصوص القرآن والسنة واضحة فِي أن المرأة تابعة للرجل، وفِي أنَّها خُلقت للرجل وأن للرجل عليها السيادة والقوامة.

وهذا التجهيل لكثير من الناس قد يتناول المفسرين والمُحدثين والفقهاء عبر أربعة عشر قرنًا لأنَّهم لَم يتوصلوا إلى ما توصلت إليه هذه المرأة من هذا الفقه العظيم، وهو أن المرأة ند للرجل تساويه فِي الحقوق والواجبات، ويفهم من كلامها أن المساواة فِي كل الحقوق والواجبات.

ألا ترى أن هذه الآية الَّتِي احتجت بِها قد جاءت المرأة تابعة للرجل حيث قدم الذكر على الأنثى؟ وألا ترى أن الضمير فِي ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ عائدًا للذكر، وأن الضمائر فِي قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾، وقوله: ﴿أَجْرَهُم﴾، وقوله: ﴿كَانُوا۟﴾، وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ كلها عائدة على الذكور دون الإناث؟

لِمَاذا لَم تعد الضمائر إلى الإناث، أو تكون بالمناصفة بين الرجال والإناث، إذا كانت المرأة مساوية للرجل وندًّا له فِي الحقوق والواجبات، خاصة إذا كانت الآية نزلت لبيان ذلك على حد زعم هذه المرأة؟

وقولها: «فالله ﷻ لَم يجعل العمل والأجر حكرًا على الرجل ولَم يجعله مضاعفًا له، وإنَّما ساوى بينهما فِي الحقوق وساوى بينهما فِي الواجبات».

أقول: لَم يقل أحد إن العمل الصالح حكر على الرجال دون النساء، ومن المسلَّمات: أن الحسنة فِي الشريعة الإسلامية للرجل والمرأة بعشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة بِحسب ظروف الحسنة وبِحسب إخلاص العامل.

والآية ليست واردة لبيان الحقوق والواجبات للرجل والمرأة، ولا لبيان مجالات العمل له أو لَهَا ولا لبيان أيهما أفضل، فهذه الأمور لَهَا آيات وأحاديث خاصة، وقد مضى بعضها، ولنضرب هنا مثلًا بالجهاد:

فهو من الواجبات الَّتِي تخص الرجال، ويُعفى عنه النساء لضعفهن وخورهن وأسباب أخرى.

فالمُجاهد يبذل نفسه وماله لأنه قد باع نفسه لله ﷻ فله أجر المُجاهدين الذي يشمل حيزًا كبيرًا من الآيات والأحاديث تضمنتها كتب الحديث والتفسير والفقه.

ومنها قول اللَّه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «للمجاهد فِي سبيل اللَّه مائة درجة ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض».

وقال ﷺ: «لغدوة أو روحة فِي سبيل اللَّه خير من الدنيا وما عليها».

ولنضرب مثلًا آخر بالصلاة فِي الجمعة والجماعة، هذه من الواجبات الخاصة بالرجال، ومن تخلف منهم عن القيام بِهذا الواجب تعرض للوعيد الشديد، واعتبُر تخلفه من علامات النفاق، وإن قام بِهذا الواجب ضاعف اللَّه عمله إلى سبع وعشرين درجة.

فهل صواحب المنتدى يسلمن بِهذه الخصوصية للرجال فِي الإيجاب والمؤاخذة ونتائجهما أو لا؟ فإن سلمن؛ سقطت دعواهن فِي المساواة فِي الحقوق والواجبات.

وكذلك فِي الحُقوق: فالرجل والمرأة يفترقان منذ الولادة؛ إذ شرع اللَّه أن يعق عن الغلام بشاتين وعن الجارية بشاة واحدة.

وفِي المَواريث فرق اللَّه بين الذكر والأنثى.

فللذكر مثل حظ الأنثيين أختًا كانت أو بنتًا أو زوجة على التفاصيل الواردة فِي الكتاب والسنة.

وفِي الشهادة فشهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين.

وللرجل أن يعدد الزوجات إلى أربع، وله أن يتسرى بالإماء وليس لَهَا أن تتسرى بأحد من عبيدها، واختصه اللَّه فِي الآخرة فِي الجنة بعدد من الزوجات وليس ذلك للنساء فِي الجنة.

وإذا شارك بعض النساء فِي الغزو فلا يسهم لَهُن من الغنائم كما يسهم للرجال، وإنَّما يُرضخ لَهن رَضخًا.

فهل يسلم صواحب المنتدى بِهذه الأمور وغيرها مِمَّا ميز اللَّه به الرجال وخصهم بِها دون الإناث؟

فإن سلمن بذلك سقطت دعواهن فِي المساواة بين الرجال والنساء فِي الحقوق والواجبات، وعليهن التوبة النصوح و إعلان ذلك واعتذارهن إلى المسلمين وإلى علمائهم؛ لأن بعضهن طعن فِي العلماء وغيرهم من المسلمين فِي فقههم وأمانتهم.

وإن أبَينَ ذلك عرف الناس ماذا يردن، وأنَّهن لا علاقة لَهُن بالصحابيات ولا يكملن دورهن، وإنَّما هن امتداد للمنظمات النسائية الَّتِي تُحارب الإسلام.

قالت هذه الأديبة:

«وكما قلت فِي بعض النساء يجهلن حقوقهن، فما أعرفه أنا مثلًا إنه يكون هناك امرأة خريجة شريعة إسلامية ودراسة فِي هذا المجال تقول لي: إن اللَّه فضل عليَّ الرجل بدرجة فِي كل شيء، مع أن اللَّه سبحانه فضل عليَّ الرجل بدرجة واحدة وهي الَّتِي ذكرتها الأستاذة نادية وهي النفقة: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. فلماذا هو مفضل، فاللَّه سبحانه لَم يعط هذه الأحقية شرعًا، بل بعض النساء أعطينها لرجالهن تطوعًا، إلى جانب تَجاهل كثير من النساء لحقوقهن».

انظر إلى هذه المرأة وفقهها، فهي تُجهِّل الكثير من الناس فيما هم فيه على حق وعلم.

وتُجهِّل هنا امرأة متخصصة فِي الشريعة فِي اعترافها بِحقوق الرجل، وتحتج بالأستاذة نادية الَّتِي لَم تتخصص فِي الشريعة، أو لَم تدرسها، فتقول: «فضل اللَّه الرجل عليَّ بدرجة واحدة، وهي الَّتِي ذكرتها الأستاذة نادية وهي النفقة ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾».

وتقدم رأيها ورأي نادية على حكم الله الكوني والشرعي، ومنه ما تقدم سرده من النصوص، ومن ذلك: قول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

فقد بيَّن الله أن حق القوامة يعتمد أولًا على ما فضل به الرجل على المرأة وهي أمور ومزايا اختص الله بِها الرجال ولَم يعطها للمرأة بِمقتضى ربوبيته وعلمه وحكمته وحكمه الكوني والشرعي.

والثانية وهي النفقة وهي أقل من الأولى.

تجاوزت هذه المرأة ما قرره الله فِي كتابه وسنة نبيه ومضى عليه المسلمون طوال أربعة عشر قرنًا وفرضت رأيها على الإسلام والمسلمين وحجتها قول الأستاذة نادية.

وبِهذا الفقه أسقطت حقوق الرجال ومنها القوامة، وادعت أن الله لَم يعط هذه الأحقية شرعًا، بل بعض النساء تطوعن بِها للرجال تطوعًا.

ثُمَّ تقدمت خطوة أخرى فضربت مثلًا برجل نائم الليل والنهار وزوجته تعمل وتَجتهد ثُمَّ تساءلت: أيهما أفضل؟ تريد أن المرأة فِي هذه الحالة أفضل وتصبح هي القوَّامة على هذا الرجل؛ لأنه لا ينفق عليها فسقط حقه وصار الحق والفضل لَهَا عليه.

وقد كان فِي عهد الرسول ﷺ فقراء، وكانت زوجاتُهم تعمل مثل الغزل ونحوه فتنفق على زوجها، منهن زينب الثقفية زوجة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فلم يقل رسول الله ﷺ وعهده عهد التشريع: إنَّ هؤلاء النساء أصبحن أفضل من أزواجهن، فليس لهم قوامة على زوجاتِهم لأنه لا فضل للرجال على النساء إلا بالنفقة.

ثُمَّ أكدت دعواها الفقهية بقولها: «إن الإسلام لَم يفرق بين الرجل والمرأة فِي أي حق من الحقوق ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وهذا يعني معادلة تامة من الشريعة الإسلامية».

لا يادكتورة ما هكذا الأمانة ولا هكذا الفقه «ما هكذا يا سعد تورد الإبل» فأين بقية هذه الآية؟ وأين الآيات الأخرى والأحاديث الكثيرة الَّتِي تُبيِّن فضل الرجل

على المرأة وتبين حقوقه .

فالآية الكريمة نصها : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. فإذا أردت أن تبتزي حقوق الرجال فلا تسندي هذا الابتزاز إلى الإسلام، ولن تجدي ذلك فِي كل مصادره وعلى رأسها الكتاب والسنة .

أين هي المُعادلة التامة الَّتِي جهرت بِها؟!

فالمعادلة التامة لا توجد حتَّى بين الرجال أنفسهم، فهناك الرسل أفضل البشر، وقد فاوت اللَّه بينهم إذ فضل بعضهم على بعض .

وهناك الصديقون والعلماء والشهداء والصالحون مقدمون على غيرهم، وهم يتفاوتون فِي كل مرتبة، وفوق كل ذي علم عليم .

والعالِم العامل أفضل من الجاهل : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] .

ولا يَجوز التسوية بين المسلم والكافر : ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥] .

ولا يَجوز التسوية بين المتقي والفاجر : ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] .

لابد للمسلم أن يؤمن بِهذا التفاوت فِي المراتب والمنازل الَّتِي اقتضتها حكمة اللَّه الَّتِي لا يحيط بِها ولا بالقليل منها أحد، واقتضاها عدله وربوبيته .

فإن أَبَى أحد ذلك فليس بالمسلم .

ولا أُكَفِّر هؤلاء النسوة اللاتي نصبن أنفسهن للمطالبات بحقوق النساء وإسقاط حقوق الرجال أو أهمها ؛ لشدة جهلهن حتَّى بالبدهيات فِي الإسلام، بل لجهلهن بِحق اللَّه فِي التشريع وفِي رفع من يشاء وخفض من يشاء، وأنه يحكم فِي خلقه فِي هذا الكون بِما يشاء ولا رادَّ لحكمه الكوني والشرعي جل جلاله وتعالى جده .

أما قولُها : «فنجد مثلًا أن المرأة فِي عهد الرسول ﷺ كانت تستفسر أولًا على حقوقها الدينية قبل كل شيء، وهناك السيدة نسيبة المازنية بالإضافة إلى أنَّها مجاهدة معروفة فعندما رأت فِي البدايات أن القرآن يذكر ويتكلم عن مواقف

الرجال ولا يتكلم عن النساء ذهبت إلى رسول الله ﷺ وقالت: لَم أر النساء يُذكرن في شيء، فلم يجبها رسول الله ﷺ وإنَّما أجاب عليها الله ﷻ وأنزل آية في سورة الأحزاب تقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ إلى آخر الآية الكريمة في سورة الأحزاب».

أقول: من أين لك أن المرأة في عهد الرسول ﷺ:

كانت تستفسر أولًا عن حقوقها الدينية، فكم عدد الصحابيات اللاتي كان همهن وشغلهن الشاغل استفسار الرسول أو غيره عن حقوقهن الدينية؟

إن هذا تصوير سيئ لأولئك الصالحات القانتات لله ثُمَّ لأزواجهن.

فهؤلاء زوجات الرسول ﷺ، فكم سؤالًا سألن رسول الله عن حقوقهن؟

تأمل ما يأتي: عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله فوجد الناس جلوسًا ببابه لَم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثُمَّ أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النَّبِي جالسًا حوله نساؤه واجمًا ساكتًا، فقال: لأقولن شيئًا أضحك النَّبِي ﷺ فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك الرسول ﷺ وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عُنقها، فقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عُنقها كلاهما يقول: تسألن رسول الله ما ليس عنده! فقلن: والله لا نسأل رسول الله شيئًا أبدًا ليس عنده، ثُمَّ اعتزلَهن شهرًا أو تسعًا وعشرين، ثُمَّ نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ حتَّى بلغ: ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

قال: فبدأ بعائشة، فقال: يا عائشة، إنِّي أريد أن أعرض عليك أمرًا أحب ألَّا تعجلي فيه حتَّى تستشيري أبويك، قالت: وما هو يا رسول الله فتلا عليها الآية قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألَّا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: لا تسألني امرأة منهن إلَّا أخبرتُها إن الله لَم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا»[1].

---

(١) رواه مسلم في الطلاق حديث (١٤٧٨).

فهؤلاء الصحابيات فِي الذروة من الشرف والنسب، ومنهن زوجات الرسول ﷺ وابنتا الصديق والفاروق، لَمَّا طلبن النفقة وليس عند رسول اللَّه ما طلبنه ولا ندري ما حال عمر ﷺ لَمَّا طلبن النفقة ضربن فِي أعناقهن، والضارب أبو بكر وعمر، ورسول اللَّه ﷺ يغضب ويهجرهن شهرًا، واللَّه تعالى يُنزل فِي قصتهن قرآنًا يُخيرهن فِي البقاء مع رسول اللَّه مع الزهد فِي الدنيا ولهن الأجر العظيم، أو يردن الدنيا وزينتها فيمتعهن رسول اللَّه ويسرحهن سراحًا جميلًا، فاخترن اللَّه ورسوله والدار الآخرة.

لا أستبعد أن كثيرًا من المؤمنات يستفدن من هذه القصة والآية، وأخشى على المطالبات بِحقوق النساء ألا يستفدن منها وإن دعون إلى اتباع سيرة الصحابيات الكريمَات.

هذه سيرة السيدات الصحابيات زوجات رسول اللَّه ﷺ.

ثُمَّ لِمَاذا لا تكون أسئلتهن أولًا عن حقوق اللَّه رب العالمين، ثُمَّ عن حق الرسول ﷺ ثُمَّ عن حق أزواجهن، ثُمَّ عن حقوق الجيران، ثُمَّ عن حقوق عموم المسلمين؟!

أيتها الكاتبة: إن الصحابية الَّتِي وردت الروايات بأنَّها سألت هذا السؤال إنَّما هي أم سلمة لا نسيبة، على أن فِي ثبوت هذه الروايات نظرًا للمتأمل فِي أسانيدها.

لو كان استفسار النساء فِي عهد الرسول ﷺ من باب المطالبة بالحقوق على الوجه الذي ينادي به صواحب المنتدى لكان شغبًا على اللَّه وعلى رسوله، وكفى بِهذا استعلاءً وتَمردًا وتعنتًا، وحاشا أولئك الصحابيات -رضوان اللَّه عليهن- من شيء من هذا.

نسأل هذه الكاتبة بناءً على كلامها: لماذا لَم يذكر اللَّه النساء فِي القرآن طوال العهد المكي وسنوات من العهد المدني، وهو يذكر الرجال فقط طوال هذه المدة؟!

ألا يدل ذلك على البون الشاسع بين الرجال والنساء!!.

أقول هذا على حسب تصورها وإلزامًا لَهَا، وإلا فاللَّه يذكر النساء فِي القرآن،

لكن فِي بعض الأحيان وتبعًا للرجال؛ مِمَّا يدل على فضل الرجال على النساء.

فالآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. إلى آخرها لَم يذكر النساء إلا تبعًا للرجال، ثُمَّ ختم اللَّه الآية بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ بضمير الذكور لا بضمير الإناث، مع أن الآية ما نزلت إلا لأجل النساء كما تذكر الروايات، فعلام يدل هذا؟

ألا يرى العقلاء أن كل ما يَحتجُّ به هؤلاء النسوة يصير حججًا عليهن لا لَهُن؟!

وصدق اللَّه العظيم القائل فِي حق الإناث: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨].

فهذا خبر عن خلقهن فآمنا به وصدقنا، وواقع النساء وتأريخهن من أقوى الشواهد على ذلك.

قالت: «أيضًا النساء كان لهن حق المشورة، ومعروف أن الرسول ﷺ أخذ برأي السيدة أم سلمة عندما غضب المسلمون ولَم يحلقوا رءوسهم فقالت: افعل أنت وهم سوف يتبعونك، وبالتالي فإنَّ القوامة أعطت -تعني: أعطيت- تكريمًا للمرأة لِمَن يفهما، بِمعنَى: مثلًا فِي حالة السفر، وهذا يُمكن أن يكون أكثر شيء والذي يتطلب وجود المحرم، وهذا الأمر أعطاه الإسلام تكريمًا للمرأة نظرًا لتكويناتِها الجسدية لكي يكون الرجل حاميًا لَهَا ومدافعًا عنها فِي ذلك الوقت، لكن فِي عصرنا الآن المواصلات أصبحت سهلة بِمعنَى أننا نريد ولاية تتناسب مع العصر الذي نعيشه، ليس أن نأتِي بِما فِي العصور القديمَة وما لا يوجد الآن فِي عصرنا يطالبون به، فالمرأة ليست ناقصة الأهلية، فالإسلام أشرك المرأة فِي أن تنقل أخطر العلوم وهو الفقه، وزوجات الرسول كن يدرسن الصحابة وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» وإن يذهب البعض إلى أنه حديث ضعيف ليبرروا فقط أقوالهم».

أقول: إذا كان النساء لَهُن حق المشورة فِي الأمور العامة من السياسة والحرب والسلم والعلاقات الدولية، فكم هي المَجالس الَّتِي عقدها رسول ﷺ معهن خاصة أو مع الرجال من الصحابة -رضي اللَّه عنهم جَميعًا-؟

وكم مجلسًا عقده معهن أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ؟

وكان القراء أصحاب مشورة عمر بن الخطاب ﷺ ومنهم كبار الصحابة وبعض الشباب كابن عباس والحر بن قيس.

فأخبرينا عن أعيان النساء اللاتي أعطاهن عمر هذا الحق سواء فِي مجالس خاصة بِهن أو مع الصحابة كما يحصل اليوم فِي البرلمانات، وإذا كان الرجال من الصحابة قد استأثروا بِهذا الحق طوال هذه العهود، فلماذا لَم يطالب النساء بحقهن من الصحابيات والتابعيات من مختلف البلدان من الحجاز والعراق والشام ومصر واليمن وخراسان؟

بل لِمَاذا لَم يطالبن بِهذا الحق فِي العهود الإسلامية كلها إلى هذا العصر؟ وما هو السر فِي تحرك النساء الآن فِي المطالبة بحقوق كثيرة ومنها: المشاركة فِي الشورى.

أما أم سلمة فما قدم لَهَا رسول اللَّه ﷺ الاستشارة وهي فِي مجلس شورى النساء فأعطته رأيها من خلال هذا المَجلس وأيدها نساء المَجلس أو خالفنها.

وإنَّما كانت إحدى زوجاته ﷺ وقد ذكر لَهَا حالًا طارئة فقالت له: افعل كذا وكذا يتابعك أصحابك، فأخذ برأيها ﷺ لكن لا يجوز أن نأخذ من هذه الحادثة أصلًا من أصول الإسلام أو السياسة فِي الإسلام فنقول: وكان للنساء حق المشورة.

إذ لو كان الأمر كما تزعم هذه المرأة لقام به رسول اللَّه ﷺ على أكمل الوجوه، وقام به خلفاؤه الراشدون وأصحابه الكرام والتابعون لَهم بإحسان على أحسن الوجوه، ولتكلم عنه الفقهاء والمُحدثون والمفسرون والمؤرخون؛ إذ لا يعقل أن يكثروا الكلام فِي مؤلفاتِهم عن الحيض والنفاس وسائر الأحكام الَّتِي تتعلق بالمرأة ثُمَّ لا يتكلمون عن هذا الأصل الكبير.

عن عائشة أم المؤمنين ﷺ قالت: «لَمَّا ثقل رسول اللَّه ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: مروا أبا بكر أن يصلي بالناس. فقلت: يا رسول اللَّه، إن أبا بكر رجل أسيف وإنه مَتَى ما يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر. فقال: مروا أبا بكر يصلي بالناس، فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر رجل أسيف وإنه مَتَى

ما يقم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر. فقال: إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر أن يصلي بالناس»[1].

فإذا استنبطنا من قصة أم سلمة قاعدة حق الشورى للنساء فماذا نستنبط من قصة عائشة وحفصة رضي الله عنهما علمًا بأن عائشة أفضل من أم سلمة؟ نرجو الإجابة العلمية القائمة على الحجة والبرهان والعقل.

القوامة التي شرعها الله ودان بها المسلمون وبيان أسبابها

قالت هذه الكاتبة وهي زينب غاصب: «وبالتالي فإن القوامة أعطت -أي: أعطيت- تكريمًا للمرأة لمن يفهمها، بمعنًى: مثلًا في حالة السفر وهذا يُمكن أن يكون أكثر شيء والذي يتطلب وجود المحرم، وهذا الأمر أعطاه الإسلام تكريمًا للمرأة نظرًا لتكويناتِها الجسدية؛ لكي يكون الرجل حاميًا لَهَا ومدافعًا عنها، وهذا بسبب صعوبة السفر في ذلك الوقت».

أقول: قولها: «إن القوامة أعطيت تكريمًا لها» أي: أنه حق من حقوقها على الرجل أعطاه اللَّه تكريمًا لَهَا، فالرجل إنَّما يقوم بِها خدمة للمرأة، وهذا فهم انفردت به هذه المرأة، أما العلماء فقد فهموا غير هذا الفهم، والقرآن والسنة يدلان على خلافه، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

* دلت هذه الآية على أمور منها:

أن اللَّه شرع القوامة للرجال على النساء وهي سيادة للرجال عليهن، وعلَّل اللَّه ذلك بتفضيله سبحانه للرجال على النساء وقد بينت هذه الوجوه فيما سلف في هذا البحث.

---

(١) رواه البخاري في الأذان حديث (٧١٣)، وفي مواضع أخر، ومسلم في الصلاة حديث (٤١٨).

وعلة أخرى وهي: بِما أنفقوا من المهور والنفقات الشاقة الَّتِي لا يتحملها إلا الرجال، وخاصة فِي هذا العصر الذي تشكل فيه النفقات والمهور على الرجال أعباءً ثقيلة من القصور والأثاث من السجاد والكنب والمكيفات والهواتف ومطالب للنساء لا تنتهي عند حد من كثير منهن، الأمور الَّتِي أثقلت الرجال بالديون الباهظة، ولا شك أن هذا يؤكد حق القوامة للرجل.

ولِهَذا قال اللَّه بعد هذا: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ [النساء: ٣٤]. فالمرأة الصالحة الواعية تشعر بِمكانة الرجل بِما فضله اللَّه وبِما يعانيه من أعباء النفقات، وما يبذله من جهود فِي هذا السبيل، فيحملها هذا الوعي وهذا الشعور النبيل إلى جانب تقواها لله على بذل القنوت وهو الطاعة فِي أدب وإجلال للرجل الذي تدرك وتشعر من أعماق نفسها بِمكانته وبِحقه عليها، ويَحملها هذا الإدراك النبيل على المُحافظة على شرفها وعرضها وعرض زوجها وشرفه، كما يدفعها دينها وأمانتها إلى حفظ ماله فِي حضوره وغيبته.

وقد تكون المرأة صالحة نوعًا ما، لكنها ضعيفة الإدراك والفهم، أو غير صالِحَة فيدفعها هذا أو ذاك إلى النشوز، وهو الترفع على الزوج وعصيانه وعدم مراعاتِها لمكانته وحقوقه، ومنها قوامته عليها.

إذا حصل منها ذلك فقد أعطاه اللَّه الحق فِي استخدام حق القوامة، أولًا بوعظها وبالتخويف باللَّه وعقابه لَهَا على عصيانِها له، ويذكرها بحقوقه عليها فإن تابت ورجعت إلى الصواب والطاعة لزوجها فذاك، وإلا انتقل إلى الهجر فِي المضجع، فإن تَمادت فِي غيها ونشوزها انتقل إلى آخر الدواء وهو الضرب غير المبرح، فإن لَم ترعو فله أن يطلقها أو تفتدي منه.

كل ذلك من منطلق القوامة الَّتِي أعطاها اللَّه الخلاق العليم للرجل على المرأة.

فهذا ما يفيده هذا النص الرباني وهذا ما يفهمه كل مؤمن عاقل عرف لغة القرآن وعرف التشريع الإسلامي.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]. أي: الرجل قيم على

المرأة، أي: هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤]. أي: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة، ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ: «لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة»[١] وكذا منصب القضاء وغير ذلك.

﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. أي: من المهور والنفقات والكلف الَّتِي أوجبها اللَّه عليهم لَهن فِي كتابه وسنة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة فِي نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيمًا عليها، كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. الآية.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]. يعني: أمراء عليهن، أي: تطيعه فيما أمر اللَّه به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله حافظة لِمَاله، وكذا قال مقاتل والسدي والضحاك... وساق ابن كثير أحاديث فِي وجوب طاعة المرأة لزوجها وتَحريم معصيته، ومنها قول النَّبِي ﷺ: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها». وفسر بقية الآية مُبينًا حقيقة النشوز، وحكم الهَجر، والضرب المشروع ولا يتسع المقام لنقله[٢].

وبِهذه المُناسبة أقول: لقد قرأ الناس طعن بعض النساء هذه الأيام فِي حديث أبي بكرة بل فِي أبي بكرة نفسه وقلق أخريات منه وهذا أمر ينذر بِشَرٍّ.

وقال القرطبِي فِي تفسير هذه الآية: المسألة الأولى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾: ابتداء وخبر، أي: يقومون بالنفقة عليهن والذب عنهن، وأيضًا فإن فيهم الحكام والأمراء ومن يغزو، وليس ذلك فِي النساء، وساق روايات فيها أن المرأة لا تقتص من زوجها إذا ضربَها.

ثُمَّ قال: الثانية: ودلت هذه الآية على تأديب الرجال نساءهم، فإذا حفظن

---

(١) رواه البخاري من حديث عبد الرَّحمَن بن أبي بكرة عن أبيه.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٠٣).

حقوق الرجال فلا ينبغي أن يسيء الرجل عشرتَها .

«وقوّام» فعال للمبالغة من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه وحفظه بالاجتهاد، فقيام الرجال على النساء هو على هذا الحد وهو أن يقوم بتدبيرها وتأديبها وإمساكها في بيتها ومنعها من البروز .

وإن عليها طاعته وقبول أمره ما لَم تكن معصية، وتعليل ذلك بالفضيلة والنفقة والعقل والقوة في أمر الجهاد والميراث والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثُمّ واصل في تفسير الآية إلى تَمام إحدى عشرة مسألة[1] .

وقال العلامة السعدي في تفسير هذه الآية :

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: قوامون عليهن بإلزامهن بِحقوق اللَّه تعالى: من المُحافظة على فرائضه، وكفهن عن المفاسد، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضًا بالإنفاق عليهن والكسوة والمسكن . . ثُمّ ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. أي: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهن، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة:

من كون الولايات مختصة بالرجال والنبوة والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع .

وبِما خصهم اللَّه به من العقل والرزانة والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله، كذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يَختص بِها الرجال ويتميزون عن النساء .

ولعل هذا سر قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾ وحذف المفعول ليدل على عموم النفقة، فعلم من هذا كله أن الرجل كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده عانية أسيرة خادمة، فوظيفته أن يقوم بِما استرعاه اللَّه به، ووظيفتها القيام بطاعة ربِّها وطاعة زوجها، فلهذا قال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مطيعات لله تعالى ﴿حَٰفِظَٰتٌ

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٦٨-١٦٩).

لِّلْغَيْبِ﴾ أي: مطيعات لأزواجهن حتَّى فِي الغيب تحفظ بعلها بنفسها وماله[(١)].

ثُمَّ كررت دعواها أن القوامة أعطيت للمرأة تكريمًا لَهَا، وضربت مثلًا بِحالة السفر وقالت: «وهذا يُمكن أن يكون أكثر شيء».

وكأنَّها لا ترى القوامة فِي الحضر، ونسيت قول اللَّه تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. فالأصل فِي حياتِها: القرار فِي بيتها وقوامة الرجل عليها فِي الحضر والسفر وهي لا تستغنِي عن قوامة الرجل، وحمايته فِي الحضر والسفر فلو احتاجت للخروج للسوق ونَحوه فهي بحاجة إلى حماية الرجل من الذئاب البشرية الَّتِي إذا رأت هذا الحامي انكسرت وفَرَّت، وإن رأت المرأة وحيدة دفعها الطمع إلى الاقتراب، وقد يفترسها بعضهم، فإن لَم يفترسها حام حولَها ليتمتع بالنظرات الآثِمَة إلى ما يشاء من جسدها، وقُل مثل ذلك وأشد فِي السفر، وهي وإن اعترفت بِحاجة المرأة إلى حماية الرجل فِي السفر نظرًا لتكويناتِها الجسدية، أي: لضعفها عن حماية نفسها، ونظرًا لصعوبة المواصلات فِي العصور القديمة لكنها دندنت حول إسقاطها فِي السفر فِي هذا العصر لسهولة المواصلات كما تزعم.

وكأنَّها لا ترى حرجًا أن تسافر المرأة المسلمة إلى أوربا وأمريكا أو اليابان بدون مَحرم لا فرق بينها وبين اليهودية أو النصرانية أو الهندوكية.

لَقد تَجاهلت ما فِي هذا العصر من الفساد وانفلات الكثير من الرجال والنساء من الأخلاق، وأن المرأة الَّتِي تسافر وحدها قد انفلتت من حماية الإسلام لَها، حيث حرم عليها السفر بغير مَحرم ولو فِي عصر الصحابة، ولو كانت المسافرة صحابية ورفقتها من الصحابة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سَمع النَّبِي ﷺ يقول: «**لا يَخلون رجل بامرأة ولا تسافرن امرأة إلا ومعها مَحرم. فقام رجل فقال: يا رسول اللَّه، اكتتبت فِي غزوة كذا وكذا وخرجت امرأتِي حَاجَّة. قال: اذهب فحج مع امرأتك**» متفق عليه.

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمَن فِي تفسير كلام المنان (ص١٧٧).

ففي هذا الحَديث: الحفاظ على عرض المَرأة وعرض أهلها فِي حضرها وسفرها، فلا يَخلون بِها الرجل ولو كانت صحابية وهو صحابي.

ولا يَحل لَهَا السفر إلا مع مَحرم.

وانظر كيف صرف النَّبِي ﷺ هذا الصحابِي المُجاهد عن الجهاد، وأمره أن يَحُج مع امرأته، وهي فِي غاية الأمن، وفِي رفقتها صحابة فِي قمة الإيمان والشرف والابتعاد عن مَحارم اللَّه، وهم يؤدون عبادة عظيمة وهي الحج إلى بيت اللَّه الحرام.

ولو كانت هناك ظروف تسقط فيها القوامة ويرخص فيها للمرأة أن تسافر بغير محرم لكانت هذه الظروف الَّتِي حجت فيها هذه المرأة الصحابية، ففي الحديث: وجوب القيام على المرأة فِي السفر الآمن فضلًا عن غيره.

وقد وردت أحاديث كثيرة فِي تَحريم سفر المرأة بغير محرم منها هذا الحديث الذي سلف، ومنها: حديث أبي سعيد: «**لا تسافر المرأة يومين من الدهر إلا ومعها ذو مَحرم منها أو زوجها**».

ومنها حديث أبي هريرة: «**لا يَحل لامرأة تؤمن باللَّه واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم**»[(١)].

هذه النصوص طبقت فِي عهد الرسول وصحابته الكرام وخلفائه الراشدين وإلى يومنا هذا.

ولو كانت هناك امرأة تستحق أن يُرخص لَهَا أن تسافر سفرًا قصيرًا فضلًا عن الطويل لكانت أم المؤمنين عائشة ﵂.

فقد روى مسلم عنها أنَّها قالت: «قلت: يا رسول اللَّه، أيرجع الناس بأجرين وأرجع بأجر؟ فأمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن ينطلق بِها إلى التنعيم. قالت: فأردفني خلفه على جمل له. قالت: فجعلت أرفع خماري أحسره عن عنقي فيضرب رجلي بِعِلَّةِ الراحلة، قلت له: وهل ترى من أحد؟ قالت: فأهللت بعمرة ثُمَّ

---

(١) رواه مسلم.

أقبلنا حتَّى انتهينا إلى رسول اللَّه ﷺ وهو فِي الحصبة».

فهذه عائشة أم المؤمنين وزوجة أكرم البشر وبنت أبي بكر الصديق، وفَضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، لَم يسمح لَهَا أن تذهب من مكة إلى التنعيم الذي لا تزيد مسافته على أربعة أميال من مكة إلا مع محرمها، وكان ذهابُها مع أخيها ليلًا وهي لابسة خمارها، فإذا كشفته ضربَها بعلة الراحلة.

قال النووي رَحَمَهُ اللَّهُ: «فيضرب رجلي عامدًا فِي صورة من يضرب الراحلة» والمَعنَى: أنه يضرب رجلها بسوط أو عصى أو غير ذلك حين تكشف خمارها عن عنقها غيرة عليها، فتقول له هي: «وهل ترى من أحد؟» أي: نَحن فِي خلاء ليس هنا أجنبِي أستتر منه.

فهذا سفر قصير والأوضاع فِي غاية الأمن والاستقرار فِي عهد الرسول ﷺ وفِي مجتمع الصحابة خير أمة، وانظر إلى عقلها وحلمها وصبرها وإعذارها لأخيها الذي يضربُها غيرة عليها.

فهل للمطالبات بالحقوق أن يقتدين بِهذه الصحابية الكبيرة فِي علمها وكمالها وتطبيقها للإسلام، ومنها أحكام السفر والحجاب؟ وهل لَهُن أن يقتدين بسائر الصحابيات فِي سائر شئون الحياة؟ أما واللَّه لو قمن بِهذا الواجب لَمَا سمعت الأمة هذه الأصوات ولا رأت مثل هذه الاجتماعات والمنتديات.

وقولُهَا: «وبالتالي فإن القوامة أعطت -أي: أعطيت- تكريمًا للمرأة لمن يفهمها، بِمعنَى: مثلًا فِي حالة السفر وهذا يُمكن أن يكون أكثر شيء والذي يتطلب وجود المَحرم وهذا أمر أعطاه الإسلام تكريمًا للمرأة نظرًا لتكويناتِها الجسدية لكي يكون الرجل حاميًا لَهَا ومدافعًا عنها وهذا لسبب صعوبة السفر فِي ذلك الوقت».

أقول: لقد أُعطيت القوامة للرجل تكريمًا له وتشريفًا لقوته ونَخوته وشجاعته وحفاظًا على المرأة ورحمةً لَهَا لضعفها، وإذا كان هذا هو حال المرأة من الضعف وشدة الحاجة إلى الرجل ليحميها ويدافع عنها باعترافك، فلماذا تعارضين بشدة فِي تفضيل الرجل على المرأة وتدعين ما لَم يقله أحد من أنَّها ندٌّ للرجل فِي الحقوق والواجبات وتأنفين أن تكون المرأة تابعة للرجل؟!

أيتها المسكينة الضعيفة: لا تناطحي النصوص الربانية وجبال العلم من مفسرين ومحدثين وفقهاء فِي قضايا مُسَلَّمة شرعًا وعقلًا وفطرة.

إن المرأة كانت ولا تزال ناقصة عقل ودين، وغير مؤهلة للاعتماد على ذاتِها ولاسيما فِي أهم شئونِها وفِي أشد الحاجة إلى الرجل حضرًا وسفرًا.

فلو أن بيتًا ممتلأً من النساء وخرجت عليهن فأرة أو عقرباء لملأن الدنيا صراخًا، ولاحتجن إلى رجل أو صبِي ليدفع عنهن هذا الخطر الكبير فِي نظرهن، فضلًا عن رجل مسلح أو جيش أو أسد مثلًا، وهي تَحتاج دائمًا إلى رعاية وحماية سفرًا وحضرًا، وإلا لأكلتها الذئاب البشرية من الفساق المُجرمين.

وهذه الفئة الَّتِي تطعنين فيها وهي معظم هذا الشعب وعلى رأسهم العلماء لَم يهدروا أهلية المرأة العقلية والقانونية والشرعية؛ بل أعطوها أكثر من حقوقها الَّتِي حددها لَهَا الشرع، أما القوانين الفاسدة فقد أعطت كلًّا من المرأة والرجل ما يتنافَى مع العقيدة الإسلامية والأخلاق الإسلامية الرفيعة وما لا يحسن ذكره.

وأما فرض الوصاية وهي القوامة وهو حق شرعه اللَّه وضرورة من ضرورات الحياة لا تقوم الحياة ولا تسعد الأسر إلا به.

وللقوامة هذه شروط وضوابط من تجاوزها سواء كان الرجل أو المرأة يَجب أن يوقف عند حده فِي الدنيا، وإلا فاللَّه لابد أن يأخذ للمظلوم حقه فيقتص حتَّى للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، هذا فِي الشريعة الإسلامية، أما القوانين فلها شأن آخر.

وقولُها: «إننا نريد ولاية تناسب العصر الذي نعيشه، ليس أن نأتِي بِما فِي العصور القديمَة وما لا يوجد الآن فِي عصرنا يطالبون به».

أقول: أخبرينا بالولاية الَّتِي تناسب العصر: فهل ترين أنه من المناسب لهذا العصر أن تكون الولاية للمرأة، أو ترين سقوط الولاية عن المسافرة فِي هذا العصر؟

وهل ترين هذا العصر أفضل من العصور القديمة، فلماذا إذن تبنين مطالبك على الآيات القرآنية وعلى ما تزعمين من مطالبات الصحابيات بِحقوقهن الشرعية.

وقولُها: «فالمرأة ليست ناقصة الأهلية، فالإسلام أشرك المرأة فِي أن تنقل أخطر العلوم نقلًا وهو الفقه، وزوجات الرسول ﷺ كن يدرِّسن الصحابة، وقد قال الرسول ﷺ: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» وإن يذهب البعض إلى أنه حديث ضعيف ليبرروا فقط أقوالهم».

أقول: ماذا تريدين بقولك: «فالمرأة ليست ناقصة الأهلية؟»[١] إن أردت أنَّها صالحة للخلافة والقضاء وقيادة الجيوش وخوض المعارك لنشر الإسلام والذياد عن الأوطان الإسلامية والقوامة على الرجال والمشاركة فِي سياسة الأمة من خلال المُؤتَمرات ومجالس الشورى فهذه الأمور لَم يعط الإسلام للمرأة منها شيئًا، وليست أهلًا لشيء من ذلك، ولو كانت أهلًا لشيء من ذلك لأعطاها، بل قال: «إنكن ناقصات عقل ودين وإنكن أكثر أهل النار»، وقال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» وبنيتهن الجسدية وواقعهن وتاريخهن كله يشهد بذلك وإن قلتِ: إنَّها أقدر على الحمل والرضاع وتربية الأطفال من الرجال، فهذا حق، ولن يُخاصمها الرجل فِي هذه الخصائص الَّتِي خلقها الله لَهَا، وهي تناسب تكوينها الجسدي وفطرتَها وعواطفها.

فالحَق يقال: إن موضعها فِي البيت، ولذا قال الله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ولا تقوم حياة للأمة إلا إذا قام بِها النساء على أكمل الوجوه، فأفضل ما تقوم به المرأة وتبرز فيه على الرجال: هي هذه الأمور وذلك أنفع للأمة، أما إذا تخلت المرأة عن وظائفها الأساسية، وذهبت تزاحم الرجل فِي ميادينه الخاصة به، وتشغب عليه باسم حقوق المرأة فإنَّها تكون قد جنت على نفسها وعلى الأمة، وأصبحت أداة هدم لا أداة بناء، أداة هدم للدين والأخلاق كما هو واقع بعض الأمم الضالة الَّتِي تَخلت عن دينها من يهودٍ ونصارى وحطمت أخلاقها.

---

(١) لا شك أنَّها ناقصة الأهلية إلَّا فِي بعض الأمور، وقد أعطاها الشارع الحكيم ذلك: كتبليغ العلم، وحق التملك، والتبرع، وقد مر ذكر ما أعطاها الإسلام.

وقد أدرك ذلك عقلاؤها فندموا ولات ساعة مندم، والسعيد من وعظ بغيره.

أما احتجاجك بنقل زوجات النَّبِي ﷺ للفقه، فنقول: من طاردك من التعلم والتعليم؟ لكن يَجب أن تعلمي أن اللَّه قال لهن: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. فقمن بِهذه الواجبات على أكمل الوجوه، ومنها الاستقرار فِي بيوتِهن، وقد تأسى بِهن الصالحات القانتات فِي هذه الأمور، وكن يُحدثن عن رسول اللَّه ﷺ من وراء حجاب، وما كنَّ يدرِّسن الصحابة الفقه كما تذكرين وإنَّما كانت كل واحدة منهن تبلغ ما حفظته عن رسول اللَّه ﷺ من وراء حجاب، وما كنَّ يتخبطن فيما ينقلن كما تخبطتن أنتن.

ولنقل الحديث والعلم شروط أراكنَّ من أبعد الناس عن توفرها، فقد رأينا منك العجائب والله: من الإخلال بالنقل، ومن الاستنباط الباطل، ومن كتمان الحق، ومن تَجهيل الناس، ومن الاحتجاج بِهذا الحديث الباطل، ومن الطعن فيمن يضعفه من العلماء واتِّهامهم بالمقاصد السيئة.

فهل يطعنون فِي حديث ثابت عن رسول اللَّه ليبرزوا أقوالَهم؟ وما هي هذه الأقوال الَّتِي تُخالف الشريعة ولا تَمشي إلا بالطعن فِي حديث رسول الله؟

لقد طعن فِي هذا الحديث ابن القيم، وقال الحافظ ابن حجر: لا أعرف له إسنادًا، ولا رأيته فِي شيء من كتب الحديث إلا فِي النهاية لابن الأثير ذكره فِي مادة (ح م ر).

ولَم يذكر من خرجه، ورأيته فِي كتاب الفردوس لكن بغير لفظه، وذكره من حديث أنس بغير إسناد أيضًا ولفظه: «خذوا ثلث دينكم من بيت الحميراء» وبيض له صاحب الفردوس فلم يخرج له إسنادًا، وذكر الحافظ عماد الدين ابن كثير أنه سأل الحافظين المِزي والذهبِي عنه فلم يعرفاه[1].

فحديث لا يعرفه هؤلاء الأئمة الحفاظ ولا يعرفون له إسنادًا تعرفينه أنت حتَّى

---

(١) انظر المقاصد الحسنة (ص١٩٨ برقم ٤٣٢).

تطعني فيمن طعنوا فيه، فأخبرينا بصحته، وإلا فاتركي التحدث باسم الإسلام أنت وأمثالك فضلًا عن التصحيح والتضعيف ودقائق المسائل.

وقالت إحدى المشاركات فِي هذا المنتدى وهي البتول الهاشمية وهي تطالب بِحقوق النساء، وذكرت أن حقوق النساء قد كفلتها الشريعة ودلت عليها الكثير من النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر قصة أم سلمى -تعني: أم سلمة ﵂- حين تساءلت عن فضل الهجرة وهل هناك تَخصيص للرجال دون النساء، وقالت: يا رسول الله، لا أسمع الله قد ذكر النساء فِي الهجرة بشيء فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ثُمَّ قالت: فنجد أكثر ما تدل عليه الآية الكريمة أولًا حرص النساء فِي عصر الرسالة الأولى على أن يكون لَهن مكان فِي الشئون العامة للجماعة المؤمنة، وأن يذكرهن النص القرآني، وأن يخاطبهن الله ﷻ فِي آيات محكمات فيصبحن بذلك جزءًا مرئيًّا وظاهرًا من حياة المُجتمع الإسلامي فِي جوانبه الدينية والاجتماعية العامة.

كما أنَّها تعكس حرص النساء على أن يحظين بالمكانة والتقدير المعلن لجهدهن، وألَّا يتم إقصاؤهن وتجاهلهن داخل المُجتمع، فهن لَم يترددن فِي طرح التساؤلات والسعي لمعرفة حقوقهن ونيلها داخل الجماعة، ولا يَخجلن من التعبير عن رأيهن، ولا يترددن فِي أن يطمحن إلى وضع أفضل، ولَم ينهرهن أحد على ذلك.

وترى ذلك متجليًا فِي سورة المُجادلة -لعلها تقصد سورة- حين سمع الله قول الَّتِي تجادل واستجاب لَهَا ربُّها على الفور، وأنزل بِها آيات بينات بل سورة، وإنَّها لدلالة عظيمة للإنصات لصوت النساء فِي أي سياق تاريخي، وعلى تأسيس لِهَذا الحق والتعامل معه باحترام.

واعتمادًا على ضوء ما ذكرنا: إن المرأة السعودية المسلمة عندما تطالب بِهذه

الحقوق فهي في الواقع تقوم بتجسيد وإكمال أولئك النساء الصحابيات -رضي الله عنهن- لِمَا بدأن فيه للمطالبة بكامل حقوقهن الشرعية.

وفي النهاية أحب أن أقول وأن أختم إلى هؤلاء جميعًا الذين يتخوفون بأن ذلك قد يعكس رغبة انفصالية من النساء، أو تَحقيق هيمنة من نوع آخر: إن هذا لن ينشأ إلا عن فئة غير قادرة على فهم وإدراك حقوق الشرع الكامل للطرفين على حد سواء، والَّتِي ما زالت هذه الفئة تأخذ باعتبارها أن المرأة ناقصة عقل ودين، وأنَّها غير مؤهلة للاعتماد على ذاتِها فيهدرون بذلك أهليتها العقلية والقانونية والشرعية، ويجعلونَها لا تبلغ سن الرشد أبدًا، فيفرضون الوصاية عليها وإن كان ذلك دون وجه حق».

أقول: نعم إن حقوق النساء قد كفلتها الشريعة ودلت عليها الكثير من النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة، ولكن على غير الوجه الذي يريده أهل هذا المنتدى، ولن يَجدن في هذه النصوص الكثيرة شيئًا مِمَّا يردنه أو يحاولنه مثل: المساواة الكاملة بين الرجال والنساء، ومثل الحقوق السياسية... إلخ.

ثُمَّ إن في كلام هذه المرأة نظرًا قويًّا في كل ما قالته، فنص الآية ليس فيه أي دليل على أيٍّ من دعواها الَّتِي ذكرتها في تفسيرها للآية.

فالنساء في عصر الرسالة كن يتلقين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالإيمَان الكامل والاستسلام الصادق والثقة المطلقة بالعقائد والأحكام والتشريعات العادلة الحكيمة، فما كان عندهن أي إحساس بالظلم أو الغبن، وما كانت التحسسات بالسلب والهضم إلا عند المنافقين والمنافقات فقالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ولَم يكن في عصر الرسالة صراع سياسي ولا صراع طبقي بين الرجال والنساء حتَّى يَحرصن على أن يكون لَهُن مكان في الشئون العامة للجماعة المؤمنة، ولا حرصن أن يذكرهن النص القرآني حتَّى ينزل القرآن استجابة لمطالبتهن بِهذا الحق الاجتماعي والسياسي.

إذ لو فعلن ذلك لكان ذلك استنكارًا على الله وشغبًا عليه -تعالى الله عن

ذلك- وحاشا المؤمنات فِي عصر النبوة أن يكون عندهن هذه الأحاسيس والوساوس.

أما ذكر النساء فِي القرآن فقد ذكرن فيه فِي السور المكية بدون حرص من النساء ولا استجابة لمطالبهن الَّتِي تدعيها الكاتبة، وإنَّما لمقاصد أخرى تتعلق بالإيمَان والعبادة والنكاح والطلاق والميراث، وعامة المخاطبات للرجال يدخل فيها النساء سواء كانت وعدًا أو وعيدًا أو أمرًا أو نَهيًا أو توجيهات.. إلخ.

فلا داعي إذن لِمَا نسب لأم سلمة ﵂.

وهذا الواقع القرآنِي الذي نوهنا عنه يشعر بضعف هذا الحديث، بل واقع هذا النص وسياقه يدل على ضعفه فالنص هو: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٥].

ففي هذا النص الثناء على أولي الألباب بذكره لَهُم فِي كل أحوالهم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبِهم، وعلى عظيم تفكرهم فِي خلق السموات والأرض، وتنظيم هذا الكون الهَائل وتدبيره، ثُمَّ الوصول إلى النتيجة: وهي أنه ما خلقه الله باطلًا وعبثًا وإنَّما خلقه بالحق، ولحكم عظيمة هي مقتضى ربوبيته وألوهيته وأسمائه الحُسنَى.

ثُمَّ توسلهم إلى الله بِهذا الإيمَان الواعي وضراعتهم إليه أن يقيهم عذاب النار وأن يقيهم الخزي فِي تلك الدار، فاستجاب الرب الكريم لهؤلاء المؤمنين

الصادقين المخبتين الذين ليس لَهُم مطالب سياسية ولا تطلعات إلى منازل اجتماعية، وزادهم ثناءً عاطرًا ووعدًا صادقًا بإدخالهم جنات تَجري من تَحتها الأنهار.

فهذه دلالة واضحة على ضعف هذا الحديث، يؤكد هذا: ما أسلفناه من ذكر اللَّه للنساء فِي السور المكية والمدنية قبل نزول هذا النص بسنوات كثيرة.

ويؤكد ذلك مرة أخرى: أن هذه الآيات كلها حديث عن الرجال أولي الألباب والضمائر كلها عائدة إليهم فهذه المرأة احتجت بِما هو حجة عليها لا لَهَا وإن ذكرت المرأة فيها فكم نصيبها منها.

وقولُهَا: «فيصبحن جزءًا مرئيًّا وظاهرًا فِي حياة المُجتمع الإسلامي فِي جوانبه الدينية والاجتماعية العامة».

أقول: واللَّه ما كنَّ مدفونات ولا مهضومات لا فِي تعامل القرآن والرسول ﷺ ولا فِي واقع المُجتمع الذي يعشن فيه، الذي نَجونَ فيه من الذل والهوان والقهر والكبت والوأد فلقد واللَّه خرجن من هذه الظلمات بعد ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمَان والعزة والكرامة.

فما كان يخطر ببالهن شيء مِمَّا تقولينه.

وقولُها: «كما أنَّها تعكس حرص النساء على أن يحظين بالمكانة والتقدير المعلن لجهدهن، وألَّا يتم إقصاؤهن وتَجاهلهن داخل المُجتمع، فهن لَم يترددن فِي طرح التساؤلات والسعي لمعرفة حقوقهن ونيلها داخل الجماعة».

أقول: ليس فِي الآية أي دليل أو إشارة إلى ما ذكرت هذه المرأة، ولَم يلجئهن الإسلام إلى السعي لمعرفة حقوقهن، فقد أعطاهن ما لا يخطر على بالهن، ثُمَّ إن كلامها الجائر يشعر أن المرأة كانت تعاني ظلمًا وهضمًا وإقصاء وتَجاهلًا فِي ذلك المُجتمع الطاهر الذي لا نظير له فِي التاريخ البشري سموًّا ونبلًا وعدلًا وجهادًا لإعلاء كلمة اللَّه، واحترامًا للمرأة والصبي والمسكين واليتيم وحتَّى الحيوانات العجماء.

فالآية والواقع لهذه الجماعة والقرآن والسنة كلها لا علاقة لَهَا بِهذه التخيلات

الَّتِي سطرتها هذه المرأة.

وقولُها: «ولا يَخجلن ولا يترددن فِي أن يطمحن إلى وضع أفضل».

أقول: إن الآية لا تدل على شيء من ذلك أبدًا وحتَّى الحديث على فرض صحته لا يدل على شيء منه، ولا كذلك واقع المرأة المسلمة، ولا واقع المُجتمع الذي تعيش فيه.

وكُنَّ فِي وضع يُحسَدن عليه ولا أفضل منه، فكيف يسعين إلى وضع أفضل؟!!

إن كلامك هذا يدل على أنك ترين أنَّهن كن فِي وضع سيِّئ وفِي وضع لَم يعطها حقوقها كاملة، فهي تسعى بطموح إلى تَجاوز هذا الوضع دون خجل أو تردد، ونعوذ باللَّه من هذه التصورات والخيالات.

أما سورة المُجادلة: فقد نزل صدرها لا كلها فِي شأن خويلة بنت ثعلبة الأنصارية وزوجها أوس بن الصامت، وكان قد ظاهر منها فأزعجها هذا الظهار وهاكم قصتها:

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا سعد بن إبراهيم ويعقوب قالا حدثنا أبي حدثنا محمد بن إسحاق حدثني معمر بن عبد اللَّه بن حنظلة عن يوسف بن عبد اللَّه بن سلام عن خويلة بنت ثعلبة قالت: «فِي واللَّه وفِي أوس بن الصامت أنزل اللَّه صدر سورة المُجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه قالت: فدخل عليَّ يومًا فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت عليَّ كظهر أمي.

قالت: ثُمَّ خرج فجلس فِي نادي قومه ساعة ثُمَّ دخل عليَّ فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا والذي نفس خويلة بيده لا تَخلص إلَيَّ وقد قلت ما قلت حتَّى يَحكم اللَّه ورسوله فينا بِحكمه، قالت: فواثبنِي فامتنعت منه فغلبته بِما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عنِّي، قالت: ثُمَّ خرجت إلى بعض جاراتِي فاستعرت منها ثيابًا ثُمَّ خرجت حتَّى جئت رسول اللَّه ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول اللَّه ﷺ يقول: يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير فاتقي اللَّه فيه. قالت: فواللَّه ما برحت حتَّى نزل فِي قرآن، فتغشى رسول اللَّه ﷺ ما كان يتغشاه ثُمَّ سُرِّيَ عنه فقال

لي: يا خويلة، قد أنزل اللَّه فيك وفي صاحبك قرآنًا، ثُمَّ قرأ عليَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ١-٤]. قالت: فقال لي رسول اللَّه ﷺ: مريه فليعتق رقبة، قالت: فقلت: يا رسول اللَّه، ما عنده ما يعتق، قال: فليصم شهرين متتابعين. قالت: فقلت: واللَّه إنه لشيخ كبير ما له من صيام. قال: فليطعم ستين مسكينًا وسقًا من تَمر. قالت: فقلت: يا رسول اللَّه، ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول اللَّه ﷺ: فإنا سنعينه بفَرَق من تَمر. قالت: فقلت: يا رسول اللَّه، وأنا سأعينه بفرق آخر. قال: قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي عنه ثُمَّ استوصي بابن عمك خيرًا، قالت: ففعلت»[1].

* ففي هذا الحَديث فوائد مهمة على النساء أن يستفدن منها:

١- في الحديث أن خويلة استعارت ثيابًا لتذهب إلى رسول اللَّه، فهذا يفيد أنَّها تعيش في أسمال بالية من الثياب لا تصلح للخروج، والثياب الَّتي استعارتها لا تَمشي اليوم عند نساء عصرنا.

٢- إن في النص القرآني: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فجدالُها في زوجها كان دافعه الحرص الشديد على بقائها في عصمة زوجها الشيخ الكبير الفقير الذي شكت في قصتها خلقه معها، ولَم تُجادل في قوامته عليها، فهل عند صواحب المنتدى استعداد لأن يشابِهن هذه الصحابية ويتأسين بِها؟

٣- في النص القرآني أنَّها تشتكي إلى اللَّه، وهذا يدل على مكانة عقيدتِها، إذ هي تُحاور الرسول أفضل الرسل، وفي أثناء هذا الحوار ترفع شكواها إلى اللَّه مِمَّا تلقى من خلق زوجها، ورسول اللَّه يسمع هذه الشكوى فما هو موقفه من تعامل هذا الرجل مع زوجته؟

هل أقامت الدنيا وأقعدتها هي وجيرانُها من الصحابة كما يفعل اليوم دعاة

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٤١-٣٤٢)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٤٣٣)، وأخرجه أحمد (٦/ ٤١٠)، وأبو داود في الظهار حديث (٢٢١٤)، وابن الجارود (٧٤٦)، وابن حبان (١٠/ ١٠٧).

تَحرير المَرأة؟

هل عقدوا المُؤتَمرات للمناداة بِحقوق المرأة لا سيما وكثير من الصحابة كانوا يضربون نساءهم؟

أما الرسول فما كان يزيد على قوله: «**يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه**».

فهل نساء اليوم يقبلن هذا ويَحتملنه، وهل يرغبن فِي الاستفادة من واقع هذا المُجتمع الطاهر الذي لا نظير له فِي تاريخ البشرية السابق واللاحق؟

أيها المُنادون بتحرير المَرأة والمُطالبون بِحقوقها: هل أنتم أعدل من مجتمع الصحابة الذي يأتِي على رأسه رسول الله الشاهد على الأمة وفِي هذا المُجتمع الخلفاء الراشدون والمهاجرون والأنصار؟ ووالله إن وضع المرأة فيه لأحسن وضع عرفته البشرية، إذ كانت المرأة قبله توأد صغيرة، وتورث كما يورث المتاع وتُمتَهن أشد الامتهان، فأكرمهن الله بالإسلام، ووضعهن فِي الموضع اللائق بكرامة الإنسان من غير زيادة ولا نقصان، فلما أنزل الله حكمه فِي القضية، وهذا الحكم فِي صالِح المسلم والمسلمة، إذ الظهار كان فِي الجاهلية طلاقًا، والإسلام اعتبره منكرًا من القول وزورًا، وشرع فيه الكفارة قبل المسيس.

قال لَهَا رسول الله: «**مريه فليعتق رقبة**» فما موقفها؟ لقد تَحولت بعد شكواها من زوجها إلى زوجة رحيمة تعتذر له بصدق فقالت: يا رسول الله، ما عنده.

قال رسول الله ﷺ: «**فليصم شهرين متتابعين**» فقالت: والله إنه لشيخ كبير ما له من صيام.

قال رسول الله ﷺ: «**فليطعم ستين مسكينًا وسقًا من تَمر**، قالت: يا رسول الله، ما ذاك عنده، قال رسول الله ﷺ: **فإنا سنعينه بفَرَق من تَمر**، قالت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بفرق آخر، قال رسول الله ﷺ: **قد أصبت وأحسنت فاذهبِي فتصدقي عنه ثُمَّ استوصي بابن عمك خيرًا**، قالت: ففعلت» أي: إنَّها نفذت وصية رسول الله فِي مساعدة زوجها، وفِي الاستيصاء به خيرًا.

يا صواحب المُنتديات: لقد ناديتن بالرجوع إلى سيرة الصحابيات، فإن كنتن

صادقات فهذه سيرة واحدة منهن تحت إشراف الرسول ومجتمعه الطاهر، فاستفدن من ذلك وأفدن منه مجتمعكن، وقفن وقوف المؤمنات فِي وجه المفسدين دعاة التحرير ودعاة حقوق النساء كذبًا وزورًا.

وقولُها: «وفِي النهاية أحب أن أقول وأن أختم إلى هؤلاء جميعًا الذين يتخوفون بأن ذلك قد يعكس رغبة انفصالية من النساء أو تَحقيق هيمنة من نوع آخر: إن هذا لن ينشأ إلا عن فئة غير قادرة على فهم وإدراك حقوق الشرع الكامل للطرفين على حد سواء. . . إلخ».

أقول: إن معظم الشعب السعودي رجالًا ونساءً ملتزمون بالإسلام ويدركون حقوق الرجال والنساء.

والمرأة فِي السعودية محترمة إلى درجة لا يوجد لَهَا نظير فِي الدنيا، ويغبطها عليها نساء الدنيا، ومعظم النساء فِي هذا البلد الذي قام على الإسلام الصحيح الواعي لا يؤيد هذه الصرخات المفتعلة والاتِّهامات المتطاولة على حَمَلة الشريعة الإسلامية.

هل أدلة العلماء انتقائية؟

وعلقت الدكتورة أميرة كشغري بقولِهَا: «اعتقد أن الاجتهادات معظمها تعتمد على أدلة انتقائية، بِمعنًى ننتقي ما نريده فالمرأة لَهَا حقوق فعليها أن تطالب بِحقوقها ولا تشعر أن المُجتمع والأعراف كبلتها وضيقت الخناق عليها، خاصة أن بعض الخطابات الدينية تنتقي بعض الآيات القرآنية والأحاديث من خلال ما يتناسب مع العادات والتقاليد؛ لكي تبرهن وتثبت أن المرأة أقل من الرجل، وأن المرأة يَجب أن تكون تَحت وصاية الرجل دائمًا، ومن المفترض أن تعرف هذه الحقوق، وقد أبدأ السؤال الآن على ما طرح من قبل الأستاذات من هذا النقاش بسؤالي وهو: ما الحالات الَّتِي تفرض الشريعة قوامة الرجل على المرأة؟ وكيف نفرق فِي ذلك فيما هو شرعي وما هو مجرد اجتهادات وتأويل للنص الشرعي؟».

* **أقول:** فِي هذا الكلام:

أولًا: تَهييج للنساء وادعاء أن للمرأة حقوقًا وعليها أن تطالب بها . . . . إلخ، وفِي الوقت نفسه لا تذكر أن على المرأة واجبات وأن للرجال حقوقًا على النساء.

ثانيًا: فيه اتِّهام للعلماء بأن معظم اجتهاداتِهم تعتمد على أدلة انتقائية، ويفيدنا الاتِّهام بالانتقاء أن العلماء يكتمون الأدلة الَّتِي تنص على حقوق المرأة.

ونَحن نطالب هذه المرأة بإثبات هذه الاتِّهامات الَّتِي اكتشفتها، وإبراز النصوص الَّتِي كتموها، ومن أي تاريخ بدأ تلاعب العلماء بِهذه الأدلة، نطلب منها أن تبين لنا هؤلاء المتهمين، أو إبراز أهمهم على الأقل، وإلا تفعل ذلك، ظهر للناس بطلان دعواها وجرأتُها على اتِّهام العلماء، ودلَّ على أن شكواها من الأباطيل.

ثالثًا: ماذا تريدين بقولك: «ولا تشعر أن المُجتمع والأعراف كبلتها» أتريدين الحجاب؟ والقرار فِي البيوت، والحفاظ على الأخلاق العالية، وعلى رأسها الحشمة والحياء، فهذا ليس من الأغلال ولا من الأعراف، وإنَّما شرعه اللَّه الخالق الحكيم ورضي به المسلمون رجالًا ونساءً؛ لأن فيه شرفًا للمرأة والمُجتمع، وطهارة من الرذائل والأرجاس.

ولَمَّا تَحررت المرأة فِي الغرب أو حررها الفجار أنتنت الدنيا بالرذائل والفضائح.

وما أظن نساء هذا البلد المؤمنات يوافقنك على هذا التهور الذي يؤدي إلى هاوية لا قرار لَهَا.

ورجال هذا البلد أشرف وأنبل من أن يضحوا بشرفهم وأخلاقهم النابعة من دينهم لأنَّهم يعلمون أن المرأة فتنة، قال رسول اللَّه ﷺ: **«ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»**.

وهي ضعيفة؛ ولهذا أوصى بِها رسول اللَّه ﷺ فقال: **«استوصوا بالنساء خيرًا»**.

وقال ﷺ: **«اللهم إنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: اليَتِيمِ وَالمَرْأَةِ»**.

نسأل اللَّه أن يوفق المسئولين عن هذه البلاد للقيام بدرء الفتن وتنفيذ هذه

الوصاية النبوية الحكيمة.

وأن يوفق أولياء أمور النساء للقيام بِهذه الواجبات وتنفيذ هذه الوصايا الحكيمة الَّتِي تَهدف إلى الحفاظ على الدين والأخلاق والأنساب والشرف.

هل المرأة في المملكة العربية السعودية

مظلومة كما يصورها أنصار المرأة؟

لا ينبغي للمسلم العاقل هذا الإطلاق، فإن المرأة فِي السعودية أفضل وضعًا من غيرها بكثير دينًا ودنيا وهي فِي وضع تُحسَدُ عليه.

أما الظلم: فقد يكون هناك نساء مظلومات، وقد يكون هناك نساء ظالِمَات، وخاصة لأزواجهن.

وصواحب المنتدى يشتكين من الأعراف والتقاليد الموجودة فِي السعودية، وأنَّها هي المنطلق فِي ظلمها، وأقول: إن الأمر بالعكس، فإن تقاليد النساء وأعرافهن قد أرهقت الرجال وقصمت ظهورهم، حيث حملتهم ما لا يطيقون من التكاليف غير المشروعة، فأغرقت كثيرًا منهم فِي الديون والمشاكل.

١- فالمهور قد رغب الإسلام فِي تَخفيفها جدًّا وقد وصلت فِي هذه البلاد إلى حد لا يُطاق ومعظم أسبابه النساء.

٢- وتكاليف المِلكة ثُمَّ الزفاف كذلك، وكم يكلف النساء فِي هذه المناسبات أزواجهن من تكاليف الملابس الَّتِي يَجب على الرجال أن يشتروا ثيابًا بالأثمَان الباهظة لكل مناسبة، ولو كان فِي الشهر الواحد عدد من المناسبات فلابد لكل مناسبة من ملابس جديدة.

٣- ولابد أن يكون السكن فِلَّة أو قصرًا أو شقة -على الأقل- فِي الأحياء الراقية.

٤- ولابد أن يكون الأثاث من الطراز الراقي الذي يكلف التكاليف الباهظة، وأصبحت معظم الأسواق الراقية لمطالب النساء، أسواق الذهب والأثاث الباهظ وأدوات التجميل والملابس الفاخرة.

٥- ولابد لكثير منهن من خادمة ولو كانت أمية، أما المتعلمة فأصبحت الخادمة من ضروريات حياتِها.

أما نتائج هذه الحياة فلا تسأل عنها من ضياع حقوق الأسرة، وفساد تربية الأطفال على أيدي الخادمات، وضياع حقوق الأزواج، وما يتبع ذلك من نكد حياتِهم الَّتِي ابتلوا بِها على أيدي النساء اللاتي فرضن عليهم هذه الحياة.

ولَم يكتف كثير من المتعلمات بِما وصلن إليه من ميزات على نساء العالَم، ومن إرهاق رجالهن بكثرة الأعباء، فذهبن يطالبن بِما ليس لَهُن وبِما هو من حقوق الرجال، ونعوذ بالله من البغي وتعدي حدود الإسلام.

مهور النساء وحياتهن في عهد الرسول ﷺ

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النَّبِي ﷺ فقال: إنِّي تزوجت امرأة من الأنصار... قال: **على كم تزوجتها؟** قال: على أربع أواقٍ. فقال النَّبِي ﷺ: **«على أربع أواقٍ؟ كأنَّما تنحتون الفضة من عرض هذا الجَبل...»**[1].

٢- وهبت امرأة نفسها للنَّبِي ﷺ فما رغب فيها، فقال رجل: فزوجنيها يا رسول الله إن لَم تكن لك بِها حاجة. فقال: «**هل عندك من شيء تصدقها؟** فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله ﷺ: **إزارك إن أعطيتها جلست ولا إزار لك فالتمس شيئًا**، قال: ما أجد. قال: **التمس ولو خاتَمًا من حديد**. قال: فالتمس فلم يَجد شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: **هل معك من القرآن شيء؟** قال: نعم سورة كذا وسورة كذا، لسور سَمَّاها، فقال رسول الله ﷺ: **زوجتكها بِما معك من القرآن**»[2].

٣- وروى أحمد والترمذي بإسناده‍ما عن عامر بن ربيعة عن أبيه: «أن امرأة من فزارة تزوجت على نعلين، فقال رسول الله ﷺ: **أرضيت من نفسك ومالك بنعلين؟** قالت: نعم فأجازه». قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وضعفه

---

(١) رواه مسلم في النكاح حديث (١٤٢٤).
والأوقية: أربعون درهمًا.

(٢) متفق عليه، ورواه عدد من الأئمة؛ منهم: مالك، والشافعي، وأحمد من حديث سهل بن سعد.

بعض الأئمة.

٤- عن ابن سيرين عن أبي العجفاء السلمي قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لا تغالوا صدُقة النساء؛ فإنَّها لو كانت مكرمة فِي الدنيا أو تقوى فِي الآخرة؛ لكان أولاكم بِها النَّبِي ﷺ، ما أنكح شيئًا من بناته ولا نسائه على أكثر من ثنتَي عشرة أوقية»[1].

فهل نساء هذا العصر ومنهن صواحب المنتدى يرضين بِمثل هذه المهور تأسيًا بالصحابيات الكريمات اللاتِي تعدل الواحدة منهن ملء الأرض من أمثالِهن؟ وهل يرضين أن يعشن مثل معيشتهن، ويسكنَّ فِي مثل مساكنهن، ويلبسن مثل لباسهن، ويتخلقن بِمثل آدابِهن وأخلاقهن، ويخدمن أزواجهن كخدمتهن؟!

إن المرأة فِي السعودية تعيش حياة لا يلحقها فيها النساء لا فِي الماضي ولا فِي الحاضر، فالمرأة فِي الهند هي الَّتِي تدفع المهر، وفِي أوربا وأمريكا لا تكلف المرأة زوجها عشر هذه التكاليف الَّتِي تكلفها هنا النساء أزواجهن، بل يقاسِمن أزواجهن فِي تكاليف الحياة.

وأقول: لا وجه لتجمع النساء فِي المنتديات للمطالبة بحقوق النساء، ولا داعي لمطالبة بعض الأحزاب بِهذه الحقوق، فالظلم متبادل بين الرجال والنساء، فمن له حق على الآخر إما أن يصبر، وإما أن يرفع قضيته إلى المَحاكم الشرعية، شأن المَظالِم فِي هذا الباب شأن المَظالِم الأخرى الواقعة من الرجال على الرجال ومن النساء على النساء، ولا يَجوز للمسلمين أن يركضوا وراء أعداء الإسلام؛ فإن هذه التجمعات والمطالبات إنَّما هي من أساليبهم وأوضاعهم السيئة المظلمة الَّتِي لا يوجد لَهَا حلول فِي أديانِهم المُحرفة هي الَّتِي دفعتهم إلى هذه التكتلات والمطالبات، أما ديننا -والحمد لله- ففيه من النصوص والأحكام ما يحمي كلًّا من الرجل والمرأة من الظلم فِي أي ميدان من ميادين الحياة، وفيه الحلول الحاسِمة

(١) رواه الترمذي فِي النكاح حديث (١١١٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال بعده: «والأوقية عند أهل العلم: أربعون درهمًا، وثنتا عشرة أوقية: أربعمائة وثمانون درهمًا». ورواه أحمد فِي مسنده حديث (٣٤٠) وصححه أحمد شاكر.

لكل المشكلات.

والمَحاكم فِي هذه البلاد ولله الحمد تعطي المرأة حقها قبل الرجل، والمُجتمع يَحترمها ويغار عليها ويذب عنها، فحال المرأة هنا غير حالِها فِي الدنيا جميعها.

وصلى الله وسلم على نبينا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمَعين.

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

٥ ذي الحجة ١٤٢٤هـ

طاقات المرأة وقدراتها العقلية والعلمية

تتجلى في شخصية «د. عزيزة المانع»!!

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فقد اطلعت على مقال للكاتبة «عزيزة المَانع» نشرته جريدة عكاظ فِي يوم الجمعة (٢١ محرم ١٤٢٥هـ) الموافق (١٢ مارس ٢٠٠٤) السنة السادسة والأربعون العدد (١٣٧١٢) تَحت عنوان: **«الخَوف من الندية»**.

ضمنته دفاعًا عن زينب غاصب الَّتِي شاركت مجموعة من النساء فِي منتدى نسائي تحدثن فيه عن حقوق النساء باسم الإسلام، ووقعن فِي مخالفات لِما قرره الكتاب والسنة عن حقوق الرجال والنساء، وكانت أشدهن مخالفة الكاتبة «زينب غاصب»، فرددت بعض أقوالِهن نظرًا لضيق وقتي لكنِّي أعطيت كلام زينب شيئًا من الاهتمام لكثرة مخالفتها وشدتِها.

فتصدت الكاتبة «عزيزة المَانع» للدفاع عنها لكنها لَم تناقش إلا بعض انتقاداتي لمخالفات زينب فماذا عملت «د. عزيزة»؟

لقد عقدتُ ثلاثة فصول فِي رسالتِي: **«الحُقوق والواجبات للرجال والنساء فِي الإسلام»** تبطل دعاوى زينب غاصب ومن سبقها من دعاة تَحرير المرأة، فِي أن المرأة مساوية للرجل مساواة مطلقة وندٌّ له فِي الحقوق والواجبات.

فإن كانت لديها قدرة وإنصاف فلتوفِّ الموضوع حقه، بِمناقشة كل ما تضمنته هذه الرسالة من أدلة وبراهين أقمتها على بطلان شبهات دعاة تحرير المرأة.

ولعل سائلًا يقول: ماذا عملت د. عزيزة المَانع الَّتِي جاءت لتدافع عن فكرها وعن زميلتها فِي هذا الفكر ألا وهي زينب غاصب؟

فأجيبه:

لقد كان عملًا هزيلًا جدًّا يتناسب مع ضعف المرأة وضعف عقلها، وتَهافت

حججها أمام خصمها:

١- لقد انتقت بعض أدلتي القرآنية الَّتي وقفت عليها وجفلت عن البعض الآخر، وعن تفسيرها الذي نقلته عن بعض أئمة التفسير.

٢- انتقت بعض تعليقاتي على هذه الأدلة وحادت عن تعليقات أخرى مهمة جدًّا فيها تقوية لحججي، وفيها توضيح لِمَن لا يفهم من القراء معاني النصوص القرآنية.

٣- قامت بتجزئة بعض النصوص الَّتي انتقتها، فتتعلق بالبعض الذي تظن أنَّها ستغالط به القراء، وتزعم أنه حجة لَهَا، وتُهمل وتتجاهل الجزء الذي هو موضع الاستشهاد، وحجة ناصعة عليها وعلى دعاة تَحرير المرأة والمنادين بِمساواتِها المطلقة للرجل.

٤- نقلت تفسير الشوكاني لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨] بأن المراد به: النساء، وذكر الشوكاني صفات النساء الَّتي تدل على ضعفهن، وضعف عقولِهن وحجتهن، ثُمَّ نقلت عنه تفسير ابن زيد بأن المراد بذلك: إنَّما هو الأصنام، ثُمَّ علقت عليه بقولي: «وهو تفسير غير صحيح يرده ما يكاد يجمع عليه المفسرون وعلى رأسهم عبد اللَّه بن عباس ﭭ»، ونقل الشوكاني عن ابن عباس قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ قال: «هو النساء، فرق بين زيهن وزي الرجال، ونقَّصهن من الميراث، وبالشهادة، وأمرهن بالقعدة، وسَمَّاهن خوالف».

فتجاهلت عزيزة هذا الكلام الذي ضمنته قولي: «يرده ما يكاد يجمع عليه المفسرون ومنهم ابن عباس.. إلخ»، وزعمت أن تفسير الشوكاني إنَّما يُمثله، وحده، وهو عندها رأي غير ملزم لأحد.

٥- إن هذه المرأة لتتسم بالجرأة المتناهية، فتراها تعارض النصوص القرآنية والنبوية بِهواها وهوى غيرها بشكل مرعب، وتعارض كلام العلماء.

٦- وتراها لا تعتد بكلام العلماء من مفسرين وغيرهم مع فقرها المدقع في العلوم الشرعية، وجهلها المطبق بالقرآن والسنة.

ولقد اتُّهمتني بالانتقاء كما هو شأن دعاة تَحرير المرأة، ومنهم بعض المشاركات فِي المنتدى المشار إليه، حيث اتُّهمت العلماء بانتقاء النصوص الَّتِي تساير التقاليد والأعراف.

وإنِّي لأطالب الجميع بإثبات هذه الدعوى الكبيرة وأخص منهم «د. عزيزة» وهذه المشاركة المشار إليها، وأقول لَهم جَميعًا: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وأقول: بِماذا تصف أعمال هذه المرأة «عزيزة»؟ أترك ذلك إلى القراء المنصفين.

وأقول لَهَا:

«أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا يا سعد تورد الإبل»

وأقول لَهَا: «رمتني بدائها وانسلت».

وليرجع القارئ إلى رسالتي: «الحُقوق والواجبات للرجال والنساء فِي الإسلام» وإلى مقالِهَا الذي نُشر فِي جريدة عكاظ بالتاريخ المذكور، وإلى تعقيبي عليها فِي هذا المقال؛ ليرى أحقية وصدق ما نسبته إليها من أعمال.

وإنِّي لأرجو من الله أن ينفع المسلمين بِما تضمنته هذه المناقشات من بيان للحق وردٌّ للباطل.

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

وإلى مناقشة الدكتورة عزيزة المانع في مقالها:

* **أولًا**: قالت الكاتبة «عزيزة المَانع»: «كتب الدكتور ربيع المدخلي فِي إحدى الصحف يقول إنه قرأ كلامًا لزينب غاصب فحواه أنَّها ترى: «أن المرأة ليست تابعة للرجل بل هي ندٌّ للرجل، وأن اللَّه ﷻ لَم يجعل العمل والأجر حكرًا على الرجل ولَم يجعله مضاعفًا له وإنَّما ساوى بينهما فِي الحقوق والواجبات». وأنه يريد أن يبين لَهَا ولغيرها أن لا مساواة بين الرجل والمرأة، وأن المرأة عليها أن تعلم أنَّها تابعة للرجل وليست ندًّا له. والذين يقرءون تعقيب د. المدخلي يلحظون مدى ما بذله من اجتهاد فِي انتقاء ما يراه أدلة صالِحَة لإقناع القراء ببطلان قول زينب غاصب عن ندية المرأة للرجل، وصواب قوله فِي تبعيتها له».

أقول:

هنا يظهر عجز النساء وتَهربِهن عن الإجابة عن كل أدلتي وكلام العلماء فِي تفسير هذه الأدلة، لِمَاذا لا تدافع زينب الغاصب عن نفسها وعن دعاواها؟ لِمَاذا تلجأ عزيزة المَانع إلى هذا الانتقاء؟

أنا لَم أنتق الأدلة الَّتِي أراها صالحة لإقناع القراء ببطلان قول زينب الغاصب بندية المرأة للرجل وصواب قولي فِي تبعيتها له، وسيرى القراء أن «د. عزيزة» هي الَّتِي تعارض القرآن والسنة ثُمَّ تنتقي ما يوافق هواها.

* **ثانيًا**: قالت الكاتبة: «وأنا هنا لن أخوض فيما اختلف حوله الكاتبان[1] فهذا شأنُهما، لكنِّي فقط سأتوقف عند بعض ما أورده الدكتور المدخلي من استشهادات يرى أنَّها تدل على تبعية المرأة للرجل».

---

(١) انظر كيف غلَّبَت الرجل على المرأة فقالت: الكاتبان ولَم تقل: الكاتبتان تغليبًا للرجل على المرأة.
ونسألُها لِمَاذا غلَّبت الرجل على المرأة، وهل لو فعلت هذا يفرك الناس رجالًا ونساء؟ بل هل تسمح لك نفسك بذلك؟ ألا يدل هذا أن تبعية المرأة للرجل أمر مستقر فِي أعماق النفوس؟
ونسألُها هل يشرع أن يُجعل من النساء أئمة مساجد يأمُمن الناس فِي الصلوات المكتوبة، ويصلين بالناس فِي الجمع والأعياد ويلقين الخطب فيها؟
وهل يصح أن يكون منهن أميرات يقدن الناس فِي الجهاد والحج؟
إن قلت: نعم؛ كذَّبك الإسلام والمسلمون.

أقول لِهَذه الكاتبة: لماذا توقفت عند هذا البعض وأحجمت عمَّا اختلف فيه الكاتبان، أليس هذا انتقاء يدل على العجز عن مواجهة كل أدلتِي وما رافقها من أقوال أئمة الإسلام وهي كثيرة وقوية ودامغة، وهي تدل على أن الكاتب قد ساق من الأدلة ما يقنع بعضه القراء فضلًا عن كله؟ وإذا كانت هذه الكاتبة تصر على أني انتقيت من الأدلة ما رأيته صالِحًا لإقناع القراء ببطلان قول زينب الغاصب. . . إلخ فلتأت ببقية الأدلة الَّتِي كتمتها إن كانت صادقة فِي دعواها وإلا تُبيِّن للناس سقوط دعواها واتِّهامها، وقد سبقها إلى هذه الدعوى أميرة كشغري حيث اتَّهمت العلماء بانتقاء الأدلة الَّتِي توافق العادات والتقاليد، فطلبتُ منها الإتيان بِما كتمه العلماء، ولا أزال أطلب منها الإتيان بِما يدين هؤلاء العلماء بالكتمان، كما أطلب مثل ذلك من الدكتورة «عزيزة المَانع».

* ثالثًا: قالت الكاتبة: «وعليه أن يأتي بغيرها إن كان مُلِحًّا فِي إقناع القراء بتبعية المرأة للرجل».

أقول:

١- إن هذه الأدلة الَّتِي تصديتِ لمناقشتها كافية لإثبات هذه التبعية.

٢- أنا جئت بغير هذه الأدلة وما جئت به كثير شافٍ كافٍ، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

٣- أن هذا الطلب الذي طلبته مِنِّي لا يلزمنِي وإنَّما يلزمك، أنت الَّتِي ادَّعيت عليّ أننِي انتقيت من الأدلة ما أراه صالِحًا لإقناع القراء.. إلخ، والبينة على المدعي وصدق اللَّه العظيم فِي قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨].

وصدق رسول اللَّه ﷺ حيث يقول عن النساء: «**إنكن ناقصات عقل ودين**».

* رابعًا: قالت الكاتبة: أولًا: استشهد بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النحل: ٧٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

ثُمَّ علَّق على هاتين الآيتين بقوله: «تأملوا أيها المؤمنون والمؤمنات العقلاء قول اللَّه تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، و﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾. لتذركوا ما ميز اللَّه به الرجل على المرأة وأنَّها جُعلت للرجل ومن أجله». ولقد تأملت في هذه الآيات كما طلب منا الكاتب الكريم، فما وجدتُ فيها ما يدل على اختصاصه بالرجال دون النساء، فهذه الآيات -كما يدل ظاهرها- خطاب موجه للجنسين فهي تشمل الرجال والنساء، ومن ثُمَّ فإن المَعنَى الذي ذكره الكاتب هو معنًى مشترك بين الرجال والنساء، فإن كانت المرأة خُلقت للرجل ومن أجله؛ فإن الرجل أيضًا خُلق للمرأة ومن أجلها».

أقول: تأملت الكاتبة هذه الآيات فما وجدت فيها ما يدل على اختصاصها بالرجال دون النساء!!

وأقول: لقد تأملها علماء الأمة ومفسروها فوجدوا هذه الآيات ظاهرة الدلالة على اختصاصها بالرجال ولَم يفهم أحد أبدًا شمولها للجنسين؛ بل الأمر لا يَحتاج إلى كثير تأمل، وإذا كان كذلك فلا يضر عدم وجدانك لِهَذا الاختصاص.

ولَم يقل أحد أبدًا: إن الرجل خُلق للمرأة، فإن فِي هذا القول مكابرة ورد لظاهر القرآن.

* خامسًا: قالت الكاتبة: «ولا أظن الدكتور المدخلي يجهل أن الخطاب العام فِي اللغة العربية متَى جاء بصيغة جمع المذكر شمل الإناث».

أقول: هداك اللَّه، هذا الخطاب يقال للصغار من طلبة العلم، ولا يقال لمن قضى دهرًا فِي دراسة الشريعة الإسلامية.

وأقول لإفادة بعض القراء: إن العام بِحسب المراد منه ثلاثة أنواع:

الأول: العام الباقي على عمومه، وقد قال الأصوليون: إنه قليل ومثَّلوا له بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، فإنه لا خصوص فيها.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] فهذان النصان وأمثالهما خطاب لِجميع العقلاء عربِهم وعجمهم ذكورهم وإناثهم لا يخرج منه فرد ولا جنس ولا نوع.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠] فهذا النص المراد به جميع المؤمنين ذكورًا وإناثًا.

الثاني: العام المراد به الخصوص مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. فلفظ: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا يشمل البشر جميعًا، ولكن العموم غير مراد؛ إذ القائل بعض الناس بالتأكيد، بل قيل في كتب التفسير: إن القائل رجل واحد من خزاعة والمقول لهم بعض الناس أيضًا، ومثله قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

فالعموم في هذين النصين لا يشمل النساء؛ إذ وجوب الجهاد خاص بالرجال وكذلك وجوب السعي إلى الجمعة وترك البيع خاص بالرجال؛ فلا تجب الجمعة ولا الجماعة على النساء، فالعموم في هذا النوع الثاني يراد به الخصوص فلا يدخل فيه النساء.

والنوع الثالث: العام المخصوص وله أمثلة:

منها: قول اللَّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فخص الوجوب على الناس بالمستطيعين دون غيرهم.

فحديثها عن العموم يدل على جهل بالعموم وأنواعه وصيغه وهي كثيرة ومنها كل وجميع وأدوات الشرط والاستفهام والموصولات.

قولُها: «إن العام إذا جاء بصيغة جمع المذكر يدخل فيه الإناث» ليس على إطلاقه كما مرت بنا الأمثلة وكما هو معروف لدى علماء الأصول وغيرهم بل هو منقوض بنصوص كثيرة.

ومنها: قول اللَّه لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فهذه النصوص لفظ المؤمنين فيها خاص بالرجال ولا يدخل فيه النساء.

فإن قيل: إن هذه النصوص خاصة بالجهاد ووجوب الجهاد وخاص بالرجال.

قلنا: وكفى بذلك فضلًا للرجال وميزة على النساء.

ثُمَّ إن هذه النصوص أدلة على بطلان دعواها من إطلاق العموم وبطلان دعواها بندية النساء ومساواتِهن للرجال وعدم تبعيتهن للرجال.

ثُمَّ نسألُها لِمَ يدخل النساء كثرًا وكثيرًا فِي صيغ العموم الَّتِي يخاطب اللَّه فيها الرجال ويأمرهم أو ينهاهم؟ ولا يوجد العكس على الإطلاق، ألا يدل هذا على فضل الرجال على النساء وأن النساء تابعات للرجال؟!

* سادسًا: قالت الكاتبة: «كما أن كلمة «أزواج» تُطلق على المرأة والرجل فما الذي يجعلنا نفهم من الآية أنها خطاب خاص بالرجال دون النساء؟

أقول: إن كلامك بِهذا الإطلاق باطل لا سند له من كلام اللَّه ولا من كلام رسوله ولا من كلام العرب.

وأقول: إن لفظ «أزواج» ليس كما تصورته هذه المرأة، والمتتبع لموارده فِي نصوص القرآن يجد أنه:

١- قد يُطلق على الحيوانات كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

وقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ الآيات [الأنعام: ١٤٣].

فلفظ أزواج فِي هذه الآيات يتناول ذكور هذه الحيوانات وإناثها.

٢- وقد يُطلق فِي القرآن فيتناول ذكور كل الأجناس من الجن والإنس والحيوانات والنباتات وما لا يعلمه إلا اللَّه كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

٣- وإذا كان الخطاب لبني آدم وجاء هذا اللفظ منكّرًا، فإن كانت هناك قرينة تصرفه إلى أحد الجنسين صُرف إليه وإلا بقي على عمومه يتناول الذكور والإناث

مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [فاطر: ١١].
فلفظ «أزواج» أُطلق هنا على الذكور والإناث.

٤- وإذا جاء أيضًا منكَّرًا وهناك قرائن تصرفه إلى أحد الجنسين؛ صُرف إليه مثل قوله تعالى:

أ- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

ب- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ [البقرة: ٢٤٠].

ج- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

د- وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

هـ- وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١].

فإنه يُنظر إلى ألفاظ النص وسياقه؛ إذ السياق يخصص العام ويقيد المطلق، والناظر في ألفاظ هذه الآيات وسياقاتها، ومنها هاتان الآيتان الَّتي دار الحوار حولَهما؛ يقطع بأن المراد بلفظ «الأزواج» فيهما إنَّما هو النساء، ومن هنا أطبقت كتب التفسير على أن المراد بالأزواج إنَّما هو النساء.

ومن هنا قال الشوكاني عند تفسير آية النحل: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل: ٧٢]: «قال المُفسرون يعني: النساء فإنه خلق حواء من ضلع آدم، أو المَعنَى: خلق لكم من جنسكم أزواجًا لتستأنسوا بها؛ لأن الجنس يأنس إلى جنسه ويستوحش من غير جنسه وبسبب هذه الآنسة يقع بين النساء والرجال ما هو سبب للنسل الذي هو مقصود الزواج، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]»[1].

٥- وإذا جاء مضافًا إلى ضمير الذكور فالمراد بالأزواج: النساء قطعًا كما في

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢١٣-٢١٤).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

-وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٢].

- وقوله تعالى في قوم لوط: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٦].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

- وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

- وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

- وقوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

- وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٦].

- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦].

فالمراد قطعًا ويقينًا بالأزواج في كل هذه الآيات إنَّما هن النساء.

٦ - وإذا أضيف لفظ «أزواج» إلى ضمير الإناث فالمراد به قطعًا: الذكور لا الإناث مثل قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

٧- وإذا وصف لفظ الأزواج بوصف الإناث كقوله تعالى في سياق جزاء المؤمنين في الدار الآخرة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]. كان هذا الوصف في هذا السياق نصًّا بأن المراد بالأزواج في الآيتين إنَّما هو الإناث.

وبهذا التقرير الواضح المفصل تسقط مغالطات هذه المرأة ومعارضاتها

للآيات الَّتِي احتججنا بِها على أن المرأة خُلقت للرجل ومن أجله .

وبعد هذا ؛ تأمل أيها القارئ كل من الآيتين اللتين جادلت فيهما هذه المرأة الَّتِي تجادل بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير .

الأولى من سورة النحل ، والثانية من سورة الروم ؛ يتجلى لك أن الخطاب إنَّما هو للذكور والضمائر إنَّما هي لهم .

ففِي الآية الأولى: أضاف الأزواج إلى ضمير الذكور: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]. وهذا يَجعلك تقطع أن المراد بالأزواج هنا إنَّما هن النساء .

وفِي الآية الثانية: ترى الخطاب أيضًا إنَّما هو موجه إلى الرجال ، والضمائر إنَّما تعود إليهم ، فيكون المراد بالأزواج : النساء ، وفِي آخرها ما يؤكد ذلك وهو قوله : ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. فالضمير فِي ﴿إِلَيْهَا﴾ ضمير الإناث وهو عائد إلى لفظ الأزواج ، والمراد به : الإناث .

وأعتقد أيها القارئ أنك أدركت صواب ما قررناه من أن الندية المزعومة الَّتِي تدَّعيها هذه المرأة ومن وراءها لا أساس لَهَا ، وأن المرأة تابعة للرجل وخُلقت له ومن أجله .

والمؤمنة لا تتأفف من هذه التبعية الَّتِي شرعها الله ، وإنَّما ترى أنَّها شرف لَهَا ؛ لأن ذلك ناشئ عن حكم الله الكونِي وحكمه الشرعي ، والمؤمن لا يعارضهما ؛ لأنه يؤمن بأن ذلك من حق الله ومن مقتضى ربوبيته وألوهيته ، وسيأتِي زيادة تقرير لِهَذا الحق إن شاء الله .

* سابعًا : قالت الكاتبة : «استشهد الكاتب بقول الرسول ﷺ: «الدنيا متاع ؛ وخير متاعها المَرأة الصالِحَة». وعلَّق على ذلك بقوله : فالمتاع هو ما ينتفع به من عرض الدنيا قليلها وكثيرها وخير ما ينتفع به الرجل : المرأة الصالحة ، وهو قول حق ، ولكن أليس أيضًا خير ما تنتفع به المرأة المؤمنة : الزوج الصالح؟» .

أقول :

هذه المرأة المسكينة تعارض النصوص بعقلها ، والرسول ﷺ يقول عن

النساء: «إنكن ناقصات عقل ودين».

فإن استمتاع الرجل بالمرأة يختلف عن استمتاع المرأة بالرجل، فالرجل الصالح ينشد المرأة الصالحة ويبذل الغالي والرخيص للحصول عليها؛ فإذا وجد مطلوبه حصل له السكن كما قال تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١].

ثُمَّ إن الحديث الذي عارضته برأيها، يلتقي مع الآية الكريمة التي حادت عنها وتجاهلتها، وهي قول اللَّه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فالمراد بالناس هنا: الرجال، لا يدخل فيه النساء؛ لأنَّهن من جملة مطالب الرجال ومتاعهم، والذي يطلب ويكد ويتعب في الحصول على مطالبه يجد عند نجاحه من اللذة والمتعة والراحة والسكن والهناء، ما لا يَجده المسترخي المنتظر لِما يأتيه ولمن يأتيه.

فالمتاع الذي يحدثنا عنه القرآن والسنة غير المتاع الذي تقوله «د. عزيزة»، وقد قال الصحابي الجليل أبو هريرة لرجل: «يا ابن أخي! إذا حدثتك عن رسول اللَّه ﷺ حديثًا فلا تضرب له الأمثال»[1].

وكان الصحابة ﷺ إذا حدثوا عن رسول اللَّه ﷺ بحديث فعارضه أحد أو خالفه، يغضبون أشد الغضب؛ لأنَّهم يحدثون عن الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى.

* ثامنًا: قالت الكاتبة: «ثالثًا: استشهد الكاتب بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤]. ثُمَّ علَّق على الآية بقوله: «فالمرأة غير الصالحة قد تفتن الرجل في دينه وتثبطه عن الطاعات وعن فعل الخير وتحمله على قطيعة الرحم. . .» وهنا أيضًا يُمكن القول: أليس الرجل غير الصالح هو كذلك قد

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢).

يفتن المرأة في دينها ويثبطها عن الطاعات. . . إلخ؟ وواقع الحياة مليء بأمثلة ذلك، كما أن الآية لا يبدو فيها ما يفيد أنَّها خاصة بالرجال دون النساء، فهي ينطبق عليها ما قيل عن الآيتين السابقتين».

أقول:

إن ما قلتُه حق؛ لأنه مبني على قول اللَّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

١- وقولك معارِضَةً لقول اللَّه تعالى: «أليس الرجل غير الصالح هو كذلك قد يفتن المرأة في دينها ويثبطها عن الطاعات. . . إلخ؟».

فأقول:

لا يَجوز لك هذه المعارضة وما قلتِه نادر قطعًا، والأحكام لا تُبنَى على الأمور النادرة، واللَّه أعلم بأحوال عباده وتعالى اللَّه عما يقول الظالِمُون علوًّا كبيرًا.

فاللَّه لا يتحيز للرجال -تعالى وتقدس- وهو أعلم بأحوال النساء وما يخفيه غير الصالحات من مكر وكيد.

٢- وقولك: «وواقع الحياة مليء بأمثلة ذلك، كما أن الآية لا يبدو فيها ما يفيد أنَّها خاصة بالرجال دون النساء، فهي ينطبق عليها ما قيل عن الآيتين السابقتين».

أقول:

هذا من التخرص والمعارضة بالباطل، فما هي أدلتك على أن الواقع كذلك؟ وعلى أي الدراسات والإحصائيات اعتمدتِ؟ وكم هن النساء الصالِحات القانتات اللاتي قد فسدن عن طريق أزواجهن؟

إن الأمور النادرة لا تُبنَى عليها الأحكام ولا تُعارض بِها الشرائع، بل هي واضحة جدًّا كما بينت بطلان دعواك عدم الخصوصية فيما سبق قريبًا، وأن المراد بالأزواج في هذه الآية إنَّما هن النساء.

* تاسعًا: قالت الكاتبة: «يقول د/ المدخلي: وكما أن المرأة من نعم اللَّه على الرجل في هذه الحياة الدنيا فهي في الآخرة نعمة تدخل ضمن ما يجازي اللَّه به

عباده الصالحين على إيمانِهم وعملهم الصالح، ثُمَّ يدلل على قوله هذا بآيتين من القرآن الكريم هما: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

وقوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

لكنَّ هاتين الآيتين هما أيضا لا يوجد فيهما ما يدل على اقتصارهما على الرجال فقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ و﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يدخل فيه النساء والرجال معًا، ولهذا فإنه يصح لنا أن نستعير تعليق المدخلي السابق لندلل به على أن الرجل هو أيضًا من نعم اللّه على المرأة في هذه الدنيا وفي الآخرة».

أقول: فمع الأسف الشديد:

١- لقد حذفت هذه المرأة هنا آية كريمة من أقوى أدلتي ألا وهي قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ثُمَّ حذفت وجه استدلالي بِها ومعظم تعليقي عليها وهو قولي الآتِي:

«فجعل هذه الأشياء من شهوات الرجال ومطامحهم ومِمَّا يتمتعون به في هذه الحياة الدنيا ومن ضمن ذلك -بل أولها-: المرأة، فهي من متاع الرجل وفي مقدمة شهواته، فإن كان الرجل صالِحًا والمرأة صالحة فنعم المتاع، وكذلك الأموال إن استعان بِها على طاعة اللّه فنعم المال الصالح للرجل الصالح، وإن كان الرجل والمرأة غير صالحين فبئس المتاع والمستمتع.

ولَم تُبق من هذا التعليق إلا قولي:

«وكما أن المرأة من نعم اللّه على الرجل في هذه الحياة الدنيا فهي في الآخرة نعمة تدخل ضمن ما يُجازي اللّه به عباده الصالحين على إيمانِهم وعملهم الصالِح».

فلا أدري لأي غرض أبقت هذين السطرين فقط، بعد حذفها للآية السالفة، ومعظم تعليقي عليها؟

أليس هذا انتقاءً خطيرًا يهدم أمانة الفاعل؟!!

٢- إن هذه المرأة على إعجابِها بنفسها، يتجلى فِي جدالِها ضعف المرأة وقصورها وضعف حجتها، فهي تنظر إلى جزء من الدليل وتنسى الجزء الذي هو موضع الاستدلال، وتذكر بعض أدلتِي وتغفل أو تحذف عمدًا بعضها، ولا تستحي من اللَّه والمؤمنين، فتذهب تعارض -بِجهلها وهواها- كلام اللَّه وكلام رسوله ﷺ بكل جرأة.

وواللَّه إني لأكفكف قلمي عن وصف عملها هذا بِما يستحق وعن تشبيه عملها بأعمال قوم خرجوا على الأمة بِمثل هذه المعارضات الباطلة.

٣- لقد قالت بعد الآيتين اللتين ساقتهما وعارضتهما: «وقد ذكر اللَّه جزاء المؤمنين فِي الآخرة فِي عدد من سور القرآن ومن ضمن هذا الجزاء الحور العين.

وقال تعالى فِي سورة النبأ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٥]. وإذا ذكر جزاء المؤمنات فإنَّما يذكر تبعًا ولا يعدهن برجال من أوصافهم كذا وكذا.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥]. ثُمَّ سقت آية أخرى فِي هذا المَعنَى ثُمَّ علقت بقولي: «ومن هذه الآيات يدرك المؤمنون والمؤمنات باللَّه فضل الرجال على النساء فِي الدنيا والآخرة وأن المرأة دون الرجل فِي الدنيا والآخرة، لا ينازع فِي ذلك إلا من يجادل فِي آيات اللَّه بالباطل ليدحض به الحق فيا ويل له من عقاب اللَّه، يؤكد كل هذا ما يأتي من النصوص القرآنية والنبوية».

ثُمَّ سقتُ آيتين وحديثين يدل كل منها على نقصان المرأة عن الرجل، ومجموع ما سقته فِي هذا الباب عشرة نصوص قرآنية ونبوية كلها تدل على فضل الرجل على المرأة، وسقت كلام العلماء فِي شرحها وبيانِها.

دع عنك ما ذكرته فِي الباب الثاني من الأدلة والمناقشات لزينب غاصب وغيرها من الأمور الَّتِي تَهربتِ منها «د. عزيزة».

٤- وبعد هذا أعود إلى المناقشة لأبيِّن للقارئ نقصان عقل المرأة ودينها مهما اغترت بنفسها وانتفخت إعجابًا بِها وأُعجب بِها السفهاء.

قالت -بعد أن ساقت الآيتين وأهملت الثالثة وما بعدها من الأدلة فِي هذا الفصل الذي انتقته-: «لكن هاتين الآيتين هما أيضًا لا يوجد فيهما ما يدل على اقتصارهما على الرجال، فقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. يدخل فيه النساء والرجال معًا؛ ولهذا فإنه يصح لنا أن نستعير تعليق المدخلي السابق لندلل به على أن الرجل هو أيضًا من نعم اللَّه على المرأة فِي هذه الدنيا وفِي الآخرة».

أقول: إنِّي أجد نفسي مضطرًا لإعادة نص الآيتين اللتين أغفلت موضع الاستدلال منهما، ليرى القارئ مدى جهل هذه المرأة وضعف أمانتها.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

فماذا فعلت هذه المرأة المسكينة، لقد أهملت موضع الاستدلال وهو قوله فِي هذه الآية: وأزواج مطهرة. والأزواج المطهرة هنا: النساء اللاتي وعد اللَّه بِهن الرجال المتقين.

فقد يكون للمؤمن فِي الجنة زوجتان، وفِي بعض الروايات سبعون زوجة من الحور العين، وذلك جزاء يخص الرجال.

أما النساء فيدخلن فِي ضمن جزاء المؤمنين، ولَم يعدهن اللَّه بأزواج مطهرين فيكون للمرأة مثلًا زوجان أو سبعون زوجًا، فظهر بِهذا فضل الرجل على المرأة فِي الآخرة.

ونص الآية الثانية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

ماذا فعلت «د. عزيزة»؟ لقد تناست موضع الشاهد من هذه الآية وهو قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾. والقول فيها مثل ما أسلفنا في التعليق على الآية الأولى فلا نعيده.

ولنا أن نسأل الدكتورة: لماذا تعارضين كلام اللَّه وكلام رسوله؟ ألست قد رضيت باللَّه ربًّا وبالإسلام دينًا فما حكم هذه المعارضات بالعقل والهوى؟ ولماذا تغفلين وتحيدين عن موضع الاستدلال من النصوص؟ بل لماذا تحذفين بقية أدلتي؟ ولِمَاذا تَحذفين ما لا مجال للقول فيه من قريب ولا من بعيد وهو قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾. فهل الكواعب من الذكور أو الإناث؟ وهل يشترك الذكور والإناث، وإذا قلنا أنه خاص بالإناث فهل يدخلن ضمن جزاء المؤمنات حتَّى تساوي المرأة الرجل في الآخرة؟ أو أن المرأة المؤمنة تصير من الكواعب الأتراب لتكون من ضمن جزاء الرجل المؤمن؟

أرجو أن تكون الإجابة عن هذه الأسئلة نابعة من الإسلام لا من مناهج أوروبا وأمريكا.

وحتَّى الأوروبيين والأمريكان يحاربون بتر النصوص وحذفها، ويعتبرونه من الخيانة المسقطة لمرتكبها، وقد وقعت في هذا زينب غاصب الَّتي تحامين عنها فوقعتِ في شر مِمَّا وقعت فيه من تَحريف النصوص ومعارضتها وبترها وحذفها.

فتوبِي إلى اللَّه وأنيبِي إليه خير لك في الدنيا والآخرة، فواللَّه لأن تكوني جزاءً لأدنى المؤمنين درجة في الجنة خير لك من أن تكوني من أهل النار، واعلمي أن أكثر أهل النار من النساء، فاحذري أن تدخلي في غمار هذه الكثرة.

وقولك: «ولِهَذا فإنه يصح أن نستعير تعليق المدخلي السابق لندلل به على أن الرجل هو أيضًا من نعم اللَّه على المرأة في هذه الدنيا وفي الآخرة».

أقول:

١- لا سواء، فكلامي مستمد من كلام اللَّه وكلام رسوله مطابق لهما، وكلامك نابع من الهوى ويجري مجرى المعارضة لنصوص القرآن الكريم.

إن المَرأة تستفيد من الرجل في الدنيا؛ لأنه يسوق لَهَا مهرًا ويؤمِّن لَهَا السكن

والنفقات وما أستحي من ذكره، ولكن هذا لا يقتضي المساواة بينهما بل هذا يدل على علو مكانة الرجل وهو في خلقته وما زوده الله به من الرجولة والشجاعة، وكمال العقل وحسن التصرف، فهذا وذاك لا يسمح بادِّعاء المساواة بين الرجل والمرأة؛ ولِهَذا اختار الله الأنبياء والرسل من الرجال لا من النساء، والخلافة والقضاء والوزارة وغيرها لَم تشرع إلا للرجال.

وقد دلت النصوص وتطبيقات الخلفاء الراشدين وتقريرات العلماء: أن هذه المهمات العظيمة إنَّما تناط بالرجال.

وهذا وذاك لا يسمح بادِّعاء المساواة إلا من لَم يرض بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، والله يفعل ما يشاء ويحكم في ملكه بِما يريد، فله أن يفضل بعض الرجال على بعض، بل بعض الرسل على بعض، وله أن يفضل الرجال على النساء ولا يستطيع أهل السموات والأرض مجتمعين أو متفرقين أن يقولوا: لِمَ فعلت كذا؟ ولِمَ فضلت فلانًا على فلان، ولِمَ فضلت الرجال على النساء؟

وقد جعل الله لكل شيء قدرًا، وما ربك بظلام للعبيد.

* عاشرًا: قالت الكاتبة: «خامسًا: يقول د. المدخلي: إن الله سبحانه: إذا ذكر جزاء المؤمنات فإنَّما يذكره تبعًا لجزاء المؤمنين ولا يعدهن برجال من أوصافهم كذا وكذا، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]. وهاتان الآيتان الأولى منهما لا يظهر فيها مطلقًا تخصيص ذكر للنساء، حيث هن متضمنات[١] في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فكيف يُمكن القول أن جزاء المؤمنات جاء فيها تبعًا لجزاء المؤمنين؟ أما الآية الثانية فهي وإن كان فيها نص على ذكر المؤمنات إلا أن

---

(١) تقصد: مضمنات.

جزاءهن لا يبدو تبعًا لجزاء المؤمنين، وإنَّما هو مرافقة ومصاحبة. ويردف الكاتب هذه الآيات بقوله: «ومن هذه الآيات يدرك المؤمنون والمؤمنات باللَّه فضل الرجال على النساء فِي الدنيا والآخرة، وأن المرأة دون الرجل فِي الدنيا والآخرة لا ينازع فِي ذلك إلا من يجادل فِي آيات اللَّه بالباطل ليدحض الحق».

وما يقوله د. المدخلي كلام خطير، فهو يسعى إلى أن يقنعنا بأن جزاء المؤمنات فِي الآخرة دون جزاء المؤمنين، مهما عملن من الصالحات، ومهما بلغ بِهن الفضل. ولا أدري كيف استطاع أن يقرر ذلك، وعلى أي شيء استند فِي هذا الحكم؟ وهل نفهم من قوله هذا أن نساءً مثل مريم، وخديجة، وعائشة، وفاطمة، هن فِي الآخرة دون الرجال فِي الأجر بسبب أنوثتهن؟ وهل يريد منا كاتبنا الموقر[1] أن نؤمن أن اللَّه سبحانه العادل يساوي بين النساء[2] والرجال فِي العقوبة، ولا يساوي بينهم فِي المثوبة؟»

أقول: لِي معها وقفات فِي هذا المقطع:

١- إننِي أتحدث إلى المؤمنات الراضيات بتشريع اللَّه المسلِّمات تسليمًا بِما شرعه اللَّه فِي الإسلام من الحقوق والواجبات للرجال والنساء وبِما فضل اللَّه به بعض خلقه على بعض فِي الدنيا والآخرة.

وقد بينت مكانة المرأة المسلمة فِي الكتاب والسنة وعند المسلمين وعلمائهم وبينت منزلة المرأة فِي النحل والديانات الأخرى، وما لقيته المرأة فِي هذه النحل وعند أهلها من الذل والهوان، بِما يزيد معرفة بفضل الإسلام الذي لا يلحق فِي تعامله مع المرأة؛ لأن فضل الأشياء يتبين بِمعرفة أضدادها.

وأنا -والحمد لله- مِمَّن يكرم المرأة ويدعو إلى إكرامها، لكنِّي لا أكذب على الإسلام فأدَّعي لَهَا ما لَم يشرعه اللَّه كما يفعل دعاة تحرير المرأة.

٢- أنا قلت هنا: إذا ذكر جزاء المؤمنات فإنَّما يذكره تبعًا لجزاء المؤمنين ولا

---

(١) لن أعلق على قصدها من هذه الكلمة وأترك فهمها للقارئ.

(٢) لتقديم النساء هنا على الرجال مغزاه.

يعدهن برجال من أوصافهم كذا وكذا، بعد ذكري لجزاء المؤمنين وأن المرأة تدخل ضمن جزاء المؤمن، وسقت للبرهنة على ذلك عددًا من النصوص من بين نصوص كثيرة فِي القرآن والسنة.

ومن هذه النصوص الَّتِي ذكرتُها: قوله تعالى فِي وعد المؤمنين: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ذكر الأزواج المطهرة فِي نصين، والثالث فيه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾.

فهذه النصوص الثلاثة وعد اللَّه فيها المؤمنين بأصناف الجزاء وفِي ضمنها جزاؤهم بالأزواج المطهرة من النساء، وهذا أمر يبين فضل الرجل المؤمن على المرأة المؤمنة فضلًا عن الكافرة، وهذا أمر يُسَلِّم به المسلم والمسلمة ولا يكابر فيه إلا معاند أو مسفسط.

وكان من اللازم لَهَا -وهي تريد أن تثبت مساواة المرأة بالرجل- أن تجيب على قولي: «ولا يعدهن برجال من أوصافهم كذا وكذا» ولكنها لَم تفعل ولن تجد.

ولو كان ما تدعيه من المساواة ثابتًا شرعًا لوجدت نصوصًا فِي القرآن والسنة واضحة جلية ومستقلة تبين المساواة بين الرجل والمرأة فِي الدنيا والآخرة.

ومن إنصاف المؤمنين وفقههم لنصوص القرآن والسنة الَّتِي ترد خطابًا للذكور وعدًا ووعيدًا وأمرًا ونَهيًا أنَّهم يقولون: هذا الخطاب يدخل فيه النساء».

وذلك الدخول إنَّما هو بالتبع، ولو كانت هناك مساواة مطلقة؛ لَما اطردت نصوص الكتاب والسنة بِمخاطبة الرجال بالوعد والوعيد والتشريعات والأوامر والنواهي.

ولو كانت هناك مساواة لوجدت الخطابات والتشريعات متنوعة ومناصفة، تارة للرجال وتارة أو تارات للنساء: يا أيتها المؤمنات قاتلن الكفار، يا أيتها المؤمنات كُتب عليكن القصاص، يا أيتها المؤمنات إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعين إلى ذكر اللَّه، كتب عليكن الصيام، ويدخل المؤمنون فِي هذه المخاطبات.

ولَمَّا لَم تَجد «د. عزيزة» ذلك هربت إلى المغالطات والمماحكات بالباطل

كما درجت عليها من أول مقالِها إلى آخره.

٣- ساقت الكاتبة الآيتين من سورة محمد وسورة الفتح المذكورتين أعلاه ثُمَّ قالت: «وهاتان الآيتان الأولى منهما لا يظهر فيها مطلقًا تخصيص ذكر للنساء، حيث هن مضمنات فِي قوله تعالى: ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فكيف يُمكن القول أن جزاء المؤمنات جاء فيها تبعًا لجزاء المؤمنين؟».

أقول:

إننِي لَم أدع تخصيص ذكر النساء ولا ادعيت الظهور فِي هذا التخصيص، وإنَّما ادعيت أن النساء المؤمنات يدخلن فِي هذا الوعد تبعًا للمؤمنين.

فلماذا هذا الخبط؟ ولماذا هذه الأنفة من تبعية الرجال؟

أليست المرأة تُزف على بيت زوجها؛ لتكون تابعة له تاركة تبعيتها لأبيها وإخوتِها وعشيرتِها، وتصبح تَحت رعاية زوجها وقوامته عليها؟

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

فإن كنت تأنفين من التبعية فأعلنِي أنه لا مهور للنساء ولا سكنَى ولا نفقة ولا رجولة للرجال ولا قوامة، ولتدفع المرأة المهر للرجل ولتؤمِّن له السكن والنفقة و. . و. . و. . حتَّى يكون تبعًا للنساء، أو تتم المساواة بين الجنسين، ويتم التحرر من الإسلام.

ولا أظنك تستطيعين ذلك، ولا يرضى المؤمنون والمؤمنات بذلك، لا من الناحية الشرعية ولا من الناحية العقلية ولا من ناحية القدرة.

وعلى ذلك؛ فالمرأة ضعيفة تحتاج إلى من يرعاها ويحميها ويقوم عليها، علم اللَّه ذلك منها وهو العليم الخبير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. لا «عزيزة المَانع» ولا دعاة التحرر أفراخ أوروبا وأمريكا.

واللَّه إن تبعيتها للرجل الكفؤ المؤمن لَشَرفٌ لَهَا خاصة إذا كانت مثقفة واطلعت على نظرة النحل والملل إلى المرأة وأنَّها نجس، وملعونة، وشيطانة. . . إلى آخر الإهانات.

بل لو اطلعت على حال المرأة فِي الغرب وهي تعيش مثل حياة الحيوانات، وكيف يلعب بِها الرجال، ويعتبرونَها سلعة رخيصة تُعرض فِي الأسواق والمعارض والصحف والمَجلات، وفي دور التمثيل والمسارح والمسابح، وكيف تتنقل بين الأخدان يعبث بشرفها -إن كان لَهَا شرف- الرجل بعد الآخر، وإذا لَم تفعل ذلك غضب عليها أهلها واعتبروها فاشلة، وقد تُطرد من عند أهلها، فإذا لَم تجد عملًا خسيسًا لَجَأت إلى الشوارع لتكون لَهَا مأوى.

ولقد وقفت على مقابلة صحفية لـ «عزيزة المَانع» تشيد فيها بحياة الفتيات فِي أمريكا، وأنَّها بعد سن الثامنة عشرة تصبح حرة طليقة لا يعترض عليها أحد.

فأفٍّ لهذه الحياة الَّتِي أُعجبت بِها وتريدين مثلها فِي بلاد المسلمين والعرب وخاصة الجزيرة العربية مهبط الوحي ومعدن الشرف والعزة والكرامة والإباء لدى الرجال والنساء.

٤- وقالت: «أما الآية الثانية فهي وإن كان فيها نص على ذكر المؤمنات إلا أن جزاءهن لا يبدو تبعًا لجزاء المؤمنين، وإنَّما هو مرافقة ومصاحبة».

أقول:

إن اللَّه -تبارك وتعالى- يُحدثنا فِي هذه الآية وغيرها عن جزاء المؤمنين، وفِي المؤمنين: الأنبياء والرسل، والصديقون، والشهداء، والصالحون، والمُجاهدون فِي سبيل اللَّه بأموالِهم وأنفسهم، والغالب أنه لا يذكر المؤمنات.

فيسأل السائل: لِمَاذا لا يذكر اللَّه جزاء المؤمنات؟

فيجيبه العلماء: بأن المؤمنات يندرجن فِي هذه النصوص بسبب اتصافهن بالإيمان والعمل الصالِح.

وفِي هذه الآية تحدث عن جزاء المؤمنين وفيهم الرسل الكرام وعلى رأسهم أولو العزم ثُمَّ أتباعهم من الصديقين... إلخ، فهل تأنف «عزيزة المَانع» أن تُذكَر تابعة للمؤمنين وعلى رأسهم الرسل، فإذا قيل لَهَا: ادخلي الجنة تابعة للمؤمنين وفيهم الرسل. قالت: لا أريد أن أكون تابعة، بل مرافقة ومصاحبة للرسل، وليكن سائر أصناف المؤمنين بعد السيدة عزيزة.

إنِّي أخشى عليك بِهذا المنطق المتعالِي ألَّا تدخلي الجنة لا تابعة ولا مرافقة ولا مصاحبة.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

«**لا يدخل الجَنة من كان فِي قلبه مثقال حبة خردل من كبر**».

فتواضعي لله ولشرعه، واحرصي على دخول الجنة بأي صورة من الصور ولو زحفًا فِي آخر الناس وآخر النساء.

٥- قالت الكاتبة: «ويردف الكاتب هذه الآيات بقوله: ومن هذه الآيات يدرك المؤمنون والمؤمنات باللَّه فضل الرجال على النساء فِي الدنيا والآخرة، وأن المرأة دون الرجل فِي الدنيا والآخرة لا ينازع فِي ذلك إلا من يجادل فِي آيات اللَّه بالباطل ليدحض الحق».

أقول: نعم؛ وإنِّي لأؤكد ما قلته، فإن الآيات الَّتِي ذكرتُها فِي هذا الباب وغيرها والأحاديث الصحيحة الثابتة عن النَّبِي ﷺ صريحة جلية فِي ذلك لا ينازع فيما دلت عليه إلا من يُجادل فِي آيات اللَّه بالباطل، وقد تبين أنك تُجادلين بالباطل.

وأقول: وعلى نفسها تجني براقش: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

٦- ثُمَّ قالت: «وما يقوله د. المدخلي كلام خطير، فهو يسعى إلى أن يقنعنا بأن جزاء المؤمنات فِي الآخرة دون جزاء المؤمنين، مهما عملن من الصالحات، ومهما بلغ بِهن الفضل، ولا أدري كيف استطاع أن يقرر ذلك، وعلى أي شيء استند فِي هذا الحكم؟ وهل نفهم من قوله هذا أن نساء مثل مريم، وخديجة، وعائشة، وفاطمة، هن فِي الآخرة دون الرجال فِي الأجر بسبب أنوثتهن؟ يريد منا كاتبنا الموقر أن نؤمن بأن اللَّه سبحانه العادل يساوي بين النساء والرجال فِي العقوبة ولا يساوي بينهم فِي المَثوبة».

أقول: أنا لَم أقرر نقص المرأة عن الرجل اختراعًا واعتباطًا من عندي، وإنَّما استندت إلى كلام اللَّه رب العالمين، وعلى سنة رسوله سيد المرسلين وخاتم

النبيين ﷺ وعلى ما قرره علماء الإسلام، من فقهاء، ومحدثين، ومفسرين، فإن المرأة دون الرجل فِي الدنيا، وهي لا تساويه فِي الآخرة، وإنَّما تدخل ضمن جزاء الرجل كما دل على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

- **وذكرت فِي رسالتِي أن المَرأة دون الرجل فِي مواطن:**

منها: الشهادة، فإن شهادتَها على النصف من شهادة الرجل استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وعلى قول النَّبِي ﷺ مخاطبًا النساء: «**يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار.** فقلن: وبِمَ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: **تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن.** قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله؟ قال: **أليس شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل؟** قلن: بلى؛ قال: **فذلك نقصان عقلها، أليس المرأة إذا حاضت لَم تصل ولَم تصم؟** قلن: بلى. قال: **فذلك نقصان دينها**». متفق عليه.

ومنها: نقصانُها فِي الميراث؛ فميراثها على النصف من ميراث الرجل، بنتًا كانت أو أختًا أو أمًّا، أو زوجة، والآيات من سورة النساء واضحة فِي ذلك، وفِي ذلك أحاديث صحيحة.

ومنها: تفاوتهما فِي العقيقة؛ إذ يعق عن الغلام بشاتين ويعق عن الجارية بشاة واحدة.

ومنها: أن ديتها على النصف من دية الرجل.

ومنها: أنَّها لا تَملك حق عقد الزواج على نفسها وإنَّما يقوم بذلك ولي أمرها.

وعلى كل ذلك أدلة من السنة الثابتة الصحيحة عن النَّبِي ﷺ وبقيت أمور أخرى ذكرتُها فِي رسالتِي «**الحُقوق والواجبات على الرجال والنساء فِي الإسلام**».

وأما أنَّها دونه فِي الآخرة؛ فيكفي فِي ذلك النصوص الكثيرة فِي القرآن، أن المرأة تدخل ضمن جزاء المؤمنين المتقين فِي الدار الآخرة.

منها ما ذكرته فِي رسالتِي «**الحُقوق والواجبات**»، ومنها ما ذُكر فِي هذه

المناقشة، وأضيف الآن ما يأتي:

قال تعالى في جزاء السابقين المقربين: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-٢٤] الآيات.

انظر كيف ذكر الحور العين ضمن جزاء السابقين المقربين، فأي مؤمنة ترفض ذلك، وأن تكون من الحور العين كأمثال اللؤلؤ المكنون تعيش في جنات النعيم زوجة لأحد المقربين؟!

وقال تعالى في جزاء أصحاب اليمين وهم المقتصدون: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٢٧-٤٠].

انظر أيها المؤمن إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾.

ألا تؤمن بأن هؤلاء النساء قد تفضَّل الله بهن على عباده المؤمنين المخلصين، وجعلهن جزاء عمله الصالح مع ما ذكره في هذه الآيات من الإكرام والإنعام، وذلك لا يضر المرأة المؤمنة؛ لأنَّها في نعيم وإكرام؟!

وهل ترى أنه خير للمؤمنة الصادقة أن تكون في جنات النعيم منعمة مكرمة مع هؤلاء المنشآت في الجنة، أو أنَّها تركب رأسها وتستكبر على تشريع ربِّها وتعارضه بالسفسطات، راكضة وراء أقوام يدعون إلى النار، فتكون من أهل النار الَّتي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين؟

إنِّي أدعو المسلمين والمسلمات جميعًا إلى الالتزام بتشريع الله وحكمه في كل شأن من شئون الدنيا والدين.

وأدعو المرأة المسلمة إلى التمسك بدينها فِي جميع الشئون وخاصة تجاه دعاة تَحرير المرأة الذين يستدرجونَها إلى الانسلاخ من دينها وخلقها وعفتها وشرفها باسم حقوق المرأة وباسم المساواة بين الرجل والمرأة، وكأن القوم يرون أن الإسلام قد ظلمها وانتقص حقوقها.

وكذبوا، فوالله لا يوجد دين من الأديان أو قانون من القوانين أعطى المرأة حقها وكرمها فِي الدنيا والآخرة مثل الإسلام، لقد بسطتُ حقوقها وواجباتِها والذي لَهَا والذي عليها فِي رسالتِي «الحُقوق والواجبات على الرجال والنساء فِي الإسلام» فلترجع إليه المرأة المؤمنة لتعرف ما الذي عليها وما الذي لَهَا فيما يختلف فيه الناس هذه الأيام.

٧- قولُها: «فهو يسعى إلى أن يقنعنا بأن جزاء المؤمنات فِي الآخرة دون جزاء المؤمنين مهما عملن من الصالحات ومهما بلغ بِهن الفضل، ولا أدري كيف استطاع أن يقرر ذلك وعلى أي شيء استند فِي هذا الحكم».

أقول:

قد قررت فِي رسالتِي «الحُقوق والواجبات على الرجال والنساء فِي الإسلام» أن الحسنة عند الله بعشر حسنات سواء كانت من الرجل أو المرأة وبينت أيضًا أن النساء المطهرات يدخلن ضمن جزاء المؤمنين فِي الجنة، وسقت عددًا من الآيات فِي بيان هذا الأمر وهذا من تفضيل الرجل على المرأة.

كما أن للرجل عددًا من الزوجات فِي الجنة من زوجتين إلى سبعين كما ورد فِي السنة، والمرأة ليس لَهَا إلَّا زوج واحد، وهذا يبين فضل الرجل على المرأة وذلك من فضل الله، ولقد استندت إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما أنت فخاوية الوفاض فِي غاية الإفلاس ولا سند لدعواك من شرع ولا عقل.

وأقول: قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]. فلا تَمنين ما فضَّل الله به الرجال على النساء.

٨- وقولُها: «هل نفهم من قوله هذا أن نساءً مثل مريم وخديجة وفاطمة

وعائشة هن فِي الآخرة دون الرجال بسبب أنوثتهن؟».

أقول:

قد ذكرت أن الحسنة بعشر أمثالِها سواء صدرت من الرجل أو المرأة، وأذكر الآن أن جزاء السيئة سيئة مثلها سواء صدرت من الرجل أو المرأة.

وأقول فيمن ذكرتِ من النساء ما قاله الرسول ﷺ فِي فاطمة رضي الله عنها: «أنَّها سيدة نساء العالَمِين».

وأدين بِما قاله رسول اللَّه ﷺ: **«كَمُل من الرجال كثير، وكمل من النساء ثلاث: آسية امرأة فرعون، ومريم بنة عمران، وخديجَة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».**

اعترف لَهُن بِهذا الفضل لكن هذا العدد القليل من النساء اللاتي خصهن اللَّه بالكمال دون النساء من عهد آدم إلى يوم القيامة لا يهدم القاعدة الَّتِي قررها القرآن وقررتُها السنة، فالقواعد والأحكام لا تُبنَى على الأمور النادرة.

وأسألك: ما تقولين فِي تفضيل محمد ﷺ والأنبياء جميعًا على هؤلاء أتُسَلِّمين به أو لا؟.

بل ما رأيك فِي تفضيل الخلفاء الراشدين والعشرة المبشرين بالجنة على هؤلاء النسوة ما عدا مريم فإنِّي متوقف فِي أمرها وذلك لا يَخرم القاعدة؟ إن سلمتِ، سقط تَهويلك، وإن عاندت؛ فما ذلك بِمستغرب.

ثُمَّ أسألك عن هؤلاء النسوة: أليست كل واحدة منهن ستصبح زوجة لرجل من رجال الجنة؟ فعائشة لِمحمد ﷺ، وفاطمة لعلي رضي الله عنهما والباقيتان لابد لكل واحدة منهما من رجل واحد فقط، ولأزواجهن حق التعديد وهو واقع كما أخبر رسول اللَّه ﷺ.

ومن هنا يظهر فضل الرجل على المرأة ولو من هذه الناحية، بل هناك نواحٍ يفضل عليهن الرجل مثل الميراث والدية والشهادة.

وأنت لو دخلت الجنة فليس لك إلا زوج واحد ولزوجك حق التعديد؛ فقد تصل زوجاته إلى السبعين وستكونين راضية ومطمئنة ويكون قد تساقطت عنك كل

هذه الوساوس والخيالات الفاسدة.

٩- أما قولك: «وهل يريد منا كاتبنا الموقر أن نؤمن أن اللَّه سبحانه العادل يساوي بين النساء والرجال فِي العقوبة، ولا يساوي بينهم فِي المثوبة؟».

أقول:

إن الخلاف واسع جدًّا فلا تحصريه الآن فِي الثواب والعقوبة، فقد قررت قبل اعتراضاتك فِي رسالتِي «الحُقوق والواجبات» أن الحسنة بعشر أمثالِها سواء صدرت من الرجل أو المرأة.

وأقرر الآن جوابًا على سؤالك هذا أني أدين اللَّه بأن جزاء السيئة سيئة مثلها سواء صدرت من الرجل أو المرأة، فإذا كنت مقتنعة بكل الفوارق بين الرجل والمرأة الَّتِي قررها اللَّه ورسوله ودان بِها العلماء، ومنها القوامة القائمة على تفضيل الرجل على المرأة من جهة أنه رجل يَمتاز بصفات لا تشاركه فيها المرأة منحه اللَّه إياها الخلاق العليم الحكيم العدل، ومن جهة أخرى أنه ينفق عليها ويؤمّن لَهَا السكن ويؤمّن لَهَا مطالب أخرى إيمَانًا بقول اللَّه تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟﴾ [النساء: ٣٤].

إن سلمت بِهذا إيمَانًا بِهذا النص وغيره وبِما قرره اللَّه من الفوارق الأخرى؛ سقطت دعاوى المساواة، وإن لَم تُسلِّمي فانظري ما عندك من الإيمان؛ لأن الأمر خطير جدًّا فاللَّه يقول: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

وقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

* الحَادي عشر: قالت الكاتبة: «سادسًا: يستشهد الكاتب الفاضل بتفسير الشوكاني لقوله تعالى عن الإناث: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: ١٨]. حيث يقول: إن معنى ينشأ: يُربَّى، والنشوء: التربية، والحلية: الزينة، والمعنَى: أوَجعلوا له سبحانه مَن شأنه أن يربى فِي الزينة وهو

عاجز أن يقوم بأمور نفسه وإذا خوصم لا يقدر على إقامة حجته ودفع ما يجادله به خصمه لنقصان عقله وضعف رأيه .

وتفسير الشوكاني الذي يبرر عجز الإناث عن الإبانة وإقامة الحجة بنقصان العقل وضعف الرأي، يُمثل رأي الشوكاني وحده وهو رأي غير ملزم لأحد؛ فواقع الحياة يُبرهن على أن هناك نساء ناجحات فِي مواقع قيادية أو فِي المُحاماة أو غيرها من المناصب الَّتِي تقتضي وجود التفكير وقوة الحجة وبلاغة العبارة مِمَّا لا[1] يُنافِي قول الشوكاني بنقصان العقل وضعف الرأي فِي هذه المسألة، وإذا كان الشوكاني فهم الآية بِهذا المَعنَى الذي يناقضه واقع الحياة، فإن هناك من يفهمها على أنَّها وصف لواقع تنشئة كانت تعيشها النساء فِي تلك الفترة، حيث تنشأ النساء فِي عزلة عن خوض تجارب الحياة الَّتِي تكسب الإنسان الخبرة وتَمده بالصلابة والدراية والقدرة على المحاجة. فالآيات لا تنسب تلك الصفات فِي المرأة إلى فطرتِها الطبيعية، وإنَّما هي آيات تصف سمة اكتسبتها النساء بسبب التنشئة الَّتِي يتلقينها».

أقول:

١- إنِّي لَم أستشهد بكلام الشوكاني وإنَّما استشهدت بِهذه الآية من كلام اللَّه ﷻ الذي هو حجة قاطعة ملزمة، فلماذا عدلت عن قول: «استشهد بالآية» إلى قولك: «استشهد بكلام الشوكاني» أليست هذه مغالطة؟

٢- ليس الشوكاني وحده الذي فسر الآية بِهذا التفسير، بل كل المفسرين والمُحدثين والفقهاء معه فِي ذلك لا يخالفهم -فيما أعلم- إلا ابن زيد، الذي بينَّا أنه غير صحيح فِي رسالتِي «**الحُقوق والواجبات على الرجل والنساء فِي الإسلام**» ، وفِي مقدمة هذا البحث.

وحجتهم: هذه الآية كلام اللَّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وحجتهم: قول الرسول ﷺ عن النساء: «إنكن ناقصات عقل ودين».

(١) تريد هنا أن تقول: «مِمَّا ينافي»، لكن لنقصان عقلها جاءت هنا بالنفي في موضع الإثبات، ويحتمل أن يكون هذا من سبق القلم ولا يبعد ما أشرت إليه.

وحجتهم: الواقع التأريخي والحالي؛ فالمرأة هي المرأة، فما زالت تحيض وتحمل وتنفس وتعيش مع الأطفال والنساء؛ فهي ناقصة عقل ودين.

وقد فسر الرسول ﷺ نقصان الدين بتركها الصلاة والصيام أيام الحيض، وفي ذلك إشارة إلى توابعه من النفاس الذي قد يصل إلى أربعين وإلى ستين يومًا.

فإذا اجتمعت أيام الحيض في السنة فكم يفوتُها من الصلوات المكتوبات والنوافل، وكم يفوتُها في عمرها كله؟

وما مدى تأثير هذا المرض الشهري الذي يستغرق من كل شهر ربعه في الغالب؟

وإذا كانت تحمل كل سنة وتنفس، فهل ينكر أحد تأثير الحمل ومعاناته على جسم المرأة وعلى أخلاقها وعقلها وأعصابِها، يتلوه أيام ألَم النفاس الَّتي تحتاج إلى راحة منه لتستعيد صحتها، وهذه الأمور يعرفها العقلاء والأطباء؟

فمن يتجاهلها يشبه من يحاول أن يغطي السماء بالمنخل كما في المثل.

٣- إن هذه الآية تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهي كغيرها من نصوص القرآن والسنة صالحة لكل زمان ومكان، فهي على عمومها وشمولِها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لن يتغير معناها بتغير الحضارات تطورًا وهبوطًا.

فالمرأة هي المرأة حالُها وواقعها ما تضمنته هذه الآية الكريمة، فهي تنشأ في الزينة منذ القرون الأولى قبل نزول القرآن، وأيام نزوله، وإلى يومنا هذا وإلى أن تنتهي البشرية.

ألا ترين ويرى الناس أسواق الذهب مكتظة بأصناف الحلي، وأسواق الملابس مكتظة بالأزياء النسائية من الحرير ومن مختلف أنواع ما يُلبس، مِمَّا طوره الرجال الفجار ليعبثوا بالنساء المنحلات الناقصات العقل والدين؟

ألا ترين أن كثيرًا من النساء على مر الأيام يزددن هبوطًا وولعًا بأنواع الزينات؛ لكي يفتن الرجال ويثرن إعجاب الشباب المنحل، وشهواتِهم وغرائزهم الدنيئة؟

ألا يدل هذا الواقع الأسود على صدق هذه الآية، وأنَّها تنطبق على نساء القرن

الحادي والعشرين أكثر مِمَّا تنطبق على أهل القرون الأولى؟

٤- إن القول بِهذا النجاح المزعوم يصادم تشريعات الإسلام فِي كثير من أحكامه وعقائده، وقد يكون من ورائه رجال مكرة يتَّسمون بالدهاء، وقد يتخلله ضعف شديد يصاب به تلكم المصابات بِجنون العظمة من ضعف التفكير والتركيز.

وفِي أيام الحيض الذي يطرأ عليها فِي كل شهر وذلك يعادل ربع حياتِها العملية، فلابد أن يختل توازنِها ويضعف تفكيرها فتشبه حالها هذه حال أذكياء المَجانين الذين تأتيهم نوبات الجنون فلا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا إبان هذه النوبات.

أضف إلى ذلك ما يصيبهن من الوهن أيام معاناة الوحم والحمل والولادة والنفاس وذلك يأخذ وقتًا كثيرًا من حياتِهن، ولذلك كله آثار سلبية على حياتِها وأعمالِها، فكيف يوصفن بالنجاح وهذا واقع حياتِهن.

والرجل الذي يتولى مثل أعمالها ليس كذلك دون شك، فظهر الفرق الكبير بين الرجل والمرأة فيما يناط بِهما من أعمال قيادية أو محاماة أو غيرها شهريًّا وسنويًّا وعلى مستوى العمر العملي.

ودعنا من هذا وذاك وما لنا ولأعمال أناس لا يحسبون حسابًا للقاء الله والدار الآخرة.

فخير أعمال المرأة المسلمة وأنجحها أن تقر فِي بيتها وتتفرغ لتربية أبنائها وبناتِها على الأدب والأخلاق الإسلامية وأن تنشئهم على التدين الصحيح الذي يحميهم من الجهل والخرافات فيسدين إلى أنفسهن وأبنائهن وبناتِهن ومجتمعهن الإسلامي خيرًا كثيرًا.

بل يكنَّ قد أنشأن -بتوفيق الله- مجتمعًا إسلاميًّا راقيًا فِي دينه وأخلاقه وذوقه صدقًا وأمانة وشرفًا.

فإذا تركن بيوتَهن وأهليهن وأبنائهن فأي جيل ينشأ عن هذا الإهمال؟!!

أيها الفضلاء أترك لكم تصور واقع هذا الجيل.

ومن سنن الله الكونية: أنه قد فرق بين الذكور والإناث حتَّى فِي الحيوانات، فترى الجمل تظهر فيه القوة والشجاعة والبطش بِمَن يؤذيه إلى درجة القتل أحيانًا،

وتراه يرعى ويقود الإناث من الإبل فينقدن له ويخضعن له، ويتميز عن الأنثى بالهدير الذي يظهر فيه ذكوريته وليست الناقة كذلك.

وترى الثور يتميز عن البقرة بقوته وكبر قرونه وطولها، وتراه يخور ويناطح، ويُظهر قوته وشجاعته، وليست البقرة كذلك، بل تراها تخضع له وتنقاد.

ومن الغنم ترى التيس له معمعة وصولة وليس ذلك للإناث، والكبش يناطح، والتيس يتميز بطول قرونه وليس ذلك للإناث من الضأن والمعز.

والقرود يسيطر الذكور منها على الإناث، ودور الإناث الخضوع للذكور.

والديك يتميز عن الدجاجة بشكله وعرفه الجميل، وبصياحه في أوقات الصلوات وليست الدجاجة كذلك.

فظاهرة الفرق بين الذكور والإناث في هذه الحيوانات وغيرها ملموسة معروفة لدى الناس.

فهل دعاة المساواة سيحرضون الإناث من الحيوانات على المطالبة بالمساواة بين ذكورها وإناثها؟ وهل سيعارضون الله في التفريق بين الذكور والإناث في البشر وغيرهم؟

٥- لقد أكثرت من معارضة القرآن والسنة، وهذا يدل أنك تحملين فكرًا خطيرًا، ففي هذا الموطن بالذات عارضت آية وثلاثة أحاديث، فالآية هي أمام القارئ، وأما الأحاديث:

أ- فقوله ﷺ عن النساء: «**يا معشر النساء، تصدقن فإنِّي رأيتكن أكثر أهل النار. فقلن: وبِمَ يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن وتكفُرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُبِّ الرجل الحَازم من إحداكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المَرأة بنصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى. قال: فذلك نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لَم تصل ولَم تصم؟ قلن: بلى. قال: فذلك نقصان دينها**»[1].

---

(١) متفق عليه، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

ب- وقوله ﷺ: «رأيت النار فرأيت أكثر أهلها النساء يَكفُرن. قيل: أيَكفُرنَ بالله؟ قال: يَكفُرن العشير، ويَكفُرن الإحسان، لو أحسنت إلَى إحداهن الدهر ثُمَّ رأت منك شيئًا. قالت: ما رأيت منك خيرًا قط»[١].

وعند مسلم من حديث جابر: «لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير»[٢].

ج- حديث أبي بكرة ﷺ لَمَّا بلغ النَّبي ﷺ أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولّو أمرهم امرأة»[٣].

فهذه ثلاثة أحاديث من أصح الأحاديث وأثبتها عن رسول الله ﷺ تلقتها الأمة بالقبول إلى جانب الآية الكريمة، ومجموعها يدل على نقصان عقل المرأة ودينها، وكفرانِها للعشير وكفرانِها للإحسان وكثرة شكاتِها؛ دليل على نقصان عقلها ونقصان دينها.

أيتها المسكينة المتعالِمة؛ أمثلك يصلح لمعارضة القرآن والسنة وعلماء الأمة من مفسرين ومحدثين وفقهاء؟!

بل أمثلك يصلح لِمعارضة الشوكاني؟! بل أمثلك يصلح لمعارضة طالب علم؟.

والله لو جئت أنت والآلاف من دعاة تحرير المرأة وعلى رأسهم قاسم أمين وهدى شعراوي وسادتِهم من أعداء الإسلام من أوروبيين وأمريكيين ما صلحوا لمعارضة رجل واحد هو محمد بن عبد الله ﷺ فِي حديث واحد فضلًا عن معاندتِهم لرب العالمين.

٥- قالت هذه المتعالِمة: «فواقع الحياة يُبرهن على أن هناك نساء ناجحات فِي مواقع قيادية أو فِي المُحاماة أو غيرها من المناصب الَّتِي تقتضي وجود التفكير وقوة

---

(١) متفق عليه؛ من حديث عبد الله بن عباس ﷺ، البخاري فِي الحيض حديث (٢٩)، ومسلم فِي الكسوف حديث (٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم فِي العيدين حديث (٨٨٠).

(٣) أخرجه البخاري فِي المغازي حديث (٤٤٢٤)، وفِي الفتن حديث (٧٠٩٩)، وأحمد فِي المسند (٥/ ٢٥١) وفِي مواضع أخر، كما رواه الترمذي، والنسائي.

الحجة وبلاغة العبارة».

ونسألها: ما هي مقاييس النجاح عندك أهي إسلامية أم يهودية ونصرانية؟

وما دين هذه الناجحات؟ إن كن كافرات فكفرهن بالله وكتبه ورسله وبالإسلام خاصة من أقوى الأدلة أنَّهن لا عقول لهن ولا دين لهن؛ إذ لو كان لهن عقول لآثرن الإسلام على ديانتهن الكافرة بالله ورسله واليوم الآخر، ولَما آثرن الكفر على التوحيد والإيمان، فهن كما قال الله فِي الكفار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

وكما قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وإذا كن قد نجحن فِي أمور دنيوية فهذا بِمقاييس الكفر الباطلة.

ثُمَّ ما قيمة هذا النجاح وقد سقطن سقوطًا فظيعًا لا نظير له بإيثارهن الكفر على الإيمان والضلال على الهدى، وقد يكون عندهن من السقوط فِي الأخلاق المُحرمة فِي الأديان كلها ما لا يعلمه إلا الله، وما هو واقع بلدان هذه الناجحات عندك؟ ثُمَّ بعد هذا يقال: كم عدد هؤلاء الفاشلات اللاتي تصفينهن بالناجحات، وكم نسبتهن إلى البلايين من النساء فِي التأريخ الإنساني والواقع الحالي؟ فلو نَجحن نَجاحًا حقيقيًّا بِميزان الإسلام؛ لَما جاز لعاقل فضلًا عن مسلم أن يعارض بِهذا النجاح كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكلام رسوله الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

والأحكام لا تُبنَى على الأمور النادرة، وإنَّما تُبنَى على الأمور الغالبة والعامة.

ولقد نزل القرآن فِي عصر فيه نساء يتمتعن بالنجاح الحقيقي دنيا وعقلًا وذكاءً، فلم يعتد الله ورسوله ولا المؤمنون بِهذا النجاح؛ لأنه نادر لا ينبني عليه حكم، ومن تلك الناجحات خديجة، وعائشة، وفاطمة، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت عميس، وأسماء بنت أبي بكر، وأم سليم، وأم أيوب -رضوان الله عليهن- لقلة عددهن بالنسبة لأعداد النساء فِي العالِم ومنهن بنت كسرى وغيرها من نساء العرب والعجم اللاتي يجاوزن الملايين والآن البلايين.

فكيف تعتدين أنت وأمثالك بنجاح الفاشلات الساقطات فِي أعظم الامتحانات، ذلكم الفشل الذي يترتب عليه غضب اللّه وانتقامه الأبدي بالنار وبئس القرار؟! فلو كن عاقلات لتجنبن هذا الهلاك والمصير الأسود الذي لا تنقشع ظلمات نيرانه وجحيمه أبد الآبدين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

وبالمُقابل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨].

فاخشَي رَبكِ وكوني من هؤلاء ولو فِي آخر قافلتهم، واحذري طرق أولئك الهالكين، فإنِّي قرأت عنك من قبل قراءة بسيطة فرأيت من يتهمك بالعلمانية ورأيت امرأة وهي سهيلة زين العابدين تدفع عنك هذا الاتِّهام وفِي الوقت نفسه لَهَا عليك مؤاخذات، وإن أسلوبك هذا فِي التعامل مع القرآن والسنة ليقوي جانب التهمة.

وإنِّي لأنصحك بالتوبة إلى اللّه، التوبة الصادقة النصوح نصيحة مخلص يتمنَّى لك ولكل دعاة تَحرير المرأة الاعتزاز بالإسلام جملة وتفصيلًا، ويتمنَّى لكم السلامة من طريق البوار المؤدية إلى غضب اللّه وعذابه بالنار، كما يتمنَّى لكم الفوز برضا اللّه وجزاء المؤمنين الأبرار.

٦- أما قولك: «فإن هناك من يفهمها -تعني: الآية ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]- على أنَّها وصف لواقع تنشئة كانت تعيشها النساء فِي تلك الفترة، حيث تنشأ النساء فِي عزلة عن خوض تجارب الحياة الَّتِي تكسب الإنسان الخبرة وتَمده بالصلابة والذرابة والقدرة على المَحاجة.

فالآيات لا تنسب تلك الصفات فِي المرأة إلى فطرتِها الطبيعية، وإنَّما هي آيات تصف سمة اكتسبتها النساء بسبب التنشئة الَّتِي يتلقينها».

أقول:

أ- إن المرأة هي المرأة لن يتبدل حالُها، والآيات والأحاديث صالحة لكل زمان ومكان؛ لأنَّها صادرة عن الخلاق العليم بِما كان وما يكون أزلًا وأبدًا، فمن

المستحيلات أن يتبدل كلام اللَّه ولو عارضه الذين يريدون أن يبدلوا كلام اللَّه.

لقد انحلت المرأة وانفلتت وخالطت الرجال فِي الحضارة اليونانية والرومانية، بل وفِي الحياة الغربية الحالية، واكتسبت المرأة الحنكة والدربة... إلخ، فلم يخرجهن ذلك من مضمون الآية الكريمة، وكذلك ما تعيشه المنفلتات الآن فِي الحياة الأوروبية والأمريكية فلم يخرجهن عن مقتضى الآية والحديث، ولو بالغن فِي الانفلات فإنَّهن لن يزددن إلا سقوطًا وضلالًا وضياعًا للعقول والدين والأخلاق.

ومن هنا أنزل اللَّه لإنقاذ البشرية من هذا الانفلات المهلك فِي الدنيا والآخرة زاجرًا عن هذه الحياة الدنيئة قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ففضل اللَّه ورسوله للنساء القرار فِي البيوت، وشرع لَهُن الحجاب، وأمرهن بعبادته وطاعته وطاعة رسوله ﷺ، وهذه الحياة هي خير حياة وأرضاها للمرأة المسلمة؛ فهل ترضينها للمرأة المسلمة؟

ب- إذا كنت مسلمة صادقة فلماذا تعارضين القرآن والسنة وتركضين وراء كلام أعداء الإسلام وأذنابِهم؟ وأنا أعرف هذا الكلام من زمن بعيد، وإنَّما أنت مقلدة عمياء شأنك شأن النساء فِي التقليد الأعمى.

فكيف تركضين وراء هؤلاء فِي معارضة القرآن والسنة ومعارضة كلام علماء الإسلام وأئمته؟

أليس عملك هذا وأمثالك من النساء من أعظم الدلالات والآيات الكونية على مصداقية قول الله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]. وقول رسوله ﷺ فِي النساء: «إنكن ناقصات عقل ودين»، ولا يجاريهن فِي هذا المضمار إلا أشباه النساء الذين فقدوا رجولتهم وعقولهم وأخلاقهم.

* الثانِي عشر: قالت الكاتبة: «أخيرًا؛ ما الذي يضير الرجل فِي أن تكون المرأة ندًا له؟ اللهم إلا أن تكون الغاية أن يعيش الرجل حياة سلطوية يكون فيها وحده الآمر الناهي، أما أن يكون يرغب فِي اتباع الحق، فإن الحق ما جاء به رسول

الهدى الذي وصف النساء بأنَّهن شقائق الرجال».

أقول:

١- إن الضرر فِي هذا لكبير واضح جدًا، كيف والإيمان بِهذه الندية يصادم نصوص الكتاب والسنة وما عليه علماء الإسلام وأئمة المسلمين، وما أظن أن امرأة مسلمة ترضى هذه الندية؛ لأنه طعن فِي الدين وفِي الأمة وتأريخها المُشرق وانسياق وراء المنحلين من الأمم الكافرة.

٢- وقولك: «اللهم إلا أن تكون الغاية أن يعيش الرجل حياة سلطوية يكون فيها وحده الآمر الناهي».

أنت بين أمرين: إما أنك جاهلة جهلًا مطبقًا بالإسلام قرآنًا وسنة وفقهًا.

وإما أنك متمردة على تعاليم رب السموات والأرض وخالقها ومدبر أمرها بقدرته ومشيئته وحكمته.

فإن كنت متمردة فلا جدال معك من ناحية شرعية ولا عقلية، ومع هذا فأينما ذهبت فلن تَخرجي عن أوامر الرجال، بل والنساء بدءًا بشرطي المرور إلى مدير المدرسة ومدير الجامعة، وإن ظلمت أحدًا أو ظلمك فلابد أن تخضعي للمحكمة، ولن تستريحي من هذا التسلط إلا إذا ذهبت إلى جزيرة لا يسكنها البشر، ومع ذلك فقد لا تستريحين من تسلط الحيوانات بِها والوحوش الضارية.

وأما إن كنت جاهلة فاعلمي أن الله قد نظم هذا الكون قدرًا وشرعًا، فشرع نصب إمام للأمة يحكمهم بشريعته، ولابد لهذا الإمام من أعوان يساعدونه على تنفيذ هذه الشريعة الغراء، فينصب فِي المجتمع الإسلامي ولاة ووزراء وأمراء وقضاة ومحتسبين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وكل هؤلاء ولاة أمر يَجب عليهم تنظيم المجتمع والقيام فيه بضبط الأمن وبالعدل والحفاظ على حياة الناس وحماية أموالِهم وأعراضهم وحماية رقعة الإسلام.

وقد سَمَّاهم الله فِي كتابه ولاة أمر، وأمر المؤمنين -رجالًا ونساء- بطاعتهم فِي غير معصية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ

فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وللرسول الكريم توجيهات وأوامر كثيرة بطاعة أولي الأمر، ونواهٍ شديدة عن معصيتهم والخروج عليهم، أذكر منها حديثًا واحدًا؛ نظرًا لضيق المقام.

قال ﷺ: «من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصى أميري فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله».

فهذا تنظيم المُجتمع باختصار ولابد فيه من طاعة الرجال والنساء في غير معصية لمن أمر الله ورسوله بطاعتهم من ولاة الأمور، ولا يأنف من هذه الطاعة إلا أهل الجاهلية الفوضويين.

وكذلك نظم الله الأسر الَّتِي هي نواة المُجتمع، إذ لابد لهذه الأسر من آمرٍ وناهٍ قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤].

وقد فسرتُ هذه الآية ونقلتُ أقوال المفسرين في معناها في رسالتي «الحُقوق والواجبات».

فماذا تعني القوامة إذا كان لك عقل وإدراك؟، وما المراد بقول تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ في هذا السياق؟

هل يعني بذلك: الندية والمساواة المطلقة الَّتِي تطالب بها «د. عزيزة» ومن وراءها؟!!

وما معنَى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾، أليس المراد بالقنوت الطاعة لزوجها القائم على شئون الأسرة، وسيدها الذي منحه الله السلطة على زوجته وأسرته؟!

وقد اعترف محمد عبده وهو من رءوس دعاة تحرر المرأة برئاسة الرجل على المرأة.

وإذا نشزت وتمردت على أوامره فما المشروع في مواجهة هذا العصيان والتمرد؟ لقد شرع الله للزوج القوام أن يعظ هذه الناشز المترفعة على طاعة زوجها وأوامره، أن يعظها أولًا، وأن يهجر فراشها ثانيًا تأديبًا لَهَا ، فإن رجعت إلى صوابِها وتنازلت عن ترفعها المقيت فذاك، وإلا انتقل إلى تأديب آخر بحكم سلطانه عليها الذي منحه الله خالقه وخالقها وسيدهما، فشرع له ضربَها تأديبًا لَهَا ؛ لأنَّها وإن ترفعت وتطاولت لا تخرج عن منزلة الطفل الذي لابد له من آمرٍ وناهٍ ومؤدِّبٍ بالضرب وغيره.

وأقول: إن ترفعت عزيزة على زوجها فله الحق أن يؤدبَها بحكم سلطته المشروعة بالضرب وما ذكر في الآية، وليزداد القارئ فقهًا للحياة وفقهًا في سنن الله الكونية والشرعية، أسوق الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وهذا التفضيل اختبار وامتحان للعباد كما قال تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ فالمؤمن يرضى بقسمة الله ولا يرفضها ولا يسخطها، فقد يكون فقيرًا لا منصب له ولا جاه وفوقه بدرجات أغنياء وقضاة وأمراء ومدراء وسادة عشائر، فلا يسخط ذلك، بل يرضى بحكم الله الشرعي والكوني القدري.

والفاجر يتسخط ويتذمر -رجلًا كان أو امرأة- فلا يرضى بِحكم الله الكوني ولا بِحكمه الشرعي.

فأُحذر المؤمنات من الانجراف وراء الدعايات المسمومة والناشئة عن التمرد على الشرع والتذمر منه، ومن ذلك المناداة بتحرر المرأة وتحريرها من رق الإسلام كما يزعمون، وإن كانوا لذلك يخفون وبالإسلام يتسترون.

ولقد حذرنا رسول اللَّه ﷺ من الفتن الَّتِي هي من أشراط الساعة، ومنها فتنة النساء الَّتِي ينعق بِها دعاة تَحرير المرأة من رجال ونساء فقال ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن اللَّه مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنِي إسرائيل كانت فِي النساء».

وقال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء».

فما يقوم به بعض النساء من المناداة بالمساواة بين الرجل والمرأة إما جهلًا بالإسلام وإما تَمردًا على تعاليمه لهو فتنة عظيمة، من أعظم الفتن وأشدها.

وإنَّها لمقدمة خطيرة لفتن كقطع الليل المظلم لا ينتهي إلا بِهلاك الأمة دينًا ودنيا وأخلاقًا إلا أن يتداركهم اللَّه بلطفه وتوفيقه لهم بالعودة إلى كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ.

فعلى الأمة علماء وحكامًا وأولياء هؤلاء النساء أن يقوموا بحسم هذه الفتنة وتجنيب المسلمين عواقبها الوخيمة المردية للأمة فِي هاوية الانحطاط الأخلاقي والدينِي.

* **الثالث عشر**: قالت الكاتبة: «أما أن يكون يرغب فِي اتباع الحق، فإن الحق ما جاء به رسول الهدى الذي وصف النساء بأنَّهن شقائق الرجال».

أقول:

سبحان اللَّه تدعِين الرجل إلى اتباع الحق الذي جاء به رسول اللَّه ﷺ، بأسلوب يحصر الحق فيما وصف به النساء من أنَّهن شقائق الرجال، وتنسين نفسك فلا تأمرينها باتباع الحق الذي جاء به رسول الهدى فِي عشرات الآيات والأحاديث؟!!

والفرق بينك وبين من تأمرينهم؛ أنَّهم لَم يخالفوا هذا الحديث وأنت تخالفين العشرات من الآيات والأحاديث ولَم تفهمي هذا الحديث.

عجبًا لِهَذه المرأة الَّتِي تعارض كلام اللَّه وتعارض أحاديث الرسول الثابتة المشهورة المتلقاة من الأمة بالقبول، وتعلقت بحديث واحد فقط سلكت فيه مسالك أهل الزيغ فِي اتباع المتشابه والإعراض عن النصوص الْمُحكمات.

تعلقت به لتضرب به نصوص القرآن والسنة الواضحة فِي تقديم الرجال على النساء فِي ميدان الحقوق والواجبات، الأمر العادل الحكيم من رب السموات والأرض والذي لا تقوم الحياة إلا به، والذي يحسم الفوضى والهمجية، والانحلال الديني والخلقي لو قامت الحياة على خلافه.

وكما هو حال الأمم المعروفة فِي الدعوة إلى حرية المرأة، فأوصلهم ذلك إلى مشاكل اجتماعية وأخلاقية ونفسية وفوضى أسرية وشذوذ جنسي، الأمر الذي جعل مفكريهم يضجون ويتململون من هذه الحياة التعيسة، ويتوقعون الدمار لهذه الأمم الغارقة فِي أنواع الفساد والانحطاط.

أعود فأسأل هذه المرأة: هل هذا الحديث يقتضي الندية بين الرجل والمرأة بدءًا من ولادتِها؟ فلو ولدت امرأة توءمان -ذكر وأنثى- فهل يقتضي هذا الحديث المساواة والندية المطلقة بين هذين الشقيقين التوءمين؟ كلا؛ لأن هذا نص مجمل وهناك آيات وأحاديث صحيحة مفصلة مبينة تنص على الفرق بينهما بدءًا من هذه النقطة.

فهناك أحاديث تنص على أنه يعق عن الغلام بشاتين وعن الجارية بشاة، فإن سلَّمت بِهذا الفرق منذ الولادة سقطت مناداتك بالندية والمساواة.

وإذا مات أبوهما أو أمهما، فهل تُسلِّمين بِما نص عليه القرآن من أن للرجل مثل حظ الأنثيين؟ وإذا ماتت قبله ورث مالَها كله، وإن مات قبلها ورثت النصف فهل تُسَلِّمين بِهذا الفرق؟

وإذا تزوج شقيقها وماتت زوجته وليس لَهَا ولد ورث نصف مالها، وإذا تزوجت هذه الشقيقة وماتت قبل زوجها وليس لَهَا ولد ورث نصف مالها، وإن مات قبلها وليس له ولد ورثت ربع ماله. . . إلى آخر التفاصيل فِي الوارثين والوارثات الَّتِي نص عليها القرآن والسنة وفقهاء الأمة.

فهل تؤمنين بِهذا التفاوت بين الرجل والمرأة بنتًا كانت أو زوجة أو أمًّا أو أختًا؟ فإن سلمت بذلك؛ فقد سقطت دعواك وسقط استدلالك بِهذا الحديث.

وإذا قُتل الشقيقان خطأً فِي لحظة واحدة فقد شرع اللَّه على لسان رسوله ﷺ أن

دية المرأة على النصف من دية الرجل، وإن قُتلا عمدًا واختار أولياؤهما الدية فدية المرأة على النصف من دية الرجل، وإذا اختار القصاص فالنفس بالنفس، فيُقتل قاتل المرأة قصاصًا كما يُقتل قاتل الرجل.

وهذه صورة من الصور الَّتِي يتساوى فيها الرجل والمرأة فِي الحقوق والواجبات، ومنها: المساواة فِي التكاليف كالصلاة والصوم والزكاة والحج، وفِي الحقوق مثل حق التملك والشهادة فِي بعض المَجالات فِي الجملة؛ إذ شهادتُها تعدل نصف شهادة الرجل، وقبول أخبارها عند توفر شروط القبول فيها، والتصرف فِي المال، وهذه أمور لا ينكرها مسلم.

وهناك فروق بين الرجل والمرأة لا يَجوز أن ينكرها المسلم، ومنها: حق القوامة للرجل على المرأة وحقه عليها فِي الطاعة ما دامت فِي عصمته، فلا تخرج من بيته إلا بإذنه ولو إلى زيارة أبيها وأمها، ولو إلى المسجد، ولا يجوز لَهَا السفر مع محرم إلا بإذنه، ولا تأذن لأحد أن يدخل بيته إلا بإذنه.

ومن هذه الفروق: أن شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل.

ومنها: أن للرجل أن يتزوج أربعًا، وليس لَهَا أن تعدد الأزواج.

ومنها: الولاية على المرأة فِي عقد النكاح، فلا يَجوز لَهَا أن تعقد النكاح على نفسها ولا على غيرها، بل ذلك من حق وليها، فيعقد النكاح لنفسه وعلى مولياته من النساء.

فإن سلَّمت هذه المرأة -من منطلق إسلامي- بِهذه الفروق؛ سقطت دعاواها ومطالباتِها بالندية والمساواة، وسقط تعلقها بالحديث، ووجب عليها إعلان توبتها من هذه الفتنة العمياء الَّتِي افتعلها أعداء الإسلام وهي من أخطر المكايد الَّتِي حاكها أعداء الإسلام وتلقفها الخونة المنحلون من الإسلام وقذفوا بِها فِي أوساط الأمة الإسلامية فاشتعلت نيرانُها فِي بلدان المسلمين.

فترى الآن فِي كثير من بلدان المسلمين من الانحلال والتهتك المخزي الذي لا تستطيع أن تفرق فيه بين اليهودية والمسلمة ولا بين النصرانية والمسلمة ولا بين المَجوسية والهندوكية والمسلمة.

وقد رضي هؤلاء النساء المنحلات بالتبعية العمياء المخزية لعدوات وأعداء الإسلام فِي الوقت الذي ترفض فيه التبعية لزوجها المسلم .

وستنكر النساء الداعيات إلى التحرر والمساواة ورفض التبعية الَّتِي شرعها اللَّه أن يكن يقصدن الدعوة إلى مثل هذا التحلل .

فنقول : إن مثل هذه الحيل لا تنطلي على الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات الذين اطلعوا على بدايات هذه الدعوات ونِهاياتِها بالاختلاط فِي المدارس والجامعات ، ومخاصرة النساء للرجال فِي الشوارع ، وإلى الرقص الخليع العاري فِي المسارح والسينما والفضائيات ، إلى كتابات الداعرات فِي الحمامات تصف الواحدة جسمها من أم رأسها إلى قدميها بكل خسة ووقاحة .

وإلى أن وصل الأمر فِي بعض بلدان المسلمين إلى مناداة بعض النساء بجواز تعدد الأزواج ، وإلى القول بأن الإسلام قد ظلم المرأة ؛ وهذا إلحاد واضح كانت نواته دعوة قاسم أمين وهدى شعراوي ، ومعظم النار من مستصغر الشرر ، فهل من مستيقظ معتبر ؟!!

هذا وأعيد للأذهان بأني فِي رسالتي السابقة قد بينت ما يجب للرجل وعليه ، وما يجب للمرأة وعليها ، ولَم أحاب الرجل ولَم أظلم المرأة والحمد لله .

ولقد اطلع عليه بعض العلماء وطلاب العلم وقَرُّوا به عينًا ، وقد فرح به كثير من المؤمنات الصادقات .

واللَّه أسأل أن يطفئ هذه الفتنة ، وأن يتوب على من ينادون بِمخالفة تشريع اللَّه العادل مغلفين دعوتَهم بغلاف الإسلام ، وأن يأخذ بنواصيهم إلى الحق والخير وإلى الرضا والاطمئنان بِما شرعه اللَّه للنساء وقسمه لَهُن ، إن ربِّي لسميع الدعاء .

وصلى اللَّه وسلم على نبينا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمَعين .

كتبه الفقير إلى عفو ربه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

٢٥ محرم الحرام ١٤٢٥هـ

مكة المكرمة

فهرس الموضوعات

* * *